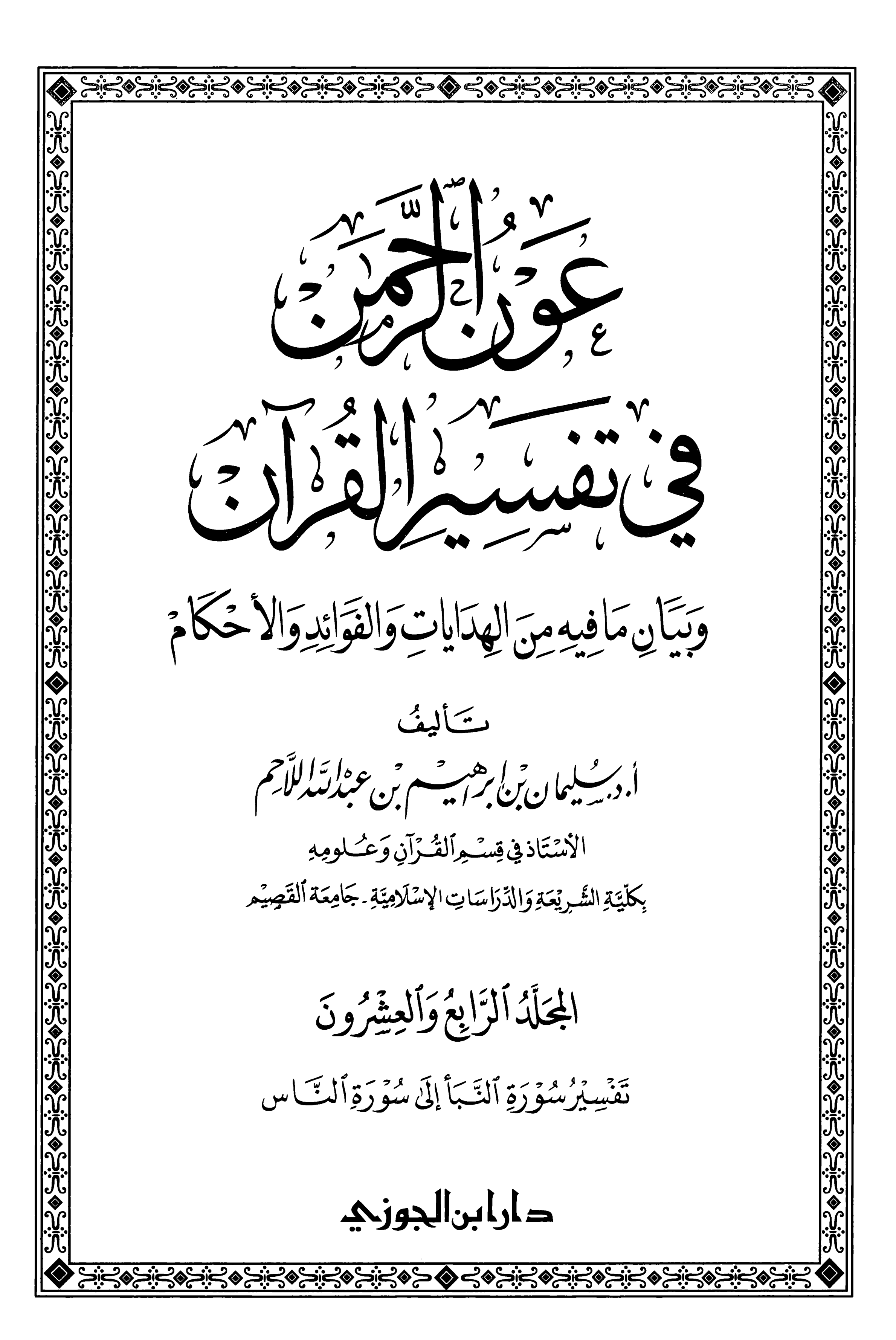


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبدالله اللاحم

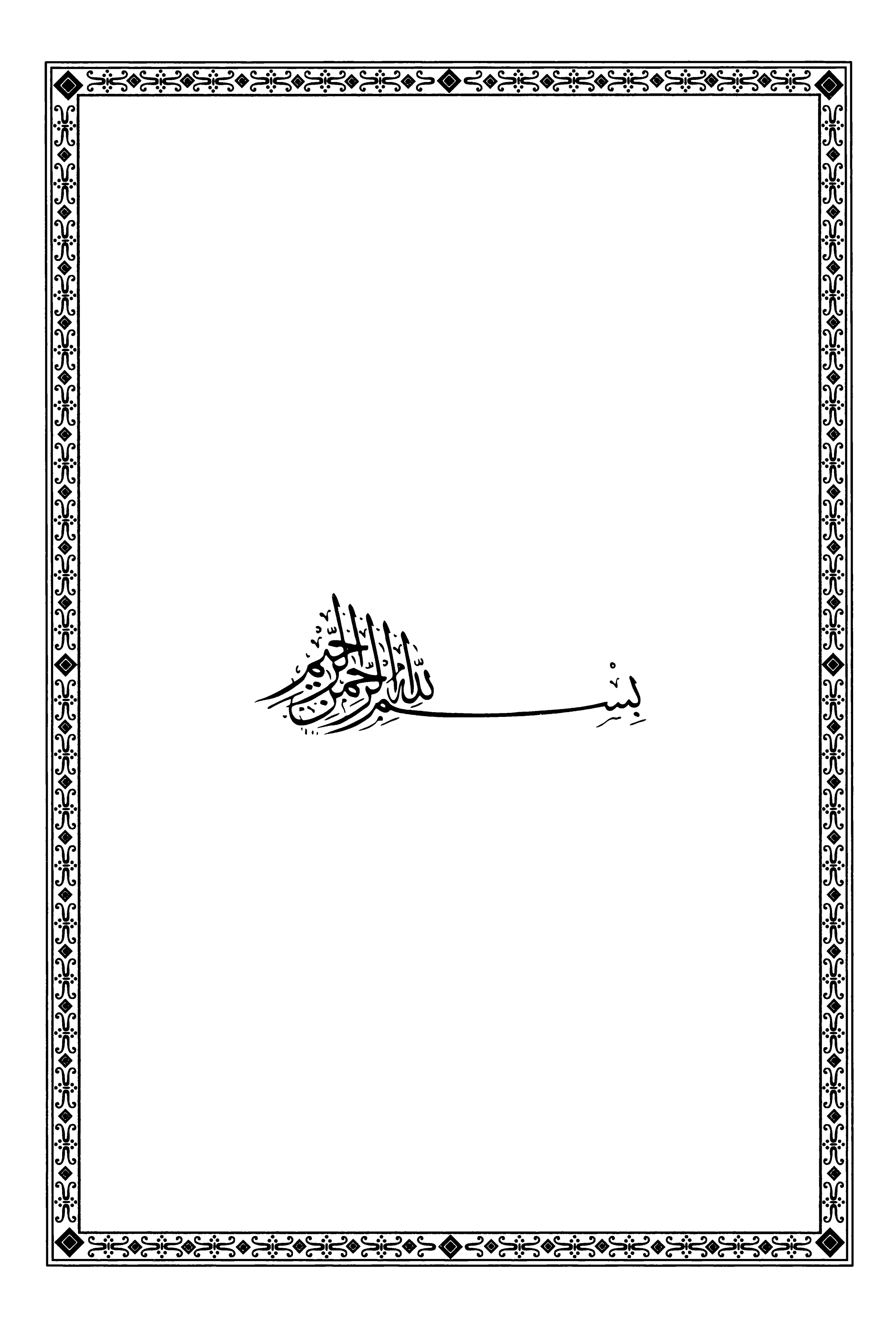
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

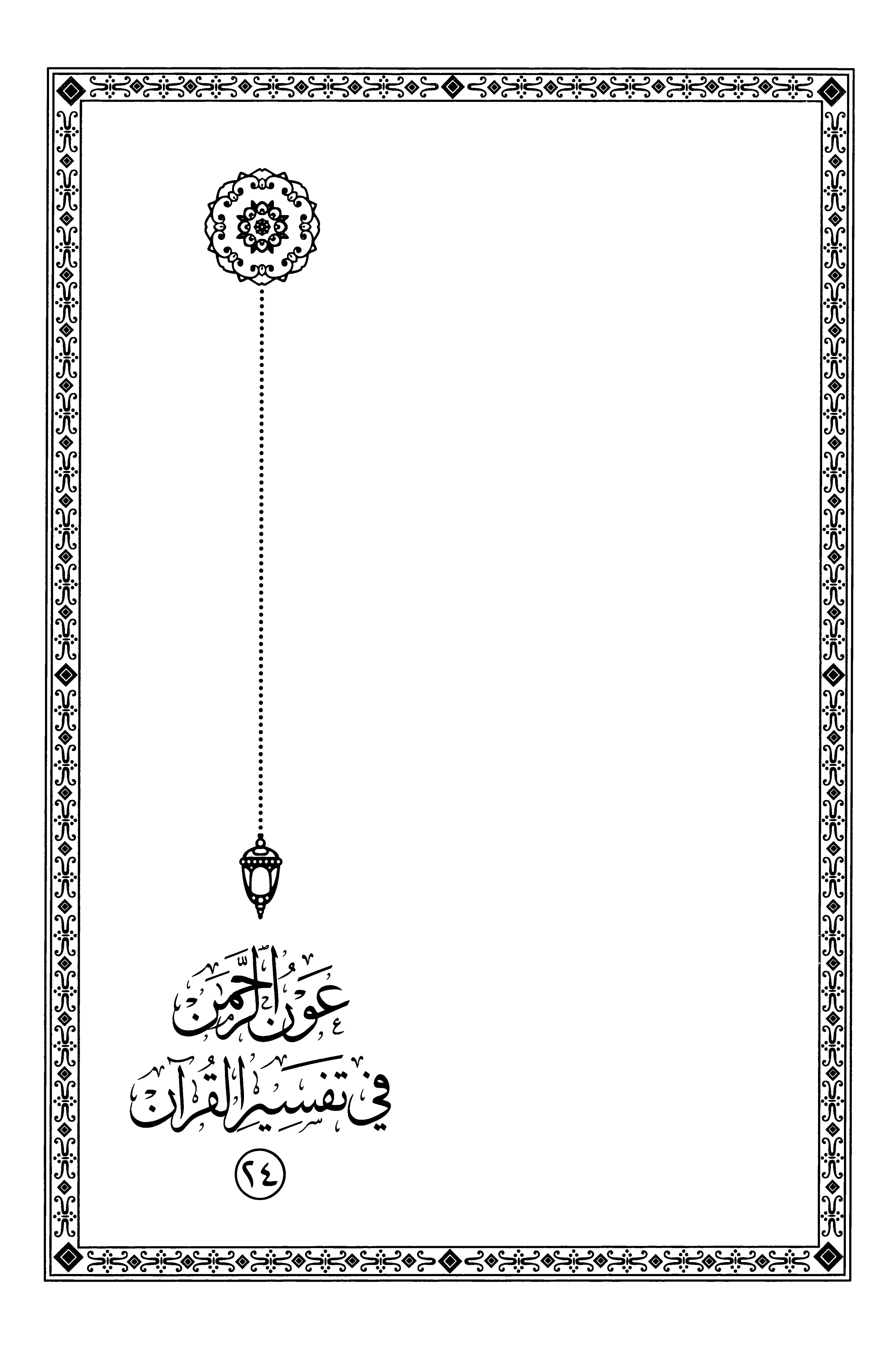
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع والعشرون

تفسير سورة النبأ إلى سورة الناس

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن في تفسير القرآن

(٢٤)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٣٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

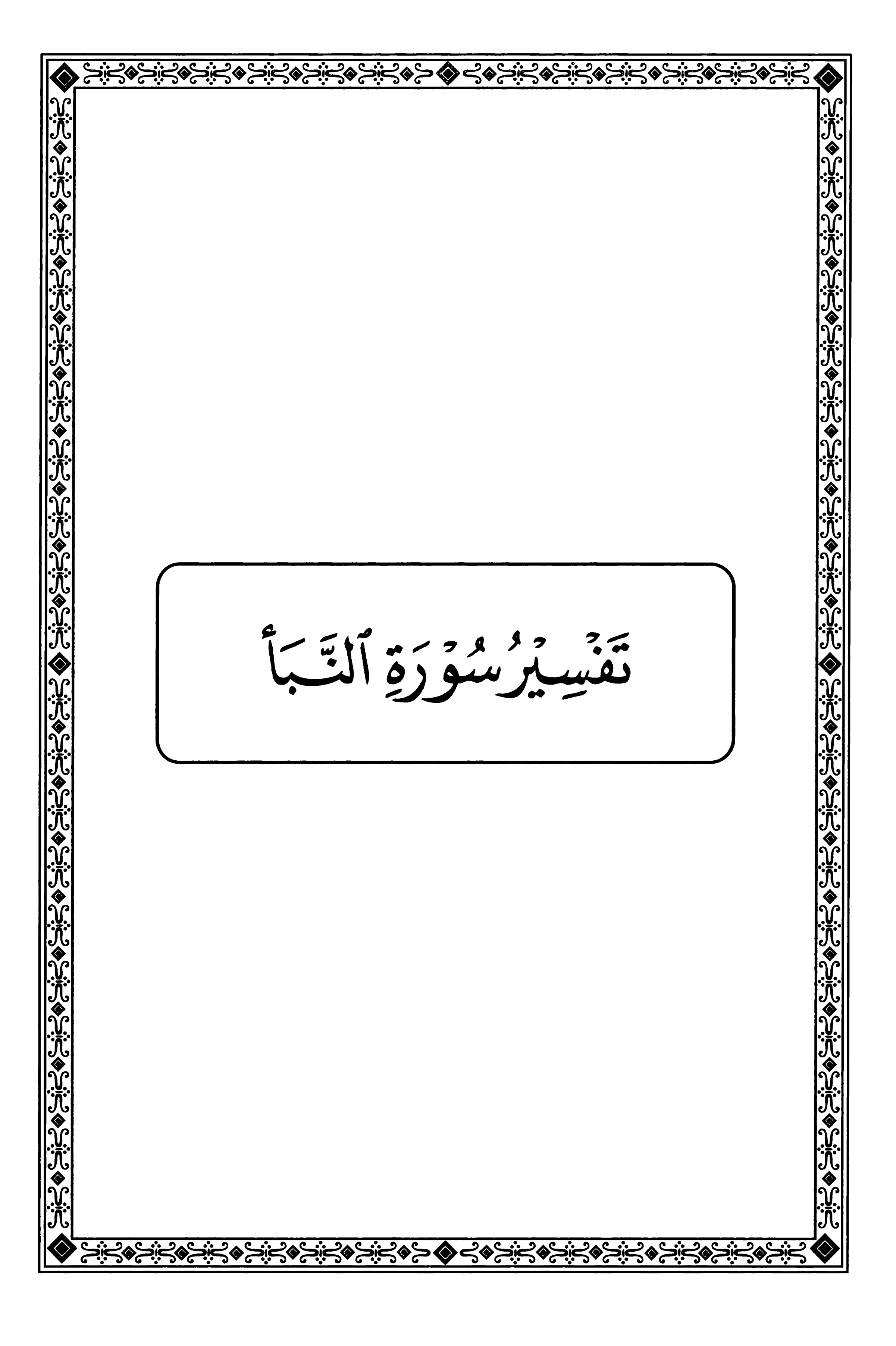
لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

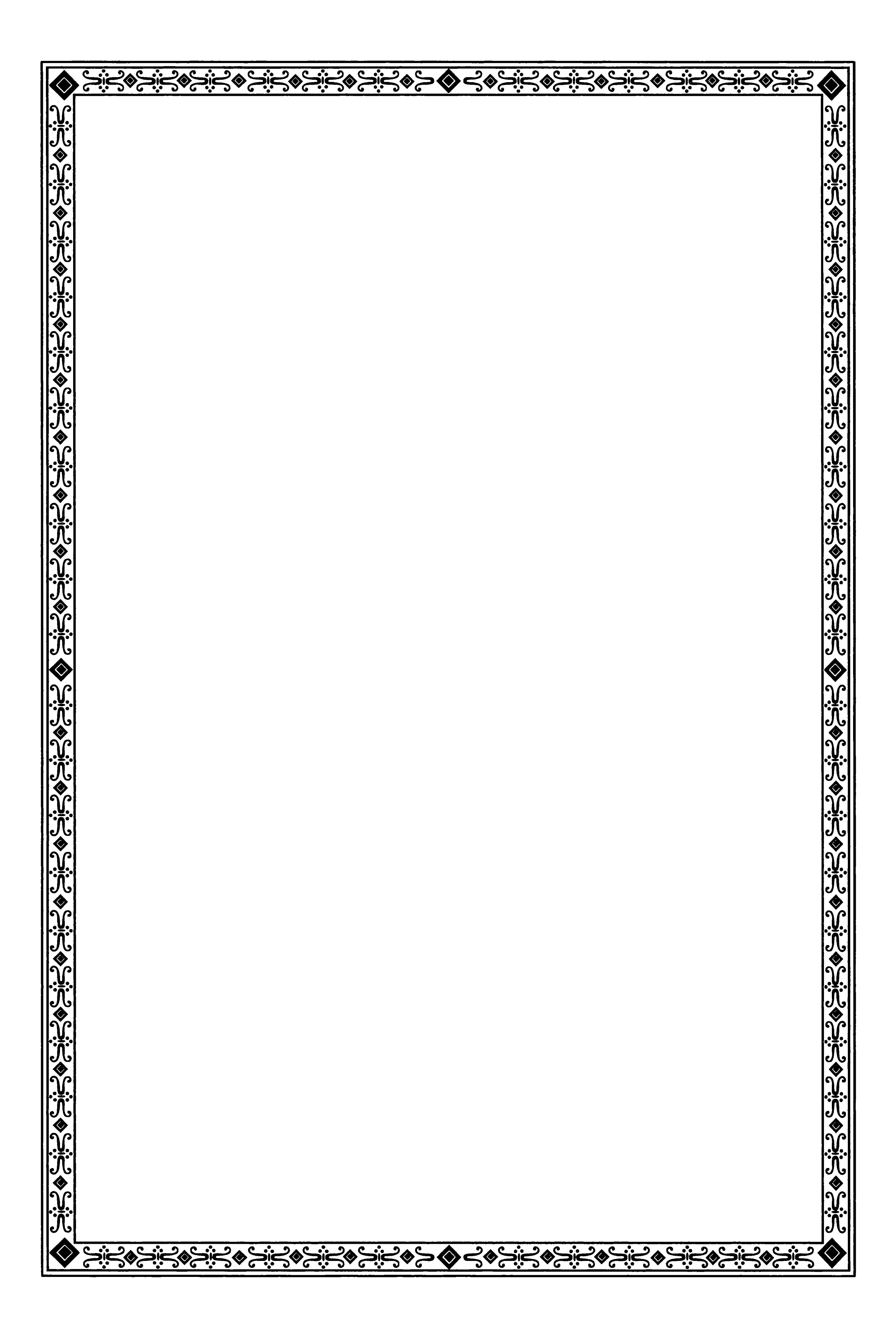
aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّبَأ



المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول أوساط المفصل. وسميت «سورة النبأ»؛ لافتتاحها بقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾.

وتسمى: «سورة عم يتساءلون»، و«سورة عم»، كما تسمى: «سورة التساؤل».

و «سورة المعصرات».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذِكر تساؤل المشركين عن النبأ العظيم الذي جاءهم به ﷺ من بعثته ﷺ ونزول القرآن عليه وتقرير أن البعث والحساب حق، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

٢- ذكر مظاهر تمام قدرة الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

٣- تهديد الطاغين بجهنم وطول لبثهم فيها، وشدة عذابهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾.

٤- إن الجزاء من جنس العمل: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾.

٥- بيان ما أعد الله للمتقين من المفاز والنعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

٦- تقرير عموم ربوبيته عز وجل، وسعة ملكه ورحمته، وقوة سلطانه وعظمته:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

٧- قيام جبريل والملائكة عليهم السلام بين يدي الله صفوفًا لا يتكلمون إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

٨- تأكيد مجيء يوم القيامة، والتحذير والإنذار من عذاب قريب، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

أرسل الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ وأنزل عليه الكتاب بالحق للدعوة إلى عبادة الله عز وجل، وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال فكذبه المشركون إنكارًا لما جاء به واستبعادًا للبعث بعد الموت، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم في ذلك، وفي هذا نزل قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل المشركون، أي: يسأل بعضهم بعضًا. وهذا استفهام أجاب عنه بقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: هم يتساءلون عن النبأ العظيم. والنبأ: الخبر الهام.

والمراد به ما دعاهم إليه النبي ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله- عزوجل، والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ «كلا» للردع والزجر، ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: تهديد ووعيد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين للرسول ﷺ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين سوء عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

قال أبو العتاهية(١):

ستعلم في الحساب إذا التقينا غدًا عند الإله من الملوم
سينقطع التروح عن أناس من الدنيا وتنقطع الغموم

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ هذا وما بعده إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ استدلال على كمال قدرته عز وجل وعظم آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسموات والشمس والسحاب والنبات وغير ذلك الدال على كمال قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء، وتذكير للعباد بنعمه؛ ليشكروه عليها.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: قد جعلنا الأرض مهادًا.

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، الأول: «الأرض»، والثاني: «مهادًا».

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين جعل شرعي، وجعل كوني، وهو المراد هنا.

ومعنى ﴿مِهَٰدًا﴾، أي: ممهدة مفروشة مبسوطة للخلائق مذللة لهم مستقرة ثابتة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣، الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: وجعلنا الجبال أوتادًا ثبتنا بها الأرض، وأرسيناها، حتى لا تضطرب وتميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:

---
(١) انظر: «ديوانه» ص٣٩٨.

١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الحجر: ١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

وقد ذكر أهل العلم أن هذه الجبال التي نشاهدها ثلثاها في عمق الأرض وثلثها فقط فوق الأرض.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أصنافًا ذكورًا وإناثًا، ليحصل التزاوج بين الذكر والأنثى، ويسكن كل منهما إلى الآخر ويأنس به ويستمتع، ويحصل بذلك التناسل وعمارة الكون.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: قاطعًا للتعب، تحصل به الراحة للجسم من عناء السعي في النهار في طلب المعاش، فإذا تعب الإنسان ثم نام استيقظ وقد زال عنه التعب ورجع إلى حيويته ونشاطه واستقبل يومه بجد كأنه ولد لتوِّه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣].

والنوم أخو الموت، وهو الموتة الصغرى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾، أي: ساترًا للكون ومغطيًا له بظلامه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، أي: يغشى الكون والخليقة بظلامه فيسكن فيه الناس.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: وقتًا للمعيشة والسعي والتكسب والحركة والعمل،

وذلك بطلوع الشمس فيه وإشراقه وإضاءته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن دلائل كمال قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه جعل الليل وقتًا للنوم، وجعل النهار وقتًا لطلب المعاش، كما قال تعالى مذكرًا بذلك ومخوفًا من زواله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾، أي: سبع سموات، كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿شِدَادًا﴾، أي: قويةً محبوكة محكمة رفيعة البناء واسعة الأرجاء، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وسمى سبحانه وتعالى خلق السموات بناءً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤]؛ لأنها سقف الكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، أي: وجعلنا سراجًا منيرًا وهي الشمس.

﴿وَهَّاجًا﴾، أي: يتوهج ضوؤها فتعم الكون بمنافعها بدفئها وحرارتها وضوئها وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟

فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ المعصرات: السحاب ينعصر منها المطر ويخرج من خلالها، ولا ينصب انصبابًا بقوة فيضر ما ينزل عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، أي: منصبًا بكثرة وغزارة وتتابع، قال ﷺ: «أفضل الحج العج والثج»(١)، والثج: إراقة وصب دماء الهدي.

وعن حمنة بنت جحش رضي الله عنها في حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكرسف» يعني أن تحتشي بالقطن، قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجًا(٢)، أي: صبًا متتابعًا كثيرًا.

ومع إنزاله عز وجل هذا الماء بكثرة وغزارة فهو مقدر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: ١١].

ولهذا سمي ميكائيل بهذا الاسم لأنه يكيل القطر.

وكل ما في باطن الأرض من المياه هو من ماء المطر كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: نحن الذين خزناه في الأرض، وقال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج ٨٢٧، وابن ماجه في المناسك ٢٩٢٤ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٨٧، والترمذي في أبواب الطهارة ١٢٨، وابن ماجه في الطهارة ٦٢٧، وأحمد ٦/ ٤٣٩.

فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نخرج بهذا الماء ﴿حَبًّا﴾، أي: أنواع الحبوب من البر والشعير والذرة وغيرها مما يأكله الناس والأنعام ويدخر، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَنَبَاتًا﴾، أي: خضرًا مما يأكله الناس والأنعام رطبًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين وحدائق ملتفة بأنواع الأشجار مختلفة الثمار في طعومها وروائحها وأشكالها وألوانها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٢٦- ٣١].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث واختلافهم في ذلك وتساؤلهم عنه إنكارًا له واستبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

٢- تعظيم أمر مبعثه ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل وتقرير أمر البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٣- الزجر والردع والوعيد والتهديد للمكذبين له ﷺ ولما جاء به من الوحي

والإخبار بالمعاد وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

٤- إثبات عظمة الله عز وجل، وقدرته الباهرة بذكر آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسماء والشمس والسحاب والنبات والاستدلال بذلك على قدرته عز وجل على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

٥- تقرير نعم الله عز وجل العظيمة على العباد بجعل الأرض ممهدة مبسوطة لهم وترسيتها بالجبال، وجعل الناس وسائر الحيوانات أزواجًا؛ ليأنس بعضهم ببعض، وجعل النوم راحة للأبدان، والليل وقتًا للسكون والراحة، والنهار وقتًا للمعاش، وخلق السموات السبع الشداد، وإنارة الكون بالشمس المتوهجة، وإنزال المطر من السحاب، وإخراج الحب والنبات وأنواع الجنات، إلى غير ذلك من النعم العظيمة، وكل واحدة من هذه النعم تستوجب الوقوف عندها والتأمل فيها وشكرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾.

زجر الله عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالبعث وتوعدهم وهددهم، وبين لهم بعض نعمه عليهم وعلى سائر الخلق ودلائل قدرته على بعثهم، ثم أتبع ذلك بتأكيد مجيء هذا اليوم الذي فيه يبعثون ويحاسبون، وتفصيل بعض أحواله وأهواله.

قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم الفصل: يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأن فيه الفصل بين العباد، بين الرسل وأممهم، وبين الناس فيما بينهم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه حتى إنه ليقتص في ذلك اليوم للشاة الجلحاء من الشاة القرناء(١).

وأخيرًا يفصل فيه بين أهل السعادة وأهل الشقاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾، أي: له وقت محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

وفي هذا كله تأكيد مجيئه وأنه آت لا محالة بوقته الذي حدده الله له وفي هذا رد على منكري البعث والمعاد مطلقًا، وعلى من دعا منهم بالعذاب واستعجله، كما قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾، أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور وهو «القرن» بأمر الله عز وجل النفخة الثانية، لقيام الناس من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهما نفختان الأولى نفخة الفزع والصعق والموت. والثانية: نفخة البعث والقيام للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن «القرن»، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين: أربعون»، قالوا: أربعون يومًا؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهرًا؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟، قال: «أبيت»، قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقلُ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»(٢).

وقوله: ﴿فَتَأۡتُونَ﴾، أي: فتحيون، فتأتون لموقف القيامة والحساب والعرض.

﴿أَفۡوَاجٗا﴾: جمع فوج، والفوج: الجماعة من الناس، أي: فتأتون جماعات جماعات كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة- ما جاء في شأن الصور ٢٤٣١ وقال: «حديث حسن». وأخرجه أحمد ٣/ ٧، ٤/ ٣٧٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «تفسير سورة عم يتساءلون» ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٥، وأخرجه مختصرًا أبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقون: «فتّحت»، أي: شققت السماء وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾، أي: طرقًا ومسالك لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾، أي: وسيرت الجبال العظيمة العالية بعد أن كانت راسية ثابتة لا تتحرك، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ السراب: ما يخيل للناظر أنه ماء، وليس بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩].

والمعنى: أن الجبال تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: ١٤].

فتسيير الجبال وكونها في الخفة كالعهن المنفوش وفي السرعة كمر السحاب ينتهي بذهابها واضمحلالها، وقد جمع هذين المعنيين، وهما التسيير وذهابها بالكلية قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧].

فانتهى تسييرها إلى اضمحلالها وذهابها بالكلية وكونها قاعًا صفصفا لا ترى فيها

عوجًا ولا أمتا، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة لا يحجبها شيء.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ «جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها، ومعنى ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي: مرصدة معدة مهيأة.

﴿للطاغين﴾، أي: للمتجاوزين حدود الله، بترك ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه، المتجاوزين الإيمان إلى الكفر، والعبادة التي خلقوا من أجلها إلى الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]

﴿مآبا﴾، أي: مرجعًا ومصيرًا ومأوى ومنقلبًا ومنزلًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ قرأ حمزة: «لبثين» بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ بالألف، أي: مقيمين فيها.

﴿أحقابًا﴾: جمع «حِقَب» والحِقَبُ: جمع «حِقْبَة» والحقبة: الدهر، والمدة الطويلة، وقيل: ثمانون سنة.

والمعنى: مقيمين في جهنم دهورًا ومددًا طويلة لا تنتهي ولا تنقطع؛ لأن المراد بالطاغين: الكفارُ المكذبون. والصحيح من أقوال أهل العلم وهو ما دل عليه القرآن الكريم في أكثر من آية أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾، أي: لا يجدون في جهنم بردًا تبرد به ظواهر أبدانهم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يذهب ظمأهم، وتبرد به أجوافهم

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، كقوله في سورة ص: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الآية: ٥٧].

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بتشديد السين، وقرأ الباقون

بتخفيفها: «وَغَسَاقا».

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن يذوقون حميمًا وغساقًا.

والحميم: هو الماء الحار الذي بلغ الغاية في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤)﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤].

والغساق: هو صديد أهل النار وعرقهم، في غاية النتن والكراهة، أو سائل من الزمهرير في جهنم في غاية البرودة والنتن والكراهة، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة: ٣٦].

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾، أي: هذا العذاب الذي صاروا إليه عقوبة لهم وفق أعمالهم السيئة، لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

لما ذكر ما أعد للطاغين المكذبين من عذاب جهنم وما لهم فيها من أنواع العذاب وفق أعمالهم السيئة ذكر الأعمال التي هي سبب تعذيبهم في هتين الآيتين ليتبين وجه الموافقة بين عذابهم وأعمالهم.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤملون ولا يعتقدون أن هناك معادًا وحسابًا، ولا يخافون المجازاة على كفرهم وطغيانهم؛ لأنهم يكذبون بالبعث بعد الموت وينكرونه، وهذا انحراف في العقيدة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾ [الفرقان: ٤٠].

ولهذا قال عز وجل للمؤمنين: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: وكذبوا بآياتنا الشرعية التي أنزلناها على رسلنا وأعظمها القرآن الكريم المنزل على أفضل الرسل محمد ﷺ وهذا انحراف في القول والعمل.

﴿كِذَّابًا﴾ مصدر من غير الفعل، أي: تكذيبًا عظيمًا.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من أعمالهم وأقوالهم وغيرها.

﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾، أي: ضبطناه وعددناه عدًا دقيقًا ﴿كِتَـٰبًا﴾، أي: كتابة، فعلمنا أعمالهم وأقوالهم كلها وغيرها وضبطناها عددًا وكتابة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَذُوقُوا۟﴾ وجّه الخطاب إليهم بعد أن كان بضمير الغيبة؛ لتأكيد توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم وإهانتهم، ومواجهتهم بذلك، أي: فذوقوا عذاب جهنم وحميمها وغساقها.

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي: فلن نزيدكم إلا عذابًا فوق عذابكم، كما قال عز وجل: ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، فهم في زيادة من العذاب مع أنهم يطمعون بالتخفيف كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩].

وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وما فيه من توبيخ وتقريع وتبكيت عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي.

ولهذا رُويَ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا»[1].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة وأن له وقتًا محددًا لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.

٢- الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

٣- إثبات النفخ في الصور؛ لحياة الخلق وبعثهم وقدومهم على الله عز وجل للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

٤- شدة أهوال يوم القيامة من النفخ في الصور، وفتح السماء وانشقاقها وانفطارها، وتسيير الجبال واضمحلالها وأعظم ذلك وأشده جهنم المرصدة المعدة الآن مآبًا للطاغين لا خروج لهم منها لا يذوقون فيها إلا الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

٥- التحذير من الكفر والطغيان، والوعيد الشديد والتهديد الأكيد بجهنم والخلود فيها وشدة عذابها للطاغين المكذبين بالآيات والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ الآيات.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يظلم ربك أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٦.

٧- إحصاء الله عز وجل لجميع أعمال العباد وكتابتها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾.

٨- الجمع للمكذبين بين العذاب المعنوي للقلوب، والعذاب الحسي للأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للطاغين المكذبين من العذاب المعنوي والحسي أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين من النعيم المعنوي والحسي؛ لأن القرآن الكريم مثاني، فيه الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ ليجمع الإنسان في سيره إلى الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد ونصب، و«المتقين» الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿مَفَازًا﴾، أي: فوزًا، ونُكِّر: للتعظيم، أي: مفازًا عظيمًا.

والمفاز والفوز: النجاح والفلاح والسلامة من المرهوب والظفر بالمطلوب، النجاة من النار والفوز بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١].

وقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: فلا تحسبنهم بمنجاة من العذاب. ففي المفاز والفوز نجاة من

العذاب، وحصول الثواب، كما قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥)﴾.

هذا تفسير لقوله: ﴿مَفَازًا﴾ وتفصيل لما أعد الله للمتقين من أنواع النعيم.

﴿حَدَآئِقَ﴾، أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة متنوعة من النخيل والرمان وغيرها كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ [الرحمن: ٦٨].

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ جمع عنب، وخص الأعناب بالذكر؛ لمزيتها وفضل ثمرها من بين الأشجار.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾: جمع كاعب، أي: ونساء كواعب من الحور العين، أي: نواهد، ثديهن كالرمان مستديرة، بقدر قبضة اليد، ولم يتدلين إلى أسفل.

﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سن واحدة سن ثلاث وثلاثين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٧].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أي: وكأس خمر مملوءة صافية متتابعة.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، أي: لا يسمعون في الجنة ﴿لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لاغيًا باطلًا، لا فائدة فيه.

﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بتشديدها.

أي: لا يسمعون فيها تكذيبًا وإثمًا، فلا يَكْذبون، ولا يُكَذِّب بعضُهم بعضًا ولا يُكْذَب عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦)﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾ [مريم: ٦٢].

ولهذا سماها الله عز وجل دار السلام، فقال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات ومن كل عيب ونقص.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ إلى كأس الخمر، فيكون المعنى: لا يسمعون بسببها ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ كما في قوله تعالى في سورة الطور ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٦]، أي: لا تغتال العقول

فتذهبها.

﴿جَزَآءً مِن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا المفاز الذي جعله الله للمتقين وما فيه من ألوان النعيم مجازاة وإثابة لهم على تقواهم.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي: عطاء كثيرًا وافيًا كافيًا محاسبة لهم على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦].

وأيضًا: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي: محسوبًا مقدرًا، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨].

وينبغي أن يُلحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاغين ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ وبين قوله هنا ﴿جَزَآءً مِن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ففي مجازاة الطاغين يكون الجزاء موافقًا لأعمالهم عدلًا منه عز وجل، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفًا لهم، وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلًا منه عز وجل.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿رَّبِّ﴾ بخفض الباء، وقرأ الباقون برفعها.

أي: خالق ومالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم بخفض النون، وقرأ الباقون برفعها، وهو صفة لرب على القراءتين فيهما، أي: الذي اسمه الرحمن، وصفته الرحمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

و«الرحمن» على وزن «فعلان» يدل على اتصافه عز وجل بالرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة خاصة بأوليائه المؤمنين ورحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهيمهم، بها شمل سبحانه جميع خلقه بنعمه وإحسانه وأمدهم بفضله، كما قال عز وجل: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أي: لعظمته وجلاله لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الفوائد والأحكام:

١ - أن القرآن الكريم مثاني يجمع فيه بين الترغيب والترهيب؛ لذكره عز وجل ما أعد للمتقين بعد ذكر ما أعد للمكذبين.

٢- وعد الله عز وجل المتقين بالفوز العظيم، بالنجاة من النار، ودخول الجنة والتمتع بما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾.

٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها.

٤- الجمع لأهل الجنة بين حصول النعيم من البساتين والحدائق والأعناب والكواعب والخمر وغير ذلك، وبين السلامة من الأذى والمنغصات والمكدرات من اللغو والكذب ونحو ذلك.

٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ الآيات فقدَّم المفاز وهو النجاة على ذكر أنواع النعيم.

٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته عز وجل الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٧- عظم جزاء المتقين عند ربهم وأن الله عز وجل هو الذي تفضل به عليهم بسبب تقواهم لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

٨- أن الأعمال إنما هي سبب للفوز بالجنة والنجاة من النار وليست عوضًا عن ذلك.

٩- أن كل عطاء فهو من الله عز وجل، وهو مقدر محسوب لقوله تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١١- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن» وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

١٢- إثبات العظمة والجلال لله عز وجل، وأنه لا يقدر أحد على مخاطبته إلا بإذنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

١٣- في تقديم قوله: «الرحمن» على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ما يشير إلى أن رحمته عز وجل سبقت غضبه، كما جاء في الحديث[1]، وأنه عز وجل إلى العفو أقرب منه إلى الانتقام.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الروح: هو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

وخص جبريل بالذكر من بين الملائكة؛ لقربه من الله وعظم منزلته وشرفه؛ لأنه الموكل بالوحي، وعطف الملائكة عليه من باب عطف العام على الخاص، كما عطفه عليهم في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

ويحتمل أن المراد بالروح بنو آدم؛ لأن الله أوجد فيهم الأرواح.

والأول أظهر، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فالملائكة وبنو آدم كلهم سيقومون صفًا بين يديه عز وجل لا يتكلمون.

﴿صَفًّا﴾، أي: صفًا واحدًا، أو مصطفين صفوفًا.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: لا أحد يتكلم منهم؛ تعظيمًا لله عز وجل، وهيبة منه، كقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا من أذن له الرحمن سبحانه بالكلام فإنه يتكلم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: وقال قولًا صوابًا، أي: حقًا. قال ﷺ: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»(١).

وقال بعض المفسرين ومن ذلك قول: لا إله إ لا الله، ومن ذلك الشفاعة لمن أذن الله له أن يشفع حسب ما أذن فيه تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٦، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: المحقق الوقوع، الكائن لا محالة، اليوم الحقيقي الذي يظهر فيه الحق تمام الظهور، ويقوم فيه العدل، والذي يستحق ويجب أن يستعد له تمام الاستعداد.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، أي: فمن شاء جعل إلى ربه مرجعًا ومنقلبًا وطريقًا يؤدي به إلى مرضاة الله عز وجل، وذلك بسلوك طريق الحق والهدى، المؤدي إلى الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وفي الآية إثبات المشيئة للعبد؛ لكنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

والمراد بالمآب هنا: المآب الخاص، مآب أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين.

وإلا فإن الناس كلهم آيبون وراجعون إلى الله عز وجل ومصيرهم إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٤٣].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، أي: حذرناكم وخوفناكم بما أنزلنا من الكتب وعلى ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب يوم القيامة؛ لأنه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، ومن مات قامت قيامته، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، فآخذ كتابه

بيمينه وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، فيرى كل امرئ الذي قدمته يداه، أي: جميع أعماله من خير أو شر، مما بطشته يداه، أو مشت إليه رجلاه أو تكلم به لسانه، أو انطوى عليه جنانه، وكل ما عملته جوارحه الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فقدم أخي المسلم خيرًا تجده غدًا، واحذر من ضد ذلك قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(١)].

وهذا ما عناه لبيد بقوله[(٢)]:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع

وقال الآخر:

فلم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[(٣)]

وقال الآخر:

قدم لنفسك توبة مرجوّة ... قبل المات وقبل حبس الألسن[(٤)]

بادر بها غَلَقَ النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٣) هذان البيتان لابن هاني انظر «ديوانه» ص١٤٠.

(٤) البيت لمحمود الوراق. انظر: «ديوانه» ص١٩٣.

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له … فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[(١)]

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح … فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح[(٢)]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار … أفرس تحتك أم حمار[(٣)]

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، أي: يتمنى الكافر ويود حين ينظر إلى أعماله السيئة، ويرى عذاب الله تعالى وأهوال ذلك اليوم أنه كان في الدنيا ترابًا لم يخلق ولم يوجد، أو أنه لم يبعث.

وذلك حين يقضى بين البهائم، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[(٤)]، ثم يقال لها: كوني ترابًا. فحينئذ يود الكافر أن لو كان ترابًا مثلها، ولكن هيهات ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى وهيبته وجلاله، وقيام الروح والملائكة بين يديه صفًا لا يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾.

٢- فضل جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

٣- خضوع جميع الخلائق لله عز وجل يوم القيامة، وقيامهم بين يديه صفوفًا؛ لقوله تعالى: ﴿...يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

٤- عدم قدرة أحد في ذلك اليوم على الكلام- هيبة من الله عز وجل وتعظيمًا له

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «التمثيل والمحاضرة» ص٣٤٥، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤، «زهر الأكم» ٣/ ٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وإجلالا- إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

٥- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٧- أن يوم القيامة محقق الوقوع، كائن لا محالة، به يظهر الحق تمام الظهور، وهو اليوم الذي يستحق بل يجب أن يستعد له تمام الاستعداد؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

٨- إثبات المشيئة للعبد، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما تقوله المبتدعة الجبرية لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لمن تاب وأناب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

١٠- الترغيب في سلوك الطريق المؤدي إلى مرضاة الله عز وجل.

١١- أن المرجع والمآب إلى الله عز وجل.

١٢- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم وإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

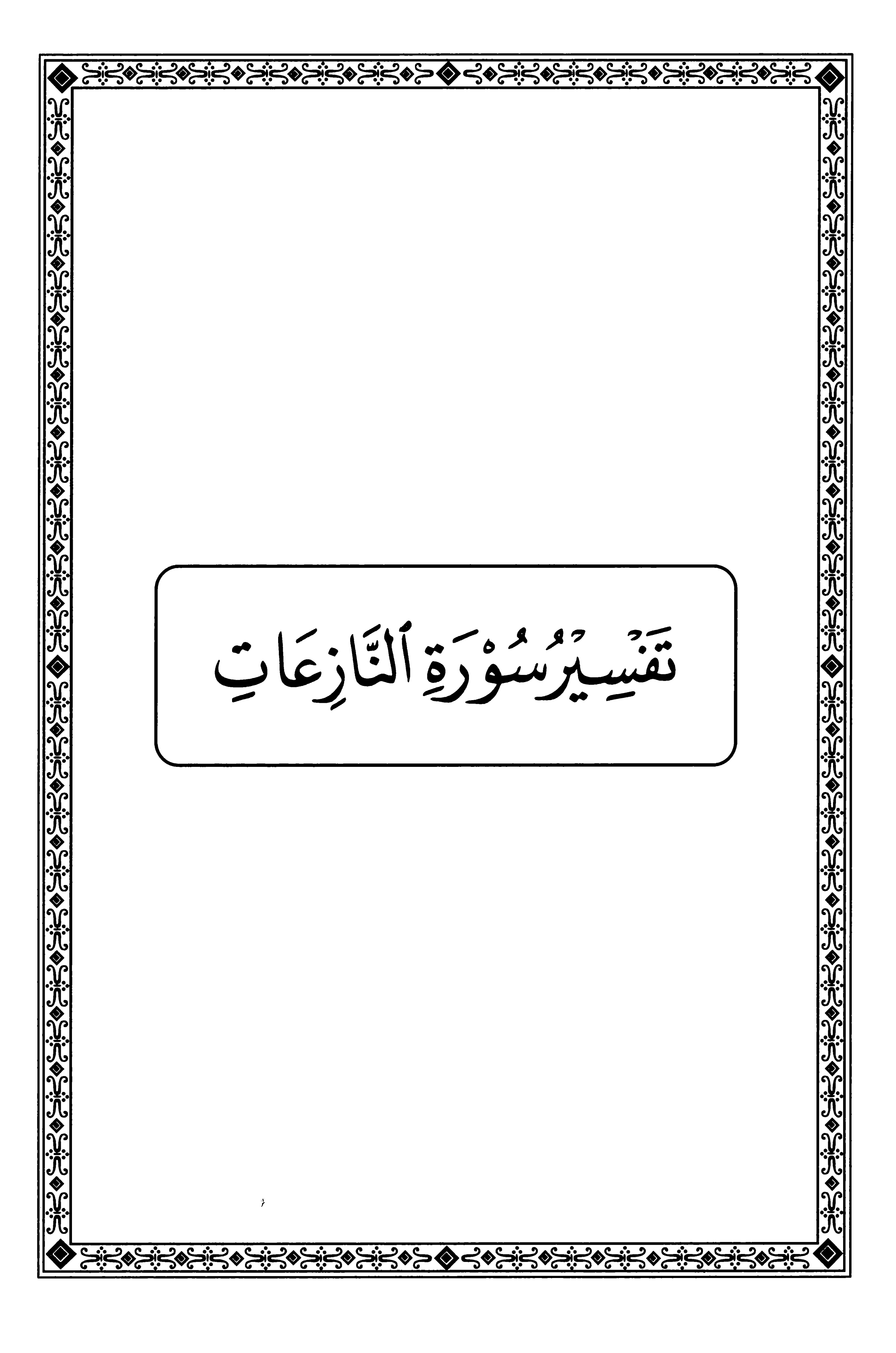
١٣- قرب القيامة وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

١٤- رؤية الإنسان يوم القيامة لكل ما قدم من خير أو شر، قليلًا كان أو كثيرًا ومحاسبته ومجازاته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

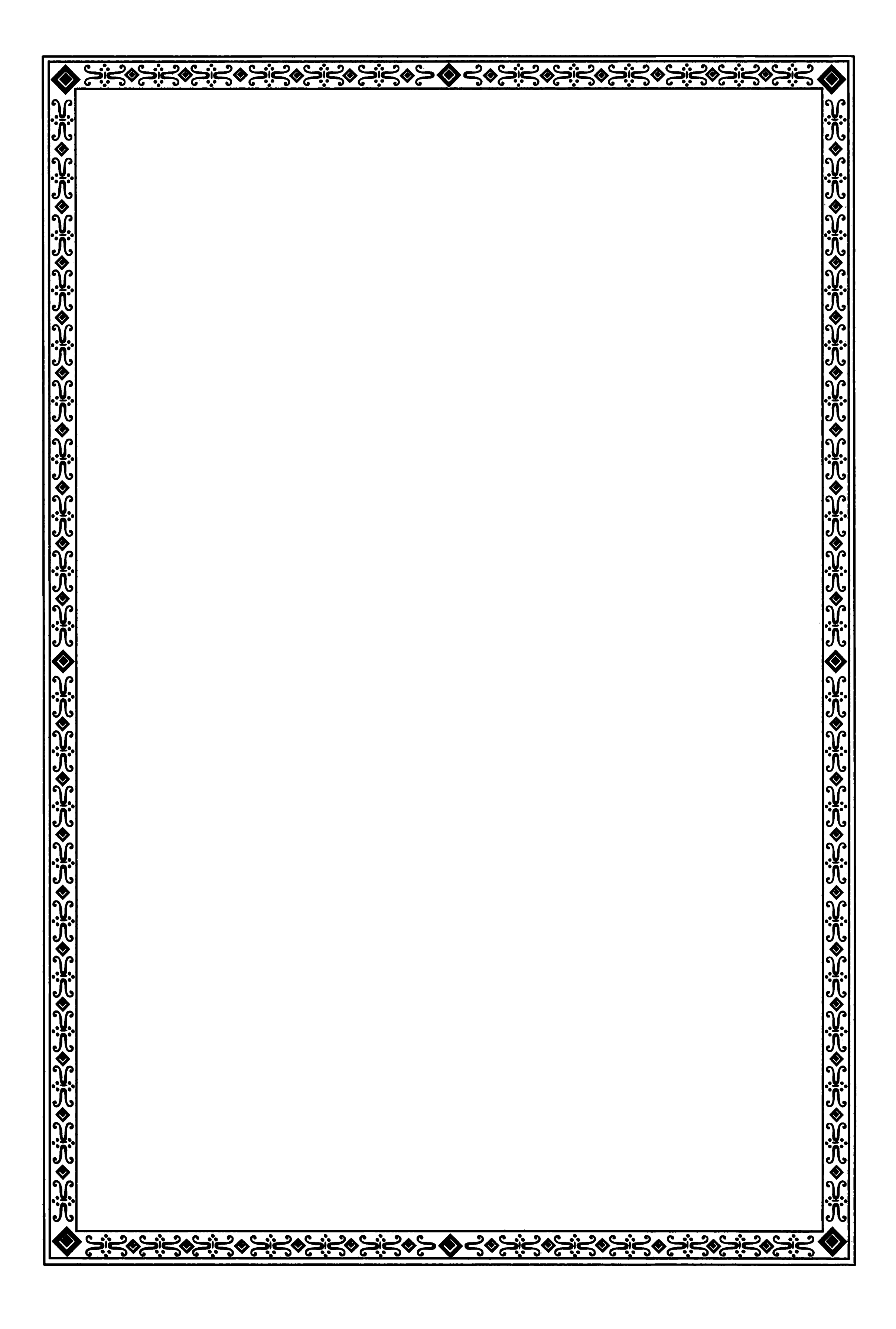
١٥- تمني الكافر في ذلك اليوم عندما يرى العذاب والأهوال كونه ترابًا؛ لقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ ليسلم من ذلك وهيهات أن يحصل له ذلك.

١٦- الترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر.

* * *



تفسير سورة النازعات



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة النازعات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾.

وتسمى: «سورة الساهرة»، و «سورة الطامة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- إثبات وتأكيد البعث والقيامة، وشدة أهوالها: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

٢- ذكر حديث موسى إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى، وأرسله إلى فرعون، وتكذيبه له وإهلاكه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾.

٣- ذكر دلائل قدرته على البعث ومظاهر نعمته: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾.

٤- تذكّر الإنسان سعيه في ذلك اليوم العظيم، وإبراز النار يراها الناس في ذلك الموقف العظيم، ومأوى من طغى وآثر الحياة الدنيا إلى الجحيم، ومأوى من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى إلى جنات النعيم: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾.

٥- ذكر سؤال الناس له ﷺ عن الساعة وبيان أن علمها إلى الله تعالى، وما مهمته

ﷺ إلا إنذار من يخشاها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ الواو حرف قسم وجر، و«النازعات» وما عطف عليها مقسم به، أي: أُقسم بالنازعات.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: الملائكة تنزع أرواح بني آدم من أجسادهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿غَرْقًا﴾، أي: نزعًا بشدة وعنف وهذا بالنسبة لأرواح الكفار؛ لأنها إذا دعتها الملائكة للخروج تفرقت في الجسد فَتُغرق الملائكة في نزعها بشدة وعنف وتُنتزع من الجسد كما يُنتزع السَّفُّود [(١)] من الصوف المبلول، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول»[(٢)].

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ الواو: عاطفة، والناشطات: الملائكة، تنشط أرواح المؤمنين، أي: تسلها برفق ولين ويسر وسهولة وسرعة وخفة، فتخرج روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه.

وسميت الملائكة الناشطات أخذًا من الأنشوطة، وهي العقدة والربط الذي ينفك

---

(١) السَّفُّود: بالتشديد حديدة ذات شعب معقفة معروفة يشوى بها اللحم.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧ – ٢٨٨، ٢٩٦.

بسرعة وسهولة، بمجرد سل أحد طرفيه.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: الملائكة تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، والأفلاك في السماء، كما قال تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وتسبح بأمر الله عز وجل، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ الفاء: عاطفة، أي: الملائكة تسبق وتسرع إلى فعل ما أمرت به، لا تبطئ عنه، ولا تتأخر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله بتدبيره من أمور الخلق، فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالمطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأرواح، ورضوان موكل بالجنة، ومالك موكل بالنار، ومنهم حملة العرش، وخزنة النار والموكلون بحفظ العباد وكتابة أعمالهم وغير ذلك.

فأقسم عز وجل بالملائكة في أوصافها الخمسة، وهي نزعها لأرواح الكفار، ونشطها لأرواح المؤمنين، وكونها تسبح بالهواء وتسرع بأمر الله وتسبق إلى فعل ما أمرت به، وتدبر ما أمرها الله بتدبيره، وفي هذا تعظيم لها ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وحذف جواب القسم لتعظيمه وتفخيمه وتهويله. والتقدير: والله لتبعثن. وعلى هذا يدل قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وما بعده.

قال ابن القيم [(١)]: «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ، وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد مقسمًا عليه بعينه، وهذا يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا...»

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: لتبعثن ونحو ذلك والراجفة: النفخة الأولى في الصور نفخة الصعق؛ ليموت كل مخلوق إلا من شاء الله.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، أي: تتبعها النفخة الثانية في الصور المرادفة لها؛ لبعث الناس

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢٠.

وقيامهم من قبورهم، وبينهما أربعون عامًا، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»(١).

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ وهي قلوب الكفار والعصاة. ومعنى ﴿واجفة﴾ أي: خائفة قلقة مضطربة منزعجة.

﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾، أي: أبصارها ذليلة حقيرة لما تشاهده من الأهوال، ولما تترقبه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأضاف الأبصار إلى القلوب؛ لأن القلوب هي لب الأبدان عليها مدار الصلاح والفساد، وعليها مدار النعيم والعذاب. وقيل أضيفت إليها للملابسة.

﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول المشركون المنكرون للبعث والمعاد والحساب.

﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والاستبعاد والتعجب والاستغراب، أي: أئنا لمعادون ومرجوعون، أي: لا يمكن أن نرد.

﴿فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾، أي: في الحياة بعد الموت، أي: أئنا لمبعوثون بعد الموت.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أئذا متنا وكنا عظامًا.

﴿نَّخِرَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ناخرة» بالألف.

وقرأ الباقون: ﴿نَّخِرَةً﴾ بغير ألف.

والمعنى على القراءتين، أي: بالية متفتتة، نخرتها الرمال والرياح، أي: فكيف نرد إلى الحياة بعد ذلك كقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء:

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٧، وأحمد ٥/ ١٣٦ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٤٩، ٩٨]، وقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥- ٣٧]، وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦].

وقال بعض المفسرين: المراد بالحافرة النار، وهذا لا ينافي القول الأول، لأنهم يردون إلى النار بعد إحيائهم وبعثهم.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ﴾، أي: قال المشركون المكذبون المنكرون للبعث تلك، أي: الرجعة للحياة بعد الموت إن كانت حقًا ﴿إِذًا﴾، أي: حينها ﴿كَرَّةٌ﴾، أي:رجعة. ﴿خَاسِرَةٌ﴾، أي: سنخسر فيها غاية الخسران، وهم بهذه الشهادة على أنفسهم بالخسران يؤكدون تكذيبهم وإنكارهم للمعاد، وكأنهم يقولون تماديًا منهم بالإنكار والاستبعاد إنْ بُعِثْنا بعد الموت فنحن نقبل أن نخسر الصفقة ذلك اليوم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: فإنما هي أمر من الله عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة هي نفخة البعث، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحاقة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة: وجه الأرض وظاهرها، أي: فإذا هم قيام في المحشر على ظهر الأرض، بعد أن كانوا في باطنها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: ١٩].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة بأوصافهم وأعمالهم المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأن؛ إقسامه بها يدل على عظمته هو؛ لأنه يقسم بما خلق.

٢- إثبات وجود الملائكة.

٣- فضل الملائكة وعظم منزلتهم عند الله عز وجل وعظم أعمالهم وما أعطاهم الله عز وجل من القوة والخفة والسرعة والقدرة على تدبير ما يأمرهم الله عز وجل به.

٤- إثبات البعث والمعاد؛ لأن الله عز وجل أقسم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

٥- إثبات النفختين، وتتابعهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

وهما من أعظم أهوال القيامة، النفخة الأولى؛ ليموت من في السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا من شاء الله، والنفخة الثانية؛ لإحياء الخلق وبعثهم وقيامهم بين يدي الله عز وجل.

٦- انزعاج قلوب الكفار العصاة يوم القيامة، وشدة خوفهم وقلقهم واضطرابهم وذل أبصارهم وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾.

٧- إنكار المشركين واستبعادهم للبعث والمعاد بعد الموت وللنار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾.

٨- اعتراف المشركين والمكذبين وإقرارهم بالصفقة الخاسرة يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

٩- عظم قدرة الله تعالى، وأن بعث الخلائق وإعادتهم أمر يسير على الله عز وجل، فبأمره عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة فإذا الخلائق قيام بين يديه عز وجل ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على إثبات القيامة ردًا على المكذبين بالبعث المنكرين للمعاد، وذكر ما ينتظرهم فيها من الأهوال والعقوبات الآجلة في ذلك اليوم.

ثم أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وتكذيبه له وعصيانه وسعيه ضد الحق، بل وادعائه الربوبية، وما حل به من العقوبة العاجلة والآجلة؛ تسلية للنبي ﷺ، وتخويفًا لقومه، وليتعظ بذلك من يخشى الله.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يتأتى خطابه.

أي: هل جاءك خبر موسى، أو هل سمعت بخبره.

وفي هذا الخطاب تشويق للمخاطب والسامع للتأمل في هذه القصة.

وموسى هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل، أنزلت عليه التوراة أفضل الكتب المنزلة بعد القرآن الكريم.

وقد ذكر الله عز وجل حديث موسى وقصته في القرآن الكريم أكثر من غيره وأشمل وأوسع؛ لأنه نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها، وهم من أشد الأمم تكذيبًا وعنادًا.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: حين ناداه ربه عز وجل نداءً سمعه موسى عليه السلام، وكلمه سبحانه تكليمًا بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿بِٱلْوَادِ﴾ الوادي: مجرى السيل بين الجبال والتلال والآكام.

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: المطهر المعظم.

﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم هنا وفي سورة طه: ﴿طُوًى﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين في الموضعين، وهو: اسم للوادي الذي نادى الله فيه نبيه

موسى عليه السلام وأوحى إليه فيه.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أرسله إلى فرعون بقوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: امض إلى فرعون، وهو ملك مصر آنذاك، ثم صار فرعون علمًا على كل من ملك مصر كافرًا.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: إنه تجاوز الحد في الكفر والتجبر والتكبر والتمرد والعتو حتى وصل به الأمر إلى أن ادعى الربوبية والألوهية، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب بتشديد الزاي: «تَزَّكى»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿تَزَكَّىٰ﴾.

قوله: ﴿فَقُلۡ﴾، أي: فقل له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ استفهام للتشويق وتعبير لطيف لاستمالته إلى الحق، وليس هناك ألطف من هذا وألين منه، فلم يقل له: لم لا تزكى؟ ولم يأمره بذلك، فيقول: تزك، بل تلطف معه في التعبير، وألان له في القول، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

ومعنى قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: هل لك إلى أن تتطهر من الشرك والكفر بالتوحيد والإيمان.

﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾، أي: أدلك وأرشدك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى خالقك ومالكك ومدبرك والمنعم عليك بسائر النعم فتقر له بالربوبية والألوهية وحده.

﴿فَتَخۡشَىٰ﴾، أي: فتخاف الله عز وجل وعقابه العاجل والآجل.

فأخرج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر تلطفًا في الخطاب وتليينًا له، وعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق، وهو التزكي الذي معناه النماء والطهارة والبركة والزيادة، وأسند التزكي وأضافه إلى المخاطب بينما أضاف الهداية والدلالة إلى نفسه فكأنه يقول: أنا أدلك وأسير بين يديك، وأنت تزكي نفسك وتخشى ربك الذي خلقك، ورباك بنعمه العظيمة. وفي هذا استعطاف له وتذكير له بنعم الله عليه(١).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢١، ١٢٣.

وينبغي للدعاة إلى الله- عز وجل- والمربين والمصلحين والوالدين في تربية أولادهم وغيرهم استلهام الدروس من هذه التوجيهات الإلهية العظيمة لتتحقق بإذن الله- عز وجل- الفائدة المرجوة. فقد قال الله تعالى لسيد الرسل وأفضل الخلق: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، أي: فأرى موسى عليه السلام فرعون وأظهر له العلامة الكبرى، والحجة العظمى، والدليل الواضح على صدق ما جاء به من عند الله عز وجل، ومن ذلك أن يلقي عصاه في الأرض فتنقلب حية تسعى، ثم يأخذها فتعود إلى حالتها الأولى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء آية من آيات الله من غير عيب من برص أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٧- ٢٣].

وقد يراد بالآية الكبرى جنس الآيات التي جاء بها موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦].

وإنما كانت هتان الآيتان من أعظم الآيات التي أرسل الله بها موسى عليه السلام وهما العصا واليد، لأن السحر كان منتشرًا شائعًا آنذاك، فأعطاه الله عز وجل آيات يبطل بها كيد السحرة الذين تصدوا لموسى عليه السلام ودعوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾، أي: فكذب فرعون وجحد وكفر بقلبه بما جاء به موسى عليه السلام، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿وَعَصَىٰ﴾، أي: أبى أن ينقاد بجوارحه، فكذب الخبر، وعصى الأمر، وخالف أمر الله وارتكب نهيه، كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦].

وهو مع هذا يعلم أن ما جاء به موسى عليه السلام هو من عند الله، كما قال موسى عليه السلام فيما ذكر الله عنه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، أي: ثم لم يكتف بالتكذيب والعصيان، بل أدبر وتولى يسعى لرد الحق ومضادته بالباطل، فرمى موسى بالسحر، وقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

وجمع السحرة لإبطال الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، أي: فجمع قومه، فنادى بهم بصوت مرتفع:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ادعى أنه الرب الذي هو الأعلى، الذي لا أحد فوقه؛ لأن «الأعلى»: اسم تفضيل من العلو، أي: الذي لا أحد أعلى منه.

كما ادعى الألوهية فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضًا: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وبهذا صار فرعون وأتباعه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي: فعاقبه الله تعالى عقوبة الآخرة في النار وعقوبة الدنيا في الغرق، ونكّل به فصار نكالًا لغيره، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأخذه عز وجل لفرعون وتنكيله به بعقوبة الدنيا والآخرة ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لعظة وزجرًا ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، أي: لمن يخاف الله عز وجل، فيتعظ وينزجر

بها، بخلاف من لا يخشى الله فلا تؤثر فيه المواعظ والزواجر.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ بذكر حديث موسى عليه السلام حين أرسله الله عز وجل إلى فرعون وما جرى بينهما وتكذيب فرعون، وأخذ الله عز وجل وعقوبته له؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وفي ذلك تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من قومه ﷺ.

٢- إثبات الكلام لله عز وجل على ما يليق بجلاله وأنه عز وجل نادى موسى عليه السلام وكلمه تكليما. وشرفه بذلك، وبربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٤- شرف بعض الأمكنة على بعض بتشريف الله لها بجعلها أماكن لرسالاته ونزول وحيه وعبادته، ولهذا شرَّف الله عز وجل وادي «طوى» وطهَّره؛ لأنه عزَّ وجَل نادى فيه نبيه موسى عليه السلام وأرسله.

٥- تجاوز فرعون وتماديه بالكفر والطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

٦- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بالتلطف مع فرعون وتليين القول له لاستمالته للحق لعله يتطهر ويخشى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

٧- يجب على الدعاة إلى الله عز وجل التلطف مع من يدعون؛ لأن الله أمر بهذا موسى في دعوته لفرعون الذي بلغ الغاية في الطغيان، فغيره من باب أولى وأحرى، وكما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

٨- إثبات هداية الدلالة والإرشاد، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام هداة إلى الله، أي: مرشدون إليه وإلى طريقه المستقيم، وكذا من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

٩- أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالدعوة إلى التزكي والتطهر من الذنوب والمعاصي، وإلى خشية الله عز وجل.

١٠- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

١١- إقامة موسى عليه السلام الحجة الواضحة والبرهان القاطع على صدق ما جاء به، وأنه رسول من عند الله بما أظهره لفرعون من الآيات الكبرى الدالة على ذلك من انقلاب العصا حية واليد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

١٢- تمادي فرعون بالكفر والطغيان وتكذيبه لموسى عليه السلام وعصيانه له وإدباره وسعيه في الصد عن الحق ومكابرته، وادعائه الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾.

١٣- أخذ الله عز وجل لفرعون وعقوبته له في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾.

١٤- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.

١٥- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما أحل الله بفرعون من العقوبة والحذر من أخذ الله عز وجل وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل خبر موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون وتكذيبه له وعصيانه، وسعيه لمضادة الحق بالباطل وادعاءه الربوبية، وأخذ الله عز وجل له بالعقوبة العاجلة والآجلة وفي ذلك تخويف للمكذبين بالبعث أتبع ذلك بالاستدلال على قدرته عز وجل على بعث الناس بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار، والامتنان عليهم بذلك.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع، والخطاب لعامة الناس ويدخل فيه المشركون المنكرون للبعث دخولًا أوليًا.

والمعنى: ءأنتم أيها الناس أشد وأعظم خلقًا.

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ «أم»: عاطفة، والسماء معطوف على الضمير «أنتم»، أي: أم السماء أشد خلقًا في كيفية خلقها وعظمتها وسعتها، وفي هذا تقرير أمر البعث والمعاد، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

﴿بَنَىٰهَا﴾ فسره بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: رفع سقفها وجرمها وبناءها، وجعلها سقف المخلوقات كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: فجعلها مستوية البناء، محبوكة الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾

[الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أي: وأظلم ليلها وجعله أسود حالكًا.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أي: وأظهر نهارها وأناره وجعله مشرقًا مضيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن أعظم نعم الله عز وجل أن جعل الليل مظلمًا؛ ليسكن الناس فيه وويناموا ويستريحوا بعد عناء النهار، ومن رحمته أن جعل النهار مشرقًا منيرًا؛ ليتصرف فيه الناس لطلب معاشهم. قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتا للعمل، وجعل النهار وقتا للنوم.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ الإشارة بقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى خلق السماء وبنائها وتسويتها فذلك واقع قبل دحو الأرض، فخلق عز وجل الأرض ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

وبهذا جمع ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف بين الآيات في هذا (١).

وقوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فسره بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: أخرج منها الماء والمرعى وأرساها بالجبال وأودع فيها ما أودع من الخيرات من المعادن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٥٤- ١٥٥.

وغير ذلك وبسطها.

ومعنى قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: ثبتها في أماكنها، وأرسى الأرض بها؛ لئلا تميد بأهلها، كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ متاعًا: مفعول لأجله، والمتاع: ما يتمتع به في الحياة وفي السفر، ثم ينتهي، والحياة كلها سفر.

أي: دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها وأرساها بالجبال لأجل أن تتمتعوا بما أخرج منها من الماء والمرعى، وتستقروا وتعيشوا على ظهرها أنتم وأنعامكم.

الفوائد والأحكام:

١- الاستدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار وإخراج الماء والنبات، وأن الذي قدر على هذا فهو سبحانه على بعثهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

٢- أن دحو الأرض بعد خلق السماء، أي: أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض؛ لقوله تعالى: لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله تعالى في سورة فصلت: لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآيات: ٩-١٢].

٣- الامتنان على العباد ببناء السماء فوقهم، وإظلام ليلها وإظهار نهارها، وبما أودع لهم في الأرض من الخيرات، وما أخرجه لهم منها من الماء والمرعى، وبإرسائها بالجبال ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بخيراتها هم وأنعامهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على أن القيامة حق، ثم ختمها بذكر بعض أهوالها وأحوال الناس فيها، وأن منتهى علمها إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، أي: فإذا أتت ووقعت.

﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تَطُمُّ وتزيد على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، أي: يوم مجيئها ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: يتذكر الإنسان سعيه، أو الذي سعاه، أي: عمله وما قدمه من خير أو شر، عندما يقرأ كتابه، ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيا لها من ذكرى ليست كالذكريات، ذكرى يشيب لهولها الوليد قال تعالى: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فما أعظم الحسرات آنذاك.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، أي: وأظهرت الجحيم، وهي النار، سميت بذلك لعظمها وشدة توقدها وحرها وبعد قعرها، وظلمتها.

﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: لكل من يشاهد وينظر، فرآها الناس عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقد قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» (١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك»(١).

فيا ترى ما حال الناس في ذلك الموقف، اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة. والله لو شب حريق كبير في جانب من البلد لصعق كثير من الناس، وأصيب كثير منهم بالحيرة والذهول والدهشة وهرع الكثير منهم فارين هاربين لا يلوون على أحد، ولو كان أقرب الناس إليهم وأعزهم لديهم، ولربما دهس بعضهم بعضًا من شدة الهروب والتدافع.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ «أما» في الموضعين: أداة تفصيل، و«من» في الموضعين: موصولة، أي: فأما الذي طغى.

ومعنى ﴿طَغَىٰ﴾: تجاوز حدود الله في التكذيب والكفر والتمرد والعتو والعناد.

﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: قدّم الحياة الدنيا الفانية على أمر دينه وما خلق له وعلى الآخرة الباقية، كما قال تعالى ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢].

فإيثار الحياة الدنيا والانشغال بها سبب للطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(٢).

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾، أي: فإن الجحيم وهي النار.

﴿هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ الذي يأوي ويرجع إليه وينتهي ويصير إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

فمن آثر الحياة الدنيا الفانية الحقيرة فإن الجحيم مأواه؛ ولهذا جاء في الدعاء: «ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: وأما الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: خاف قيامه غدًا بين يدي ربه عز وجل فاستعد لذلك المقام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخاف من نظر الله- عز وجل- إليه واطلاعه عليه فراقبه وخشيه واتقاه، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يُخفى لديه يغيب(٢)

وقال القحطاني:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى العصيان

فاستَحْيِ من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني(٣)

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾، أي: ونهى النفس الأمارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: عن اتباع هواها وما تشتهيه من الشهوات المحرمات والشبهات، وألجمها بلجام التقوى، فإن الهوى مُرْدٍ، ومُهْلِك، والنفس غالبًا أمارة بالسوء، كما ذكر الله عز وجل عن امرأة العزيز أنها قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: فإن الجنة دار المتقين هي مأواه ومصيره ومنقلبه ومستقره، كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يسألك الناس ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: عن

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي «حسن غريب».

(٢) هذان البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

(٣) انظر: «النونية» للقحطاني ص٢٥.

القيامة.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بالمضارع، ولم يقل: سألوك، وذلك لكثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر واستمرار وروده منهم، وذلك لعظمتها وشدة أهوالها، ولهذا جاء ذكر السؤال عنها في هذه السورة وسورة الأعراف وهما مكيتان، وفي سورة الأحزاب وهي مدنية.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الآية: ١٨٧]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية: ٦٣].

وسميت القيامة- والله أعلم- بالساعة؛ لتحقق وقوعها وقربه، وتحديده في علم الله- عز وجل- كما سميت بالواقعة والحاقة وغير ذلك.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، أي: متى وقوعها ومجيئها.

فمنهم من يسأل عنها سؤال استعجال واستبعاد وإنكار لها، وهم المشركون المنكرون للبعث، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وهؤلاء أكثر الخلق.

ومنهم من يسأل عنها؛ ليستعد لها بالعمل الصالح، كالذي قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟. قال له: «ماذا أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»(١).

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، أي: ليس عندك علمها، ولا فائدة لك بمعرفة ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾، أي: إلى ربك وحده منتهى علمها؛ متى وقوعها، وكيف وقوعها، لا إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥].

ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(١).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين: «منذر». وقرأ الباقون بغير تنوين.

و«إِنَّمَآ»: أداة حصر، والحصر هنا إضافي؛ لأن الرسول ﷺ منذر ومبشر، ومأمور مكلف كغيره.

والمعنى: إنما أنت في موضوع الساعة مجرد منذر من يخشاها ليس لديك علم وقوعها، وكيف وقوعها، ولا فائدة لك ولا للأمة ولا مصلحة لكم بمعرفة ذلك، بل المصلحة في إخفائها عن الخلق.

ومعنى «منذر»، أي: مخوف ومحذر.

﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يخشاها ويخافها؛ لما فيها من الأهوال والعذاب والنكال.

وهو ﷺ منذر لجميع الناس من يخشى الساعة ومن لا يخشاها، وإنما حصر إنذاره ﷺ فيمن يخشاها، لأن الذي يخشاها هو المنتفع بالإنذار المستفيد منه دون من لا يخشاها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وأيضًا فهو ﷺ منذر ومبشر لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وهو أيضًا: مكلف بالعبادة كغيره كما سبق.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾، أي: كأن هؤلاء السائلين عن الساعة المنكرين لها يوم يشاهدونها وأهوالها وشدائدها.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الحياة الدنيا.

﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ العشية: آخر النهار من الظهر إلى غروب الشمس والضحى: أول النهار من طلوع الشمس إلى منتصف النهار، وقد تحمل العشية على الليل كله، والضحى على النهار كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢].

فما أقصر الدنيا بالنسبة للآخرة، وما أقصر ما مضى بالنسبة لما بقي، وما أقصر عمر الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

ولو سألت معمرًا في سن التسعين أو المئة أو ما فوق ذلك عما مضى من عمره لقال لك كأني لم أعش إلا هذه اللحظة.

والإنسان بين ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه، ويوم مستقبل بما فيه لا يدري الإنسان أيدركه أو لا يدركه، ويوم حاضر ينبغي أن يستغله الإنسان بما ينفعه في دينه ودنياه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة وفظاعتها، وأنها أطم وأشد وأدهى من أيّ شدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾.

٢- تذكر الإنسان يوم القيامة ما قدمه من عمل خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾.

٣- إظهار الجحيم وإبرازها ليراها الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾.

٤- أن مأوى الناس ومآلهم يوم القيامة حسب أعمالهم فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه الجحيم، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فمأواه جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

٥- التحذير من الطغيان وتجاوز الحد وإيثار الدنيا على الآخرة، والترغيب في

مراقبة الله عز وجل، وخوف الوقوف بين يديه، ونهي النفس عن الهوى.

٦- كثرة سؤال الناس للنبي ﷺ عن الساعة متى قيامها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾

٧- تفرده عز وجل بعلم الساعة متى وقوعها وكيف يكون؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

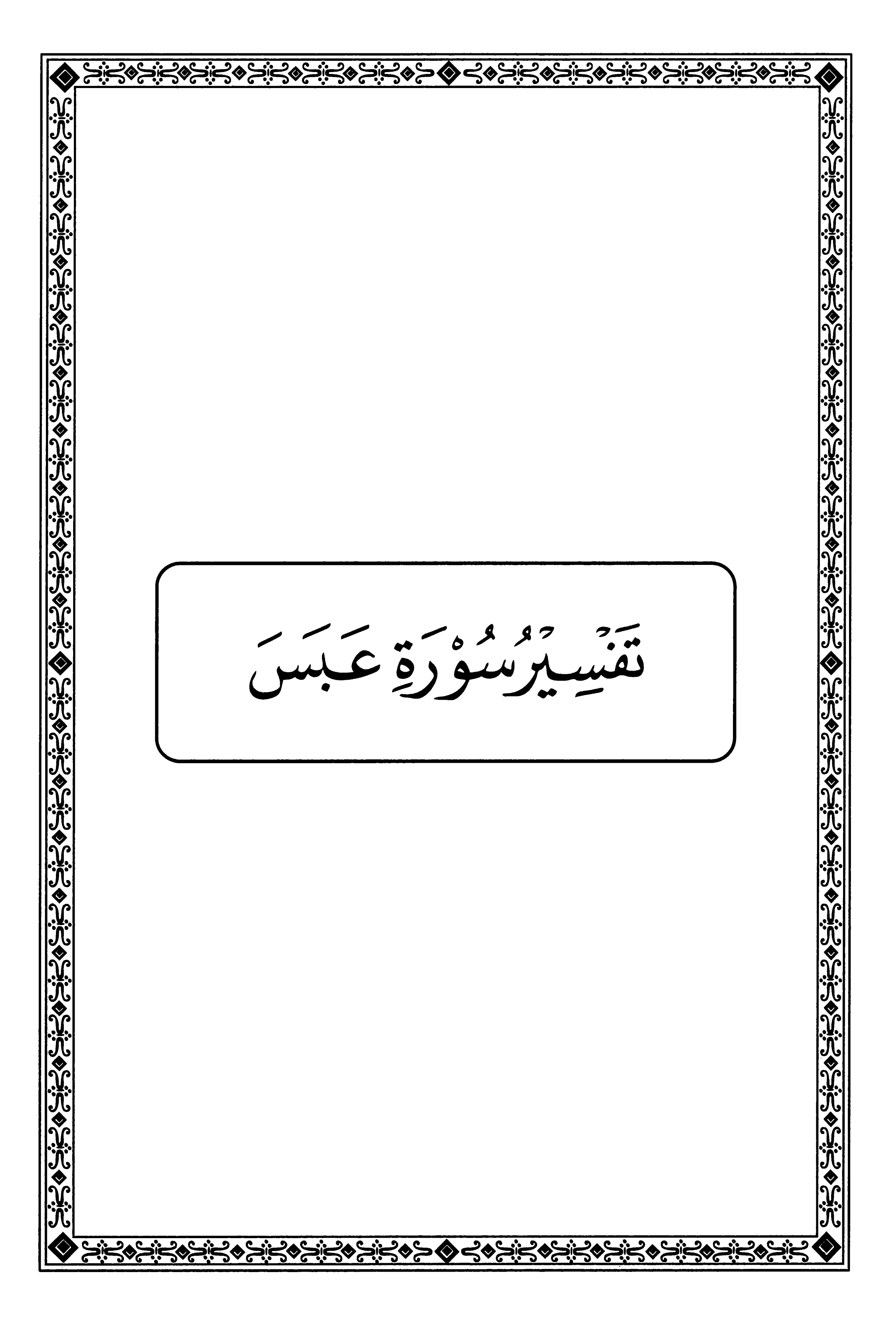
٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٩- أن النبي ﷺ لا يعلم متى الساعة، وإنما هو منذر ومحذر منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

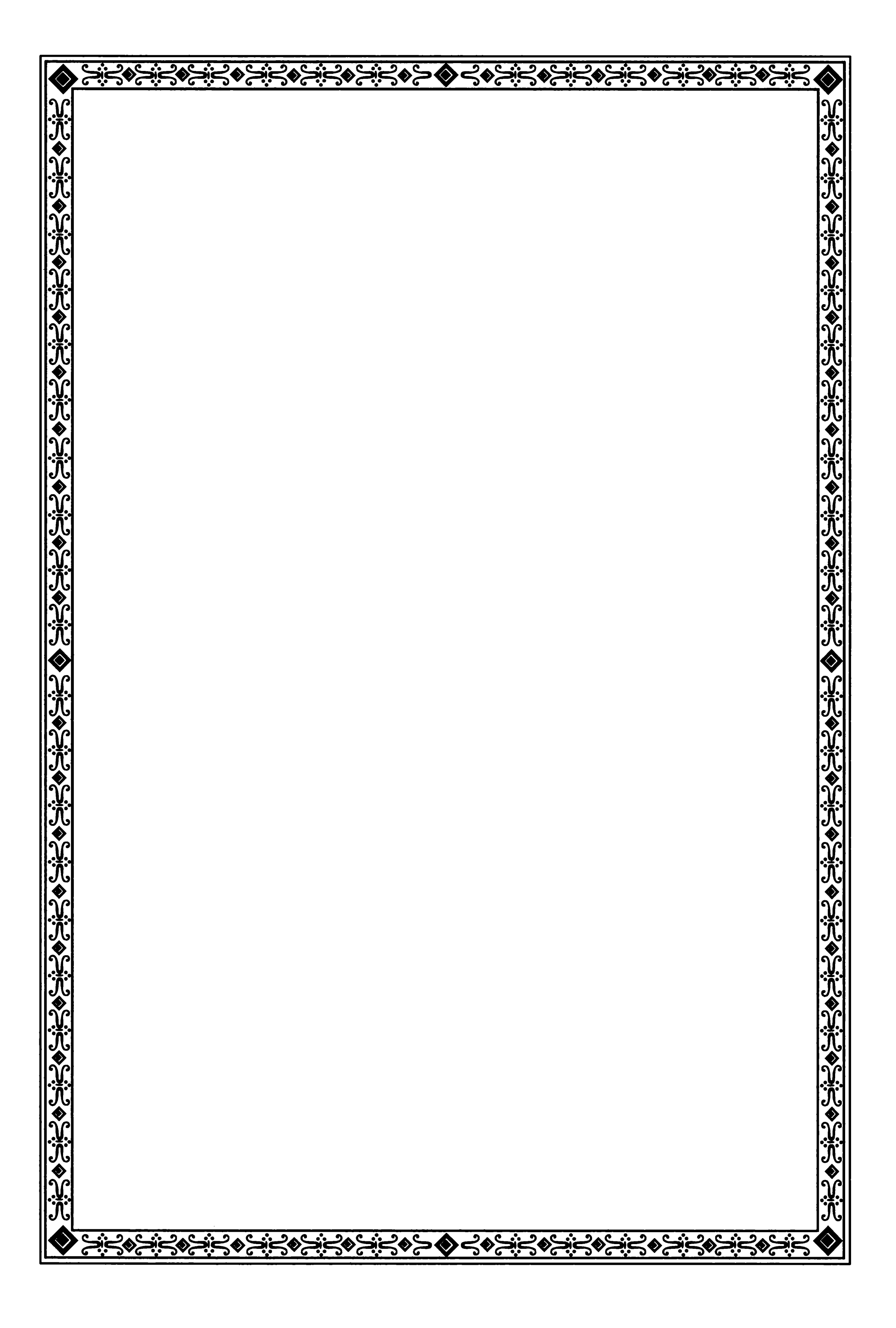
١٠- أنه لا ينتفع بالإنذار والتخويف من الساعة إلا من يخشاها.

١٠- قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وقصر عمر الإنسان فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ عَبَسَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة عبس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾.

وتسمى: «سورة الصاخة» و «سورة السَفَرة» و «سورة الأعمى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بعتاب لطيف له ﷺ، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

٢- امتداح الله لما أنزله من الآيات في هذه السورة وغيرها، وامتداح حملتها من الملائكة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

٣- لعن الإنسان الذي كفر بالله وجحد نعمته؛ فنسي أصل خلقه وحقارته وضعفه، وتذكيره بكمال قدرة الله تعالى؛ وتمام نعمته عليه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

٤- التذكير بأهوال القيامة وأحوال الناس فيها: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

سبب النـزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبيّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى فيما أقول بأسًا؟، فيقول: لا، ففي هذا أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أنزل الله قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ في ابن أم مكتوم»(٣).

قوله: ﴿عَبَسَ﴾، أي: قطب جبينه، وما بين عينيه.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض. والمراد بهذا النبي ﷺ وجاء الكلام بضمير الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ تلطفًا معه ﷺ في العتاب.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي في »تفسير سورة «عبس» ٣٣٣١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٠٢ وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٩٩.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو رجل أعمى جاء إلى النبي ﷺ يستقرئه ويطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، وكان ﷺ منشغلًا في دعوة من يطمع في إسلامهم من أشراف وعظماء قريش؛ ليُسْلم بإسلامهم خلق كثير فعبس وجهه ﷺ وأعرض عنه طمعًا في إسلام أولئك فعاتبه الله عز وجل على ذلك.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم استفهام، والخطاب للنبي ﷺ، ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾، «يزكى»، أصلها: «يتزكى»، فأدغمت التاء بالزاي للتخفيف، أي: وما يعلمك يا محمد لعل هذا الرجل الأعمى يتطهر وتزكو نفسه.

قال بعض المفسرين: كلما جاء في القرآن: «وما يدريك» فإنه لا يُدريه، أي: لا يعقبه بما يبينه ويوضحه، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾، وكما في قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا جاء: «وما أدراك» فإنه يُدريه، أي: يعقبه بما يوضحه ويبينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ثم قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ الآيات [القدر: ٢-٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ ثم قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾[القارعة: ١٠، ١١].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ قرأ عاصم: ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، أي: أو لعله يتعظ فتنفعه الموعظة.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ «أما» حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين، أي: وأما الذي استغنى بماله وقوته وجاهه، فأعرض عن الموعظة، ورأى أنه في غنى عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨- ١٠].

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد الصاد «تصَّدى»، وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فأنت تتعرض له وتُقبل عليه، وتطلب إقباله طمعًا في هدايته وإسلامه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أي: وما عليك ألا يتطهر هذا المستغني، أي: لست ملزمًا بهدايته، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ

إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾، أي: وأما الذي جاءك مقبلًا.

﴿يسعى﴾ في طلب التطهر والموعظة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو يخاف الله عز وجل بقلبه.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتشاغل عنه بغيره.

وفي هذا وما قبله إشارة إلى حرص هذا الرجل الأعمى على التزكي والتذكر وأنه أرجى بالتزكي والتذكر من أولئك الأشراف الذين يرون أنهم في غنى عن ذلك.

ولقد كان لهذا الرجل الأعمى شأن عظيم في الإسلام، فهو الذي أنزل الله فيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، لما جاء يشتكي إلى رسول الله ﷺ ضرارته، وأنه لا يستطيع الجهاد[1]، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، وروى عنه عدة من الأحاديث رضي الله عنه.

وفي هذه الآيات ما يبين بجلاء قيام هذا الدين الإسلامي على العدل في جميع أحكامه، ومن ذلك المساواة في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، الغني والفقير، والشريف والوضيع، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والكبار والصغار.

فلا يجوز تحت أي مبرر كان ترك المساواة في هذا، فمع أنه ﷺ إنما تشاغل عن هذا الأعمى بمن يرى أن في إسلامه أثرًا في إسلام غيره لمكانته في قومه، وأيضًا فإن هذا الأعمى قد آمن وإنما يريد زيادة الاسترشاد، لكن الله عز وجل عاتبه على ما حصل منه تأكيدًا لوجوب المساواة بين الناس في دعوتهم إلى الله عز وجل.

ولقد حاول المكذبون وأعداء الرسل التمييز بين طبقات الناس في الدعوة إلى الله فقال قوم نوح عليه السلام له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣، وأحمد ٥/ ١٨٤، ١٩١- من حديث زيد بن ثابت- رضي الله عنه- وأخرجه البخاري أيضا ٢٨٣١، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨ وغيرهما من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه.

هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، فقال لهم نوح عليه السلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وهكذا قال المشركون للنبي محمد ﷺ اطرد هؤلاء المستضعفين ونتبعك فقال الله تعالى له: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وفي الآية دليل على القاعدة المشهورة أنه «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وفي هذا أعظم الدلالة على أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، والرد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افتراه من عند نفسه إذ كيف يعاتب المرء نفسه.

وفيه أن الرسول ﷺ ليس بمعصوم لا هو ولا غيره من الرسل من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرُّون عليها، ولا يؤخرون التوبة، بل سرعان ما يحدثون توبة منها بتوفيق الله لهم، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها. وهم معصومون فيما يخبرون به عن الله، وفي تبليغ رسالاته بإجماع الأمة[(١)].

﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّهَا﴾، أي هذه الموعظة، أو هذه السورة، أو آيات القرآن الكريم ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، أي: موعظة يتعظ بها ويعتبر من وفقه الله، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: فمن شاء ذكر الله عز وجل، وذكر مواعظ القرآن بقلبه ولسانه، وجوارحه الظاهرة والباطنة، فاتعظ بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

(١) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٨٩، ٢٩٦.

سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ وصحف وصحائف: جمع صحيفة. ﴿مكرمة﴾، أي: معظمة عند الله عز وجل.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ عالية القدر والمنزلة عند الله عز وجل.

﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص والتحريف والتبديل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة. وسفرة: جمع سفير، يقال في جمعه: سفرة، وسفراء. وسمي الملائكة سفرة؛ لأنهم كتبة يكتبون الوحي والأعمال ونحو ذلك.

والسِّفر بالكسر الكتاب، والجمع أسفار، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، أي: كتبًا في العلم لا ينتفع بها.

وسمي الملائكة سفرة أيضًا من السفارة وهي الوساطة، لأنهم وسطاء بين الله وبين رسله وخلقه، فجبريل عليه السلام هو السفير والواسطة بين الله عز وجل وبين رسله في تبليغ وحيه عز وجل إليهم.

والكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم سفراء بين الله وبين خلقه في ذلك، وكذلك الحفظة للإنسان والموكلون بتدبير أوامر الله في خلقه وغيرهم كل هؤلاء سفراء بين الله وبين خلقه.

والسفير هو الواسطة بين الناس. وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وكنت السفير بينهما»[1].

قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغش إن مشيت[2]

(١) أخرجه مسلم في النكاح- تحريم نكاح المحرم ١٤١١.

(٢) البيت لموسى بن جابر اليمامي. انظر: «البصائر والذخائر» ٢/ ١٩٢.

﴿كِرَامِۭ﴾ في أخلاقهم، أي: ذوي أخلاق كريمة، وصفات شريفة، خَلْقًا، وخُلُقًا مكرمين عند الله عز وجل، ومكرمين عند خلقه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، أي: حديث ضيوفه المكرمين من الملائكة.

﴿بَرَرَةٍ﴾ في قلوبهم وأعمالهم، أي: بارين مطيعين لله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

وهكذا ينبغي لحامل القرآن وقارئه أن يتدبره فيتخلق بأخلاقه، ويتأدب بآدابه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»(١).

الفوائد والأحكام:

١- معاتبة الله عز وجل لنبيه ﷺ في عبوسه وإعراضه عن هذا الرجل الأعمى وإقباله على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

٢- أنه ﷺ ليس معصومًا من الوقوع في الصغائر وغيره من الرسل من باب أولى لكنهم لا يُقَرّون عليها وسرعان ما يتوبون منها بتوفيق الله لهم.

٣- إثبات صدق رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى.

٤- وجوب التسوية في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، والعناية بدعوة وتعليم من جاء مقبلًا يريد التذكر والتطهر، وعدم الانشغال عنه بدعوة المعرضين.

٥- أن هداية القلوب وتزكيتها بيد الله عز وجل، فقد يتزكّى ويتذكر ويهتدي من لا يظن به ذلك، وقد لا يتزكى، ولا يتذكر، ولا يهتدي من طُمع في هدايته.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٤٩٣٧، ومسلم في الصلاة- فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به ٧٩٨، وأبو داود في الوتر- ثواب قراءة القرآن ١٤٥٤، والترمذي في فضائل القرآن- فضل قارئ القرآن ٢٩٠٤، وابن ماجه في الأدب- ثواب القرآن ٣٧٧٩، وأحمد ٦/ ٤٨، ٩٤.

٦- ثناء الله- عز وجل- على الأعمى عبد الله بن أم مكتوم- رضي الله عنه- حيث جاء مقبلًا على الله طالبًا الهداية والتذكرة يرجو ثواب الله ويخشى عقابه، وذم المعرض عن ذلك المستغني عن التذكرة وعن ربه.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التذكير إقامة للحجة على الخلق لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

٨- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾. وفي هذا رد على الجبرية.

٩- عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته ورفعته عند الله عز وجل وحفظه من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير؛ لقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾.

١٠- فضل الملائكة وكرامتهم عند الله عز وجل وطاعتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

بعد ما بين عز وجل أن آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة لمن يتعظ أتبع ذلك بلعن الإنسان الذي كفر بذلك وأنكر البعث، وطرده عن رحمة الله وإهلاكه، وتوبيخه وتذكيره بأصل خلقه وضعفه وحقارته ومراحل حياته، وقدرته عز وجل التامة على ذلك للاستدلال بذلك على قدرته التامة على بعثه بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: لعن وطرد عن رحمة الله، وأهلك الإنسان الكافر المكذب بالبعث، المنكر له.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «ما»: استفهامية، أي: ما الذي حمله على الكفر.

ويجوز أن تكون «ما»: للتعجب، أي: ما أعظم كفره وما أشده، كذّب الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وأنكر البعث والمعاد والحساب والجزاء مع قيام الحجة ووضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الاستفهام: للتقرير. وكلمة «شيء»: نكرة في سياق الاستفهام تفيد التحقير والتقليل، أي: من شيء حقير مهين ضعيف خلقه وأوجده.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ النطفة: الماء القليل، أي: من ماء قليل، وهو المني، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: فقدَّر خلقه أطوارًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى آخر أطواره.

وقدَّر أجله ورزقه وعمله، وهل هو وشقي أو سعيد، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»[1].

وقدَّره أيضًا بأن سوى خلقه وأتمَّه وأكمله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم الطريق للخروج من بطن أمه يسره وسهله، وكذا الطريق لمعرفة الخير والشر يسره وبينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:١٠]، أي: بينا له طريق الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾، أي: ثم بعد أن أحياه عز وجل ما شاء من العمر أماته بقبض روحه وإخراجها من البدن.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله ذا قبر، أي: جعل له قبرًا يواري جسده؛ سترًا وإكرامًا له وتشريفًا واحترامًا.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أي: ثم متى شاء عز وجل بعثه وأحياه بعد موته للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم بك أحيا وأموت وإذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

النشور»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُركَّب»[٢].

فاستدل عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من نطفة على قدرته على بعثه من باب أولى وأحرى كما قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [الحج: ٥].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ «كلا»: للردع والزجر، أي: كلا لمّا يقض الإنسان، أي: لم يؤد الذي أمره الله عز وجل به من الفرائض والواجبات.

أو ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ﴾ الله ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾، أي: ما أمر به، أي: الذي أمر به كونًا وقدرًا، أي: أنه لم يأت ولم يحن وقت أمره بنشر الخلائق وبعثهم وحسابهم، بل له موعد منتظر.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾.

استدل عز وجل بالآيات السابقة على قدرته التامة على البعث بخلق الإنسان من النطفة، ثم استدل على ذلك بإحياء الأرض بعد موتها في هذه الآيات وفي هذا وذاك امتنان على الإنسان، وتذكير له بنعم الله عز وجل عليه.

قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، أي: فلينظر الإنسان إلى طعامه نظر تفكر، ويتأمل فيه، من أين هو، وما هي أسبابه ومراحله؛ وليعلم أن من وراء ذلك خالقًا عظيمًا، ومدبرًا حكيمًا، ومنعما كريما، وأن لذلك أسبابًا ومراحل قدرها وأوجدها العليم الخبير،

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٩٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٩، والترمذي في الدعوات٣٤١٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن- ما بين النفختين ٢٩٥٥ وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦، وأحمد ٢/ ٣١٥.

كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها: «إنا».

أي: أنا أنزلنا الماء من السماء والسحاب على الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ۝٤٩﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: ثم شققنا الأرض للنبات ﴿شَقّٗا﴾ كثيرًا فنبت ونما وظهر على وجه الأرض.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾، أي: فأنبتنا في الأرض أنواع الحبوب، كالبر والأرز والذرة والشعير وغير ذلك.

﴿وَعِنَبٗا﴾ يأكلونه طريًا وجافًا، وهو من أفضل وأنفع الفواكه، ولهذا خصه بالذكر من بين الفواكه.

كما امتن الله عز وجل به على أهل الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ [النبأ: ٣١- ٣٢].

مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين عنب الجنة وعنب الدنيا.

﴿وَقَضۡبٗا﴾ القضب: هو العلف الذي تأكله الدواب من القت وغيره.

﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ الزيتون من أفضل الأشجار وأكثرها بركة يؤكل ثمرها، ويتخذ زيتها أُدْمًا، ويدهن ويستشفى به، ويستصبح به، وغير ذلك، أقسم الله تعالى به في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ [التين: ١]، وامتدح شجرته بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَنَخۡلٗا﴾ يؤكل ثمرها بسرًا ورطبًا وتمرًا، وهي من أفضل وأبرك الأشجار، وثمرها من أفضل الثمار، إن لم يكن أفضلها، ويعد غذاء كاملًا، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا

طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ [ق: ١٠].

وقال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن- النخلة»(١)

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها لما أخبرته أنه يمر الشهران ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة: فقلت: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثًا»(٣).

ولفضل النخل وثمرها ذكرها الله عز وجل من أشجار الجنة فقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨] مع الاختلاف الكبير بين نخل الجنة ونخل الدنيا.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، أي: وبساتين ذات أشجار طويلة كبيرة، كثيرة متنوعة

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ الفاكهة: كل ما يتفكه به من أنواع الثمار ويؤكل طريًا رطبًا.

أي: وأنبتنا لكم فيها الأشجار المختلفة ذات الفواكه والثمار المتنوعة.

﴿وَأَبًّا﴾ الأبّ: الكلأ والعشب الذي ترعاه البهائم والأنعام.

وقد رُوَي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: «أي: سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦١، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٥.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي، قال: سئل أبو بكر- إلى آخره- ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٨، وقال: «وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق».

لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف»[(١)].

وقد امتن الله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بإنزال الماء وإخراج النبات والزروع والفواكه والثمار، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، أي: متعة ومعاشًا لكم ولأنعامكم تتمتعون بها في هذه الدار الفانية، وفي إخراج طعام الإنسان من الأرض دليل على إخراجه منها بعد موته، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- حكم الله عز وجل الكوني على الإنسان الكافر بالإهلاك والطرد من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، وجواز الدعاء عليه بذلك.

٢- الإنكار على الإنسان الكافر وتوبيخه، والتعجب من إعراضه وكفره وإنكاره البعث مع وضوح الحجة وبيان المحجة، وتمام قدرة الله وإنعامه عليه في أطوار خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

٣- تذكير الإنسان بضعفه، وبتمام قدرة الله ومنته تعالى عليه في تقدير أطوار خلقه

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٨: «إسناده صحيح».

في بطن أمه، ثم تيسير ولادته، ثم موته ودفنه سترًا له، ثم بعثه ونشره إذا شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾؛ ليستدل بذلك على عظيم قدرة الله عز وجل، وقدرته التامة على بعثه، ويعرف نعمة الله عز وجل عليه فينقاد لأمره، فيشكر ولا يكفر.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإثبات المعاد، وأن نشر الخلائق وبعثهم وحشرهم له موعد ووقت قضاه الله لم يأت بعد، وإذا جاء لا يؤخر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

٥- زجر الإنسان الكافر وردعه في عدم امتثاله لما أمره الله عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾.

٦- يجب على الإنسان النظر والتأمل في طعامه، وأسبابه، ومراحل تكوينه من صب الماء من السماء، وشق الأرض وإنبات النبات من الحبوب والعنب والقضب والزيتون والنخل والفاكهة والأب والتي أخرجها الله متعة للناس ولأنعامهم للامتنان عليهم بذلك وليعرفوا تمام قدرة الله تعالى، وعظم نعم الله عليهم فيشكروها بطاعته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾.

٧- الإشارة لحقارة الدنيا وفنائها، وأنها مجرد متاع ثم تنقضي وتزول؛ لقوله تعالى: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة من دلائل قدرته على البعث قدرته على خلق الإنسان وعلى إحياء الأرض بعد موتها، ثم ختم عز وجل السورة بذكر أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم يوم القيامة كما ختم سورة النازعات قبلها بنحو من هذا.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾، كقوله في سورة النازعات ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤)﴾ و«الصاخة»: القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تصخ الآذان بصيحتها وأهوالها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾، أي: يوم مجيء الصاخة والقيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾، أي: يهرب الإنسان من عظم الخطب وشدة الكرب من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه، مع رؤيته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ الأخ من شارك الإنسان في أصليه أو في أحدهما، فقد يكون شقيقًا، وقد يكون أخًا لأب، وقد يكون أخًا لأم.

وليس الأخ بأقرب، ولا بأحق ممن ذكروا بعده، ولا بأحب منهم غالبًا لكنه قُدم عليهم- والله أعلم- لأن الإخْوة غالبًا يعتد بعضهم ببعض للنصرة في الدنيا، وبخاصة الإخوة من جهة العصبة والنسب، كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح[(١)]

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾، أي: ويفر ويهرب من أمه الحنون العطوف، حلوة اللبن، ومن أبيه الذي كان يحوطه ويرعاه، وقد كانا سبب وجوده في هذه الحياة، وأعظم الناس حقًا

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩، «الأغاني» ٢٠/ ١٧١، ١٧٣. وينسب له ولابن هرمة. انظر: «فصل المقال» ص٢٦٩، وينسب لقيس بن عاصم. انظر: «حماسة البحتري» ص٢٤٥. ويذكر كثيرًا بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ٤/ ٤٧٩، «تلخيص الشواهد» ص٦٢، وغير ذلك.

عليه، قرن الله عز وجل حقهما بحقه في آيات عدة، وقدم عز وجل الأم هنا لعظم حقها كما قالﷺ للرجل الذي سأله: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال في الرابعة: ثم من؟، قال: «أبوك»[(١)].

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته، أي: ويهرب من زوجته الحبيبة رفيقة عمره، وسكنه الذي يسكن إليه في الدنيا، والتي يحفظها ويصونها، ولا يسمح لأعين الآخرين أن تنظر إليها في الدنيا.

﴿وَبَنِيهِ﴾ جمع ابن، أي: ويهرب الإنسان من أبنائه الذين هم فلذة كبده وثمرة فؤاده يتزين بهم في الدنيا ويعتز ويفتخر، وهم أقرب الناس وأحبهم إليه.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، أي: لكل إنسان من هؤلاء يوم القيامة أمر يشغله عن غيره، أي: كل منهم منشغل بطلب الخلاص لنفسه، لا يلوي على شيء سواها، ويخاف أيضًا من حقوق الآخرين عليه، وأن يروا ما ينزل به؛ ولهذا ولغيره فهو يفر من أقرب الأقربين إليه وأحبهم وأغلاهم لديه.

ولهذا لما قال ﷺ: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلًا» قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأتاه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟، قال ﷺ: «الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء كل منهم يقول: «نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري» حتى تنتهي إلى محمد ﷺ فيشفع لهم إلى ربه عز وجل[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في صفة الجنة- فناء الدنيا ٢٨٥٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

غرلًا، فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، أو ما أشغله عن النظر»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا»، فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ وفي رواية أنها قالت يا رسول الله: واسوأتاه الرجال والنساء، قال يا عائشة: «الأمر أعظم من ذلك ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ »(٢).

وعن عكرمة قال: «يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي: بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا أتخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾»(٣).

فما أصعب هذا الموقف، وما أشده، وما أعظمه إذ كيف يهرب الإنسان من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه؛ أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه؟ وكيف تذهل فيه المرضعة عما أرضعت كما قال عز وجل: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: ٢]. إنها شدائد القيامة وكرباتها وأهوالها العظام- اللهم ارحمنا برحمتك والطف بنا يا لطيف.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة «عبس» ٣٣٣٢، وقال «حديث حسن صحيح»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٠.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز- باب البعث ٢٠٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٠، وروي من حديث سودة بمعناه، أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٥.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٩.

تبرأ الشركاء والأنصار، وفر الأقارب والأصهار، وانقطع الرجاء إلا من الواحد القهار، وانشغل كل بنفسه عن غيره يبغي لها النجاة من النار. اللهم إنا نسألك الثبات والنجاة.

وقد أحسن القائل:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها ... لنفسي من نفسي عن الناس شاغل[1]

وقال الآخر:

ومن بعد ذا حشر ونشر وموقف ... ويوم به يكسى المذلة مذنب

إذا فر كل من أبيه وأمه ... كذا الأم لم تنظر إليه ولا الأب[2]

وإذا كان الإنسان سينشغل بنفسه عن أعز الناس لديه وأقربهم وأحبهم إليه في ذلك اليوم، فيا ليت الكثيرين- اليوم- ممن يرى الواحد منهم القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه يتذكرون هذا فينشغلون في هذه الحياة بعيوبهم عن عيوب الآخرين ويا ليت من يتناصرون بينهم من أقارب وغيرهم بالباطل يتذكرون هذا الموقف العصيب فيرتدعون.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، أي: في ذلك اليوم العظيم ينقسم الناس إلى فريقين: فريق وجوههم ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهم المؤمنون- نسأل الله تعالى من فضله.

ومعنى ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، أي: مشرقة مضيئة مستنيرة، كما جاء في الحديث: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر»[3].

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾، أي: ظاهر عليها السرور والبشر، الدال على سرور القلب وابتهاجه، مستبشرة بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) البيت للربيع بن خيثمة. انظر: «ربيع الأبرار» ٢/ ٣٢٢، «المستطرف» ص٩٥، «مجاني الأدب» ٢/ ١١٨.

(٢) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص١٨٨-١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[فصلت: ٣٠].

﴿وَوُجُوهٌ﴾، أي: وفريق وجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي: عليها غبار.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: تغشاها وتعلوها ظلمة شديدة وسواد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ الذين كفروا بالله بقلوبهم فأنكروا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وآياته وشرعه ورسالاته.

﴿الْفَجَرَةُ﴾ الذين ارتكبوا الفجور بجوارحهم وأعمالهم الظاهرة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة وصيحتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾.

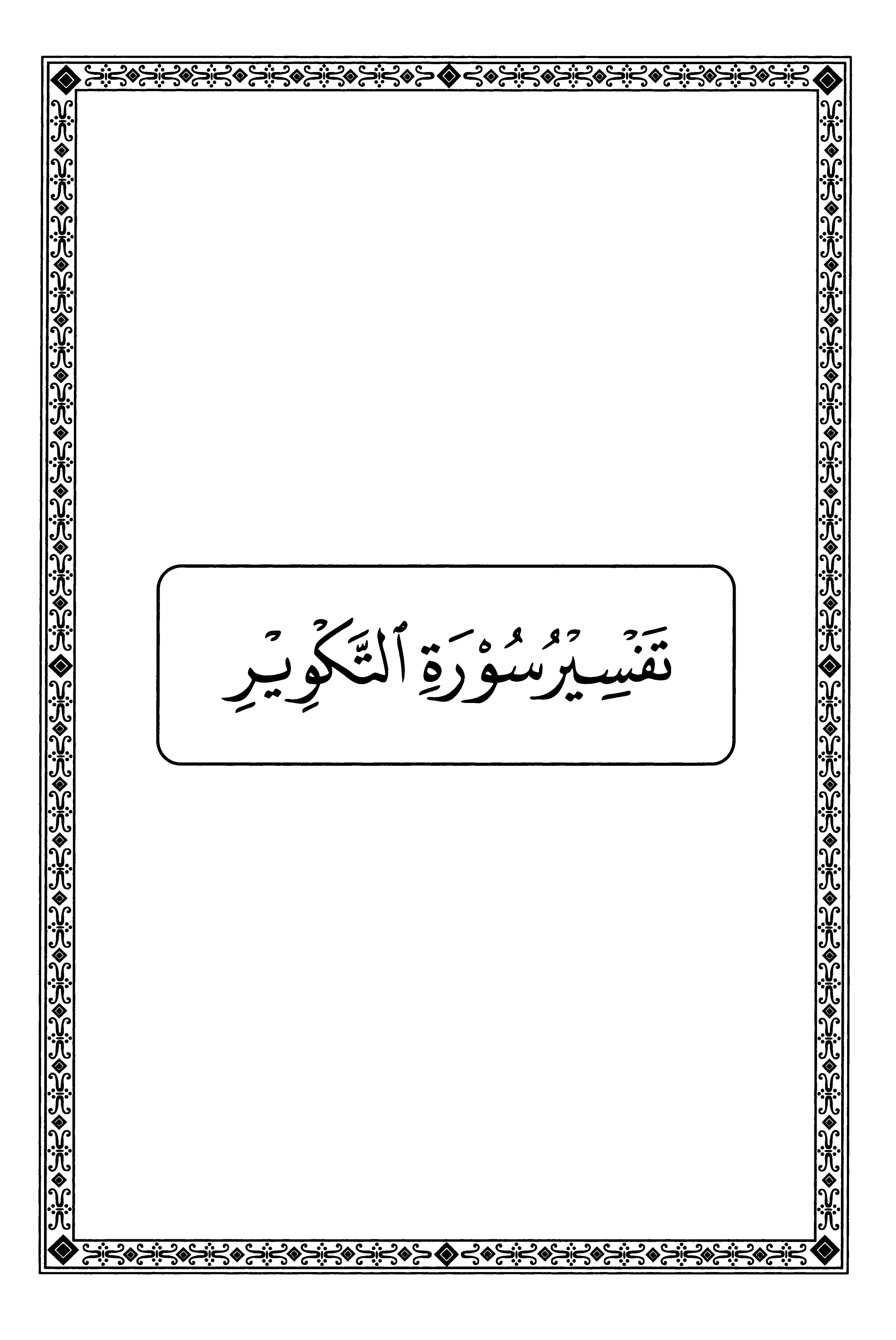
٢- انشغال كل إنسان في ذلك اليوم بخلاص نفسه، وفراره من أقرب الناس إليه، أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

٣- يجب استحضار هذا المشهد، وأنه في ذلك اليوم لا ينفع أحد أحدًا.

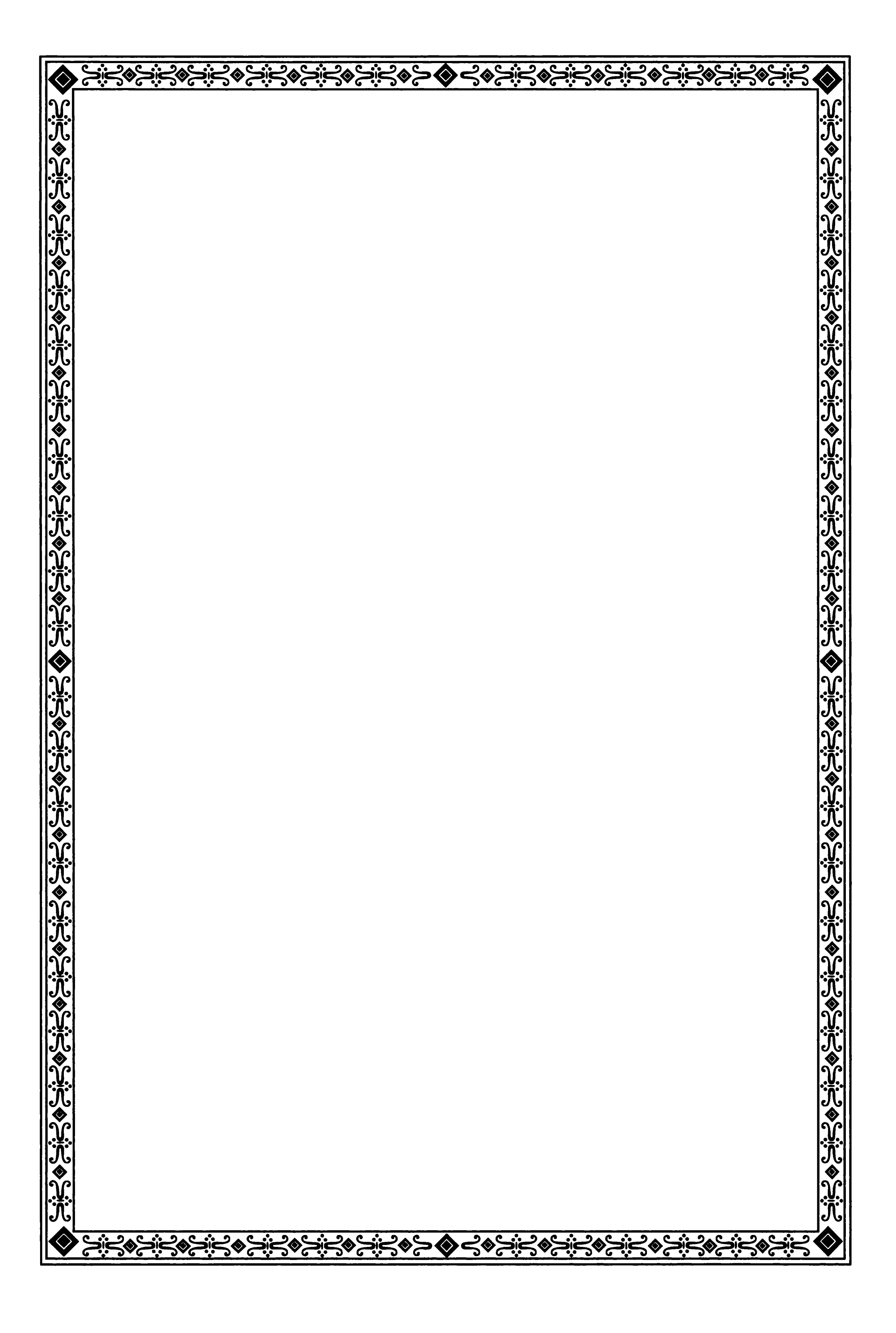
٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين حسب أعمالهم فريق وجوههم مسفرة مستنيرة ضاحكة مسرورة مستبشرة بما أعد لها من النعيم والكرامة، وهم المؤمنون، وفريق وجوههم يعلوها الغبار، وتغشاها الظلمة والسواد، وهم الكفرة الفجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والفجور.

* * *



تَفسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّكوِيرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكوير» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾.

وتسمى «سورة إذا الشمس كورت»، و«سورة كورت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: ١][(١)].

عن عمرو بن حريث قال: «صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾»[(٢)].

د- موضوعاتها

١- ذكر علامات القيامة وأهوالها والوعيد بالنار والوعد بالجنة: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾.

إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾.

٢- إثبات وتأكيد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى نزل به جبريل على النبي ﷺ، ذكر للعالمين: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (إذا الشمس كورت) ٣٣٣٣، وأحمد ٢/ ٢٧، ٣٦ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٧٥، وأبو داود في الصلاة ٨١٧، والنسائي في الافتتاح- القراءة في الصبح بإذا الشمس كورت ٩٥١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨١٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾.

قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ «إذا»: ظرفية شرطية غير جازمة. وتكوير الشيء بمعنى لفه، أي: إذا الشمس لفت وذهب بنورها ورمي بها في النار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»(١).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة»(٢).

وفي ذلك إغاظة للذين عبدوها من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، أي: انتثرت وتساقطت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾، أي: جعلت تسير تمهيدًا لدكها ونسفها، كما قال تعالى ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الشمس والقمر بحسبان ٣٢٠٠.

(٢) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٥٢.

دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ العشار: النوق الحوامل في الشهر العاشر، واحدها عُشَراء، وهي خيار الإبل، وأنفس الأموال آنذاك.

﴿عُطِّلَتْ﴾، أي: تخلى عنها أهلها وأهملوها بلا راع ولا حلب وسُيِّبت، وهي من أنفس الأموال، وذلك لظهور علامات القيامة ومقدماتها، وانعقاد أسبابها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ الوحوش: جمع وحش، وهو الحيوان المتوحش الذي ينفر من الناس بخلاف الحيوان الإنسي والأهلي، والمراد بالوحوش هنا- والله أعلم- جميع الحيوانات والبهائم، وإنما خصت الوحوش بالذكر؛ لأنها إذا حشرت مع توحشها فغيرها من باب أولى.

﴿حُشِرَتْ﴾، أي: جمعت في أرض المحشر. والحشر: الجمع، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩].

فتجمع الوحوش والبهائم ليقتص لبعضها من بعض، كما في الحديث، «حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها كوني ترابًا»[1].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «سُجِرت» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿سُجِّرَتْ﴾، أي: وإذا البحار العظيمة التي تمثل نحو ثلاثة أرباع الأرض أو أكثر أشعلت وأوقدت فصارت نارًا تتأجج، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: المؤجج نارًا.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، أي: جمع كل شكل إلى نظيره ومثيله وشكله، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

فجمع أهل الخير إلى بعضهم، وجمع أهل الشر إلى بعضهم.

---

(١) سبق تخريجه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ فقال: «يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس»[١].

وقيل: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾، أي: زوجت الأرواح بالأجساد، أي: ردت كل روح إلى جسدها.

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ الموءودة: هي البنت تدفن وتدس في الأرض وهي حية بعد ولادتها كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فإذا ولد لأحدهم أنثى ساءه ذلك كراهة منهم للبنات، مخافة العار والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨﴾ [الزخرف: ١٧، ١٨].

فيوم القيامة تسأل الموءودة هذا السؤال ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء: «قتِّلت»، وقرأ الباقون بتخفيفها، أي: بسبب أي ذنب «قتِلت»، وهذا السؤال لتوبيخ قاتلها، وجوابه: أنها قتلت بلا ذنب.

ومن الوأد إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه، أي: بعد مضي مائة وعشرين يومًا عليه، من غير ضرورة، وقد عد ﷺ العزل من ذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي»[٢].

وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الوائدة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح- جواز الغيلة، وهي: وطء المرضع وكراهة العزل ١٤٤٢، وأبو داود في الطب- باب في الغيل ٣٨٨٢، والنسائي في النكاح- باب الغيلة ٣٣٢٦، والترمذي في أبواب الطب- ما جاء في الغيلة ٢٠٧٢، وابن ماجه في النكاح- باب الغيل ٢٠١١، وأحمد ٦/ ٤٣٤.

والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»[١].

وعن حسناء ابنة معاوية بن الصريمة عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الموءودة هي المدفونة فمن زعم أنها في النار فقد كذب، بل هي في الجنة».

وفي رواية عنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ ، قال ابن عباس: هي المدفونة»[٣].

ولو صح قول من قال الموءودة في النار فيما إذا كان أبوها غير مسلم، فإنه لا يصح أن يقال: إنها في النار إذا كان أبوها مسلمًا، لأنه لا إشكال أن أطفال المسلمين معهم في الجنة، وفي أولاد المشركين الخلاف هل هم في الجنة أو في النار مع آبائهم، أو يمتحنون في عرصات القيامة وهذا هو الأظهر، وفيه جمع بين الأقوال.

ورُويَ عن خليفة بن حصين، قال: «قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية، أو ثلاث عشرة، قال: «أعتق عددهن نسمًا» فأعتق عددهن نسمًا»[٤].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب وعاصم بتخفيف الشين، وقرأ الباقون بتشديدها: «نشِّرت» والصحف جمع صحيفة، وهي ما تكتب فيها الأعمال.

ومعنى ﴿نُشِرَتْ﴾، أي: أعطي كل إنسان صحيفته وكتاب أعماله بيمينه أو بشماله- مفتوحًا- يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٣- ٣٤٠٤، ٣٤٠٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٧.

عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

أي: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧، ١٢].

وهذا مما يوجب على المسلم الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة كمحاسبة الشريك الشحيح لشريكه، بل أشد، والحرص على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، أي: كشفت وأزيلت عن مكانها وطويت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان وحفص بتشديد العين ﴿سُعِّرَتْ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «سعِرت»

و﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: اسم من أسماء النار سميت به؛ لشدة لهبها وحرها ولظاها ﴿سُعِّرَتْ﴾، أي: أشعلت وأوقدت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، أي: قربت لأهلها وأدنيت إكرامًا لهم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ وما بعده. و«ما»: موصولة، أي: إذا وقعت هذه الأهوال وتبدلت الأحوال عند ذلك علمت كل نفس الذي أحضرته.

أي: الذي قدمته من عمل، من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]،

وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- عظم أهوال يوم القيامة وشدتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ الآيات.

٢- تبدل الأحوال في ذلك اليوم وتغيرها فالشمس تكور، والنجوم تتساقط، والجبال تسير، والبحار تؤجج نارًا، والسماء تزال عن مكانها إلى غير ذلك.

وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

٣- انشغال الناس عند ظهور علامات القيامة وأهوالها عن أنفس أموالهم.

٤- بلاغة القرآن الكريم في مخاطبة الناس بما يعرفون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وقد كانت حين نزول القرآن الكريم هي أنفس الأموال عند العرب.

٥- جمع الوحوش والبهائم يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني ترابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

٦- جمع كل شكل إلى نظيره وقرينه في ذلك اليوم الأخيار مع الأخيار والأشرار مع الأشرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

٧- سؤال الموءودة عن سبب قتلها وبأي ذنب؛ توبيخًا وتقريعًا لقاتلها وانتصارًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

٨- تطاير الصحف ونشرها بين الخلائق، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

٩- تسعير الجحيم وإيقادها؛ لتعذيب الكافرين والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

١٠- تقريب الجنة لأهلها المتقين تكريمًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

١١- أن من كرم الضيافة أن يؤتى بالطعام إلى الضيوف، ويوضع بين أيديهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، لا أن يهيأ ثم يقومون إليه، أو يترك كل منهم يخدم نفسه بنفسه، كما يفعله أدعياء المدنية الزائفة.

١٢- علم كل نفس بما قدمته من خير أو شر بعد معاينتها لهذه الأهوال، واطلاعها على صحيفة أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاء: استئنافية. و«لا» للتنبيه وتأكيد القسم.

والتقدير: أقسم بالخنس. ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه عز وجل بها يدل على عظمته هو- سبحانه وتعالى- وهذا بخلاف المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وخبر الله عز وجل صدق، وقوله حق، بلا قسم، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢].

وإنما جاء القسم في القرآن الكريم جريًا على أسلوب العرب في تأكيدهم الكلام بالقسم، وكذلك الحال بالنسبة لخبر الرسول ﷺ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه «أخبرنا رسول الله ﷺ؛ وهو الصادق المصدوق»(١).

و«الخنس»: النجوم تخنس، أي: تختفي بالنهار، بعد ظهورها بالليل.

ومنه سمي الشيطان بالخناس؛ لأنه يخنس ويختفي عند ذكر الله عز وجل.

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- حين لقي النبي ﷺ وهو جنب قال: «فانخنست»(٢) أي: اختفيت.

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: جمع جارية، يقال في جمعها: جوار، وجاريات، أي: أنها تجري، أي: تسير، وليست بثابتة، ومن هنا سميت الكواكب السيارة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، وأبو داود في الطهارة ٢٣١، والترمذي في الطهارة ١٢١.

﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: الغُيَّب، أي: اللاتي يغبن بالليل، فهن يظهرن فيه، ثم يغبن فأقسم عز وجل بالنجوم في أحوالها كلها، من طلوعها وجريانها وغروبها واختفائها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أي: إذا أدبر وولى وذهب، ولهذا قال بعده:

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: إذا أقبل وانفلق وأضاء وأسفر، عقب إدبار الليل، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٢].

قال الشاعر:

حتى إذا الصبح له تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا[1]

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أي: إذا أقبل بظلامه، فيكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]، والأول أظهر، وأعظم في الدلالة والعبرة.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالنجوم والليل إذا أقبل أو أدبر، والصبح إذا انفلق وأضاء على أن القرآن قول رسول كريم.

والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر في السورة لأنه معلوم معهود.

فأقسم عز وجل بهذه الآيات العظيمة، وما فيها من الدلائل التامة على عظيم قدرة الله عز و جل ونعمه الجسيمة على أمر عظيم، وهو أن القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

أي: لتبليغ رسول كريم- وهو جبريل عليه السلام- كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فأضافه عز وجل إلى جبريل عليه السلام؛ لأنه هو الواسطة بين الله عز وجل وبين الرسول ﷺ، كما أضافه إلى النبي ﷺ في قوله في سورة الحاقة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الآيتان: ٤٠، ٤١]؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل.

(١) البيت لعلقمة بن قرط. انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٨٧- ٢٨٨، «جامع البيان» ٢٤/ ١٦٢.

فهو كلام الله عز وجل سمعه جبريل من الله عز وجل، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، وكل من جبريل ومحمد ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، ورسول من عنده.

وقسمه عز وجل في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤١] أعظم من قسمه في قوله هنا ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ﴾ الآيات؛ لأن المقسم به في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أعم فهو يعم الإقسام بكل شيء.

وقوله: ﴿رسول﴾، أي: ملك مرسل من عند الله عز وجل؛ لتبليغ القرآن الكريم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام ونكّره؛ تعظيمًا له عليه السلام.

﴿كَرِيمٖ﴾: شريف حسن الأخلاق والصفات، جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير أجرى الله على يديه نقل رسالاته عز وجل إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، والتي فيها خير الدنيا والآخرة وهو أفضل الملائكة، وأعظمهم وأشرفهم عند الله عز وجل.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، أي: ذي قوة وشدة في خلقه، وفي بطشه وفعله، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ﴾ [النجم: ٥، ٦].

فجبريل- عليه السلام- بما منحه الله- عز وجل من قوة وشدة لا تستطيع الشياطين الدنو منه، ولا التعرض لما يحمله من وحي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وهو بما منحه الله من قوة يوالي الرسول ﷺ ويناصره على من عاداه، وينفِّذ بقوته ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط عليهم فجعل عاليها سافلها فهلكوا بأمر الله عز وجل.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي عند الله عز و جل صاحب العرش العظيم، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

وذو العرش صاحب العرش سبحانه وتعالى الذي استوى على العرش، كما قال

تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿مَكِينٖ﴾، أي: له عند الله عز وجل مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ووجاهة، وهو أقرب الملائكة إلى الله عز وجل.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ «ثم»: بمعنى «هناك، أي: مطاع أمره، مسموع قوله في الملأ الأعلى؛ لوجاهته وشرفه بين الملائكة.

﴿أَمِينٖ﴾، أي: ذو أمانة عظيمة على ما اؤتمن عليه من الوحي.

فوصف عز وجل جبريل عليه السلام بخمس صفات عظيمة، وهي كونه: كريمًا، قويًا، ذا مكانة عند الله تعالى، مطاعًا في السموات، أمينًا.

وكل هذه الصفات تتضمن تزكية سند القرآن الكريم، وأنه أجل وأرفع الأسانيد، وأصحها وأعلاها، سمعه جبريل عليه السلام من رب العالمين، وسمعه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام.

وفيه تشريف وتعظيم للقرآن الكريم، كما أن فيه مدحًا وتشريفًا لجبريل عليه السلام.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة جواب القسم، فهي من جملة المقسم عليه، والخطاب لأهل مكة، أي: وما صاحبكم يعنى محمدًا ﷺ ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾، أي: بمختل العقل، كما تزعمون، وهم- وإن تفوهوا بهذا وزعموه- فهم يعلمون أنه ليس بمجنون، وأنهم كاذبون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: الذي تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته وكمال عقله، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [القلم: ٢].

وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل، كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ [الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٤].

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام للقسم، أي: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائة جناح.

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، أي: بالأفق البين الظاهر العالي، أفق السماء الشرقي وهي الرؤية

الأولى التي كانت بالأبطح، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥- ١٠].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء: «بظنين»، أي: وما محمد على ما أنزل إليه من الوحي بمتهم بالكذب، بل هو صادق أمين، كما كان ﷺ يلقب بين قومه بالأمين وعلى هذا فالرسول الملكي أمين والرسول البشري أمين.

وقرأ الباقون بالضاد: ﴿بِضَنِينٍ﴾، أي: وما محمد بما أنزل إليه من الوحي ببخيل، يقال: ضنّ، أي: بخل- كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليَّ كرام(١)

أي: وإن بخلوا. وقال الآخر:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل وضنت علينا والضنين من البخل(٢)

أي: وبخلت علينا.

والمعنى: وما محمد ﷺ على الوحي ببخيل، بل بذله ﷺ ونشره، وبلغه لكل أحد وأشهد على ذلك أمته، وربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: ما هو مما توحيه شياطين الجن إلى شياطين الإنس من الكهنة ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

والشيطان: كل متمرد، عات، خارج عن طاعة الله عز وجل من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢].

---

(١) انظر: «البلاغة الواضحة» ص٨٧.

(٢) البيت للبعيث. انظر «لسان العرب» مادة: «ضنن».

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»(١).

و«رجيم»: «فعيل» بمعنى: «مفعول، أي: مرجوم حسًا ومعنى، بالرمي بالشهب وإخراجه من الجنة، وبلعنه وطرده عن رحمة الله عز وجل.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، أي: أيّ طريق تسلكون، أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس: ٣٢].

وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بالقرآن وزعمكم أنه ليس بكلام الله، ورميكم الرسول ﷺ بالجنون، وإعراضكم عن طاعة الله تعالى مع وضوح الحق.

كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: «ويحكم أين يُذهب بعقولكم، والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله»(٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»؛ لأنها جاءت بعدها «إلا».

أي: ما هو يعني القرآن الكريمَ إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝١٠٤﴾ [يوسف: ١٠٤].

يذكرهم بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، ووجوب عبادته ويذكرهم بمبدئهم ومعادهم، وما فيه سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإنما يُخص بالتذكرة به المتقون والمؤمنون ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به، ولهذا قال بعد هذا:

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٦٢.

شاء منكم الاستقامة على الطريق المستقيم، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

فلا سبيل للاستقامة على هذا الطريق إلا باتباع القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ [طه: ٩٩- ١٠١].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ «ما»: نافية، أي: وما تشاءون من شيء من استقامة أو غيرها إلا أن يشاء الله ذلك. فلا يمكن أن يشاء الخلق إلا ما شاءه الله وأراده.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم. و«العالمين»: كل ما سوى الله عز وجل من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد، وغير ذلك، فما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالنجوم في أحوالها الثلاث حال اختفائها، وحال جريانها وحال غيبتها وبالليل في حال إقباله وإدباره وبالصبح في حال بروزه وظهوره على أن القرآن الكريم قول رسول كريم بلغه عن الله عز وجل، وهو جبريل عليه السلام؛ بلغه للنبي محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾.

٢- شرف جبريل عليه السلام، وفضله من بين الملائكة حيث خصه الله عز وجل بتبليغ وحيه إلى رسله، وامتدحه عز وجل بالكرم والقوة ورفعة منزلته عنده، وطاعته في الملأ الأعلى، وأمانته على وحي الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾.

٣- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات قوة سنده حيث إن الواسطة بين الله عز وجل

وبين النبي ﷺ هو جبريل عليه السلام الأمين، الموصوف بما ذكر.

٤- تعظيم الله عز وجل، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

٥- الرد على المشركين في رميهم النبي ﷺ بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾.

٦- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق الظاهر الأعلى على صورته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

٧- إثبات كرمه ﷺ في تبليغ الوحي وأمانته عليه، ونفي كونه بخيلًا به أو متهمًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾.

٨- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، وليس بقول شيطان رجيم، كما زعم المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾.

٩- إثبات وجود الشياطين، من الإنس والجن.

١٠- انقطاع حجة المكذبين للقرآن الكريم، إذ لا طريق أبين وأوضح من طريق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾.

١١- أن القرآن الكريم ذكر وموعظة للعالمين كلهم من الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- أن من يتذكر بالقرآن ويتعظ به هو من شاء الاستقامة وسلك طريق الحق وتحرى الرشد، وهم المؤمنون المتقون، دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

١٣- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله كما يقول الجبرية.

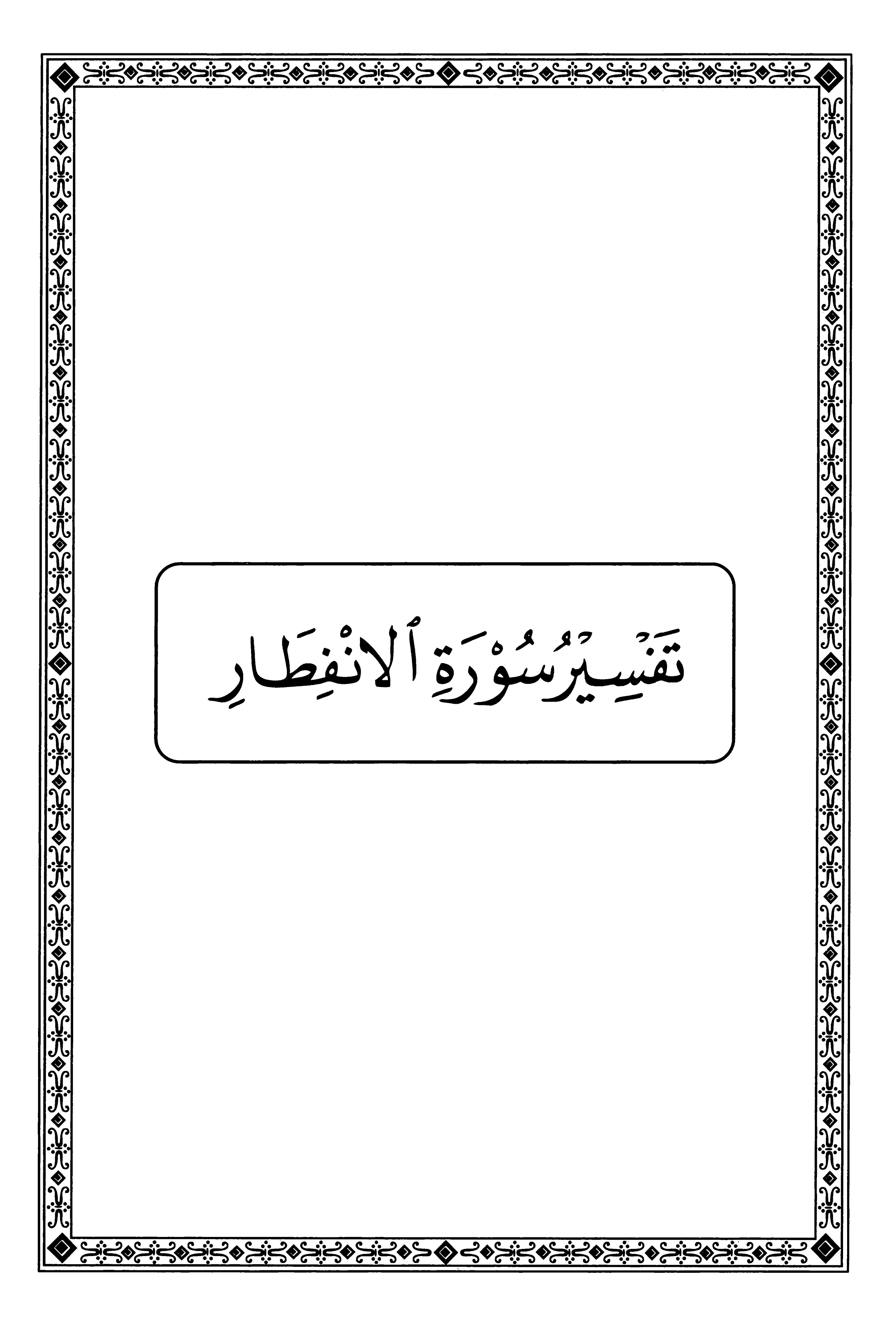
١٤- أن الدين الإسلامي وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط؛ لقوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾.

١٥- إثبات مشيئة الله- عز وجل- وإرادته الكونية، وإثبات ربوبيته العامة لجميع العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

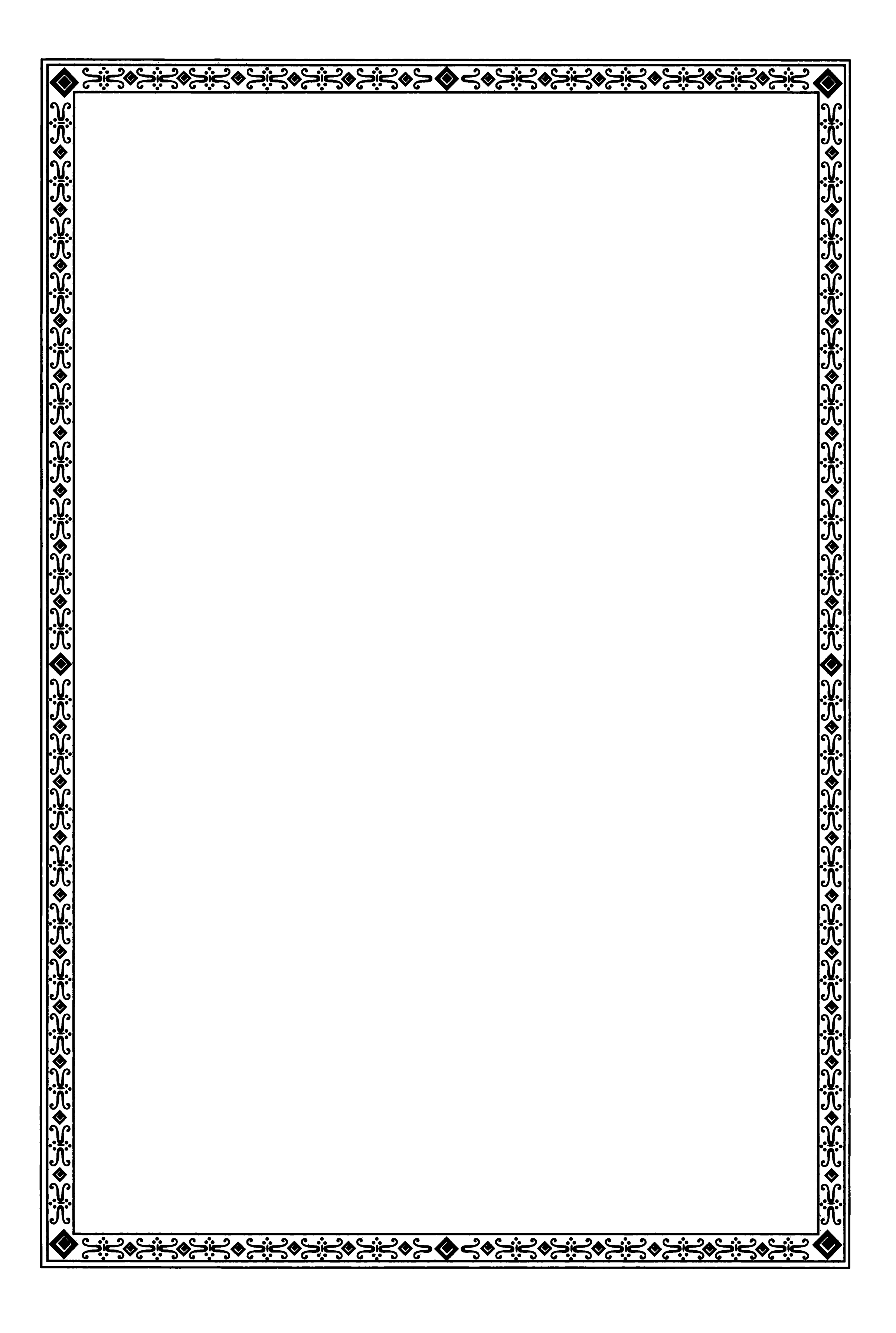
١٦- أن مشيئة الخلق ليست مستقلة لوحدها، بل هي تابعة لمشيئة الله عز وجل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يستقل بمشيئته ويخلق فعله- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلانْفِطَارِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانفطار» لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾، وتسمى: «سورة إذا السماء انفطرت»، وتسمى: «سورة انفطرت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ «أفتان يا معاذ؟! أفتان يا معاذ؟! أين كنت عن «سبح اسم ربك الأعلى»، و«الضحى»، و«إذا السماء انفطرت»[(١)].

وسبق في حديث ابن عمر قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء انشقت»[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة، ومعرفة كل نفس آنذاك ما قدمت وما أخرت: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾.

٢- توبيخ الإنسان: ما الذي غره بربه الكريم الذي خلقه وسواه، حتى كفر به وكذبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾.

٣- وعد الأبرار وبشارتهم بما لهم من النعيم، ووعيد الفجار وتهديدهم بما أعد لهم

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح- القراءة في العشاء الأخرة: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ٩٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

من الجحيم والعذاب المقيم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

٤- تعظيم يوم القيامة، وبيان تفرده عز وجل فيه بالملك والأمر: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾.

قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾، أي: انشقت كقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾ [الحاقة:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق:١]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، أي: تساقطت، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير: ٢].

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، أي: فجر بعضها على بعض، فاختلط مالحها بعذبها وصارت بحرًا واحدًا.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، أي: قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى، فقاموا لله عز وجل.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، أي: إذا وقعت هذه الأهوال والأحوال والعلامات الأربع آنذاك علمت كل نفس الذي قدمته من الأعمال الصالحة، والذي أخرته منها فلم تعمله، أو علمت الذي قدمته من خير أو شر، والذي أخرته من خير أوشر، وذلك بعد العرض وتطاير الصحف.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب،

و«ها» للتنبيه. والمراد بالإنسان الكافر أو جنس الإنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول كفار.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ «ما» استفهامية، و«غرك»، أي: خدعك، أي: أيّ شيء خدعك يا أيها الإنسان بربك، خالقك ومالكك ومدبرك.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾: كثير الخير والنوال، وعظيم النعم والأفضال، فكذبت خبره، وأنكرت البعث، وعصيته وخالفت أمره، وارتكبت نهيه. كما رُويَ في الأثر: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»[١].

قال جمع من المفسرين: غرّه والله جهله، وشيطانه، ونفسه الأمارة بالسوء، وهواه ودنياه.

وقال بعضهم: غره كرم الله وحلمه وستره وإمهاله؛ لقوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[٢].

والآية تحتمل المعنيين، أي: كيف عصيت ربك وخالفت أمره، وأنكرت نعمه وأفضاله عليك.

فقوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ مع دلالته على عظيم فضل الله على الإنسان، بربوبيته وخيره المسدى إليه- فيه أيضًا تذكير وتنبيه إلى أن الواجب على الإنسان مقابلة نعم الله عليه بالشكر لا بالكفر.

وفي الآية: تهديد ووعيد وتحذير للإنسان أن يغره الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى والدنيا.

قال الشاعر:

إني بليت بأربع لم يُخْلَقُوا ... إلا الشدائد شقوتي وعنائي[٣]

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

فعلى الإنسان أن لا يغتر بستر الله وكرمه وإمهاله، فإن الله عز وجل يمهل ولا

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٤.

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٠٨.

(٣) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني ١/ ٤٠.

يهمل، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، أي: الذي أوجدك وأنشأك من العدم.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جعلك مستوي الخلقة متناسب الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الدال: ﴿فَعَدَلَكَ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿فعَدَّلك﴾ بتشديدها. أي: جعلك معتدل الخلق منتصب القامة في أحسن الهيئات والأشكال.

عن جبير بن نفير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: ابن آدم، أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»(١).

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾، أي: في أي صورة من الصور، وأي شكل من الأشكال.

﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: كيفما شاء عز وجل ركب صورتك وشكلك، وقد سوّى خلقتك وعدّل قامتك وحسّن صورتك، بفضله وكرمه عليك، فاشكره ولا تكفره ولو شاء لجعل صورتك قبيحة كصورة قرد أو خنزير أو كلب أو حمار، أو غير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود؟ قال: «هل لك من أبل»؟ قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر قال: «فهل فيها من أورق؟»، قال: نعم، قال: «فأنى أتاها ذلك؟»، قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: «هذا عسى أن يكون نزعه عرق»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق- إذا عرّض بنفي الولد ٥٣٠٥، ومسلم في اللعان ١٥٠٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٠، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٨، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٨، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٢.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ قرأ أبو جعفر بالياء: «يكذبون» وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، والوعيد والتهديد، و«بَلْ»: للإضراب الانتقالي، أي: مع هذا الخلق، والإعداد والإمداد ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، أي: بما جاء به الرسول ﷺ من الوحي والرسالة، كما قال المكذبون للرسل ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥].

وتكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، كما قالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إن عليكم لحافظين من الملائكة يحفظونكم ويحصون أعمالكم.

وأكد الجملة بـ «إن»، واللام، وحذف الموصوف الملائكة واكتفى بالصفة إشارة لشدة حفظهم وضبطهم لأعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

﴿كِرَامًا﴾، أي: ذوي أخلاق كريمة وصفات حميدة، وعندهم من الكرم والأمانة والصفات الحميدة ما يجعلهم يقومون بما وكلوا به أتم قيام، دون زيادة أو نقصان.

كرامًا عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كرام بررة﴾ [عبس: ١٦].

﴿كَاتِبِينَ﴾، أي: يكتبون جميع أعمالكم وأقوالكم، فاحذروا واستحيوا منهم، وأكرموهم فلا تقابلوهم بالقبائح، وأجلُّوهم من أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، فالملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يعلمون الذي تفعلون، أو يعلمون فعلكم.

أي: يعلمون فعلكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وجميع أحوالكم بما أعلمهم الله عز وجل وأقدرهم عليه حتى أعمال القلوب؛ ولهذا قال ﷺ: «فمن هم بحسنة فلم

يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- عظم أهوال يوم القيامة وتبدل الأحوال فيها وتغيرها، فالسماء المحبوكة تنفطر، والكواكب تنتثر وتتساقط، والبحار يفجر بعضها على بعض، والقبور يخرج ما فيها من الأموات؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾.

٢- إثبات البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

٣- علم كل نفس في ذلك اليوم بما قدمته من الأعمال وما أخرته، فلم تعمله، ودقة الحساب ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

٤- الحث والترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر والسوء.

٥- توبيخ الإنسان على جهله واغتراره بربه وكرمه وإمهاله، وتفريطه في حقه عز وجل وتحذيره من غرور الشيطان والنفس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

٦- تذكير الإنسان بربوبية الله- عز وجل- له، وكرمه- عز وجل- وتمام قدرته، وعظيم نعمه عليه، خلقه فسواه وعدل صورته فجعله في أحسن خلقة وأجمل صورة، مما يوجب عليه شكر نعمة الله عليه وعبادته والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

٧- الردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين بالدين والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان- إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١٣١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٨- إثبات وجود الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة، وكتابتهم لأعمال العباد، ووجوب الإيمان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾

٩- علم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين بأفعال العباد الظاهرة والباطنة، وكتابتهم لها بأمانة، دون زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

بين عز وجل في الآيات السابقة أنه أوكل على الخلق ملائكة حافظين كرامًا كاتبين يعلمون أفعال العباد ويكتبونها لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها، ثم أتبع ذلك بذكر أن مآل الأبرار إلى النعيم وأن مآل الفجار إلى الجحيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الأبرار: جمع «بَرّ» والبَرّ: كثير الطاعة، كثير الخير والإحسان، محسن في عبادة الله، ومحسن إلى عباد الله.

والبِرّ: حسن الخلق، وما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، كما قال ﷺ(١) وهو كلمة جامعة لخصال الخير كلها، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من الإيمان بالله وبجميع أركان الإيمان الستة، وبكل ما يجب الإيمان به، وأنواع القربات والطاعات من الإنفاق على المحتاجين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وتقوى الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف الملائكة: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، أي: كرام مطيعين. وجماع ذلك تقوى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومنه سمي بر الوالدين، وهو طاعتهم والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار،

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

لأنهم بروا الآباء والأبناء»[1].

والمراد بالأبرار أصحاب اليمين، وهم المقتصدون، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يراد بالأبرار هنا ما يشمل المقربين، السابقين إلى الخيرات بإذن الله، وذلك لأن الله ذكرهم في مقابل الفجار أصحاب الجحيم.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، والنعيم: ما يتنعم ويلتذ به، أي: إنهم في نعيم معنوي، وهو نعيم القلب، ونعيم حسي، وهو نعيم البدن، في جنات النعيم.

وهم أيضًا في نعيم معنوي وقلبي في حياتهم الدنيا لطمأنينتهم ورضاهم بقضاء الله وقدره، وذكرهم له، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[2].

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الفجار: جمع فاجر، وهم أهل الكفر والفجور، ضد الأبرار.

﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد. والجحيم هي النار سميت بذلك؛ لشدة توقدها ولظاها وحرها، فهم فيها في عذاب معنوي للقلب وعذاب حسي للبدن.

كما أنهم في الدنيا في شقاء معنوي للقلب، وشقاء حسي للبدن.

قال ابن القيم[3]: «لا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأيُّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تبارك وتعالى، ومحبته، والعمل على موافقته، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش

---

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٦.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٩- من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٤٩-١٥٠.

القلب السليم..».

وقال في موضع آخر: «وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب، وأيُّ عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب».

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها ويغمرون فيها ويقاسون حرها من كل جهة ومن كل جانب.

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: يوم القيامة، وسمي يوم الدين؛ لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي: يجازون بها ويحاسبون عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، أي: وما هم عن الجحيم بغائبين، أي: أنهم مقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون عنها أبدًا ولو ساعة، كما قال تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ «ما»: للاستفهام في الموضعين، وهو للتعظيم والتفخيم، أي: وما أعلمك.

﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: ما هو يوم الدين، أي: هو يوم عظيم، لا كالأيام، يوم طويل، ثقيل عبوس قمطرير، عسير، شره مستطير، يشيب من هوله الوليد، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٧].

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تأكيد لعظمة ذلك اليوم، أي: ثم ما أعلمك ما هو يوم الدين؟

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وإيضاح له، أي: يوم الدين، هو ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق: ١- ٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١- ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ١- ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ ثم فسره بقوله:

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٩- ١١].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٤- ٧].

ولهذا قال المفسرون إذا قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فإنه يدريه بمعنى: يفسر ذلك له، وإذا قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لا يدريه، أي: لا يفسر ذلك له، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس: ٣].

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الميم: «يومُ»، وقرأ الباقون بنصبها.

«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: يوم لا تملك نفس لنفس أيَّ شيء، مهما كان صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، من جلب نفع أو دفع ضر أو غير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

فالناس في الدنيا يتناصرون ويدافع بعضهم عن بعض لكن في الآخرة هيهات ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمّ وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا»[1].

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٥٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في التفسير ٣١٨٥، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، أي: والأمر في ذلك اليوم كله لله عز وجل وحده بلا منازع، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣].

قال قتادة رحمه الله: «﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ والأمر- والله- اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد»(١).

وإن المسلم لتأخذه الدهشة أن يمر كثير من المسلمين على هذه الآية ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ ولا يستوقفه معناها، وهل كان الأمر في يوم من الأيام لغيره سبحانه؟ كلا، بل له الأمر اليوم وقبله وبعده، وفي ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: ٤]، وإنما معنى ذلك أنه يظهر للناس جميعًا تمام الظهور في ذلك اليوم كمال ملكه عز وجل، حيث يخضع جميع الخلق لأمره وحكمه، الملوك وما ملكوا بلا منازع، بخلاف الحال في الدنيا فإن الكثير من الناس من الملوك والمملوكين يتقلبون في ملك الله، ويتمتعون بنعمه ويبارزونه بالمعاصي فهذا كله ينتهي وينقطع كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وأخرجه البخاري مختصرًا في التوحيد ٧٤١٣.

الفوائد والأحكام:

١- أن مآل الأبرار إلى النعيم في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

٢- أن مآل الفجار إلى الجحيم والعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

٣- إصلاء الفجار بالنار وغمرهم فيها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

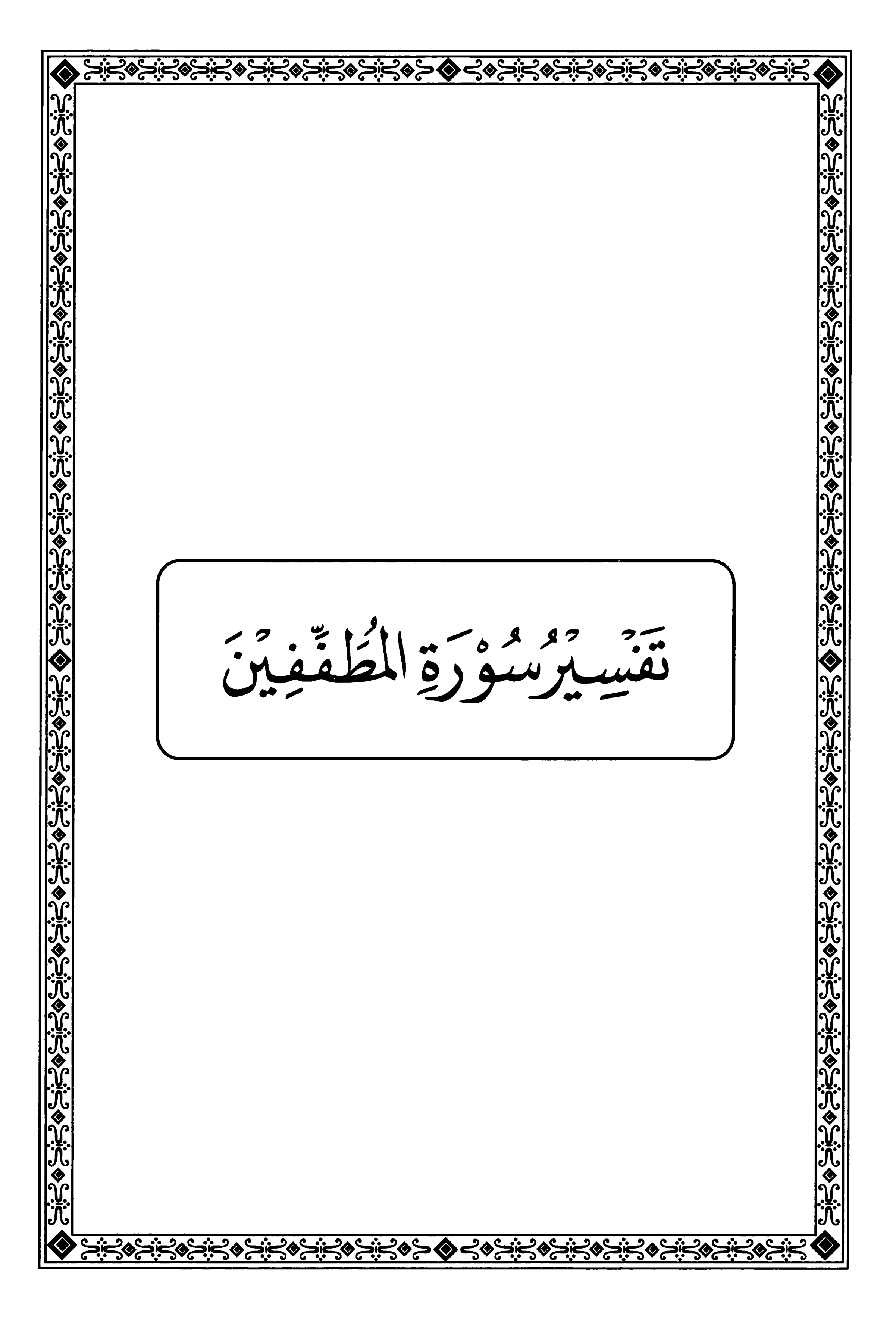
٤- خلود الفجار والكفار في النار، وعدم خروجهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

٥- عظم يوم القيامة وشدة أهواله، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

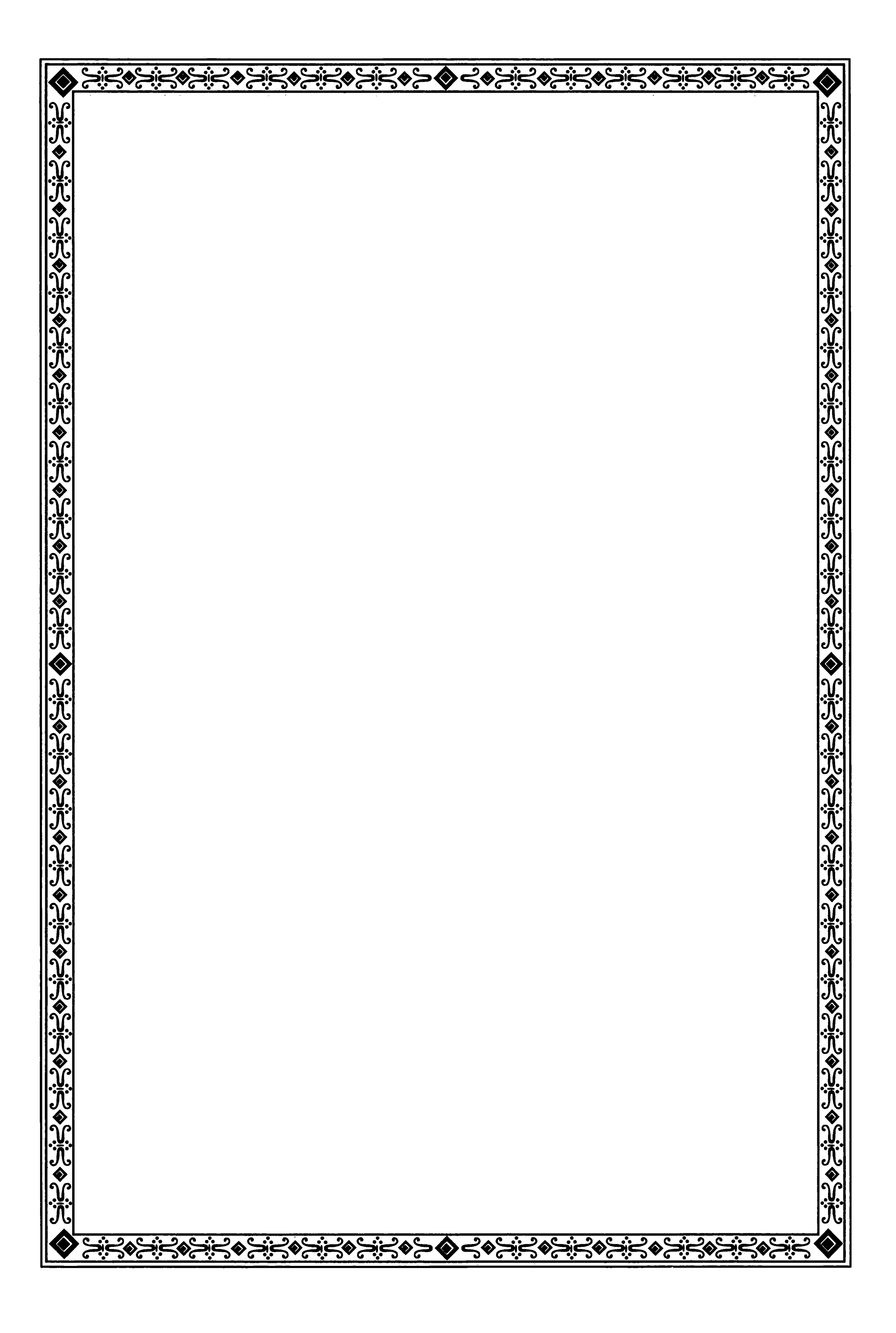
٦- يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئًا، لا نصرًا ولا دفعًا، ولا منعًا ولا نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

٧- ظهور انفراده عز وجل بالملك والأمر تمام الظهور يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المطففين»؛ لأن الله توعدهم في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [الآيات: ١-٥].

وتسمى: «سورة ويل للمطففين»، و«سورة التطفيف».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقال بعضهم: مكية، وقيل بعضها مدني، وبعضها مكي.

جـ-موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعيد المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون حقهم وإذا كالوا لغيرهم نقصوهم حقهم، وتهديدهم بيوم القيامة العظيم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

٢- بيان وتأكيد أن الفجار في سجين؛ لتكذيبهم بيوم الدين، وبآيات الله، ووعيدهم باصطلاء الجحيم وتقريعهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

٣- بيان أن مال الأبرار إلى عليين يتمتعون فيها بألوان النعيم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

٤- ذكر ما كان من المجرمين والكفار في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء والتندر بهم، ووصفهم بالضلال. والوعيد لهم بمجازاتهم يوم القيامة بمثل

فعلهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[1].

ولهذا روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنه سئل من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلًا؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»[2].

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رجل: «يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾»[3].

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وخسار وهلاك.

و﴿المطففين﴾: جمع مطفف، والتطفيف: البخس والنقص في المكيال والميزان، ولهذا فسره بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: إذا اكتالوا لأنفسهم وتقاضوا من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: يأخذون حقهم تامًا وافيًا.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾، أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم.

﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: يبخسون الكيل والوزن وينقصونه ويعطون الناس حقهم ناقصًا، فجمعوا بين الشح في طلب حقهم كاملًا بلا مسامحة، والبخل بمنع ما يجب عليهم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات- التوفي في الكيل والوزن ٢٢٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٨٥- ١٨٦.

إتمام الكيل والوزن لغيرهم.

وهذا الوعيد والتهديد يوجب على الإنسان العدل فيما له وما عليه في الكيل والوزن وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

وذكر الله عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

وإنما توعد الله عز وجل المطففين بهذا الوعيد الشديد لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحّة، ولا بد من أدائها إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بأعمال مثل الجبال، ثم يأتي وقد شتم هذا، ولطم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحسي، فيأخذون حقهم وافيًا، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، فإن بخس الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم، وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

فالحذر الحذر من بخس حقوق الآخرين حسية كانت أو معنوية من الوالدين والأولاد والأزواج والإخوة وغيرهم من الأقارب والجيران وسائر الناس.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فكم من زوج يقصِّر في حق زوجه ويطالبه بحقه كاملًا، وكم من قريب يبخس حق قريبه ويطالبه بحقه كاملًا، وقد أحسن القائل:

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ ... ـمهذب في الدنيا ولست المهذبا(١)

وكم من إنسان يدعي الدين والتقى والزهد والورع، ويهمهم بالتوبة ويوجه الناس ويدعوهم لكنه لا ينصف من نفسه، ولا يقول الحق عليها، بل ولا يقبله، يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، يكيل بمكيالين، ينتقد الآخرين ولا يقبل أن ينتقد، بل لا يقبل أن يُنصح.

ولا شك أن هذا ونحوه يدل على مرض القلب وفساده، فإن المسلم الحق من أنصف من نفسه، وقال الحق وقبله له وعليه وشغلته عيوبه عن عيوب غيره، واعترف بضعفه، واتهم نفسه بالتقصير، وقبل النصح، بل وشكر عليه، قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فما أصعب الإنصاف من النفس، وما أشده على النفوس، فكم من إنسان يستطيع قيام الليل، وصيام النهار، والقيام بكثير من الطاعات وأعمال البر لكنه يقف دون مرتبة الإنصاف من نفسه، وإن ادعى ذلك، فهو كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا(٢)

عن المعرور بن سويد رضي الله عنه قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلًا فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ:

---

(١) البيت لابن الرومي. انظر: «الخصائص الواضحة» ص٥٤٦، «زهر الأكم» ١/ ٣٠١.

(٢) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

«يا أبا ذر أعيرّته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

وفي هذا أروع الأمثلة في الإنصاف فرضي الله عنك يا أبا ذر.

وقد أعجبني موقف لأحد الإخوة رحمه الله جاء يخطب لأحد أبنائه ابنة خال له رحمه الله فقال له خاله يا أبا محمد هل تشير بولدك، يعني هل تنصحني أن أزوجه ابنتي فقال له رحمه الله تعالى: لا والله يا خال ما أشير به، يعني لا أنصحك بتزويجه، وكان رحمه الله لاحظ على ابنه أمرًا لا يُؤَثِّر على تزويجه. اللهم اغفر له وارحمه جاء يخطب لولده وأشار على والد البنت ألا يزوجه لما استشاره، ما أصعب هذا وأشده على النفوس. اللهم وفقنا للإنصاف من أنفسنا وقول الحق، وقبوله وإن كان علينا.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ «ألا» الهمزة: للاستفهام الإنكاري، و«لا»: نافية، أي: ألا يتيقن أولئك المطففون، والظن يأتي في القرآن كثيرًا بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون ذلك.

﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، أي: أنهم مخرجون من قبورهم أحياء بعد موتهم.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: ليوم القيامة الذي فيه يحاسبون ويجازون على أعمالهم وهو يوم عظيم، ثقيل عسير عبوس قمطرير شره مستطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

ولهذا نكّر «يوم»، ووصفه بأنه عظيم، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: يوم يقوم الناس من قبورهم ويقفون بين يدي الله عز وجل حفاة عراة غرلًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٠، ومسلم في الأيمان ١٦٦١، وأبو داود في الأدب ٥١٥٧.

[الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

ومن هنا سمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: خاف القيام بين يديه عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ولقيام الحساب والجزاء فيه والعدل الحقيقي كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقيام الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح فيه والملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[(١)].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم- أحد رواة الحديث- ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشرًا،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ٤٩٣٨، ومسلم في الجنة- صفة القيامة ٢٨٦٢، والترمذي في القيامة ٢٤٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٨، وأحمد ٢/ ١٣، ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢١، وأحمد ٦/ ٣-٤.

وأخرجه أحمد ٥/ ٢٥٤ بنحوه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ٤/ ١٥٧.

ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»[1].

ولهذا خوف الله عز وجل المطففين بهذا اليوم العظيم؛ لأن الإيمان به وبما فيه من الأهوال والحساب والثواب والعقاب من أعظم ما يحمل على العمل وقد رُوي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في المعاصي والشرور.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للمطففين الذين يأخذون حقهم وافيًا من الناس ويبخسون حقوق الناس، والإنكار عليهم، وتذكيرهم بالبعث والمعاد والقيام بين يدي الله في ذلك اليوم العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

٢- وجوب الإيمان بالبعث والمعاد والقيام بين يدي رب العباد يوم القيامة وأن ذلك من أعظم الأسباب التي تحمل على تقوى الله ومراقبته وأداء الحقوق، ولهذا خوّف الله المطففين بهذا اليوم العظيم.

٣- وجوب مراقبة الله عز وجل وإيفاء الكيل والوزن، والعدل في التعامل مع الخلق.

٤- لا يجوز أن يكيل الإنسان بمكيالين يأخذ حقه من الناس وافيًا وينتقص حقوق الناس، ويجب الإنصاف من النفس وإعطاء كل ذي حق حقه ماديًا كان أو معنويًا.

٥- عظمة يوم القيامة وشدة أهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٧٦٦، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦١٧.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع، وفي الموضعين بعده: للردع والزجر والوعيد والتهديد.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ «كتاب» بمعنى مكتوب، و«الفجار» جمع فاجر، وهم الكفرة أصحاب الفجور المكذبون بالبعث.

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾، اللام: للتوكيد و«سجين» مأخوذ من السَّجن وهو الحبسُ والتضييق، أي: إن مصيرهم ومأواهم إلى مكان ضيق ضنك مظلم موحش، في أسفل النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في قبض روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»(١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما سجين؛ سفوله شديد، وضيقه عظيم، وسجنه مقيم، وعذابه أليم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ توكيد لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى سجين.

ومعنى ﴿مَّرْقُومٌ﴾، أي: مكتوب مختوم مفروغ منه لا يغير ولا يبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، وذلك أن هذا من الكتابة والقضاء الكوني الذي لا بد أن يقع قطعًا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وهلاك ودمار وخسار

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة- المسألة في القبر ٤٦٥٣، وأحمد ٤/ ٢٨٧، والحاكم ١/ ٣٧- وقال «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

والمعنى: ما أشد عذاب المكذبين في ذلك اليوم، ويقال أيضًا: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب؛ ليضحك الناس، ويل له، ويل له»(١).

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: تفسير وبيان ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: الذين يكذبون بيوم القيامة الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، ويعتقدون استحالة وقوعه، ولا يصدقون به.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾، أي: وما يكذب بيوم الدين وينكر وقوعه.

﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ «إلا»: للحصر، أي: إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام في أقواله وأفعاله ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم، أي: كثير الذنوب.

وقيل: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿أثيم﴾ في أقواله.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾، أي: إذا تقرأ عليه ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آياتنا الشرعية، القرآن الكريم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال عن آيات الله إذا سمعها هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «الأساطير» جمع أسطورة، أي: خرافاتهم وحكاياتهم التي تذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، أي: هذا مجموع مما سطره الأولون في كتبهم من أخبار وخرافات وغير ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

وهكذا كل من لم يصل نور الإيمان إلى قلبه.

﴿كَلَّاۖ﴾، أي: كلا، ليس الأمر كما زعموا: أن لا بعث ولا حساب، ولا كما ادعوا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥- ٦، ٧.

أن القرآن أساطير الأولين، فالبعث حق وصدق، والقرآن كلام رب العالمين سبحانه وتعالى.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: غلب عليها، وغشيها وغطاها، وحجبها وأعماها عن الحق. والرين: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: كسبهم، أو الذي كانوا يكسبون من الذنوب المتراكم بعضها على بعض، أي: حال بين قلوبهم وبين معرفة الحق والاهتداء إليه ما عملوه من الذنوب والمعاصي المتراكمة فصارت هذه الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وبينهم وبين ربهم وخالقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في قوله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»(١).

فالمعصية سبب للمعصية بعدها، والمعاصي سبب لانطماس القلوب، وعمى البصائر وحيرتها؛ ولهذا تجد كثيرًا من الناس، بل كثيرًا من المسلمين يتخبطون في كثير من أمورهم وأحوالهم، ولا يوفقون فيها للحق والصواب بسبب الذنوب والمعاصي. وما تعيشه الأمة اليوم من أحداث وتفرق وخلافات أدت إلى اختلاف القلوب كل ذلك سببه الذنوب والمعاصي وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المطففين ٣٣٣٤، وابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٤، وأحمد ٢/ ٢٩٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٠٠، وقال الترمذي «حديث صحيح».

فلا طريق لمعرفة الحق والاهتداء إليه والخروج من الحيرة والتذبذب أمام كل القضايا والمشكلات، إلا بالرجوع إلى الله عز وجل وسؤاله الرشد والهداية، كما قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر، في أمور الدين والدنيا، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة(٢).

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(٣).

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا»(٤).

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ ﴾، أي: عن رؤية ربهم في الآخرة.

﴿ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾، أي: لممنوعون عقوبة لهم.

ومفهوم هذا أن المؤمنين يرون ربهم في ذلك اليوم، وأنهم يتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، لأن رؤيتهم له عز وجل أعظم نعيمهم وأعلاه.

ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣١٩، وأحمد ٥/ ٣٨٨- من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»(١).

وقد قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسر ﷺ الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(٢).

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعلى هذا دلت السنة وأجمع الصحابة والأئمة. قال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب»(٣).

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»(٤).

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: لداخلوها ومغمورون فيها ومقاسون حرها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾، أي: ثم يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير والتصغير:

﴿هَٰذَا﴾، أي: حرمانكم من رؤية الرب الغفار، وإصلاؤكم الجحيم والنار.

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فتقولون: لا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على القلوب، والذي لا يقل عن العذاب الحسي.

الفوائد والأحكام:

١- أن كتاب الفجار ومصيرهم ومأواهم في مكان ضيق ضنك في أسفل النار في الأرض السفلى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٠٥- من حديث عمار بن ياسر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد- قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٧٤٤٠، ومسلم في الإيمان ١٨٢، ١٨٣، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

٢- تأكيد شدة سوء هذا المكان سفولًا وضيقًا وظلمة ووحشة، وتحتم مصير الفجار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالحق وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤- إثبات البعث وأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل والحلال، إلى الحرام كثير الإثم والذنوب، مكذب للقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

٥- ذم الفجار والمكذبين، وبيان أن الذنوب والمعاصي تغشى القلوب وتعميها عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

٦- حرمان الفجار من رؤية ربهم عز وجل في الآخرة، وحجبهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٨- إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لقوله في الفجار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ ومفهوم هذا أن المؤمنين يرونه.

وعلى هذا دل الكتاب والسنة، وعليه أجمع الصحابة وسلف هذه الأمة.

٩- إدخال الفجار الجحيم وإصلاؤهم وغمرهم فيها وإحاطتها بهم من كل جهة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾.

١٠- الجمع للفجار بين العذاب الحسي في الجحيم، والعذاب المعنوي المنصب على القلوب من التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة مآل الفجار المكذبين بالبعث والحساب، وتوعدهم بالويل والهلاك والدمار، والحرمان من رؤية الجبار، وإصلائهم بالجحيم والنار ثم أتبع ذلك بذكر مآل الأبرار وما أعد الله لهم في أعالي الجنان من النعيم. على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هذا مقابل قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾، و«كلا»: حقًا.

«كِتَٰبَ» أي: مكتوب.

و﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: جمع بر، وهم المؤمنون المتبعون لأوامر الله والمجتنبون لنواهيه كثيرو الخير والإحسان وضدهم الكفار الفجار.

﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿عِلِّيِّينَ﴾: مأخوذ من العلو والارتفاع، أي: إن مصيرهم و مآلهم في مكان عال مرتفع، وهو أعلى الجنة في السماء السابعة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾: تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما عليون منزل رفيع ومكان وسيع، ومجلس كريم، فيه ألوان النعيم.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾: توكيد لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى عليين.

﴿مَّرۡقُومٞ﴾، أي: مكتوب، لا يتغير ولا يتبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، أي: يحضره المقربون عند الله عز وجل من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين تنويهًا بهذا الكتاب وإشهارًا له، وتعظيمًا لشأن الأبرار وإشادة بذكرهم.

«والمقربون»: جمع «مقرب»، وهم الذين تقربوا إلى الله عز وجل بالإيمان والأعمال الصالحة، فقربهم إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ

ﭐلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: اطلبوا إليه القربة والزلفى عنده.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ هذا بيان لما كتب لهم في عليين.

و«النعيم» كل ما تتنعم وتسر به القلوب وكل ما تلتذ به وترتاح له النفوس، من المآكل والمشارب والأزواج والمساكن والبساتين وغير ذلك من ألوان النعيم المعنوي نعيم القلب والنعيم الحسي نعيم البدن.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ هذا إلى قوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ تفصيل للنعيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

و﴿الأرائك﴾ جمع أريكة، وهي السرر المزينة المزخرفة الرفيعة عليها الفرش الناعمة الحسنة البهية، وضع عليها مثل الظل.

﴿ينظرون﴾، أي: ينظرون إلى ما أعطاهم الله من النعيم والملك الكبير، والذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين»(١).

وهذا في مقابل ما أعده الله للفجار من العذاب الأليم، والحرمان من رؤية الرب الرحيم.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء: «تُعرَف» ورفع «نضرةُ».

وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء: ﴿تَعۡرِفُ﴾، ونصب ﴿نَضۡرَةَ﴾.

أي: تعرف وترى في وجوههم إذا نظرت إليها نضارة التنعم وحسنه وبهاءه وبريقه، وبهجة الفرح والسرور لأن أثر ذلك يبدو واضحًا على الوجوه.

وفي الحديث: «أنه ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢- من حديث =

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، أي: يسقون من شراب الرحيق، وهو الخمر، الذي يطوف به عليهم الولدان المخلدون كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩].

﴿مَّخْتُومٍ﴾، أي: مختوم عليه عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ قرأ الكسائي: «خاتمه»، وقرأ الباقون: ﴿خِتَامُهُ﴾»، أي: آخر شربة منه، برائحة المسك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيما مؤمن سقى مؤمنًا شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا ثوبًا على عري كساه الله من خُضْر الجنة»(١).

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

قوله: ﴿وفي ذلك﴾ الإشارة إلى ما أعده الله عز وجل للأبرار من ألوان النعيم السابقة وغيرها.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ التنافس والمنافسة: المسابقة يقال نافسته، أي: سابقته سباقًا بلغ بي النفس.

أي: وفي الحصول على هذا النعيم والعيش الكريم والخير العميم فليتسابق المتسابقون بأعمال البر من فعل الطاعات والقربات والخيرات والأعمال الصالحات والبعد عن المنهيات.

﴿وَمِزَاجُهُ﴾، أي: ما يمزج به ويخلط هذا الرحيق الذي يسقى منه الأبرار.

﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من شراب من عين تسمى: ﴿تَسْنِيمٍ﴾، تنبع من الفردوس في أعلى الجنة، وهو أفضل شراب أهل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس،

=
كعب بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٣ - ١٤.

فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[(١)].

ولهذا فسر ذلك بقوله:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: هذا التسنيم. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ «عينا» مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني، أو أمدح، أو يسقون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفًا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا»[(٢)].

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون منها ويرتوون، ولهذا قال ﴿بِهَا﴾ ولم يقل «منها» فضمن «يشرب» معنى «يروى» فعدي بالباء، كما في قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج[(٣)]

و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: جمع مقرّب، وهم المقربون عند الله عز وجل وهم السابقون المذكورون في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

وهم السابقون بالخيرات كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمعنى: أن هذه العين المسماة ﴿تَسْنِيمٍ﴾، والتي نبعها وشرابها أفضل وأعلى شراب أهل الجنة يشرب منها صرفًا بلا خلط المقربون ويرتوون منها بينما تمزج مزجًا للأبرار وهم أصحاب اليمين بالرحيق، كما في قوله هنا ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ [المطففين: ٢٥- ٢٧].

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾؛ فهذا خليط من الخمر والكافور للأبرار، ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الآيتان: ٥، ٦]، أي: عين الكافور يشرب منها المقربون خالصة صرفًا،

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- كان عرش الرحمن على الماء ٧٤٢٣.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ١٢.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.

بلا مزج ويرتوون.

والجزاء من جنس العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بغيرها مزج لهم شرابهم.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن كتاب الأبرار ومصيرهم ومأواهم إلى عليين؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

٣- تعظيم منزلة الأبرار وعلو مكانتهم في الجنة وتأكيد ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾.

٤- تشريف الأبرار وتكريمهم بشهود المقربين كتابهم المرقوم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٥- عظم ما أعده الله للأبرار من النعيم، فهم على الأسرة ينظرون إلى ما أعد لهم من الملك العظيم، مع بهجة القلوب ونضارة الوجوه، شرابهم الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾

٦- أن هذا النعيم العظيم الذي أعده الله للأبرار هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون ويتسابق إليه المتسابقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٧- أن المقربين يشربون صرفًا من عين التسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٨- أن الجزاء على قدر الإيمان والعمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل مآل الفجار، وما أُعد لهم من أنواع العذاب، وذكر مآل الأبرار وما أعده لهم من ألوان النعيم، ذكر ما كان يلقاه المؤمنون من المجرمين الفجار في الدنيا من الضحك والاستهزاء بهم ورميهم بالضلال فجعل الله العاقبة للمتقين وجوزي الكفار بما كانوا يفعلون.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، أي: الذين ارتكبوا الجرائم والموبقات.

﴿كَانُوا﴾، أي: في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون من المؤمنين استهزاء وسخرية بهم بسبب إيمانهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾، أي: إذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين يغمز بعضهم بعضا بالإشارة باليد، أو بالعين أو بغير ذلك تنقصًا للمؤمنين واحتقارًا لهم وسخرية منهم.

ويحتمل أن المعنى: وإذا مر الذين آمنوا بهؤلاء المجرمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾، أي: يغمز المجرمون بعضهم بعضًا.

والمعنى متقارب، وهو أن هؤلاء المجرمين إذا رأوا المؤمنين يتغامزون احتقارًا لهم وسخرية منهم.

وقريب من هذا قول المنافقين في غزوة تبوك فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيره: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء- يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٥٤٣.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾، أي: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من أزواج وأولاد وغيرهم.

﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وحفص: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: «فاكهين» بالألف.

أي: رجعوا حال كونهم متفكهين متلذذين بتنقصهم للمؤمنين واحتقارهم لهم، واستهزائهم بهم وسخريتهم منهم، ومن هنا قيل للغيبة: فاكهة المجالس.

ومتفكهين بنعم الله عليهم التي لا تحصى، لكنهم لم يشكروها، بل كفروها واشتغلوا بالاستهزاء بالمؤمنين واحتقارهم، فجمعوا بين الكفر بالله وبنعمه وأذية عباده المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: وإذا رأى هؤلاء المجرمون الذين آمنوا قالوا: إن هؤلاء القوم.

﴿لَضَآلُّونَ﴾، أي: لتائهون عن الحق والصواب، وليسوا على هدى.

وهذا دأب المكذبين في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

وإذا كان هذا يقال للرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- فمن دونهم سيرمى بالضلال ونحو ذلك من باب أولى. فانتبه أخي المسلم لهذا، ولا يفت في عضدك ما دمت على الحق.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: وما بعث هؤلاء المجرمون على المؤمنين ﴿حافظين﴾ يرقبونهم ويحفظون أعمالهم ويحصونها ويحكمون عليهم، فلم اشتغلوا بهم وأهملوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝١١١﴾ [المؤمنون: ١٠٨- ١١١].

ولهذا فإن من ضعف العقل وانطماس البصيرة انشغال المرء بعيوب غيره عن عيوب نفسه، أن يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، وكما قيل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى

ولـو كـان ذا عقـل لمـا عـاب غـيره وفيـه عيـوب لـو رآهـا بهـا اكتفـى

وقد استفحل هذا الأمر حتى أصبح كثير من الناس يفرط فيما يعنيه وما يجب عليه من العمل في إصلاح نفسه وأهله وأقاربه وجيرانه وما يقدر عليه، وما سيسأل عنه غدًا، وينشغل بما لا يعنيه من الكلام في الآخرين ونقدهم وذمهم، ممن لا يطلب منه إلا الدعاء لهم- واسأل وسائل الاتصال عما يدور فيها- وهذا من أعظم المصائب، وأشد البليات وأكبرها، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وكما قيل:

يقضــى عــلى المــرء في أيــام محنتــه حتى يـرى حسـنًا مـا لـيس بالحسـن[١]

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان فكما ضحك المجرمون والكفار من المؤمنين في الدنيا فإن المؤمنين يضحكون منهم يوم القيامة جزاء وفاقًا.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك: جمع أريكة، أي: على الأسرة والفرش الحسنة الناعمة ينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

وأيضًا ينظرون إلى هؤلاء المجرمين وهم في النار يعذبون.

فتبين بهذا أن الذين آمنوا هم المهتدون حقًا، لا الضالون، كما زعم المجرمون.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ «هل»: للاستفهام التقريري، أي: هل جوزي الكفار.

﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يفعلون، أو فعلهم.

والجواب: نعم جوزي الكفار على فعلهم أوفر الجزاء وأتمه وأكمله حتى إنه قوبل ضحكهم من المؤمنين في الدنيا بضحك المؤمنين منهم في الآخرة، والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحدا.

---

(١) انظر: «نفح الأزهار» ص٦٠.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة الكفار والمجرمين وأذيتهم للمؤمنين وضحكهم منهم في الدنيا واستهزاؤهم بهم، وتنقصهم واحتقارهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾.

٢- تفكه هؤلاء المجرمين عند رجوعهم إلى أهلهم باستهزائهم بالمؤمنين وباحتقارهم لهم، وتفكههم بنعم الله عز وجل وكفرهم به وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾.

٣- وجوب الحذر من الاستهزاء أو السخرية بأحد من المؤمنين، أو بشيء من الدين أو كفر النعم فهذا دأب الكفار والمجرمين والمنافقين.

٤- جرأة المجرمين والكفرة والمنافقين على رمي المؤمنين بالضلال، واتهامهم لهم بأشد الاتهامات تنفيرًا للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

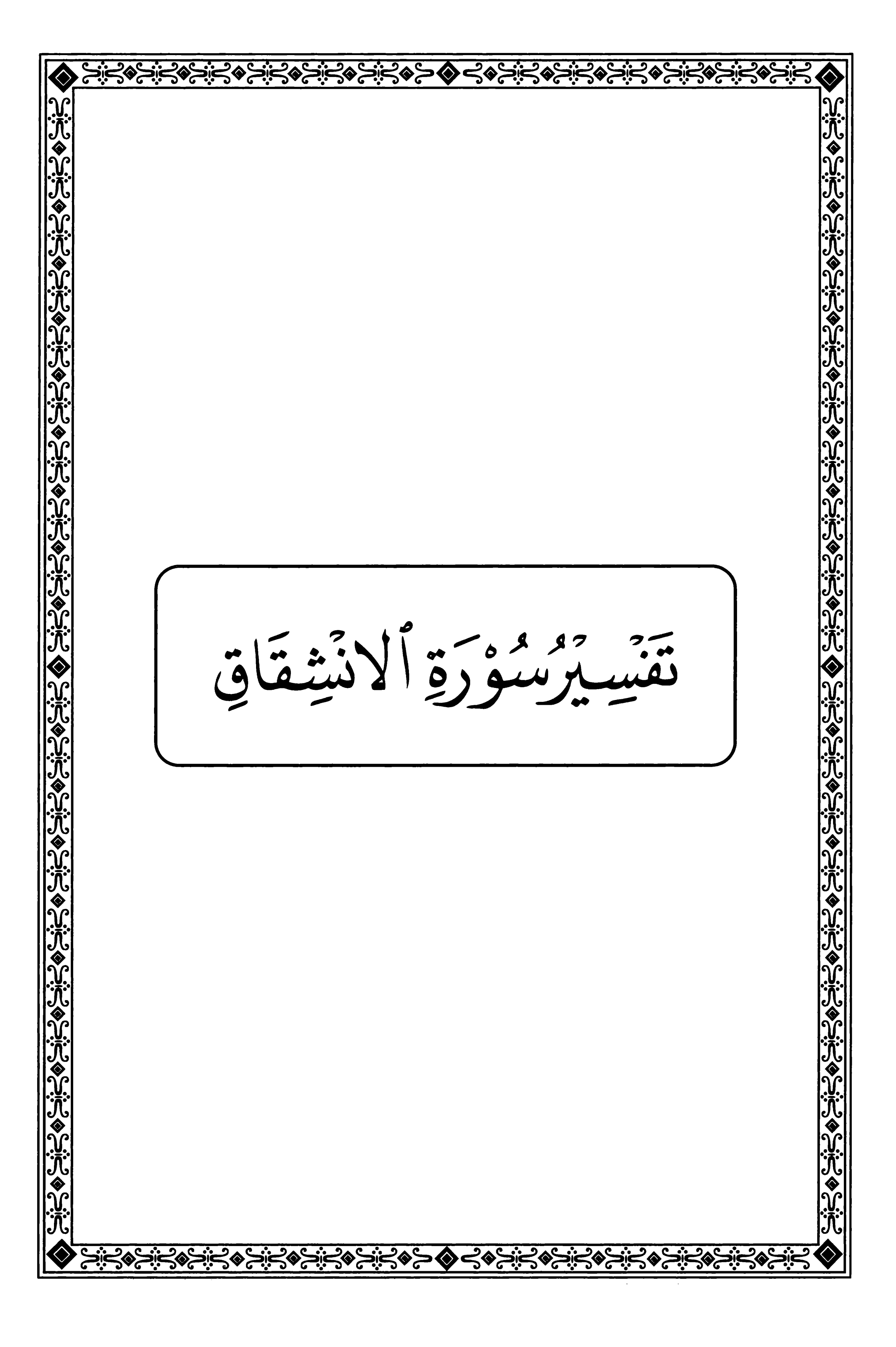
٥- الرد على المجرمين في حكمهم على المؤمنين بالضلال، وانشغالهم بهم، وبما لا يعنيهم عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

٦- الحذر من انشغال المرء عما يعنيه بما لا يعنيه، وعن عيوب نفسه بعيوب الآخرين، كما هو حال كثير من الناس.

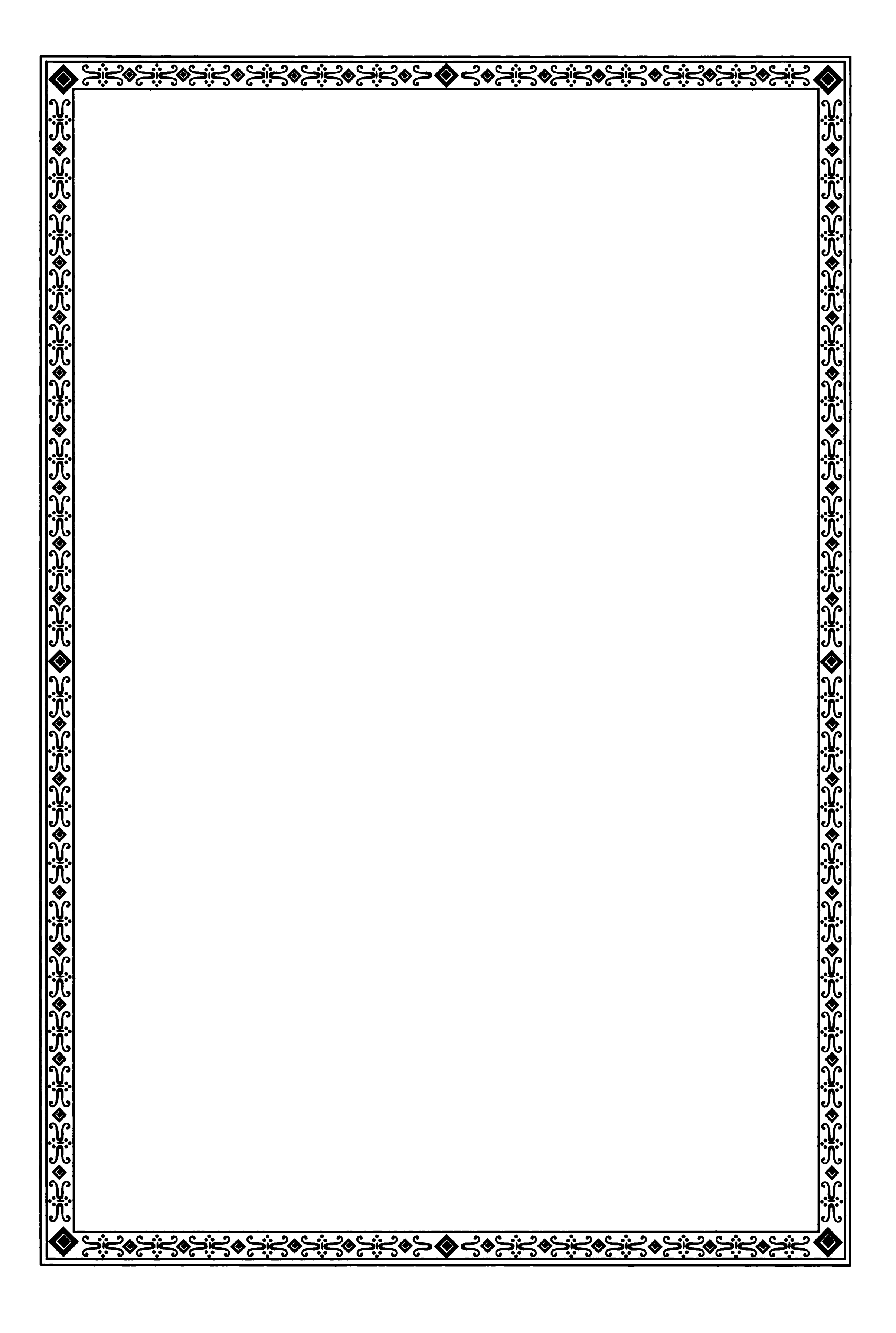
٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فكما ضحك المجرمون من المؤمنين في الدنيا، وتفكهوا في ذلك، ضحك منهم المؤمنون في الآخرة وهم على الأسرة ينظرون إلى ما هم فيه من النعيم، وإلى أولئك المجرمين يعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾.

٨- مجازاة الكفار بفعلهم، عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلانشِقَاقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانشقاق»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة إذا السماء انشقت»، و«سورة انشقت» اختصارًا.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

سبق في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: «إذا الشمس كورت»، و«إذا السماء انفطرت»، و«إذا السماء انشقت»[(١)].

د- موضوعاتها:

١- ذكر علامات القيامة وأهوالها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾.

٢- إثبات القيامة ولقاء اله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾

٣- ذكر انقسام الناس إلى فريقين فريق يعطى كتابه بيمينه، ويحاسب حسابًا يسيرًا، وفريق يعطى كتابه من وراء ظهره، يدعو ثبورًا ويصلى سعيرًا: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥﴾.

٤- تقلب أحوال الناس وانتقالهم من حال إلى حال﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- الإنكار على المكذبين والكفار عدم إيمانهم، وتكذيبهم وكفرهم وتهديدهم ووعيدهم بعذاب أليم، ووعد المؤمنون بالأجر العظيم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

أي: إذا السماء انفطرت وتصدعت وانفتحت وانفرجت وذلك يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ [المرسلات: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي: استمعت لربها- خالقها ومالكها والمتصرف فيها.

ومنه الحديث: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[(١)]، أي: ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.

ومنه قول الشاعر[(٢)]:

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نسب هذا البيت إلى قعنب بن أم صاحب. انظر «الحماسة» لأبي تمام ٢/ ١٧٠، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة ٣/ ٨٤، و«لسان العرب» مادة «أذن».

أي: سمعوا.

فالمعنى: استمعت لربها وأطاعت أمره لها بالانشقاق، كما أطاعته في ابتداء خلقه لها قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَحُقَّتۡ﴾، أي: وحق لها، ووجب عليها أن تسمع وتطيع لأمره، لأن هذا من أمره الكوني وهو نافذ لا محالة، لأنه عز وجل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾، أي: دك ما عليها من جبال وبناء وغير ذلك ووسعت، ومدت كما يمد الأديم وبسطت.

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾، أي: وألقت ما في باطنها من الأموات وتخلت عنهم، وذلك بعد النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وأيضًا ألقت ما فيها من الكنوز وتخلت عن ذلك كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل، فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق، فيقول في هذا قطعت يدي. ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئًا»(١).

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾: توكيد لاستماعها لربها وطاعتها له.

وجواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ وما بعده محذوف، وهو مفهوم من السياق وتقديره: حوسب الإنسان وجوزي ورأى ما قدم من خير أو شر.

وعلى هذا يدل قوله بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: نداء وخطاب للإنسان جنس الإنسان، من مؤمن، وكافر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الكدح: السعي والعمل.

قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح[(١)]

ومعنى الآية: إنك عامل وساعٍ إلى ربك، أي: حتى تصل إلى ربك وتنتهي إليه.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿كدحًا﴾: مصدر مؤكد، أي: عملًا وسعيًا حثيثًا بجد ومشقة، إما خيرًا، وإما شرًا، وشتان بين الكادحين.

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)].

قال لبيد[(٣)]:

وما الناس إلا عاملان فعامل يُتبِّر ما يبني وآخر رافع

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي فملاق ربك عن قريب وسيجازيك بما عملت قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وكل آت قريب.

والعمر مهما طال في هذه الحياة فهو قصير، قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

والحياة البرزخية مهما طالت أسرع وأقرب من ذلك؛ ولهذا قال الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال أصحاب الكهف: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وقد لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

فما أسرع ملاقاة الإنسان لربه، وما أقرب ذلك.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما

---

(١) البيت لابن مقبل. انظر: «ديوانه» ص٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[١].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢].

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

بعد ما بين عز وجل أن كل إنسان كادح في هذه الحياة، وساع إلى ربه، فملاقيه فيجازيه بعمله ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وتفصيل حال كل منهما في ذلك اليوم.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من»: اسم شرط جازم، أي: فأما من أعطي كتاب عمله بيده اليمنى تكريمًا له، وهو المؤمن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

أي: فسوف يحاسب حسابًا سهلًا خفيفًا، أي: عرضًا بلا مناقشة كما جاء في عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- الصدقة قبل الرد ١٤١٣، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، ٤/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ٤٩٣٩، ومسلم في كتاب الجنة- إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في تفسير سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ٢٤٢٦، وأحمد ٦/ ٤٧.

وعنها رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا» فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟، قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه[(٢)]، ويقرره بذنوبه فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول أي ربي. فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[(٣)].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، أي: ويرجع من موقف الحساب إلى أهله في الجنة من الحور العين، وممن من الله عليهم من أهله في الدنيا بدخول الجنة من الأزواج والأولاد والوالدين وغيرهم بعد الفراق بينهم في الدنيا.

﴿مَسۡرُورٗا﴾، أي: قد سر، واستنار وجهه وظهرت عليه آثار سرور قلبه وفرحه واغتباطه بإعطائه كتابه بيمينه، وما فيه من الأجر والفضل من الله عز وجل، وبتيسير حسابه وتخفيفه، فيا حسن منقلبه ومرجعه.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما من أعطي كتاب عمله.

﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾، أي: بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وإنما أعطي كتابه بشماله إهانة له واحتقارًا وإذلالًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٨، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٩: «صحيح على شرط مسلم»، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٣٦- ٢٣٩.
(٢) أي: ستره ورحمته.
(٣) سبق تخريجه.

عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولويت يده وراء ظهره؛ لأنه نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره، ولم يرفع به رأسًا والجزاء من جنس العمل.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، أي: فسوف ينادي بالثبور والهلاك والخسار: واثبوراه واهلاكاه واخساراه، كما قال تعالى عنه في سورة الحاقة: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الآيات: ٢٥-٢٧].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام: «وَيُصَلَّى»، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مستعرة متوقدة، وهي «فعيل» بمعنى «مفعول، أي: مسعورة.

والمعنى: ويدخل النار المستعرة ويغمر ويُقَلّب فيها ويقاسي حرها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، أي: إنه كان في الدنيا في أهله؛ زوجه وأولاده وأقاربه فرحًا مغتبطًا بما هو عليه من الباطل، وذلك لموت قلبه، وعدم تفكيره في العواقب، وعدم خوفه مما أمامه.

وشتان بين هذا السرور الفاني الذي يعقبه الحزن والندم الدائم، وبين السرور في جنات النعيم؛ ولهذا قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١).

وليس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ ما يدل على حظر أن يكون المسلم في أهله مسرورًا، أو أنه ينبغي أن يكون محزونًا، أو أن لا يسر بشيء أبدًا، بل إن المسلم هو الأولى بالسرور والسعادة حقًا في الدنيا والآخرة.

لكن سرور الدنيا وسعادتها مشوب بالكدر، لهذا ينبغي أن لا يطمئن إليها المسلم،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأن يكون منها على وجل.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، أي: إنه اعتقد أنه لن يرجع إلى ربه، فهو لا يؤمن بالبعث، ولا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا.

والظن يستعمل كثيرًا في القرآن بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يعتقدون أنهم ملاقو ربهم.

والحَوْرُ: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور»[١].

قال لبيد[٢]:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلى الله، ولن يبعث بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب؛ لإيجاب المنفي، أي: بلى سيرجع إلى ربه، ويقف بين يديه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١٦].

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، أي: إن ربه عز وجل كان به بصيرًا في الدنيا، خبيرًا بأعماله، محصيًا لها، بصيرًا به في الآخرة، سيحاسبه ويجازيه عليها، ولا يمكن أن يتركه سدى بلا تكليف ولا مجازاة.

الفوائد والأحكام:

١- انشقاق السماء يوم القيامة واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾.

٢- مد الأرض، وإلقاؤها ما في باطنها من الأموات والكنوز، وتخليها عن ذلك واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٣، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٩٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٨- من حديث عبد الله بن سرجس- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

٣- أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة لا محيد عنه، ولا مفر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: وحق لها ووجب عليها أن تسمع وتطيع.

٤- سعي الإنسان سعيًا حثيثًا، وكدحه حتى يلقى ربه فيجازيه بعمله خيرًا كان أو شرًا، ولا محيد له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

٥- إثبات لقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾.

٦- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى سعيد، يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حسابًا يسيرًا ويرجع إلى أهله في الجنة فرحًا مسرورًا، وإلى شقي يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره، يدعو على نفسه بالويل والثبور ويصلى السعير، لاغتباطه وسروره بين أهله في الدنيا بما هو عليه من الباطل وإنكاره البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

٧- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الله بصير بالعباد في دنياهم وأخراهم، مطلع على أعمالهم، عليم بها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض علامات وأهوال القيامة، من انشقاق السماء، ومد الأرض، وإخراجها ما في باطنها من الأموات، وأن الإنسان ساعٍ إلى ربه فملاقيه، فآخذ كتابه بيمينه مخفف حسابه، وآخذ كتابه بشماله مثقل حسابه.

ثم أتبع ذلك بالقسم في هذه الآيات على تأكيد ما سبق، وأن الإنسان سينقل من حال إلى حال حتى يصل إلى مأواه الأخير إما الجنة، أو النار.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا»: للتنبيه وتأكيد القسم.

والمعنى: أقسم بالشفق، والشفق: هو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»(١).

وقال بعض المفسرين: المراد بالشفق النهار كله، لقوله بعده: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وقال بعضهم: المراد به الشمس؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾.

والأشهر والأظهر القول الأول.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به. و«ما»: موصولة، أي: والذي وسق، أي: والذي ضم وحوى وجمع من نجم ودواب ووحوش وهوام وظلمة وغير ذلك.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، أي: إذا اجتمع نوره، وتم وكمل، واستوى واستدار، وذلك ليالي الإبدار.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦١٢، وأبو داود في الصلاة ٣٩٦، والنسائي في المواقيت ٥٢٢، وأحمد ٢/ ٢١٠، ٢٢٣.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ هذا هو جواب القسم، واللام واقعة في جواب القسم.

فأقسم عز وجل بثلاثة أشياء متعلقة بالليل، وهي: الشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا كمل: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «لَتَركبَن» بفتح الباء، خطابًا للمفرد، أي: لتركبن أيها الإنسان، أي: لتنقلَن من حال إلى حال.

وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بضم الباء خطابًا للجمع، أي: لتركبُن أيها الناس حالًا بعد حال، أي: لتنقلُن من حال إلى حال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾: حالًا بعد حال»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[(٢)].

وعن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلًا بمثل»[(٣)].

فقد كان الإنسان عدمًا لا ذكر له، ثم خلقه الله عز وجل، وانتقل في بطن أمه من حال إلى حال ومن طور إلى طور، ثم ولد، وانتقل من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم إلى الهرم و الشيخوخة.

وهو في ذلك بين رخاء وشدة، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وعز وذل، وسرور وحزن، إلى غير ذلك من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو في ذلك كله معرض لما هو أشد وأعظم، وهل يوفق للإيمان والاستقامة على

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٠

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠، وأخرجه أيضًا من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه ٥/ ٢١٨، والترمذي في الفتن ٢١٨٠، وقال: «حديث حسن صحيح».

طاعة الله، فيسعد في دينه ودنياه وأخراه، أو يخذل، فيختار الكفر على الإيمان، فيشقى في دينه ودنياه وأخراه. وما دام المرء حيًا فهو عرضة للفتنة، فعلى المؤمن أن يلزم الدعاء بقوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

كما أن الإنسان متنقل في حياته ينتقل من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار إلى أن يموت فينتهي إلى مصيره ومأواه في دار القرار، فإما إلى الجنة دار المقربين والأبرار وإما إلى النار مثوى الكافرين والفجار.

عن ابن شماسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلًا، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أمَا بشّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟، قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أجد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» وما كان أحد أحب من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها..» الحديث(٢).

ولما كان المقسم به والمقسم عليه في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾ فيه أعظم الأدلة على ربوبيته عز وجل ووحدانيته وكماله وصدق رسله، وعلى المعاد، عقبه بقوله:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام الإنكاري، أي: فما الذي يمنعهم من الإيمان؛ أو أي شيء يمنعهم من الإيمان مع وضوح البرهان، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن ينتهوا إلى دار القرار، قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩].

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، أي: وما الذي يمنعهم إذا تلي عليهم القرآن أن يخضعوا له وينقادوا لأوامره ويصلوا، ويسجدوا على الأعضاء السبعة عند سجداته تعظيمًا له، وشكرًا لله عز وجل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ سجد في هذه السورة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾»[1].

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له. قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[2].

وقد استدل بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة بعض أهل العلم.

والصحيح أنه سنة مؤكدة، وليس بواجب لما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة النمل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد، فقال رضي الله عنه: «إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٧، والنسائي في الافتتاح السجود في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ٩٦٣، والترمذي في الجمعة ٥٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٠٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٨، والنسائي في الافتتاح ٩٦١.

(٣) أخرجه البخاري في سجود القرآن- من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ١٠٧٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكر عليه أحد. وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[(١)].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا يكذبون بالحق ولا يصدقون به؛ جحودًا وعنادًا، فهذا هو سبب عدم إيمانهم وعدم سجودهم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ «أعلم»: أفعل تفضيل، أي: أنه عز وجل أعلم من كل أحد.

﴿بِمَا يُوعُونَ﴾، أي: بما يجمعون ويضمرون، و هو- عز وجل- أعلم بهم من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

والمعنى: والله أعلم بالذي يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من أعمال باطلة، وأموال هي زادهم إلى النار.

قال عبيد بن الأبرص[(٢)]:

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

أي: أخبث ما جمعت من زاد.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الخطاب والأمر للرسول ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: فبشرهم أيها المبشر، وأخبرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

والبشارة في الأصل تستعمل فيما يسر، أخذًا من انبساط البشرة واتساعها عند ورود الخبر السار لها، واستعملت هنا في البشارة بالعذاب الأليم على سبيل التهكم والاستهزاء.

﴿أليم﴾: «فعيل» بمعنى: «مفعل»، أي: مؤلم حسًا ومعنى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إلا»: أداة استثناء؛ بمعنى «لكن»، فالاستثناء: منقطع، أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢- من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) انظر «ديوانه» ص٤٩، «لسان العرب» مادة «وعى».

لكن ﴿الذين آمنوا﴾.

والإيمان في اللغة: التصديق كما قال إخوة يوسف ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: لن نصدق بهذا القرآن ولا بالذي سبقه من الكتب السماوية.

والمعنى: إلا الذين آمنوا، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للأرحام وأداء لحق الجار، وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك.

وحذف الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، وفق سنة رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ «لهم» جار ومجرور خبر مقدم، و«أجر» مبتدأ مؤخر، أي: لهم خاصة دون غيرهم. ونكّر «أجر»: للتعظيم، أي: ثواب عظيم.

وسمي الثواب أجرًا، تشبيهًا له بأجرة الأجير، لأن الله عز وجل بكرمه وفضله وامتنانه تكفل بهذا الثواب وأوجبه على نفسه.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، ولا ممنوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وغير ممنون به عليهم، كمنة الخلق بعضهم على بعض، وإلا فإن لله عز وجل المنة والفضل والإنعام على جميع خلقه بنعمة الربوبية العامة وله المنة والفضل والإنعام على أوليائه المتقين وحزبه المفلحين بنعمة الربوبية الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا اكتمل- على انتقال الناس من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا

وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

٢- أن دوام الحال من المحال، والبقاء للحي القيوم- سبحانه وتعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

٣- لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو وعظمة مخلوقاته.

٤- الإنكار على الكافرين في عدم إيمانهم، وعدم خضوعهم وسجودهم عند تلاوة القرآن مع ما فيه من المواعظ والأحكام، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾.

٥- تكذيب الكفار للرسول ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾.

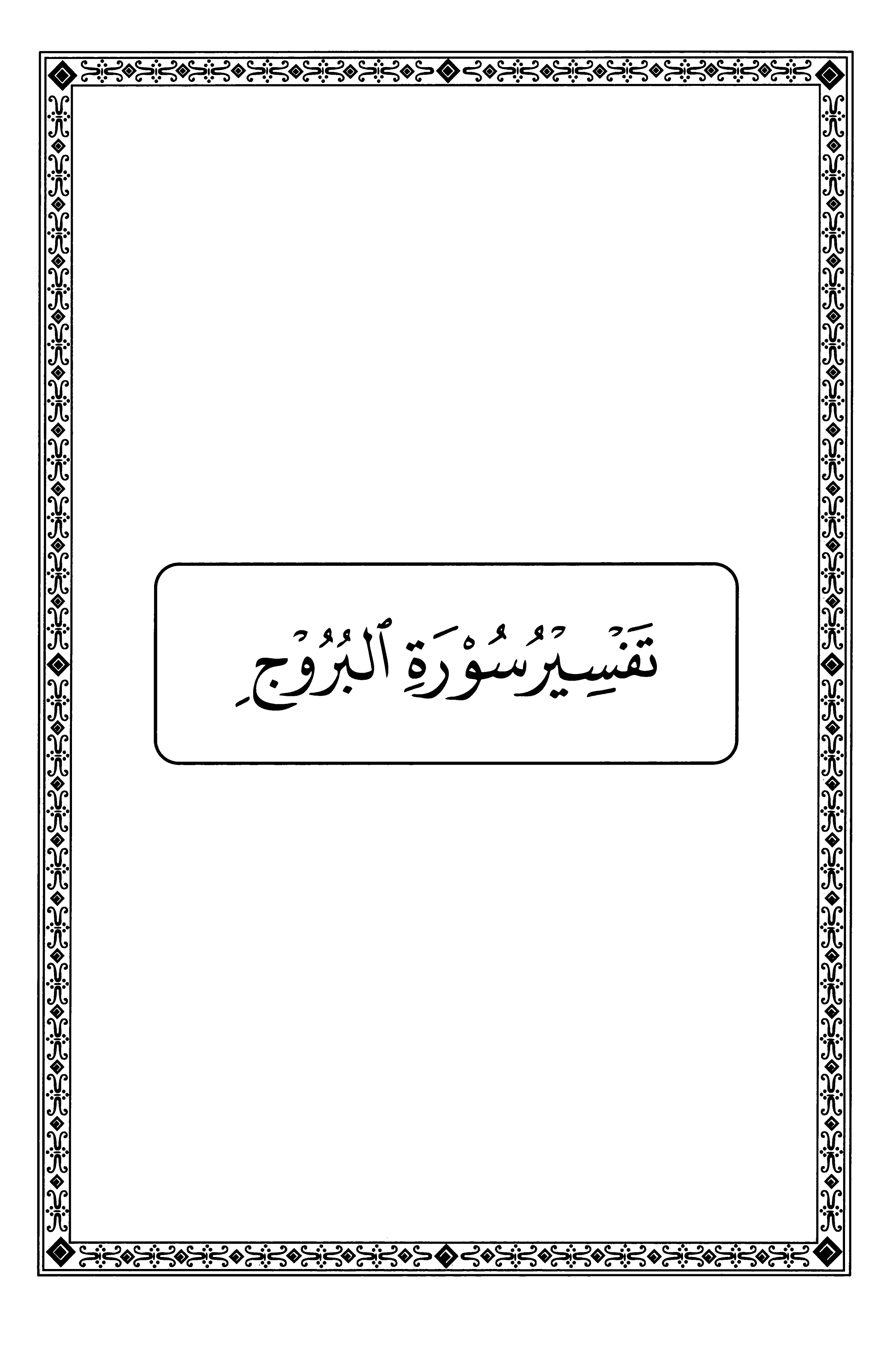
٦- سعة علم الله عز وجل، وعلمه بما يجمع الكفار ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من الأعمال الباطلة والأموال المحرمة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

٧- البشارة للكفرة المكذبين بالعذاب الأليم حسًا ومعنىً تهكمًا بهم وسخرية منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

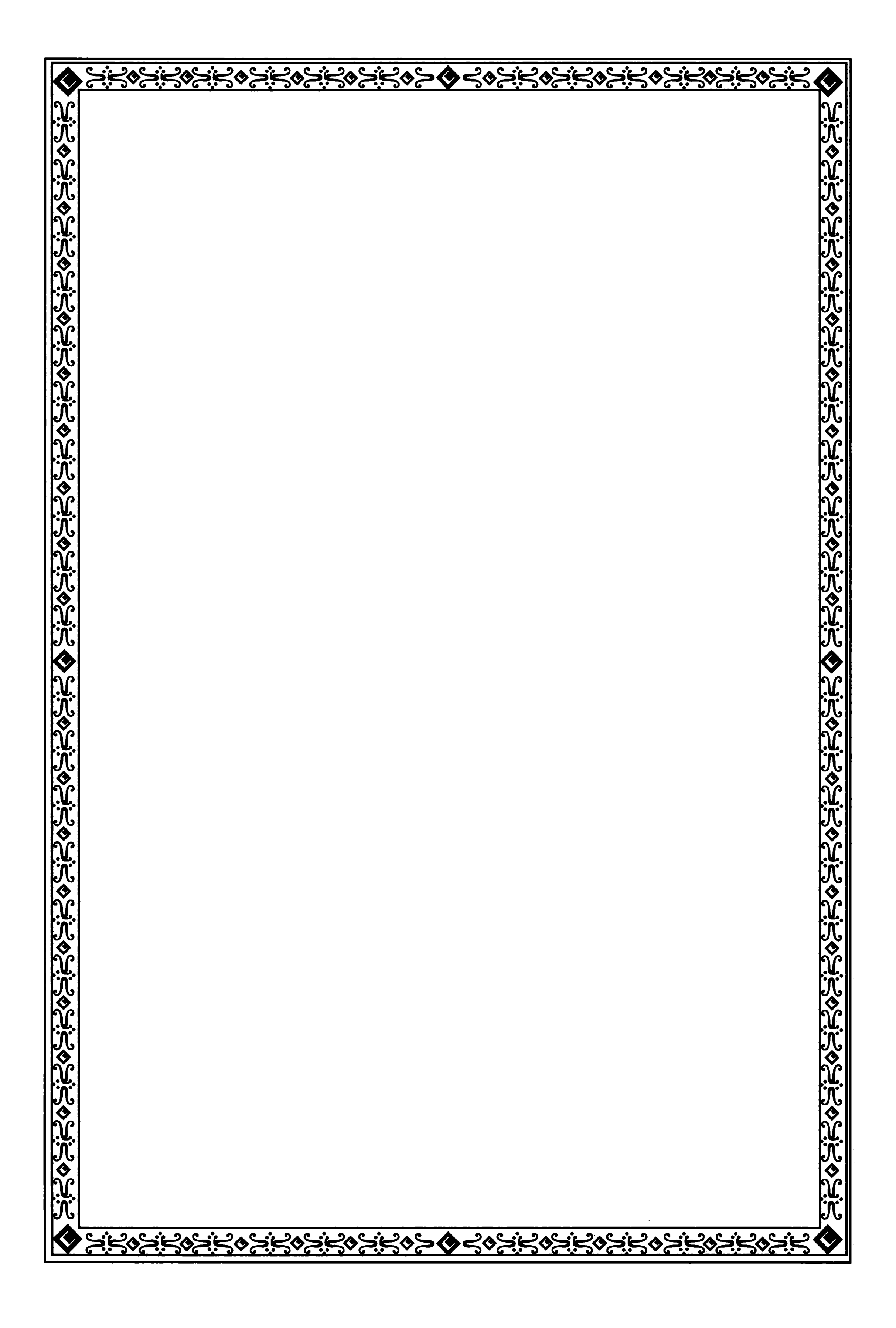
٨- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالثواب العظيم غير المقطوع، ولا الممنوع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾.

٩- لابد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولابد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلبُرُوجِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة البروج»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة والسماء ذات البروج».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة: «والسماء ذات البروج»، «والسماء والطارق»(١).

وعنه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء»(٢).

ومعنى قوله «بالسموات» أي بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: «والسماء ذات البروج»، و«السماء والطارق» ونحوهما(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالقسم بالسماء ذات البروج وما عطف عليه بلعن أصحاب الأخدود الذين عذبوا المؤمنين بالنار وفتنوهم، ووعيدهم بعذاب جهنم وعذاب الحريق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

٢- وعد المؤمنين بالجنات والأجر الكبير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح والقراءة في الركعتين الأولتين من صلاة العصر ٩٣٦، وأحمد ٥/ ١٠٣.

جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

٣- إثبات شدة بطشه عز وجل، وكمال قدرته وتمام تدبيره: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

٤- التذكير بفرعون وثمود، وإهلاكهم، وتهديد المكذبين وتمجيد القرآن: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠)﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور.

﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، أي: صاحبة البروج.

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان: ٦١].

والبروج: جمع برج، مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، وهي النجوم والكواكب العظام، أو منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمان وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين.

وهذه البروج الاثنا عشر هي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾: يوم القيامة، الموعود وقوعه وبعث الناس فيه، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَشَاهِدٍ﴾: يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: اليوم الموعود: يوم القيامة واليوم المشهود: يوم عرفة، و«الشاهد»: يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل منه»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٣٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢، ٢٦٥، وقال الترمذي:
=

وقد رواه بعض الأئمة موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة»[١].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا[٢] »[٣].

فاليوم الموعود يوم القيامة بلا خلاف، وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة.

وقيل: الشاهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩، ١٦٦، الفتح:٢٨].

وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وكذا أمته شهود، والملائكة والجوارح شهود أيضًا.

وقيل: الشاهد يوم عرفة، وقيل: الشاهد يوم الذبح، وقيل الشاهد الإنسان.

كما قيل: المشهود يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: المشهود يوم الجمعة لما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة»[٤].

قال ابن القيم[٥]: «وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني، وما عداه من المعاني ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه

= «حديث حسن غريب».

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٨- ٢٩٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢- ٢٦٤.

(٢) أي: خصنا به وهدانا إليه دون من قبلنا.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٦٩.

التخصيص».

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: هذا هو جواب القسم والمقسم عليه عند أكثر المفسرين فأقسم عز وجل بالسماء ذات البروج، وبشاهد ومشهود على أنه ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

وقال ابن القيم[١]: «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾».

ومعنى ﴿قُتِلَ﴾، أي: لعن أشد اللعن، وطرد وأبعد عن رحمة الله، أشد الطرد والإبعاد وأُهلك.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، الأخدود: مفرد، وجمعه أخاديد، وهي الحفر المستطيلة في الأرض.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ «النار» بدل اشتمال من الأخدود.

﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، أي: صاحبة الوقود، وهو الحطب الكثير المتأجج نارًا.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين، أي: حين هم على جوانب هذه النار جلوس على الأسرة يتفرجون ويتفكهون.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وهم على الذي يفعلونه بالمؤمنين، أو على فعلهم بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وطرحهم في النار وتعذيبهم.

﴿شُهُودٌ﴾، أي: يشاهدون وينظرون مغتبطين بهذا الإجرام في حق المؤمنين، مما يدل على قسوة قلوبهم، ونزع الرحمة منها وجبروتهم، يقحمون المؤمنين في النار ويرونها تلتهمهم، ولا تتحرك مشاعر الرحمة في قلوبهم.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: وما وجدوا عليهم في شيء إلا من أجل أنهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٧١.

آمنوا بالله، وكان هذا يوجب إكرامهم ومحبتهم لا أذيتهم وقتلهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالعزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فهو عز وجل قوي قاهر غالب ممتنع أن يُنال بسوء.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: اسم من أسماء الله عز وجل، أيضًا على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالحمد فهو عز و جل حميد ومحمود في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، له الحمد على ذلك كله، له الحمد في السموات والأرض وعلى الدوام كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٨].

وله الحمد في الأولى والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: ٧٠].

وله عز وجل الحمد على كل حال، ولهذا قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الحمد لله على كل حال»(١).

وهو عز وجل حميد يَحمد من يستحق الحمد من عباده بثنائه عليهم ورضاه عنهم، قال ﷺ: «إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»(٢).

ولهذا فإن معنى صلاة الله- عز وجل- على أنبيائه ورسله وأوليائه هو الثناء عليهم في الملأ الأعلى.

وفي اقتران هذين الاسمين في ختام هذه الآية بعد لعن أصحاب الأخدود: إشارة

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٣٨، وقال: «حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الأدب- فضل الحامدين ٣٨٠٣، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء ١/ ٤٤٩، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦- من حديث أنس رضي الله عنه.

إلى أنه عز وجل ذو العزة التامة لا يضام من لاذ بجنابه، فلو شاء لانتصر للمؤمنين.

الحميد على ما قدر على هؤلاء المؤمنين، ولو شاء لم يقدر ذلك عليهم، لكن له في ذلك كله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهو المحمود على كل حال.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: صفة ثالثة له عز وجل.

وقدم الخبر «له»؛ لإفادة التخصيص، أي: الذي له وحده ملك السموات والأرض فهو وحده المالك للسموات والأرض، وما فيهما وما بينهما.

والخلق كلهم وما يملكون ملك لله عز وجل، وملكهم لما يملكون ملك نسبي قاصر، لا يجوز لهم التصرف فيه إلا فيما أباحه الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: على كل شيء مطلع، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وإحراقهم في النار، وسيجازيهم بعملهم.

وقدم متعلق الخبر، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على الخبر «شهيد»؛ لتأكيد عموم اطلاعه على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

وقد اختلف المفسرون في المراد بأصحاب الأخدود، ومن أصح ما ورد في ذلك ما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الملك والساحر والراهب والغلام، وفي آخره قوله ﷺ: «ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنه إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن

تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[١].

وفي رواية فقال في آخره: «يقول الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ »[٢].

وجاء في بعض الآثار: أن الملك الذي خد هذا الأخدود هو ذو نواس ملك نجران، وأن الذين وقع عليهم التعذيب هم نصارى نجران وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقيل: إنهم أهل فارس، وقيل غير ذلك[٣].

والأهم من هذا كله أخذ العبرة، واستلهام الدروس من هذه القصة، وذلك من وجهين:

الأول: جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم الوحشية بالمؤمنين من تحريق وقتل وغير ذلك، وخلو قلوب كثير منهم من الرحمة، بل ومن الإنسانية مع ما يزعمونه من الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وما المقابر الجماعية والقتل الجماعي والوحشي في مذابح صبرا وشاتيلا، وفي البوسنة والهرسك وغيرها، وما التعذيب الوحشي في سجن غوانتنامو، وفي سجن أبو غريب وغير ذلك إلا نتاجًا وصورًا لما عليه أعداء الإسلام من الوحشية والهمجية، فأين مناداتهم بالحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، والإنسانية؟! وصدق الله العظيم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

ولهذا ينبغي ألا يغتر بهم فهم وإن أظهروا الصداقة، فهم في الحقيقة الباطنة أعداء وذئاب، ولو لبسوا جلود الضأن، وكما قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق- قصة أصحاب الأخدود والصاحب والراهب والغلام ٣٠٠٥، والترمذي في تفسير سورة نوح ٣٣٤٠، وأحمد ٦/ ١٦- ١٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٣- ٢٧٥.

(٢) جاء هذا في رواية الترمذي.

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١ / ٣٤- ٣٧، «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٦.

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب[1]

وقال الآخر:

لا تأمنن عدوًا لان جانبه خشونة الصل عقبى ذلك اللين[2]

والوجه الثاني مما يستلهم من هذه القصة:

صبر هؤلاء المؤمنين على هذا الابتلاء العظيم، وتقديم أرواحهم للنار فداءً لدينهم إذ لا بقاء لشيء بعد الدين، وفي هذا أعظم الدروس والعبر للمؤمنين بعدهم وبخاصة الدعاة إلى الله عز وجل والموجهين والمربين وأهل الحسبة وغيرهم؛ ليعلموا أن طريق الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق محفوف بالمكاره كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[3].

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: فتنوهم في محاولتهم صدهم عن دينهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أي: الفتنة في الدين والصد عنه وأيضًا فتنوا المؤمنين والمؤمنات بإحراقهم في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يعذبون.

---

(١) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٢) البيت للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص١٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾، أي: ثم لم يرجعوا إلى الله عز وجل ويقلعوا عما هم عليه من الكفر ويندموا على ما سلف منهم، ويعزموا على عدم العودة إليه.

فعرض الجواد الكريم التوبة عليهم مع ما ارتكبوه من الكفر به، والظلم والقتل لعباده المؤمنين ولو تابوا لغفر لهم ولم يعذبهم، وقد قال عز وجل لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون وقد ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: خبر «إن، أي: فلهم مجازاة لهم على فعلهم بالمؤمنين ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وجهنم: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فالجزاء من جنس العمل، أي: فلهم عذاب الإحراق في النار كما أحرقوا المؤمنين في نار الأخدود.

فانتصر عز وجل وهو الحكيم العليم- للمؤمنين بمجازاة أصحاب الأخدود بإحراقهم وتعذيبهم بنار جهنم وهو القوي العزيز.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء صاحبة البروج، واليوم الموعود وشاهد ومشهود على لعن وإهلاك أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم وحرقوهم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته الكونية وآياته وأحكامه الشرعية.

٣- التنبيه على عظمة الله- عز وجل- وتمام قدرته في خلق السموات وما فيها من البروج، وعظمة يوم القيامة وشدة أهواله، وعظمة شاهد ومشهود.

٤- أن لله عز وجل في تسليط هؤلاء الكفار على المؤمنين حكمًا، منها استدراج هؤلاء الكفار من حيث لا يعلمون، ومنها رفعة درجات المؤمنين، ولتكون عبرة وعظة لمن بعدهم، إذ لا بد من الابتلاء والامتحان.

٥- جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم في حق المؤمنين من تحريق وقتل بأبشع الصور، وخلو قلوبهم من الرحمة في الوقت الذي يزعمون فيه احترامهم لحقوق الإنسان والحرية والإنسانية.

٦- أن هؤلاء الكفار فتنوا المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وهكذا أعداء الرسل وأعداء أتباعهم في كل زمان ومكان يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

٧- إثبات اسم الله «العزيز»، وصفة العزة التامة لله عز وجل: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٨- إثبات اسم الله «الحميد»، وأن له عز وجل الحمد كله، وهو المحمود في كل حال وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾.

٩- إثبات أن الله عز وجل له ملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- إثبات اطلاع الله عز وجل على كل شيء، ومن ذلك فتنة هؤلاء الكفار للمؤمنين وفي هذا تبشير وتحذير، ووعد ووعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١١- كرم الله عز وجل وواسع حلمه وعفوه ورحمته وتوبته، حيث عرض التوبة على هؤلاء الكفرة المجرمين مع كفرهم به وفتنتهم لأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾.

١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لهؤلاء الكفرة المجرمين إن لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل فكما أحرق هؤلاء الكفرة المجرمون أولياء الله المؤمنين بالنار جازاهم الله بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد ما بين عز وجل ما أعده للكفرة المجرمين قتلة المؤمنين من عذاب جهنم وعذاب الحريق أتبع ذلك ببيان ما أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والفوز الكبير، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك ببيان قدرته عز وجل التامة على تنفيذ هذا الوعد، وذلك الوعيد فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة.

وحذف الموصوف وهو: «الأعمال» واكتفى بالصفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم أن يكون العمل صالحًا، يتوفر فيه شرطا صلاح العمل، وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة عند الله عز وجل ﴿جَنَّٰتٌ﴾ وهي ما أعده الله عز وجل لنزول أوليائه من البساتين ذات الأشجار الكثيرة، والثمار المتنوعة، والمساكن العالية، والغرف الرفيعة وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب صفة الجنة ٢٨٢٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فقط»[١].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ صفة لـ «جنات، أي: تجري من تحت أشجارها، ومساكنها وغرفها الأنهار، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨] والأنهار: جمع نهر، وهي كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [الآية: ١٥].

وهي تجري بغير أخدود. قال ابن القيم[٢]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الإشارة لما أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والأنهار.

و«الفوز»: النجاح والفلاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أعظم منه، ويكفي أن العلي الكبير وصف هذا الفوز بالكبير، فلا يقدر قدر كبره، إلا العلي الكبير سبحانه وتعالى.

ولم يرد وصف الفوز بالكبير إلا في هذا، ولعل في هذا إشارة لعظم ما لقيه أصحاب الأخدود وشدة صبرهم وعظيم ما لهم عند الله.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾، أي: إن انتقام ربك يا محمد وأخذه للكفرة المجرمين والطغاة الظالمين.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: ذو شدة، أي: عظمة وقوة، من حيث كمه وكيفه؛ لأنه عز وجل القوي العزيز، ذو القوة المتين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١/ ٤١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٦٦.

(٢) في «النونية» ص٢٢٩.

أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: إنه عز وجل من تمام عزته وقوته وكمال قدرته ﴿هُوَ يُبْدِئُ﴾، أي: يخلق ابتداء ﴿وَيُعِيدُ﴾، أي: يبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهو عز وجل الذي يُبدئ كل شيء ويعيد كل شيء، له الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو سبحانه الذي يبدئ ويعيد، يقلب الليل والنهار، ويداول الأيام، ويبدل الأحوال؛ من عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى مرض ومن مرض إلى صحة ومن شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة وهكذا؛ ولهذا لا يجوز الأمن من مكر الله، ولا القنوط من رحمته، وكما قيل:

ما بين طرفة عين وانتباهتها   يبدل الله من حال إلى حال(١)

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل الصالحات، وهذه الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، كقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

فأخذه للظالمين بعدله أخذ عزيز مقتدر، ومغفرته للتائبين- بفضله- مغفرة متودد إلى عباده يحبهم ويحبونه.

و«الغفور» و«الودود» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعول» فـ«الغفور»: مشتق من المغفرة، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب التائبين من عباده.

و«الودود»: مشتق من المودة، وهي: خالص المحبة، فهو عز وجل ودود، محب ومحبوب، يحب أولياءه المؤمنين ويحبونه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

---

(١) البيت لمسفر بن مهلهل الينبعي. انظر: «السحر الحلال في الحكم والأمثال» ص٨٩.

ﱡﭐﱸ ﱠ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالودود المحب لأوليائه، المتحبب إليهم بنعمه الحبيب إليهم، الذي محبته لهم ومحبتهم له أقوى من كل محبة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال عن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾ [هود: ٩٠].

وفي اقتران اسم «الودود» بالرحيم وبالغفور معنى لطيف، وهو أنه عز وجل يرحم عبده، ويغفر له، إذا تاب إليه ويحبه مع ذلك، ولو كان ممن أسرف على نفسه بخلاف المخلوق فإن الإنسان قد يرحم ويعفو عمن أساء إليه ولكن لا يحبه.

وهو عز وجل يحب الأقوال والأعمال الصالحة، قال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(١).

وقال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»(٢).

وهو عز وجل يحب الأماكن الفاضلة، قال ﷺ عن مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(٣).

وقال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها»(٤).

وفي الحديث: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم»(٥).

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش. وفي إضافته العرش إلى نفسه دلالة على عظمة

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧- من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة ٣٩٢٥- من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري- رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد- فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد ٦٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١/ ٨٤- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

العرش، فهو سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها.

وفي ذلك دلالة على قربه منه سبحانه غاية القرب واختصاصه به غاية الاختصاص واستوائه عز وجل عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض الدال: «المجيدِ» على أنه صفة للعرش، وقرأ الباقون برفع الدال: ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ على أنه صفة للرب عز وجل، كما قال تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٣].

فعلى هذه القراءة يكون معنى «المجيد»، أي: الممجَّد المعظَّم ذو العلو والعظمة والكبرياء.

كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي»[(١)].

ذو الصفات الكثيرة التي لا تحصى الكاملة الواسعة، وذو الخير الكثير الدائم، المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم.

وعلى قراءة خفض الدال يكون «المجيد» صفة للعرش، والعرش عظيم كبير، بل هو أكبر المخلوقات، وسع السموات والأرض والكرسي.

وفي الحديث في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[(٢)].

ورُويَ عن أبي ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[(٣)].

وقد قال الله تعالى عن الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإذا كان العرش مجيدًا فخالقه عز وجل- أحق بالمجد- كما دلت عليه قراءة الرفع، وغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٤٥، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٣٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٥، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٣- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩. وهو منقطع. وانظر: «فتح المجيد» ص٦١٦.

وخص العرش بالذكر من بين المخلوقات؛ لعظمته، ولاستوائه عز وجل عليه، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه عز وجل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل بإرادته كل ما يريد، ومهما أراد من شيء فعله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا يُسأل عما يفعل.

الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قيل لأبي بكر رضي الله عنه وهو في مرض الموت: «ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد»[١].

ويؤخذ من الآية أنه يفعل بإرادته عز وجل، وأنه إذا أراد شيئًا فعله فلا يعجزه شيء وأن إرادته وفعله متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعّال لما يريد إلا الله وحده، وفعله عز وجل كله لحكمة علمناها أو لم نعلمها.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾، أي: هل جاءك يا محمد خبر الجنود ممن عصوا الله وكذبوا رسله، وماذا أحل بهم من العقوبات والبأس الشديد، وفي هذا وما بعده تسلية له ﷺ على تكذيب قومه وتقوية لعزيمته، وفيه تحذير وتهديد للمكذبين من أمته.

فهذا وما بعده تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ «فرعون»: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكابر وعاند وادعى الربوبية والألوهية، وأهلكه الله وجنوده بالغرق، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للحرق بالنار، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَثَمُودَ﴾ هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، مساكنهم شمال الجزيرة في العلا، المعروفة الآن بمدائن صالح. كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة فأهلكهم الله

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص٩٣، (٥٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٤، وانظر: «الجامع الكبير» للسيوطي ١٤/ ١٦٢ (١/ ٢٤٢).

بالصيحة والصاعقة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا وجحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه.

﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾، أي: في تكذيب للرسول ﷺ، ولما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، أي: أنه عز وجل محيط بهم من كل جانب، لا يعجزونه ولا يفوتونه، محيط بهم بعلمه وقدره وقدرته وسلطانه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ﴾، أي: بل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله من الوحي العظيم المعلوم.

﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾، أي: قرآن عظيم كريم، رفيع المنزلة واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم، معجز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه، ووعده ووعيده وغير ذلك لأنه كلام الحميد المجيد.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ قرأ نافع برفع الظاء: «محفوظٌ»، وقرأ الباقون بخفضها.

أي: في لوح كتب الله عز وجل فيه كل شيء قضاه وقدره.

﴿محفوظ﴾ عند الله عز وجل في الملأ الأعلى من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل والتغيير، وتطاول الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وهو محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير بعد إنزاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ.

٤- عظم ما أعده الله عز وجل من الثواب للمؤمنين، من الجنات والأنهار والفوز الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)﴾.

٥- شدة بطشه عز وجل وأخذه للمكذبين الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ﴾.

٧- قدرته عز وجل التامة على إبداء الخلق وإعادته، وعلى تبديل الأحوال وإعادتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

٨- إثبات اسم الله «الغفور» وما يدل عليه من إثبات صفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

٩- إثبات اسم الله «الودود» وما يدل عليه من إثبات صفة المودة والمحبة له عز وجل وأنه يُحِب ويُحَب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش، وعظمته وكبريائه، وكمال صفاته، وكثرة خيره وإفضاله وإنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾

١١- إثبات عظمة العرش وسعته وأنه أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.

١٢- إثبات صفة الفعل والإرادة لله عز وجل وأنه يفعل بإرادته، ومهما أراد شيئًا فعله، وفعله لحكمة علمناها أو لم نعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

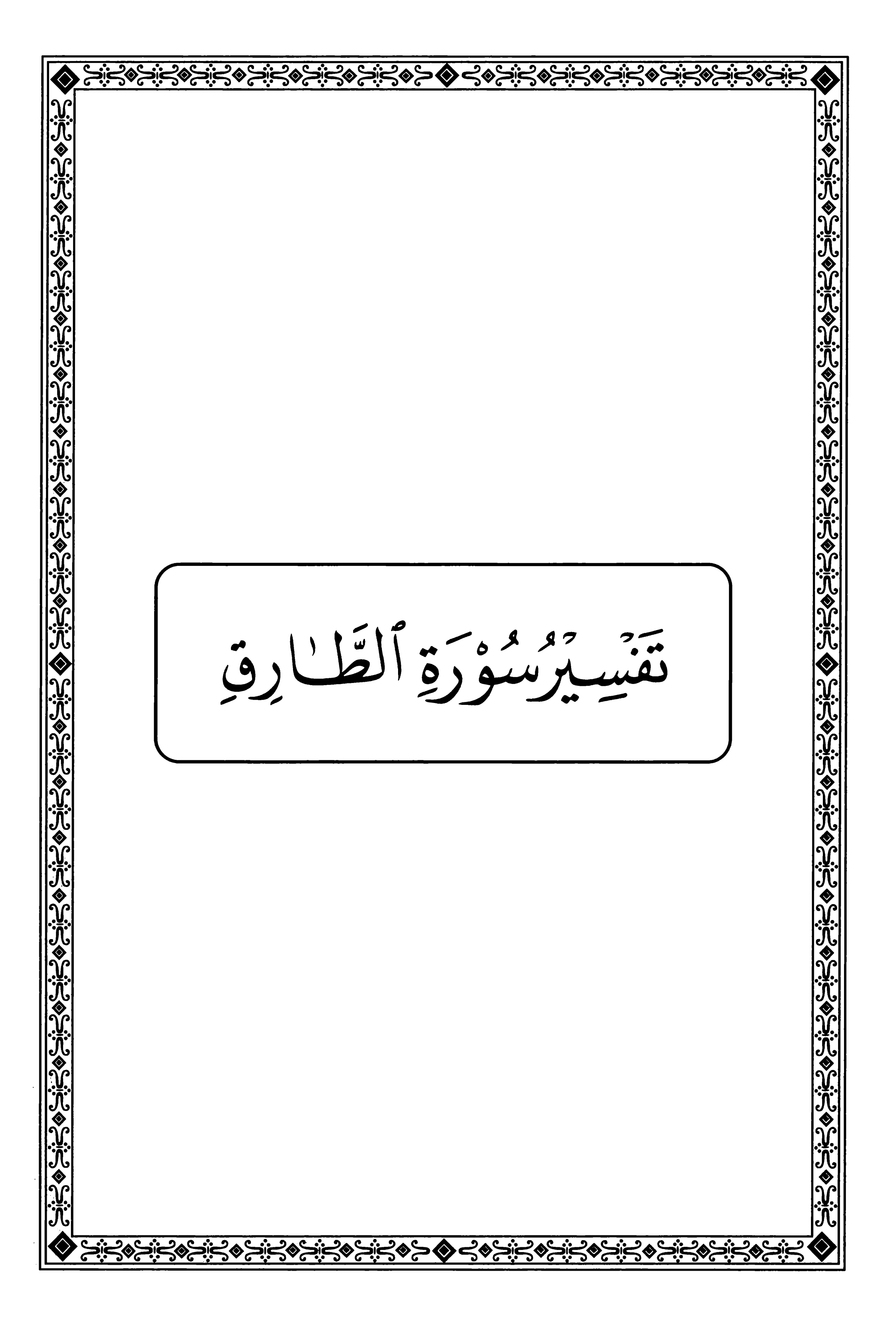
١٣- التذكير بقصص المكذبين، فرعون وثمود، وما أحل الله بهم من العقوبات لما عصوا رسله وخالفوا أمره- تسلية للنبي ﷺ- وتحذيرًا للمكذبين من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨)﴾.

١٤- مكابرة الكفرة في تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

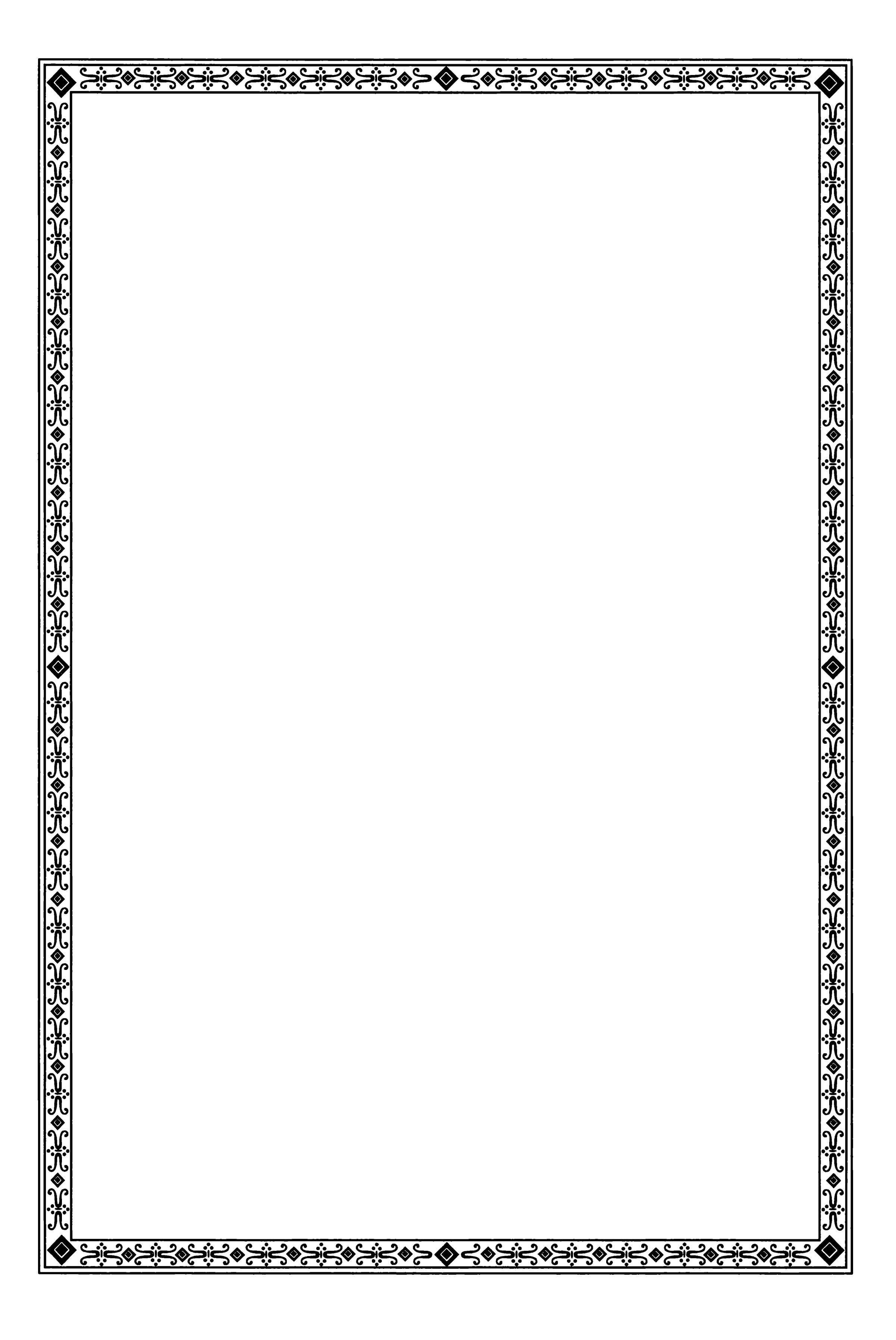
١٥- سعة علم الله تعالى وإحاطته، والوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بأن الله محيط بهم، ولن يفلتوا من قبضته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾.

١٦- عظمة القرآن وسعة معانيه وإعجازه، وحفظ الله عز وجل له في اللوح المحفوظ، وبعد إنزاله على محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الطارق» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة السماء والطارق»، و«سورة والسماء والطارق» بالواو.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»[1].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»[1].

د- موضوعاتها:

١- إثبات وتأكيد وجود الحفظة على بني آدم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾.

٢- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

٣- إثبات وتأكيد أن القرآن حق وقول فصل ليس بالهزل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾

٤- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء» مقسم به مجرور.

﴿وَالطَّارِقِ﴾ معطوف على السماء.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تعظيم وتفخيم له، أي: وما أعلمك ما الطارق، ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وسمي النجم طارقًا؛ لأنه لا يرى إلا بالليل، ومن يأتي بالليل يسمى طارقًا.

ومنه الحديث: «أنه ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا»[1]. وقوله في الدعاء: «إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»[2].

قال الشاعر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب ... عليك سلام هل لما فات مطلب

ومعنى ﴿الثاقب﴾ المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا هو جواب القسم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم: ﴿لَمَّا﴾ وقرأ الباقون بتخفيفها: «لَمَا». وإنْ بمعنى «ما» النافية و«لَمَّا» بمعنى «إلا، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

فأقسم عز وجل بالسماء، وبالطارق، وهو النجم المضيء: أنَّ كل نفس من بني آدم عليها حافظ من الملائكة موكل بحفظها من أمر الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ويحفظ أعمالها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، ١٨٠١، ومسلم في الإمارة- كراهية الطروق وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر ٧١٥، والترمذي في الاستئذان والآداب ٢٧١٢- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩- من حديث عبد الله بن خنبش- رضي الله عنه.

[الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الفاء للتفريع، أي: فلينظر الإنسان نظر تأمل وتفكر واعتبار.

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، أي: من أي شيء خلق؛ ليعرف أصل خلقه وضعفه، وليعلم عظيم قدرة الله عز وجل، ويعترف بالمعاد؛ لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على إعادته من باب أولى.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ وهو مني الرجل الذي يندفق بلذة وقوة وهو دافق ومدفوق. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿يَخْرُجُ﴾، أي: يخرج هذا الماء، ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ وهي عظام ظهر الرجل، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ وهي: عظام صدر المرأة.

ويحتمل أن المراد بالترائب ترائب الرجل، أي: عظام صدره، لأنه قال ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، ولم يقل: يخرج من الصلب والترائب، وهذا كقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦].

ولأن الله أخبر أنه خلقه من نطفة. والنطفة: ماء الرجل، وهو الذي يوصف بالدفق.

وقيل المراد بالصلب: ظهر كل من الزوجين، والترائب أطرافهما.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾، أي: إنه عز وجل على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته وفنائه ﴿لَقَادِرٌ﴾، أي: لذو قدرة تامة على ذلك؛ لأن من قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، الذي فيه ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تمتحن وتختبر القلوب التي عليها مدار الصلاح والفساد، وعلى ما فيها يرتب الثواب والعقاب، فيظهر ما فيها من الأسرار والمكنونات، ويصبح السر علانية، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ ، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء يوم

القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[1].

﴿فَمَا لَهُۥ﴾، أي: فما للإنسان في ذلك اليوم الذي أعيد فيه خلقًا جديدًا، وظهر ما كان يسره ويخفيه فصار علانية ﴿مِن قُوَّةٍ﴾، أي: فما له من قوة في نفسه يستطيع بها إنكار ما ظهر من قبح سريرته، ويدفع بها عنه عذاب الله.

﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي: وما له من ناصر ولا معين من خارج نفسه، يدفع عنه ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء، والطارق أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويحفظ أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

٢- يجب على الإنسان أن ينظر ويتأمل في أصل خلقه؛ ليرى ضعفه، وعظيم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

٣- أن أصل خلق الإنسان من ماء، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾.

٤- إثبات البعث؛ لأن الذي قدر على الخلق الأول هو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾.

٥- امتحان القلوب يوم القيامة، وإظهار ما انطوت عليه من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

٦- الوعيد لمن كذب أمر الله عز وجل يوم القيامة، وأنه لا يستطيع دفع عذاب الله عنه لا بنفسه ولا بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥، وأبو داود في الجهاد ٢٧٥٦، والترمذي في السير ١٥٨١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور والمراد بها العلو.

﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، أي: صاحبة الرجع، وهو المطر، وسمي المطر بالرجع؛ لأنه يرجع ويتكرر، والمطر سبب الرزق، وأيضًا: هي ذات الرجع بأقدار الله وأوامره، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به، ومعنى ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، أي: صاحبة الصدع، والصدع: هو الشق للنبات.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر لكنه معلوم معهود.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، اللام للتوكيد، أي: لقول حق، وحكم عدل، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، أي: وما هو باللعب واللغو والعبث، الذي لا جد فيه ولا ثمرة له ولا فائدة منه.

وفي الحديث: «وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أذله الله»[١].

فهو جد وأيّ جد، فيه البشارة والوعد الصادق، وفيه النذارة والوعيد الشديد والتهديد الأكيد. قال الشاعر:

الأمــر جــد وهــو غــير مــزاح ... فاعمـل لنفسـك صـالحًا يـا صـاح[٢]

وقال الآخر:

قــد رشــحوك لأمــر إن فطنــت لــه ... فاربأ بنفسـك أن ترعـى مـع الهمـل[٣]

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن- ما جاء في فضل القرآن ٢٩٠٦ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة فإن الله عز وجل أقسم بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات وفي هذا إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها والمقسم عليه القرآن الكريم الذي به حياة القلوب بعد موتها.

﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: الكفار والمكذبون ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ الكيد: هو المكر والتدبير بخفية، أي: يمكرون مكرًا عظيمًا لصد الناس عن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، أي: وأكيد لهم كيدًا، أي: أمكر بهم مكرًا أشد وأعظم من مكرهم مقابلة ومجازاة لهم على مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكيده عز وجل لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

والله عز وجل لا يوصف بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء ونحو ذلك إلا على سبيل المقابلة والمجازاة في حق الكائدين والماكرين والمخادعين والمستهزئين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنظرهم ولا تستعجل لهم الانتقام والعذاب.

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، أي: أنظرهم قليلًا وسترى ما يحل بهم من العقوبات العاجلة والآجلة والعذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]،

وقال تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].

والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلًا، وفي هذا تسلية له ﷺ وتهديد للمشركين من قومه.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات أن القرآن الكريم قول فصل وحق، جد ليس بالهزل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾.

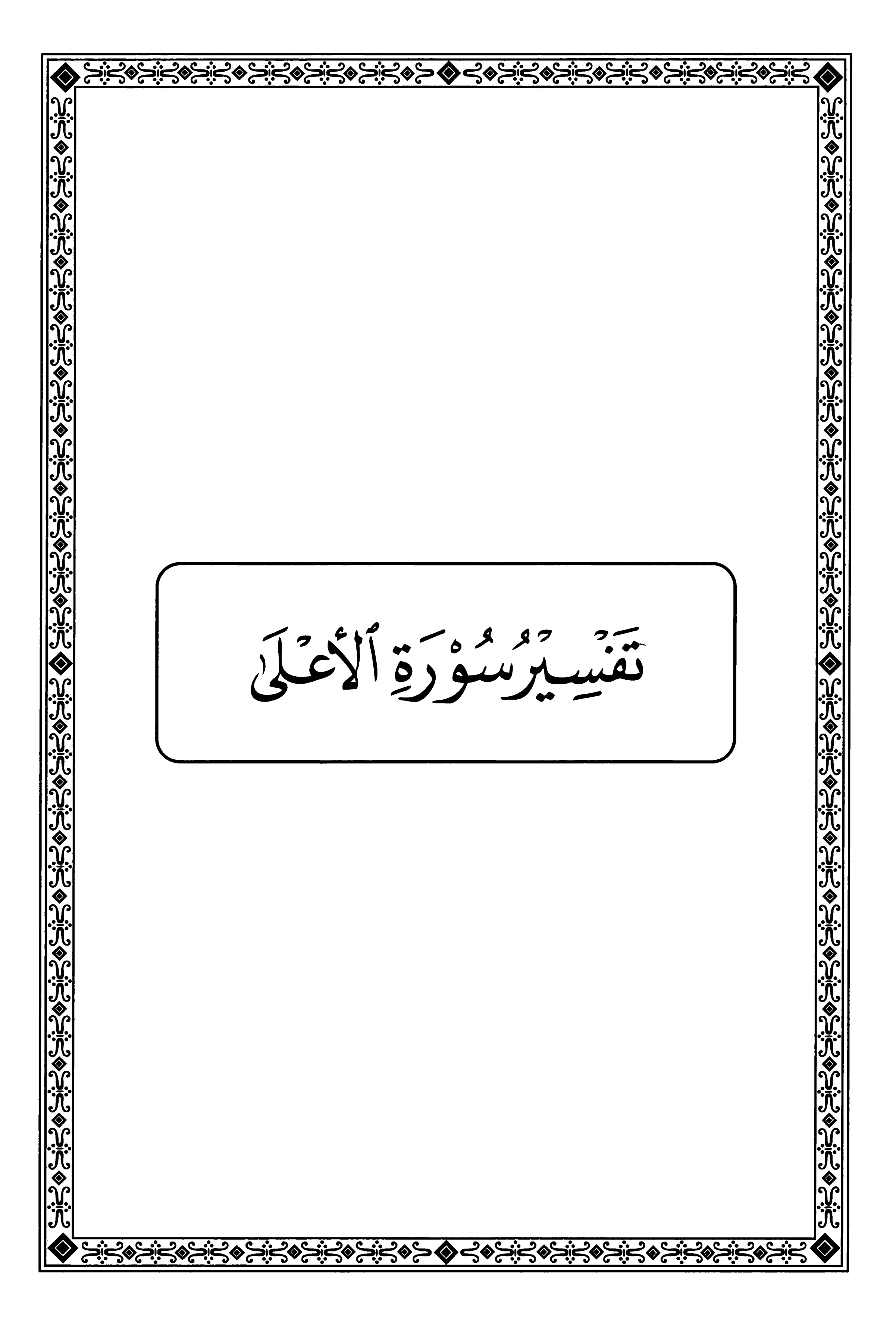
٢- تعظيم القرآن الكريم ووجوب اتباعه.

٣- أن الكفار لا يألون جهدًا في الكيد للحق وأهله، ولكن الله محيط بهم يكيد لهم ويمكر بهم وهو خير الماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾.

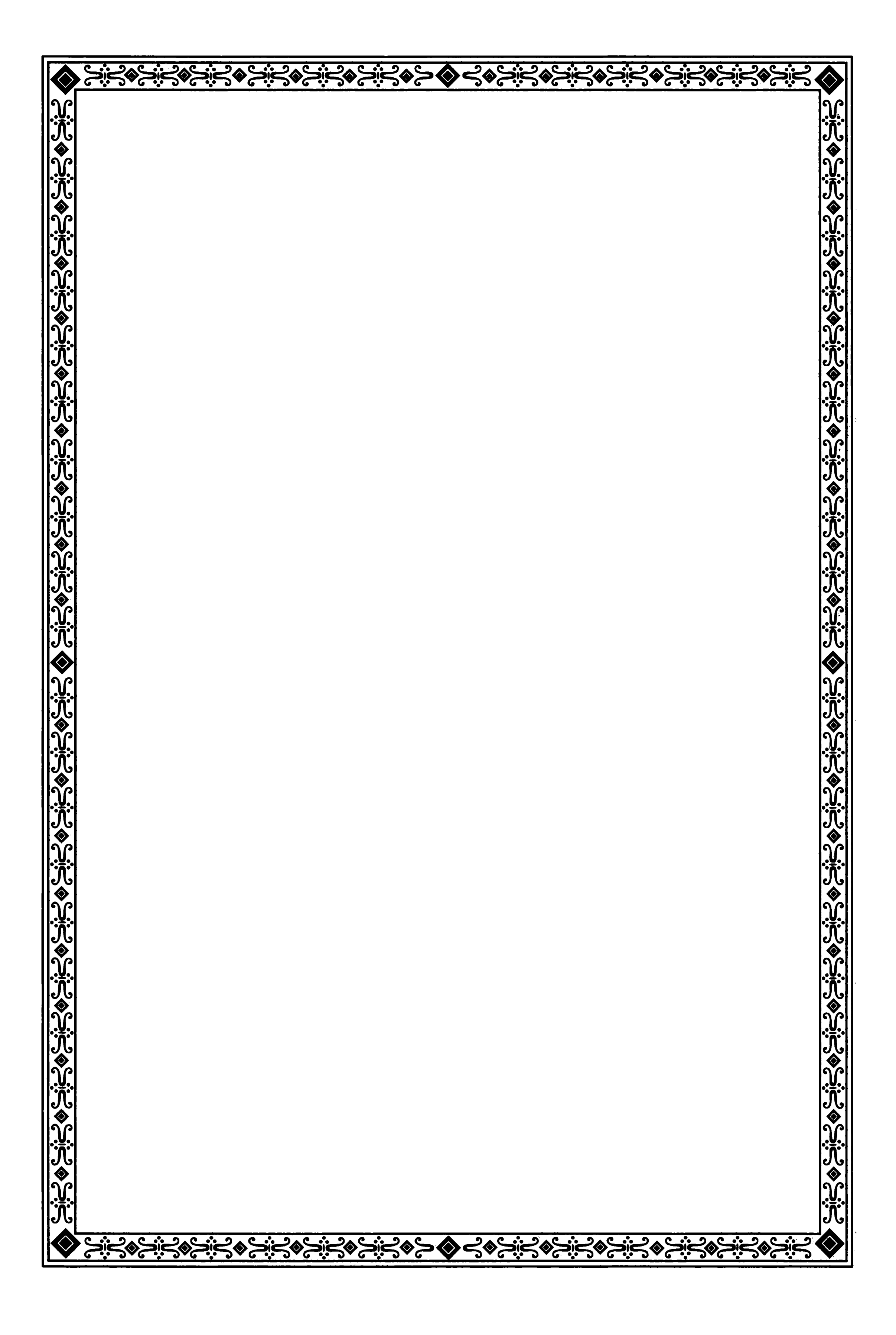
٤- تقوية قلب النبي ﷺ تجاه أذى الكافرين وتطاولهم على الحق، وأنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، وهو عز وجل لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين وأن العذاب لهم على الأبواب.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَعْلَى



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الأعلى»؛ لذكر اسم الله «الأعلى»، والأمر بتسبيحه في مطلعها بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾.

وتسمى: «سورة سبح اسم رب الأعلى»، و«سورة سبح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن البراء عن عازب رضي الله عنه قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾، في سور مثلها»(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: «صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء، فطول عليهم، فانصرف رجل فصلى. فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أفتان أنت؟!» ثلاثًا، «اقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ونحوها»، وفي رواية: «اقرأ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ونحو هذا»(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «سبح اسم ربك الأعلى» ٤٩٤١.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٠٦، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٥، وأبو داود في الصلاة ٧٩٠، والنسائي في الافتتاح ٩٨٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٦.

الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿وقُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(٢).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ونحوها، وفي الصبح بأطول من ذلك»(٣).

د- موضوعاتها:

١- الأمر بتسبيح الله وبيان مظاهر قدرته: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾.

٢- وعده عز وجل له ﷺ بإقرائه القرآن وطمأنته بعدم نسيانه، وتيسيره لليسرى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾.

٣- الحث على التذكير والتذكر، والوعيد لمن أعرض عن الذكر: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾.

٤- الحث على التزكي، وذكر الله والصلاة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾.

٥- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، والترغيب في الآخرة وتعظيم شأنها: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٢، والنسائي في الجمعة ١٤٢٤، والترمذي في الجمعة ٥٣٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٨١، وأحمد ٤/ ٢٧١.

(٢) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٨٦، ٨٨..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل: سبحان ربي الأعلى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»[١].

ومعنى تسبيحه عز وجل تنزيهه بالقلب واللسان عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره عز وجل وعبادته ودعاؤه.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[٢].

وهذا يدل على وجوب التسبيح في الركوع والسجود.

والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿الْأَعْلَى﴾ على وزن «أفعل» لا مثل «الأكرم»، أي: الذي هو أعلى وأجل من كل شيء، وفوق كل شيء.

ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- الدعاء في الصلاة ٨٨٣، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣١٠ موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

تجيبونه؟»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»[1].

فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [النحل: ٦٠ ، الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وله عز وجل علو القدر، قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

وله عز وجل علو القهر كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤].

قال ابن تيمية[2]: «فتبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه».

قال ابن القيم[3]:

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو العلي فكل أنواع العلو ... له فثابتة بلا نكران

ولهذا ناسب أن يقول المسلم وهو معفر وجهه بالسجود لله عز وجل «سبحان ربي الأعلى»؛ إعلانًا منه بأن لله عز وجل العلو المطلق سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: الذي أوجد جميع المخلوقات.

﴿فَسَوَّىٰ﴾، أي: فسوى بين خلقه في الإحكام والإتقان، وسوى خلقه بأن جعله على أحسن خلقة وأتمها؛ الإنسان والحيوان والسموات والأراضين، وسائر المخلوقات.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٥٩.

(٣) انظر «النونية» ص١٤٦.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧ ، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي: «قَدَر» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرَ﴾، أي: والذي قدَّر مقادير كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿فَهَدَىٰ﴾، أي: فهدى كل مخلوق وأرشده لما خلق له وقُدِّر.

وهذه هي الهداية الكونية العامة، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠].

ومن ذلك بيان طريق الخير والشر للإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(١)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ماذا أكتب؟، فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[(٣)].

وفي هذا إثبات قدر الله السابق للخلق، وأنه قدر المقادير وكتبها وعلم بها قبل

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥ - وقال «حديث غريب».

كونها، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وفيه إشارة إلى أنه خلق كل مخلوق لحكمة وغاية مقصودة، فلا تتم مصلحته إلا بهدايته لتلك الغاية، من الحيوانات والنباتات والجمادات وسائر المخلوقات.

فسبحان ربنا الأعلى الذي خلق فسوى خلقه في أحسن صورة وأتمها، والذي قدَّر المقادير وهدى كل مخلوق لما قُدِّر له.

سبحان من هدى النحل يصنع العسل المصفى.

سبحان من هدى النمل لا يحفر جحره إلا في مرتفع من الأرض خشية السيول، ويدخر في الصيف قوته للشتاء؛ لأنه لا يخرج في الشتاء.

سبحان من هداه يقرض أطراف الحبوب حتى لا تنبت إذا جاءها الماء، ويخرجها من الجحر وينشرها لئلا تتعفن فإذا يبست أدخلها؛ ولهذا يقال: إن أذكى ما يكون من الحيوان النمل، ينظر للمستقبل.

سبحان من هدى البعير، يضل صاحبه في وسط الصحراء فيهديه إلى الطريق، وإلى مواضع الماء، وسبحان من هداه أن يتحاشى في سيره وطء أي كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، أي: والذي أخرج النبات من الأرض، مما ترعاه البهائم وغيرها، فكسا به الأرض وجملها، كما قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

وقد أحسن القائل:

تأمل في نبات الأرض وانظر	**إلى آثار ما صنع المليك**
عيون من لجين شاخصات	**بأحداق هي الذهب السبيك**
على قضب الزبرجد شاهدات	**بأن الله ليس له شريك[1]**

(١) الأبيات لأبي نواس. انظر: «اللطائف والظرائف» ص٢٠٥، «توضيح المقاصد شرح الشافية الكافية» =

والعطف في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ من عطف الصفات.

والعطف يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه، وأن بينهما مغايرة، إما في الذات، وإما في الصفات، فهو عز وجل موصوف بكل صفة من هذه الصفات ممدوح بها مثنى عليه بها، وكل صفة منها مستوجبة لذلك.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾، أي: فجعل هذا المرعى هشيمًا يابسًا متكسرًا بعد أن كان غضًا رطبًا، بهيجًا نضرًا.

﴿أَحْوَىٰ﴾، أي: أسود بعد أن كان أخضر، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]، أي: كالليل الأسود البهيم.

وهذا مثل للحياة الدنيا وزوالها، وللعمر وفنائه، وللكافر المغتر بالدنيا وسوء عاقبته ومآله.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: سنقرئك يا محمد القرآن فلا تنساه، وهذا وعد منه تعالى وتطمين للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيك إياه وينسخه، قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

وأيضًا: إلا ما شاء الله أن يقع منك من النسيان فتذكر بعد ذلك كغيرك من البشر ولهذا نسي في صلاته ﷺ وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[1].

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: يعلم الذي يظهره الخلق ويعلنونه والذي يضمرونه ويسرونه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة.

أي: يعلم جهرهم وإعلانهم، وإخفاءهم وإسرارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ

= ١/ ١٨، «أحسن ما سمعت» ص١٠.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٠١، ومسلم في المساجد ٥٧٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٢٠، والنسائي في السهو ١٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٠٣- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي: نوفقك للطريقة اليسرى في جميع أمورك ونسهل عليك، ونجعل شريعتك سهلة سمحة، لا حرج فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾»[(١)].

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: عظ الناس وذكرهم بالله وآياته وأيامه ونعمه وشرعه، والخطاب للنبي ﷺ، والأمة أسوة به في ذلك.

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قال بعض المفسرين: «إن» شرطية، أي: إن نفعت الذكرى فذكِّر، وإن لم تنفع فلا تذكِّر.

وقال بعضهم: المعنى ذكر بكل حال، فإن الذكرى سوف تنفع.

والأظهر أن معنى الآية ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: حيث نفعت الموعظة.

بأن تكون الموعظة نافعة مفيدة واقعة موقعها، من غير إطالة فيها تجلب الملل، ولا إكثار منها يَحدث السأم، وقد كان ﷺ يتخول أصحابه في الموعظة.

فعن أبي وائل قال: كان عبد الله- يعني ابن مسعود- يذكِّر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوّلنا مخافة السآمة علينا»[(٢)].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢١، والترمذي في الأدب ٢٨٥٥.

والعبرة بالموعظة بالكيف لا بالكم، وخير الكلام ما قل ودل، وقصير غير مخل، خير من طويل ممل.

وبأن تكون الموعظة مناسبة لمستوى عقول وأفهام المخاطبين بها، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[(١)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[(٢)].

وبأن تكون في الوقت والحال المناسبين بحيث تكون الأنفس متهيئة مقبلة فإن للنفوس إقبالًا وإدبارًا، فلا تكون في وقت حاجة الناس إلى الراحة والنوم، ولهذا كره النبي ﷺ الحديث بعد العشاء الآخرة[(٣)].

ولا في وقت شدة ألم وغضب، ولا في وقت شدة جوع أو ظمأ، ولا في حر أو برد مزعجين.

ولا في وقت الناس منشغلون فيه بالسلام على بعضهم البعض كما يحصل في بعض المناسبات يتكلم بعضهم ويقرأ القرآن، والناس يتوافدون ويسلم بعضهم على بعض بعد طول غيبة مع كثرة الصخب واللغط، فإذا سلم الناس بعضهم على بعض وانتظم المجلس فلا بأس بذلك بعد إذن صاحب المنزل بذلك.

ولهذا فإن الأولى عدم الموعظة بعد خطبة وصلاة الجمعة لعدة أمور:

أولًا: أن هذا مخالف لقول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] فقد أمر الله عز وجل بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والتفرق فيها لابتغاء الرزق من الله.

ثانيًا: أن في هذا مخالفة لهديه ﷺ في كونه يتخول أصحابه في الموعظة مخافة السآمة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة- النهي عن الحديث بكل ما سمع ٥.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٦٨، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ٣٩٨، والنسائي ٤٩٥- من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها».

والملل عليهم.

ثالثًا: أن في الموعظة في هذا الوقت حبسًا للناس وإحراجًا لهم، ففيهم ذو الحاجة والحاقن- وبخاصة من جاؤوا في الساعات الأولى.

رابعًا: أن الموعظة بعد خطبة الجمعة قد تنسي موضوع وخطبة الجمعة ومضمونها وهو في الغالب أهم.

ويفهم من قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أنه إذا لم تنفع الذكرى ولم تجد شيئًا ولم تكن واقعة موقعها فلا ينبغي التذكير في هذه الحال.

فإذا كان المخاطب بالموعظة في حال غير مناسبة للتذكير فالأولى، بل ينبغي عدم تذكيره في هذه الحال لأنه قد يؤدي التذكير في غير وقته المناسب إلى مفسدة تفوق المصلحة المرجوة من ذلك، ولهذا قيل: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»[1].

ومع وجوب مراعاة أن تكون الذكرى مناسبة في الوقت والحال ونحو ذلك إلا أنه لا يجوز أن يجعل من هذا ذريعة للتساهل في التذكير أو تركه، بحجة أن الذكرى قد لا تنفع فقد قال الله عز وجل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

قال السعدي[2]: «﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾، أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود، أو بعضه، ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأمورًا بها، بل هي منهي عنها».

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾، أي: سيتعظ وينتفع بالذكرى ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، أي: الذي يخاف الله وقيامه بين يديه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥].

والخشية أخص من الخوف، لأنها تدل على عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٢٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦١٢- ٦١٣.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، أي: ويترك الموعظة جانبًا ويعرض عنها بقلبه وبدنه ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: اسم تفضيل، أي: الذي بلغ الغاية في الشقاء، وكتب عليه ذلك، وهو الكافر، الذي لا ينتفع بالذكرى، فهذا لا سبيل إلى إسعاده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»(١).

ومن هنا ينبغي للإنسان أن يوطِّن نفسه في مواضع التذكير، فإنه لا يعدم فائدة وأجرًا على ذلك، وقد ضعفت أنفس كثير من الناس حتى أصبح لا يستطيع الانتظار لسماع حديثين أو ثلاثة يقرأهما الإمام بعد الصلاة، وربما وقف في الشارع طويلًا يتكلم مع الآخرين- دون أن يحسب لهذا الوقت حسابًا، ولا شك أن النفس تحتاج إلى ترويض وتوطين لفعل الخير وسماعه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد أحسن القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم(٢)

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

أي: الذي يدخل النار الكبرى ويغمر فيها ويقاسي حرها، وهي نار الآخرة، وسميت الكبرى؛ لأنها ضوعفت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا كما قال ﷺ: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»(٣).

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨ والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) البيت للبوصيري. انظر: «البلاغة الواضحة» ص٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٣، والترمذي في =

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، أي: ثم لا يموت في النار، فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: ولا يحيا حياة طيبة، بل هي حياة شقاء وعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان في البادية»[1].

وهذا الحديث يدل على أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أهل النار الذين هم أهلها، وهم الكفرة المخلدون فيها.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تسبيح الرب سبحانه وتعالى لأمر الله عز وجل نبيه بذلك وهو أمر له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٣- إثبات اسم الله «الأعلى»، وصفة العلو المطلق له عز وجل؛ علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾.

٤- كمال عظمة الله عز وجل وقدرته، فهو الذي خلق الخلق فسواه، وقدر مقادير الخلق، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وأخرج النبات، ثم جعله أسود يابسًا؛ لقوله تعالى:

= صفة جهنم ٢٥٨٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣/ ٥، ١١، ٢٠.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

٥- الرد على القدرية القائلين بأن الله لم يقدر أفعال العباد.

٦- الإشارة إلى أن الحياة الدنيا متاع قليل، وإلى قصر عمر الإنسان فيها، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

٧- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بأن يقرئه القرآن فلا ينسى، إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه مما ينسخه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٨- إثبات المشيئة والإرادة لله- عز وجل- وأنه- عز وجل- قد ينسي نبيه ما شاء وينسخ ما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٩- علم الله عز وجل بما يجهر به الخلق وما يخفونه، وما يُظهر وما يُسر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

١٠- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بتيسيره لليسرى في شريعته وفي أمور دينه ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

١١- أمر الله عز وجل لرسوله بالتذكير حيث تنفع الذكرى، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

١٢- ينبغي أن يكون التذكير في الوقت المناسب والحال المناسب.

١٣- إنما يتذكر وينتفع بالموعظة من يخشى الله عز وجل، ويصرف عنها الأشقى الذي هو من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾.

١٤- إثبات وجود النار الكبرى، نار الآخرة وأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لنار الآخرة، فهي النار الكبرى العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

١٥- أن المعذب في النار لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل هو في شقاء أبدي وعذاب سرمدي- نسأل الله السلامة والعافية- لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ «قد»: حرف تحقيق «أفلح»: فاز ونجح ونجا من المرهوب وظفر بالمطلوب؛ زحزح عن النار وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: الذي تطهر، أي: طهر نفسه ظاهرًا وباطنًا من الشرك والمعاصي، وطهرها بالعمل الصالح ومن ذلك أداء زكاة المال وزكاة الفطر، وغير ذلك.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بأنواع الذكر من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

﴿فَصَلَّىٰ﴾، أي: فصلى الصلوات الخمس في أوقاتها، وغيرها من الصلوات، كصلاة العيد وغيرها.

وفي عطف قوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ دلالة على عظم منزلة الصلاة بين أنواع الذكر؛ لأن الصلاة من ذكر الله، فهذا من عطف الخاص على العام.

وقد حمل بعض المفسرين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ على أداء زكاة الفطر، وقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على أداء صلاة العيد، والآية أعم من هذا، فهي تشمل هذا وغيره.

وفي تقديم قوله: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ إشارة إلى أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد. كما أن في ذلك إشارة إلى عظم حقوق الخلق؛ لأن في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾: حثًا على الإحسان إلى عباد الله.

كما أن في قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾: حثًا على الإحسان في عبادة الله عز وجل.

وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي.

قرأ أبو عمرو بالياء: «يؤثرون»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾.

أي: تقدمون الحياة الدنيا، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة وسميت هذه الحياة «الدنيا»؛ لقربها، فهي قبل الآخرة؛ ولهذا سميت الأولى، كما قال

تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤].

ولأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة.

والمعنى: بل تقدمون الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فتعملون للدنيا وتتركون العمل للآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، وقال: «آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا؛ لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزُويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل»[١].

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: والدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى منها كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فالدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[٣].

وذلك أن الدنيا دار كبد ونكد ونصب، دار الهموم والأحزان والمصائب، والآخرة لمن وفقه الله دار النعيم والثواب والسرور والحبور.

والآخرة أبقى من الدنيا؛ لأن الدنيا تفنى وتزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠- من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

رُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: هل عندنا مما في صحف إبراهيم؟، فقال ﷺ: «نعم»، وقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾»[(٢)].

ويحتمل رجوعه إلى قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ ويحتمل رجوعه إلى كل آيات السورة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى»[(٣)].

والصحف: جمع صحيفة، و«الأولى» بمعنى الصحف السابقة المتقدمة.

وصحف إبراهيم: هي ما أنزله الله عز وجل على نبيه وخليله إبراهيم- عليه السلام- سماها الله «صحفًا» هنا وفي قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤١٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/ ١٦٦- ١٦٩ من حديث طويل وقد ذكر الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» قطعة منه في باب الترهيب من الظلم وفي باب الترغيب في الصمت، وقال في آخره: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: «صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه النسائي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٥.

ولم يرد تسميتها باسم كتاب معين كالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل.

وصحف موسى هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه السلام، كما قال الله عز وجل عن القرآن: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

ويؤخذ من هذا التوافق بين القرآن الكريم وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب السماوية وبخاصة في أصول الشرائع حيث اشتمل القرآن على كل ما في هذه الكتب من أصول الشرائع والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر وبهذا صار مهيمنًا عليها، كما قال عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق فلاح من زكى نفسه وماله، وذكر اسم ربه وصلى له، وفوزه بالمطلوب ونجاته من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- لمن تطهر وذكر اسم ربه وصلى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾.

٣- إيثار كثير من الناس وتقديمهم للحياة الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة العظيمة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

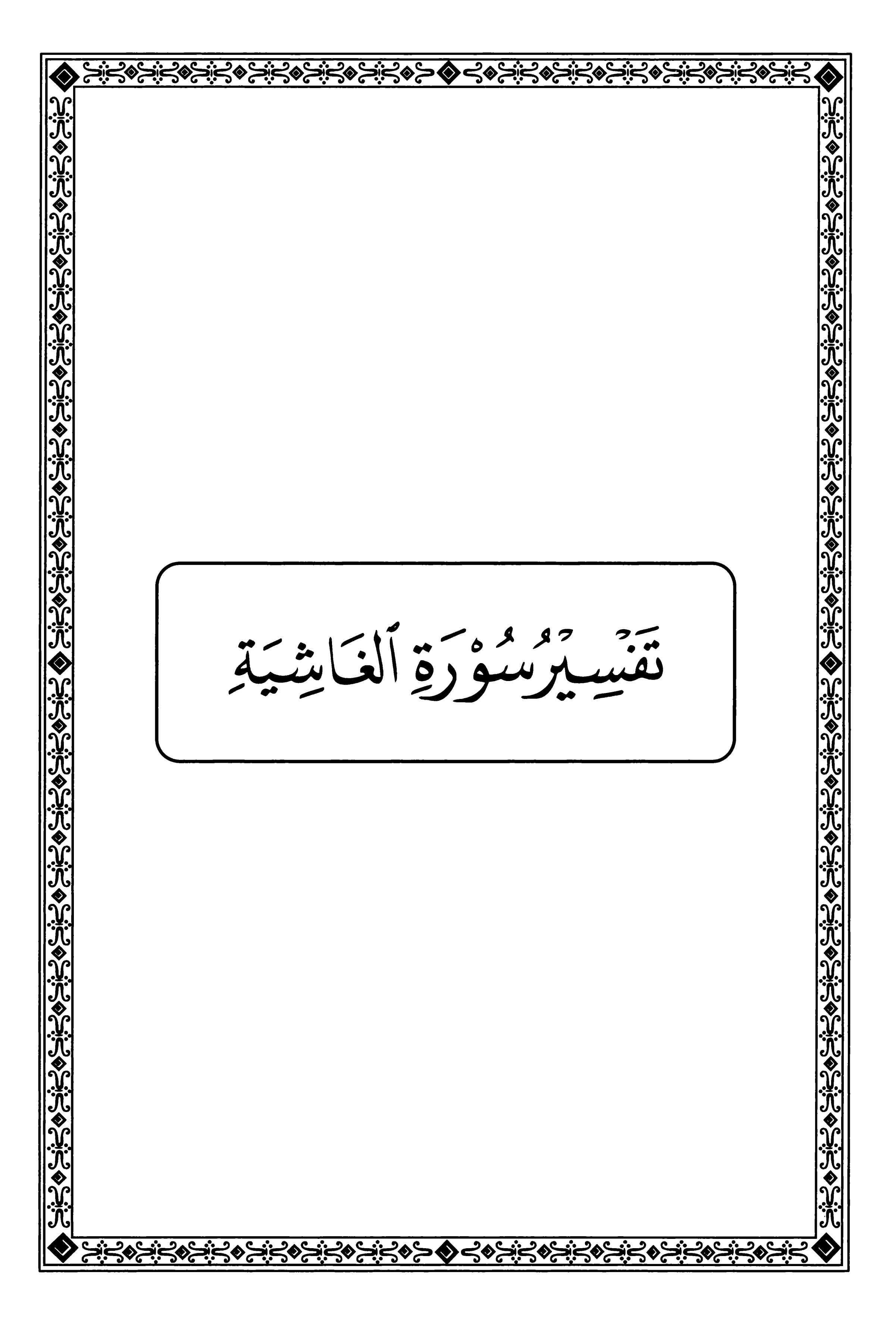
٤- إثبات اليوم الآخر والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٥- الترغيب في الاستعداد للآخرة التي هي خير وأبقى، وهي الحياة الحقيقية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

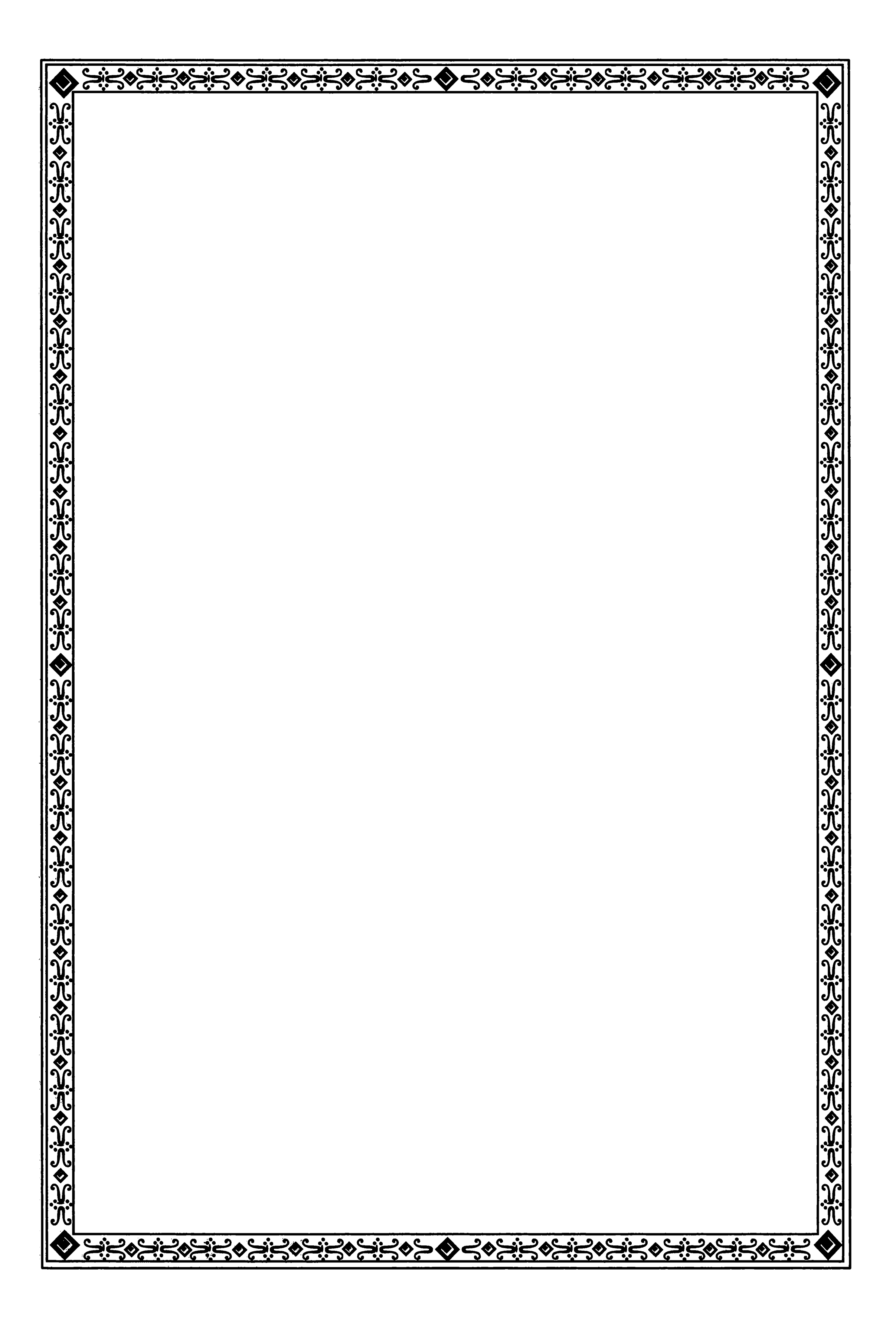
٦- توافق الكتب السماوية في أصول الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

٧- إثبات صحف إبراهيم وموسى؛ لقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، واشتمالها على ما جاء في هذه السورة أو بعضه.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلغَاشِيَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الغاشية» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها:﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة هل أتاك حديث الغاشية»، و«سورة هل أتاك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، و:﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأ بهما»[١]وفي رواية عن الضحاك بن قيس أنه سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾[٢].

د- موضوعاتها:

١- بيان حال الكفار والمؤمنين يوم القيامة: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣﴾ إلى قوله:﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

٢- توبيخ الكفار لعدم نظرهم في دلائل عظيم قدرة الله تعالى في خلقه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٣، والنسائي في الجمعة ١٤٢٣، وابن ماجة في إقامة الصلاة ١١١٩.

٣- تسليته ﷺ وتقوية قلبه، وبيان أن مهمته التذكير، وليس إليه هداية القلوب، والوعيد للكافرين: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، الاستفهام: للتنبيه والتعظيم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب. وهذا كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ [البروج: ١٧، ١٨].

أي: هل جاءك نبأ وخبر الغاشية، وهي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها، وتذهلهم بشدتها.

ولهذا ذكر بعد هذا أحوال الناس فيها وانقسامهم إلى فريقين، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، أي: وجوه في ذلك اليوم ذليلة من الخزي والفضيحة، وهي وجوه الكفار والمكذبين، فهم في ذلك اليوم أشد ما يكونون ذلًا وخوفًا كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، أي: عاملة في ذلك اليوم عملًا يكون فيه النصب والتعب من جر السلاسل والأغلال الثقيلة والخوض في العذاب في نار جهنم.

وقيل: قد عملت في الدنيا عملًا كثيرًا، نصبت وتعبت فيه لكنه لم ينفعها، لأنه عمل غير صالح، ليس خالصًا لله ولا على سنة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

عن أبي عمران الجوني قال: «مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ فذاك الذي أبكاني»[(١)].

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أن دلالة السياق على المعنى الأول أظهر، لأن السياق في أهوال وأحوال القيامة.

وهذا المعنى الذي أشار إليه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- موجود في بعض المنتسبين إلى الإسلام، كمن يزكي ويصوم ويحج، ويعمل بعض الطاعات لكنه يقع في الرياء والشرك، أو لا يصلي ونحو ذلك، فهذا عمله يذهب هباء منثورًا.

كما أنه قد يفوت على كثير من المسلمين أجر كثير من الأعمال التي يقومون بها في خدمة الأمة والقيام بمسؤولياتها كالتدريس والأعمال الوظيفية في الوظائف الشرعية وغيرها بسبب غياب النية والاحتساب مما يسبب أيضا مع فوات الأجر التبرم من العمل والإحباط وانحطاط المعنويات وانتظار التقاعد المبكر، وما علموا أن العمل في خدمة الأمة ومصالحها جهاد يؤجرون عليه إذا هم أخلصوا النية وأحسنوا العمل.

فوا أسفا على أعمار وأعمال تضيع سدى بسبب غياب النية والاحتساب فهذا موظف يشكو من الدوام، وهذا مدرس يشكو من النصاب، وهذا إمام ومؤذن يشكو من الارتباط وهكذا وكل هذا بسبب غياب حسن النية والاحتساب.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس، احتسبوا أعمالكم، فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر احتسابه»[(٢)].

وقال معاذ رضي الله عنه: «فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»[(٣)].

فيا أخي الكريم لتربح جميع عمرك أحسن العمل واستحضر النية الصالحة في عملك وفي جلوسك مع أهلك وأولادك وإخوانك، وفي أكلك وشربك ونزهتك

(١) أخرجه أبو بكر البرقاني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٦- ٤٠٧.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، «لسان العرب»، مادة «حسب».

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٤١- من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

وبيعك وشرائك ونومك وجميع أحوالك في أمور دينك ودنياك، ولا تكن من الغافلين. واعلم أن الموفقين عاداتهم عبادات، وأن المخذولين عباداتهم عادات. وانظر أين أنت من هؤلاء وهؤلاء.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بضم التاء: «تُصْلى»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَصْلَىٰ﴾، أي: تدخل نارًا شديدة الحرارة تغمرها من كل جانب، وتُقلَّب فيها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، أي: تسقى من عين بالغة الغاية في الحرارة.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾، أي: ليس لهم في النار طعام يأكلونه.

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، أي: إلا طعامًا من ضريع، وهو شجر في النار خبيث، شديد المرارة، منتن الرائحة، كثير الشوك، ينشب في الحلق، كما قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾، أي: لا يحصل به سمن الجسم، ولا يدفع الجوع، ولا ينفع الجسم لا ظاهرًا ولا باطنًا، فمسكنهم النار الحامية، وشرابهم المهل والحميم، وطعامهم الضريع والزقوم، فبئس الحال و المآل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذكر في الآيات السابقة حال ومصير وعذاب الأشقياء وهم الكفار المكذبون ثم أتبع ذلك بذكر حال ومصير ونعيم السعداء، وهم المؤمنون، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿نَّاعِمَةٌ﴾، أي: تظهر عليها آثار الترف والنعمة، ونضارة النعيم، وبهجة القلوب وسرورها، وهي وجوه المؤمنين.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، أي: لعملها الذي قدمته في الدنيا.

﴿رَاضِيَةٌ﴾؛ لأنه كان سبب دخولها الجنة وتنعمها فيها، وسعادتها في دنياها وأخراها.

﴿فِي جَنَّةٍ﴾ الجنة: دار النعيم التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿عَالِيَةٍ﴾، أي: رفيعة المنزلة، فوق السموات في أعلى عليين وسقفها عرش الرحمن، قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] وهي عالية أيضًا، أي: عظيمة القدر.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء المضمومة: «لا يُسمع»، و«لاغيةٌ» بالرفع، وقرأ نافع بالتاء المضمومة: «تُسمع»، وقرأ الباقون بالتاء المفتوحة: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ ونصب: ﴿لَاغِيَةً﴾، أي: لا تسمع في الجنة كلمة ساقطة، أو لا معنى لها.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، ﴿عَيْنٌ﴾: اسم جنس، أي: فيها عيون جاريات، أي: سارحات، تجري بغير أخدود، يفجرونها، ويشربون منها، ويصرفونها كيف شاؤوا كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

منها: عين التسنيم، والكافور والسلسبيل، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك»[1].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٤٠٨.

وهذه العيون والأنهار تجري في غير أخدود.

قال ابن القيم[١]:

أنهارها في غير أخدود جرت   سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾، السرر: جمع سرير، وهي موضع الجلوس والاضطجاع.

﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾، أي: عالية مرتفعة السمك، كثيرة الفرش، ناعمة الملمس، عليها الحور العين، فهي مرفوعة مرتفعة حسًا ومعنى.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾: أقداح معدة للشراب.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ نمارق: جمع نِمرقة- بكسر النون، أي: وسائد ومرافق يتكأ عليها ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، أي: مصفوف بعضها إلى بعض، فجمعت بين لذة الاتكاء إليها وجمال الصف، وحسن الترتيب.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾، أي: وبسط جميلة فاخرة.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرقة مبسوطة في المجالس ههنا، وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبدًا في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية»، قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «قولوا إن شاء الله»، ثم ذكر الجهاد وحض عليه»[٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾.

٢- تشريف الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في خطابه له، وتنبيهه وأمته لعظيم يوم

---

(١) انظر «النونية» ص٢٢٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣٣٢.

القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾.

٣- انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: فريق وجوههم ذليلة مصيرهم النار الحامية وما فيها من ألوان العذاب، وفريق وجوههم ناعمة مصيرهم الجنة وما فيها من أصناف النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ الآيات.

٤- ذلّ المعذبين وعملهم ونصبهم بجر السلاسل والخوض في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

٥- عمل الكفار وأهل البدع أعمالًا كثيرة ونصبهم فيها، لكنها لا تنفعهم، بل تكون هباءً منثورًا.

٦- الجمع للمعذبين بين اصطلاء النار الحامية، وشراب الحميم، وطعام الضريع المنتن المر الذي ينشب بالحلق، ولا يسمن ولا يغني من جوع؛ لقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧)﴾.

٧- نعومة وجوه أهل الجنة؛ لعظم ما هم فيه من النعيم المعنوي والحسي؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾.

٨- رضى المنعمين في الجنة عن سعيهم، وما أعد لهم، وهذا من أعظم النعيم المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

٩- علو الجنة ومنازلها ورفعة سررها وفرشها؛ لقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

١٠- سلامة أهل الجنة من المنغصات والمكدرات، ومن سماع اللغو لقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً﴾.

١١- عظم ما أعد لأهل الجنة من ألوان النعيم، فعيون جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ووسائد مصفوفة، وبسط مفرقة مبسوطة في المجالس؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

بعد ما ذكر عز وجل انقسام الناس يوم القيامة إلى أشقياء وسعداء، وذكر حال ومآل كل منهم وما أعد له من الجزاء، أتبع ذلك بالأمر بالتأمل والنظر في عظيم مخلوقاته، الدالة على كمال قدرته وعظمته، واستحقاقه للعبادة وحده وقدرته على بعث الناس وحسابهم.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمكذبين بالبعث المنكرين للمعاد.

أي: أعموا فلا ينظرون نظر تأمل وتفكر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ هذه المخلوقات العجيبة التي بين أيديهم يركبونها ويحلبونها ويأكلون لحمها، وينتفعون بأوبارها وجلودها وغير ذلك من منافعها.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، أي: كيف خلقت على هذه الكيفية العظيمة من كبر الأجسام وقوتها، وتركيبها الغريب العجيب، ولين انقيادها، وشدة صبرها وتحملها، وكثرة منافعها، تحمل الركاب والأثقال، ويستخرج بها الماء من الآبار، وتشرب ألبانها، التي تعد من أنفع وأحسن الأغذية للجسم كما يستشفى بألبانها وأبوالها من الحمى ومن كثير من الأمراض المستعصية والجلدية وغيرها، وتؤكل لحومها، التي هي أنفع اللحوم وأجودها؛ وأصحها؛ لأنها لا تتغذى بالنجاسات ولا تأكلها مطلقًا ولو ماتت جوعًا. وينتفع بوبرها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها العظيمة وفوائدها الكثيرة؛ ولهذا خصها بالذكر من بين سائر بهيمة الأنعام، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧].

فتحمل الأثقال العظيمة، بل من قوة هذه الإبل أن الأثقال تحمل عليها وهي

باركة، ثم تقوم بحملها، وهذا من عناية الله عز وجل بالإنسان، حيث لا يمكنه الحمل عليها وهي قائمة لارتفاعها، فأعطاها الله عز وجل هذه القوة وأقدرها على القيام بحملها، كما أقدرها على قطع المسافات الطويلة، وتحمل شدة الحر والظمأ وشدة البرد وظروف الحياة الصحراوية القاسية على اختلاف فصول السنة، ويقال أنها تصبر عن الماء وتتحمل العطش نحو عشرة أيام في شدة الحر.

وتدل صاحبها إذا تاه عن الطريق، كما تدله إلى مورد الماء، وتفي لصاحبها إذا أحسن إليها، وتنتقم منه ولو بعد حين إذا أساء إليها، وتتحاشى في سيرها وطء أيّ كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

وقد ذكر أن رجلًا كان يسير خلف جمله في الصحراء في آخر الليل وكان مجموعة من اللصوص «الحنشل» نائمين في وسط الطريق لعل أحدًا يأتي فيأخذوا ما معه، فأبصرهم الجمل وتنحى عنهم جانبًا، أما صاحبه فاستمر في طريقه حتى وقع عليهم، فقاموا وأخذوا جمله وما معه.

ويقال: إنها إذا فقدت فصيلها بين الإبل رجعت إلى آخر مكان درّت فيه على ولدها وأرضعته فيه ولا تكاد تخطئ ذلك غالبًا، وهو كذلك إذا كان يستطيع المشي، يبحث عنها في آخر مكان رضعها فيه. وتحزن وتصاب بحالة نفسية عندما يؤخذ وليدها، أو يذبح أمامها جمل آخر، وتحس بمصدر الخطر على أهلها إذا أقبل وجهته فتسرع في السير إن كانت في مسير، وتشنف آذانها وتمد عنقها وتضطرب وتنهض إذا كانت باركة إنذارًا لأهلها بالخطر.

وأهل الإبل يعرفون من عجائب أحوالها الشيء الكثير.

لكن مما يستغرب من الإبل مع ماذكر عنها عدم ابتعادها عن السيارات في الطرقات العامة بينماكثير من الحيوانات تبتعد عنها. فقد يكون هذا بسبب غرورها وكبريائها واعتدادها بقوتها أو غير ذلك.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾: معطوف على الإبل، أي: و ينظرون إلى السماء كيف رفعها الله عز وجل فوقهم بلا عمد، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾

[الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الجبال كيف نصبت، أي: كيف جعلت منصوبة قائمة أمام أعينهم راسخة راسية في الأرض لئلا تميد بأهلها في وسط الماء المحيط بها من كل جانب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، مع ما أودع الله فيها من المنافع من المعادن وغيرها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن ما نشاهده من الجبال فوق سطح الأرض هو مقدار ثلثها فقط، وثلثاها راسخة في الأرض.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الأرض كيف سطحت، أي: كيف بسطت ومدت ومهدت وفرشت، فجعلت مسطحة يسهل العيش والبناء عليها وزراعتها والاستفادة من خيراتها مع أنها في الأصل كروية الشكل، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

فوجه الله عز وجل العرب إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية التي بين أيديهم ويشاهدونها: الإبل التي يركبونها، ويحملون عليها أثقالهم، ويحلبونها ويأكلون لحومها، وينتفعون بأوبارها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها، وإلى السماء التي فوقهم، وإلى الجبال المنصوبة أمام أعينهم، وإلى الأرض التي يعيشون عليها ويسيرون، وينتفعون بخيراتها، وهذا أدعى لقبولهم، وأقوى في قيام الحجة عليهم.

وكان شريح القاضي رحمه الله يقول لأصحابه: «اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت»[(١)].

وهذا بخلاف ما لو وجهت أنظارهم لما لم يكن مشاهدًا لهم ولا معلومًا مما جد من المخترعات والمصنوعات من السيارات والطائرات وانتقال الأصوات بواسطة الآلات،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٠٨-٤٠٩.

وغير ذلك مما هو داخل تحت قوله عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨].

وعن أبي تميمة عن رجل من قومه أتى النبي ﷺ أو قال شهدت النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم» قال: إلام تدعو؟، قال: «أدعو إلى الله عز وجل وحده، من إذا كان بك ضر دعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام سنة دعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قفر، فأضللت فدعوته رد عليك..»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟، قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟، قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟، قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟، قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟، قال: «صدق»، قال: ثم ولى، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»(٢).

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: ذكر الناس يا محمد، أي: عظهم بما أنزل الله إليك من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، ﴿إنما﴾: أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في العلم- ما جاء في العلم ٦٣، وأخرجه موصولًا مسلم في الإيمان- في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين ١٢، والنسائي في الصيام- وجوب الصيام ٢٠٩١، والترمذي في أبواب الزكاة- ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ٦١٩.

عما عداه، أي: ما أنت إلا مذكر فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقد ذكّر ﷺ وبلّغ البلاغ المبين حتى أتاه من ربه اليقين، وكان يردد ﷺ وهو يجود بنفسه «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»(١).

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، أي: لست يا محمد على الناس بمتسلط جبار تكرههم على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾»(٢).

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم محمد ﷺ، سيدهم وأفضلهم هي التذكير وتبليغ الدعوة فقط، وهكذا مهمة الدعاة إلى الله والمصلحين والمربين، أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب.

وفي هذا تسلية له ﷺ وهي تسلية للدعاة والمصلحين من أمته؛ لأنه إذا كان ﷺ تمرد عليه من تمرد من قومه بل من قرابته، وقال الله عز وجل له: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾مع أنه مرسل من عند الله عز وجل مؤيد بالوحي، فتمرد كثير من الناس على الدعاة من بعده من باب أولى وأحرى.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من أعرض عن اتباع الحق

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١، والبغوي في «معالم التنزيل» ١/ ٤٢٦- من حديث أم سلمة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

والعمل به ببدنه وجوارحه، ﴿وَكَفَرَ﴾، أي: وجحده بقلبه ولسانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١- ٣٢].

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وهو عذاب الآخرة في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، و من يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكلم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله»(٢).

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في هذا وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر، كما أن فيه تسلية للرسول ﷺ تجاه من تولى وكفر من قومه.

قرأ أبو جعفر بتشديد «الياء»: «إِيَّابهم»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿إِيَابَهُمْ﴾.

أي: إلينا رجوعهم ومآبهم ومصيرهم، وعلينا طريقهم ونحن لهم بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، أي: ثم إن علينا محاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

لكن المؤمنين يحاسبون حسابًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه، فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟، فيقول: نعم ربي، فيقول الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٥٨.

وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

وأما الكافرون فيحاسبون حسابًا عسيرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٢٥- ٣٢].

فتحصى عليهم أعمالهم ويناقشون عنها أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «من نوقش الحساب هلك »، وفي رواية: «عذب»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- الحث على النظر والتأمل في آيات الله ومخلوقاته العظيمة، والإنكار على من يغفل عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾.

٢- عظم آيات الله عز وجل وتمام قدرته في خلق الإبل ورفع السماء، ونصب الجبال وسطح الأرض.

٣- مخاطبة الناس بما يعرفون فقد وجه الله العرب للنظر فيما بين أيديهم من المخلوقات إقامة للحجة عليهم ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

٤- أن مهمة الرسول ﷺ والواجب عليه، وعلى أتباعه التذكير، وهداية الناس بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ ليس بمسلط على الناس يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

---

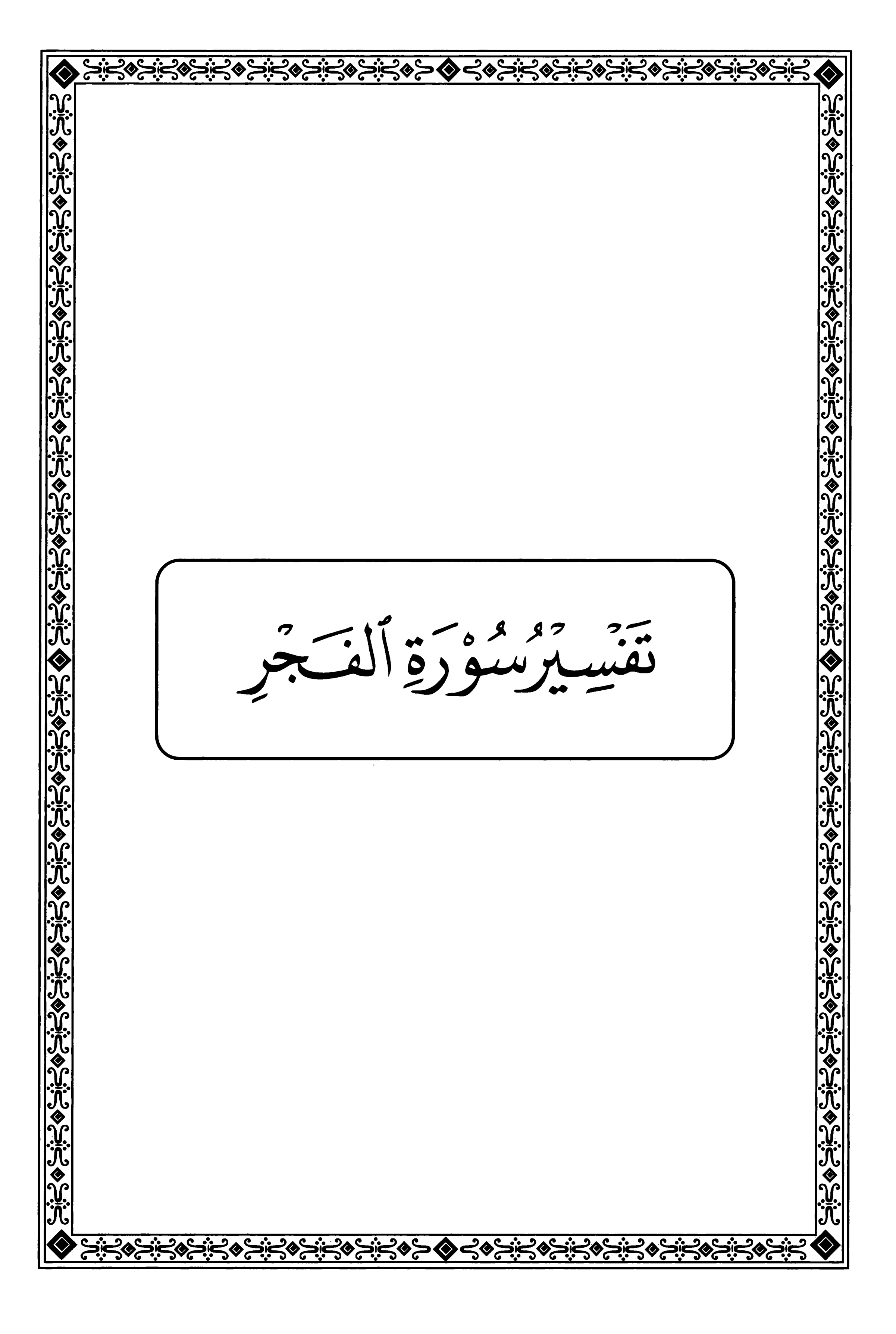
(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٤٩٣٩، وفي الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

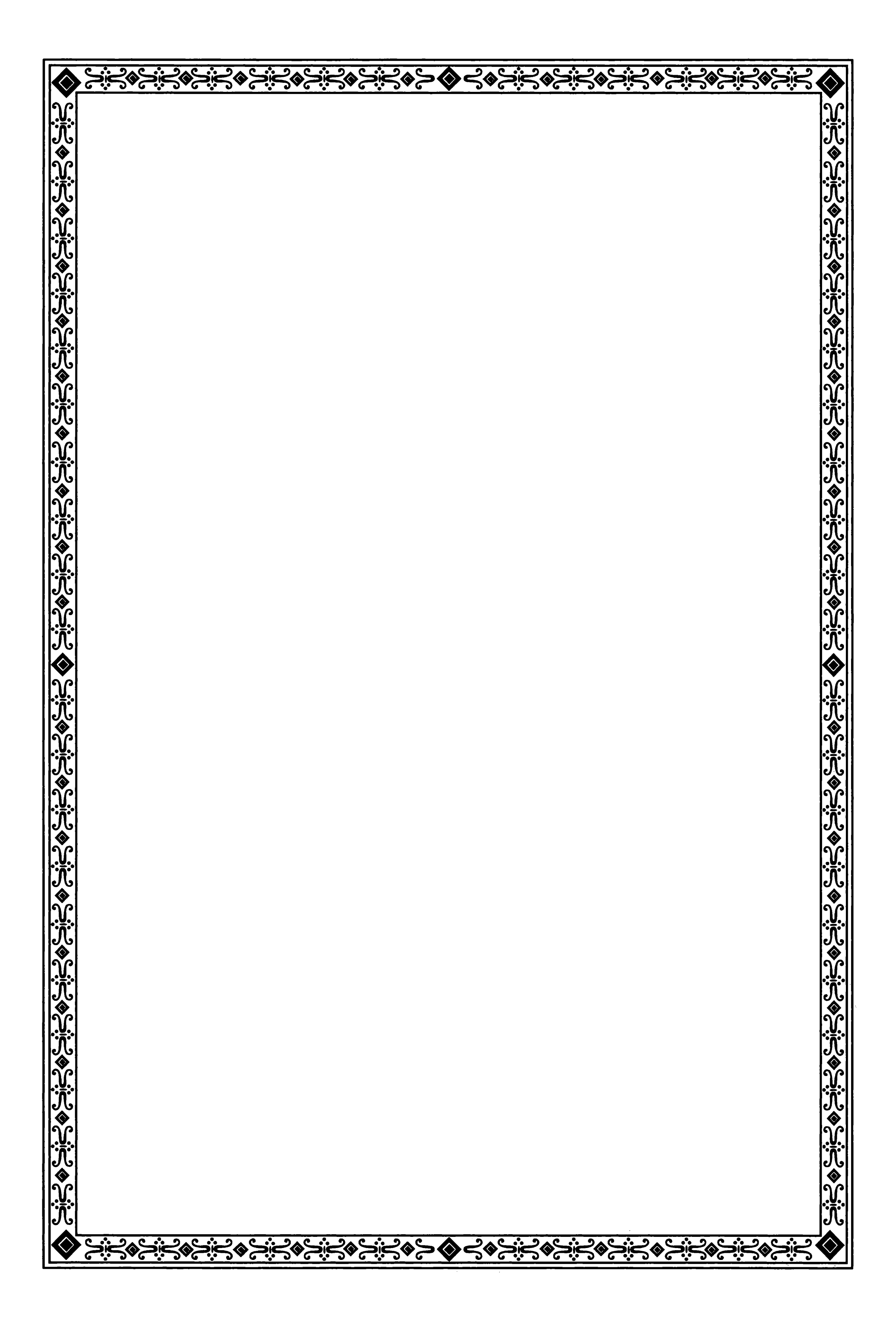
٦- الوعيد لمن تولى وكفر بالعذاب الأكبر يوم القيامة عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

٧- أن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله عز وجل وعليه حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلفَجۡرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفجر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه: «صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذًا، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه، فطوّل عليَّ فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ و ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾»[1].

د- موضوعاتها:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر وما عطف عليه تعظيمًا لذلك: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

٢- التذكير بما حل من العقوبات بعاد وثمود وفرعون بسبب استكبارهم وكفرهم وطغيانهم وفسادهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

٣- بيان طبيعة الإنسان إنسان حاله ومقاله عندما بالسراء والنعمة، وعندما يبتلي بضد ذلك: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾.

---

(١) أخرجه النسائي بهذا اللفظ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤١٢. وقد سبق تخريجه في تفسير سورة الأعلى، وليس فيه: «والفجر».

٤- الحث على إكرام اليتيم وإطعام المسكين، وعدم الافتتان بأكل التراث وحب المال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾

٥- التهديد بأهوال القيامة﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾.

٦- تذكر الإنسان عمله، وندم المفرط على تفريطه، ومجازاة كل بما عمل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

الواو: حرف قسم وجر، و«الفجر» وما عطف عليه وهو قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ كل ذلك مقسم به مجرور، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما فيها من الدلالة على عظمته هو، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ هو الصبح والنور الساطع الذي يكون متصلًا بالأفق الشرقي ويمتد شمالًا وجنوبًا، قبل طلوع الشمس بساعة ونصف إلى ساعة وربع تقريبًا حسب اختلاف الفصول، وهو الفجر الصادق الذي لا ظلمة بعده، بل يتلوه طلوع الشمس، وهو وقت عظيم؛ لأنه وقت إقبال ضوء النهار وإدبار ظلمة الليل، ووقت صلاة الفجر، التي قال الله عنها: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهو وقت إمساك الصائم عن المفطرات.

وعُرِّف «الفجر» باللام؛ لأنه معروف لكل أحد.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: عشر ذي الحجة، والمراد أيامها، أقسم الله عز وجل بها؛ لعظيم فضلها، قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين- فضل العمل في أيام التشريق ٩٦٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

وقيل: إن المراد بهذه الليالي العشر الاواخر من رمضان، لقوله: «وليال»، ولم يقل «وأيام» فأقسم الله عز وجل بهذه الليالي؛ لشرفها وفضلها؛ لأن فيها ليلة القدر، وكان الرسول ﷺ يقومها ويعتكف فيها ويرغب في ذلك.

﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ يوم النحر ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو: ﴿وَٱلۡوِتۡرِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ بفتحها ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ يوم عرفة.

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»(١).

وقال بعض المفسرين: الشفع الخلق كله، والوتر: الخالق سبحانه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»(٢).

وقال بعضهم: الشفع والوتر: المخلوقات منها شفع ووتر، وكذلك العبادات كلها منها ما هو شفع، ومنها ما هو وتر، أي: في عددها فالصلاة منها ما هو شفع كالثنائية والرباعية، ومنها ما هو وتر كالثلاثية.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر»(٣).

قال ابن القيم(٤): «هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفات وتر، وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٤٨. قال ابن كثير في «تفسيره»: «إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة».

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٤٣٧، والترمذي في تفسير سورة الفجر٣٣٤٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٢٣.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٠٦- ٢٠٧.

وتر، والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وترًا، وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع.. إلى أن قال: وذكرت أقوال أخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين: أحدها أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات، والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق».

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، أي: والليل إذا سار ومضى وذهب وأدبر.

والسُّرى: السير في الليل، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى»

ويحتمل أن المعنى: والليل إذا أقبل بظلامه فيكون عز وجل أقسم بالليل إذا أقبل بظلامه وبالفجر إذا أقبل بضيائه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

فأقسم عز وجل بالليل في سريه إقبالًا وإدبارًا؛ لما فيه من الآيات العظيمة، والأوقات الفاضلة من أوقات الصلوات والنزول الإلهي، وغير ذلك.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾، «هل»: حرف استفهام، للتحقيق والتقرير.

﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للقسم السابق، وما أقسم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾، أي: لصاحب عقل ولب وحِجًا وبصيرة.

وسُمي العقل حجرًا؛ لأنه يحجر على صاحبه ويمنعه عما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

والمعنى: في هذا القسم الذي أقسم الله به في هذه الآيات أعظم الإقناع والكفاية لمن كان ذا عقل ولب وألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: ألم تعلم كيف فعل ربك بهم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابهُ.

و«عاد إرم» هم أولاد عاد بن إرم ينتهي نسبهم إلى نوح عليه السلام، وهم عاد الأولى أرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام ومنازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: عطف بيان، أي: صاحبة العماد، نسبة إلى الأعمدة الشديدة الطويلة التي ترفع بها بيوت الشعر والخيام التي يسكنونها.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في جميع البلاد، من

حيث كبر وطول أجسامهم وعظم خلقهم وقوة تركيبهم، وشدة قوتهم وبطشهم، حتى إنه رُوِيَ أن الواحد منهم يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الحي فيهلكهم؛ ولهذا ذكّرهم نبي الله هود عليه السلام بهذه النعمة التي خصهم الله بها من بين أهل بلادهم وزمانهم؛ ليشكروا الله تعالى على ذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩].

لكنهم لم يزدادوا بهذه النعمة إلا استكبارًا في الأرض، وعتوًا وتجبرًا، وتكذيبًا لـ«هود» عليه السلام، وجحودًا لآيات الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٩].

وحيث كانوا يفتخرون ويتعاظمون بقوتهم أهلكهم بألطف الأشياء وهي الريح العقيم وجعلهم عبرة لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿وَثَمُودَ﴾: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾، أي: الذين قطعوا الصخر ونحتوها وخرقوها؛ لما أعطاهم الله من قوة، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢].

ومنه قوله في الحديث: «مجتابي النمار»(١)، أي: مقطعو النمار(٢) ومخرقوها.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧- من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) النمار: هي الأزر والشمال المخططة من صوف.

﴿بِٱلْوَادِ﴾، أي: بواد القرى، وادي الحجر شمال الجزيرة.

وقد كذبوا صالحًا عليه السلام، وعصوا أمر الله عز وجل، وعقروا الناقة التي أرسلها الله عز وجل لهم آية إجابة لطلبهم، وقد أهلكهم الله عز وجل بالصيحة والصاعقة والرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أعماق أجوافهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٠- ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥].

ومساكنهم معروفة الآن وهي المسماة الآن «مدائن صالح» في العلا شمال الجزيرة، وقد مر عليها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه، وقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(١).

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: ملك مصر، الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وهو أعظم الفراعنة جرأة على الله عز وجل حيث ادعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] واستذل بني إسرائيل يُقتِّل أبناءهم ويستحيي نساءهم.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، أي: صاحب الأوتاد، والأوتاد: جمع وتد، أي: صاحب الأوتاد التي يعذب بها الناس يوتدهم ويعلقهم بها.

ومنهم امرأته آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، فقد رُوي أنه ضرب لها أربعة

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٤٧٠٢، ومسلم في الزهد- النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيًا ٢٩٨٠، من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿ذي الأوتاد﴾، أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأرض بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ «الذين» اسم موصول يعم من ذكر قبل، وهم عاد إرم، وثمود وفرعون.

ومعنى ﴿طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: تجاوزوا الحد، فخالفوا أمر الله وعتوا وتجبروا.

﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾، أي: أكثروا فيها الفساد المعنوي بالكفر والمعاصي وإضلال وأذية العباد، المؤذن بفساد وخراب البلاد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ﴾، أي: أنزل عليهم ربك يا محمد.

﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾، أي: رجزًا من العذاب والعقاب العاجل في الدنيا أهلكهم به، كل منهم بقدر جرمه وذنبه.

ونكّر «سوط عذاب»، إما؛ لتعظيمه، وإما لتقليله، وأنه بيسير من عذابه أهلكهم واستأصلهم جميعًا، مع جبروتهم وطغيانهم.

فأهلك عادًا بالريح العقيم، وأهلك ثمود بالصيحة والصاعقة والرجفة، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ بعد ما ذكر الله عز وجل ما أنزله من العذاب على عاد وثمود وفرعون أتبع ذلك بأنه عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: إن ربك يا محمد ﴿لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ لجميع خلقه يسمع أقوالهم، ويرى أعمالهم، وطريقهم كلهم عليه، ومردهم وإيابهم إليه وحسابهم عليه، فلا يمكن أن يفلت منهم أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] فالطريق

عليه والمرجع إليه، والطريق إلى غيره مسدودة وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر، وعشر ذي الحجة، والشفع والوتر والليل إذا يسر تعظيمًا لنفسه عز وجل وشرعه وقدرته، وتنبيهًا إلى فضل هذه الأوقات خصوصًا، وإلى أهمية الوقت عمومًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

٢- أن في إقسامه عز وجل بما ذكر ما يشفي ويكفي لمن كان ذا لب وعقل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾.

٣- التذكير بما فعل الله عز وجل بعاد إرم وثمود وفرعون مع قوتهم وجبروتهم حيث عذبهم أهلكهم بسبب طغيانهم وفسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه، وتخويف وتحذير لهم.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

٥- أن الله عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق، فمرورهم عليه، ومصيرهم إليه، وحسابهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

٦- التذكير بوجوب مراقبة الله تعالى، والتحذير من الغفلة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، ﴿الإنسان﴾ جنس الإنسان.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: إذا ما امتحنه ربه، واختبره. والابتلاء: الامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فيبتلى الإنسان بالشر أيصبر أم يجزع ويفجر، ويبتلى بالخير أيشكر أم يكفر.

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[1]

﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأولاد والصحة وغير ذلك، أي: أكرمه مطلق إكرام، لا الإكرام المطلق. ونعمه مطلق إنعام، لا الإنعام المطلق.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، أي: فبدل أن يشكر نعمة الله عليه ويعترف له بها يظن أن هذا الإكرام والتنعيم الدنيوي إكرام من الله عز وجل له فيغتر بذلك، وأنه إنما أوتي ذلك؛ لأنه أهل له، وما علم أن ذلك قد يكون استدراجًا له، كما قال تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بتشديد الدال: «فقدّر»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿فَقَدَرَ﴾، أي: وأما إ ذا ما امتحنه، فضيق عليه رزقه وعطاءه

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ معترضًا على قضاء الله وقدره، وظانًا أن ما حصل له من تضييق رزقه إهانة من الله عز وجل له، فأعجب بنفسه عند الإكرام، ولم يشكر نعمة الله عليه، وجزع عند تضييق رزقه، واعترض على ربه. وهذا حال الإنسان من حيث العموم

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

ظلوم جهول.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعم واعتقد، فليس في الابتلاء بتوسيع الرزق أو تضييقه دلالة على إكرام الله عز وجل للإنسان أو إهانة، أو محبة منه له أو عدمها، بل هذا مقتضى حكمة الله عز وجل وعدله؛ لأن الله عز وجل يبتلي بالنعم، كما يبتلي بالمصائب والنقم، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويمنعها عمّن يحب وعمّن لا يحب. ويبتلي عبده بنعمة قد تجلب له نقمة وبنقمة قد تجلب له نعمة.

وإنما الشأن كل الشأن في توفيق الله للعبد لتقواه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعلى من ابتلي بالمال والغنى أن يشكر ولا يغتر بذلك وعلى من ابتلي بالضيق والفقر أن يصبر، ولا يجزع، والعاقبة للمتقين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه»(١).

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»(٢).

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه»(٣).

فالحمد لله الذي لم يجعل إعطاء الدنيا دليلًا على الكرامة عنده، بل جعل الأكرم من الخلق أتقاهم له عز وجل، لينال ذلك من وفقه الله من الفقراء والأغنياء، والأصحاء والمرضى، بل جعل الابتلاء بالفقر والمرض والمصائب من دلائل محبته، وأسباب القرب إليه.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٣، والدارمي في الرقاق ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ويقوى هذا المعنى ويتأكد عند المؤمن حقًا، ويضعف عند ضعف الإيمان، وينعدم عند عدم الإيمان، فالمؤمن إذا أكرمه الله ونعمه اعترف بفضل الله عليه وشكره، ولم يزعم أن هذا باستحقاقه لذلك، بل يخاف أن يكون ذلك استدراجًا له، وعندما يبتلى بالفقر وضيق الحال يصبر، ويخاف أن يكون ذلك بشؤم ذنوبه، ويعلم أن ما عند الله خير له.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ «بل»: للاضراب الانتقالي، أي: بل إنكم إذا أكرمكم الله ونعمكم ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾.

قرأ أبو عمرو ويعقوب، بالياء في قوله: « بل لا يكرمون» وقوله: «ولا يحاضون» وقوله: «ويأكلون»، «ويحبون»، وقرأ الباقون بالتاء.

و«اليتيم»: من مات أبوه قبل بلوغه، من ذكر أو أنثى؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[1]. وسمي يتيمًا من الانفراد، لانفراده عن أبيه أو عن أبويه.

والمراد بإكرام اليتيم: الإنفاق عليه وتوجيهه والدفاع عنه وعن حقوقه، وتعويضه ما فقد من عطف أبيه أو من عطف أبويه.

وفي الآية ترغيب وحث على إكرام اليتيم وأداء حقوقه وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ [النساء: ١٠].

ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[2].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب- حق اليتيم ٣٦٧٩.

الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا»[١].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، أي: ولا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المسكين. و«المسكين» هو المحتاج الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، وهو الفقير، وسمي بـ«المسكين» أخذًا من السكون واللصوق في الأرض وعدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله نسأل الله العافية.

ومن لا يحض غيره على إطعام المسكين، فهو من باب أولى وأحرى لا يطعم المسكين.

ولعل من الحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ ولم يقل: ولا تطعمون المسكين أن كل إنسان يستطيع الحث على إطعام المسكين، لكن قد يكون هناك الكثير من الناس لا يقدرون على إطعام المسكين بأنفسهم لفقرهم، فاشترك الجميع في أجر الإطعام الحاث عليه والمطعم من ماله.

وفيه أيضًا أنه ينبغي للمجتمع المسلم التواصي بهذا، وأن يحض بعضهم بعضًا عليه، وأن يكون من يتولى تدبير الطعام من زوجة أو ولد، أو خادم أو غيرهم قد أعطي الإذن في هذا.

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾، أي: وتأكلون الميراث ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، أي: من أي جهة حصل من حلال أو حرام، أي: أكلا يَلُمُّ ويلف كل شيء من حلال أو حرام، من ميراث الشخص أو ميراث غيره.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، أي: وتحبون المال حبًا كثيرًا عظيمًا شديدًا.

قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألمّا[٢]

الفوائد والأحكام:

١- جهل الإنسان في ظنه أن ابتلاء ربه له بالنعمة إكرام له، وأن ابتلاءه له بتضييق رزقه إهانة له، والحقيقة غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر «لسان العرب» مادة «جمم».

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

٣- ليس الإكرام للإنسان بتوسيع رزقه، وليست الإهانة له بتضييقه، وإنما حقيقة الإكرام للإنسان بتوفيقه لتقوى الله عز وجل، والإهانة في خذلانه وعدم توفيقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وقد قال عز وجل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

٤- أن الله يبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر من يحب ومن لا يحب.

٥- أن الابتلاء بالنعم أشد وأعظم من الابتلاء بالنقم؛ لهذا قدم قوله: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾على قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، إذا قليل من الخلق من يشكر النعمة ولا يكفرها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

٦- الزجر والوعيد لمن لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث من حل أو حرام ويتهالكون على حب المال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾.

٧- وجوب إكرام اليتيم وإطعام المسكين، والإحسان إليهما والعطف عليهما.

٨- عناية الدين الإسلامي باليتامى والمساكين.

٩- التحذير من أكل الميراث وجمع المال من أي طريق كان ولو كان حرامًا، ومن التهالك في حب المال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾: للردع والزجر للكافرين المكذبين.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾، أي: إذا هدم ما عليها من بناء وسويت جبالها مع سهولها وبسطت، قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣﴾ [الانشقاق: ٣]، أي مدت كما يمد الأديم، وزيد في سعتها.

وقال تعالى عن الجبال ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أي: وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد وهو مجيء يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ «الملك»: جنس الملائكة، أي: وجاء الملائكة بين يدي الله عز وجل صفوفًا صفوفًا، وصفًا بعد صف.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ﴾، أي: وأُتي في ذلك اليوم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ وهي: النار سميت بهذا الاسم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١).

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أي: في ذلك اليوم عندما يرى جهنم، وتبدو الحقيقة

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة- باب في شدة حر جهنم وقعرها، وما تأخذه من المعذبين ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم- ما جاء في صفة النار ٢٥٧٣.

عيانًا، يتذكر الإنسان حاله في الدنيا وتفريطه في عمل الخير والاستزادة منه، كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾، أي: وأين له الذكرى وقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: يقول متمنيًا نادمًا على تفريطه في جنب الله ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ عملًا صالحًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لِحَيَاتِي﴾ الآخرة الباقية الدائمة، والتي هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب»(١).

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره ذلك اليوم، ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»(٢).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ يعقوب والكسائي: «لا يعذَّب» بفتح الذال مع تشديدها، «ولا يوثَق وثاقه أحد» بفتح الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذَّب مثل عذاب هذا المكذب أحد، ولا يوثق ويقيَّد مثل تقييده أحد، فهو أشق الناس عذابًا، وأشدهم وثاقًا وتقييدًا لكفره وتكذيبه.

وقرأ الباقون: ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ بكسر الذال مع تشديدها، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكسر الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثِق وثاقه أحد، بل عذابه أشق، ووثاقه وتقييده أشد، لمن كفر به وكذب رسله وشرعه.

وفي هذا أشد التهديد والوعيد للكفرة والمجرمين والعصاة.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٨٥ ورواه عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ ٤/ ١٨٥.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ بعد ما ذكر شدة عذابه عز وجل ووثاقه لمن كفر به وكذب رسله، أتبع ذلك بذكر ما أعده للنفس المؤمنة من الرضا والكرامة في الجنة فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ الآيات، أي: يا أيتها النفس المؤمنة الآمنة الساكنة الثابتة التي رضيت بقضاء الله وقدره، واطمأنت إلى ذكره، وأيقنت بوعده وثوابه، وأمنت من عذابه، كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل اللهم إني أسألك نفسًا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»(١).

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، أي: يقال لها عند الاحتضار، ويوم القيامة: ارجعي وعودي إلى ربك وجواره وجنته، وما فيها من ألوان النعيم، الذي أعلاه النظر إلى وجهه الكريم، كما قال مؤمن آل فرعون فيما ذكر الله عز وجل عنه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ويجوز أن يكون المراد بـ «ربك»: صاحبك، أي: ارجعي وعودي أيتها النفس المطمئنة إلى صاحبك، أي: إلى بدنك.

﴿رَاضِيَةً﴾ حال، أي: حال كونك راضية مرضية، أي: راضية في نفسك عن ربك وعما أعد لك من النعيم، ﴿مَّرۡضِيَّةً﴾، أي: قد رضي الله عنك بسبب إيمانك وعملك الصالح.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل قوله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٢٣.

في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا...»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان..»[٢].

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾، أي: في عدادهم، وفي جملتهم، كما قال ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»[٣].

وفي إضافتهم إليه عز وجل تشريف وتكريم لهم؛ لأنهم أهل العبودية الخاصة.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، أي: وادخلي جنتي التي أعددتها لعبادي الصالحين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي إضافتها إليه عز وجل تشريف وتعظيم لها.

وهذا النداء وهذا الخطاب الذي يبهج القلوب ويشرح الصدور، يقال لها عند لقاء الله عز وجل يوم احتضارها، وعند لقاء الله عز وجل يوم قيام الناس لرب العالمين.

كما تبشرهم الملائكة بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وفي ندائه عز وجل للنفس المطمئنة، ووصفها بهذا الوصف، وأمرها بالرجوع إليه عز وجل، وإضافة ضميرها إلى اسمه عز وجل «الرب»، وجعلها ضمن أهل ربوبيته الخاصة بأوليائه، وإرضائها والرضا عنها، وأمرها بالدخول ضمن أهل عبوديته الخاصة، وفي جنته كل هذا تشريف وتكريم لها نسأل الله- تعالى- من فضله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال يا رسول الله، ما أحسن هذا فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»(١).

ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل تحت هذه الآية من الأمة، لأنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

وفي الأثر: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- التهديد والوعيد بالقيامة وأهوالها من اندكاك الأرض، ومجيء الرب عز وجل والملائكة، والإتيان بجهنم على أهل الموقف؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

٢- إثبات مجيء الرب عز وجل يوم القيامة للفصل بين عباده، وإثبات وجود الملائكة ومجيئهم بين يدي الله تعالى ذلك اليوم صفوفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل نفس مؤمنة مطمئنة؛

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٢٩- ٣٤٣٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» ١/ ١٥٢ (١٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» ٢/ ٥٧٦ (١٢٢٤)، والآجري في «الشريعة» ٤/ ١٨٤٤ (١٣٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٣٢٥.

لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾.

٤- تذكر الإنسان في ذلك اليوم عندما يشاهد أهوال القيامة لكن لا تنفعه الذكرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾.

٥- ندم الكافر على تفريطه، وتمنيه أنه آمن وقدم عملًا صالحًا في الدنيا لحياته الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ولكن هيهات.

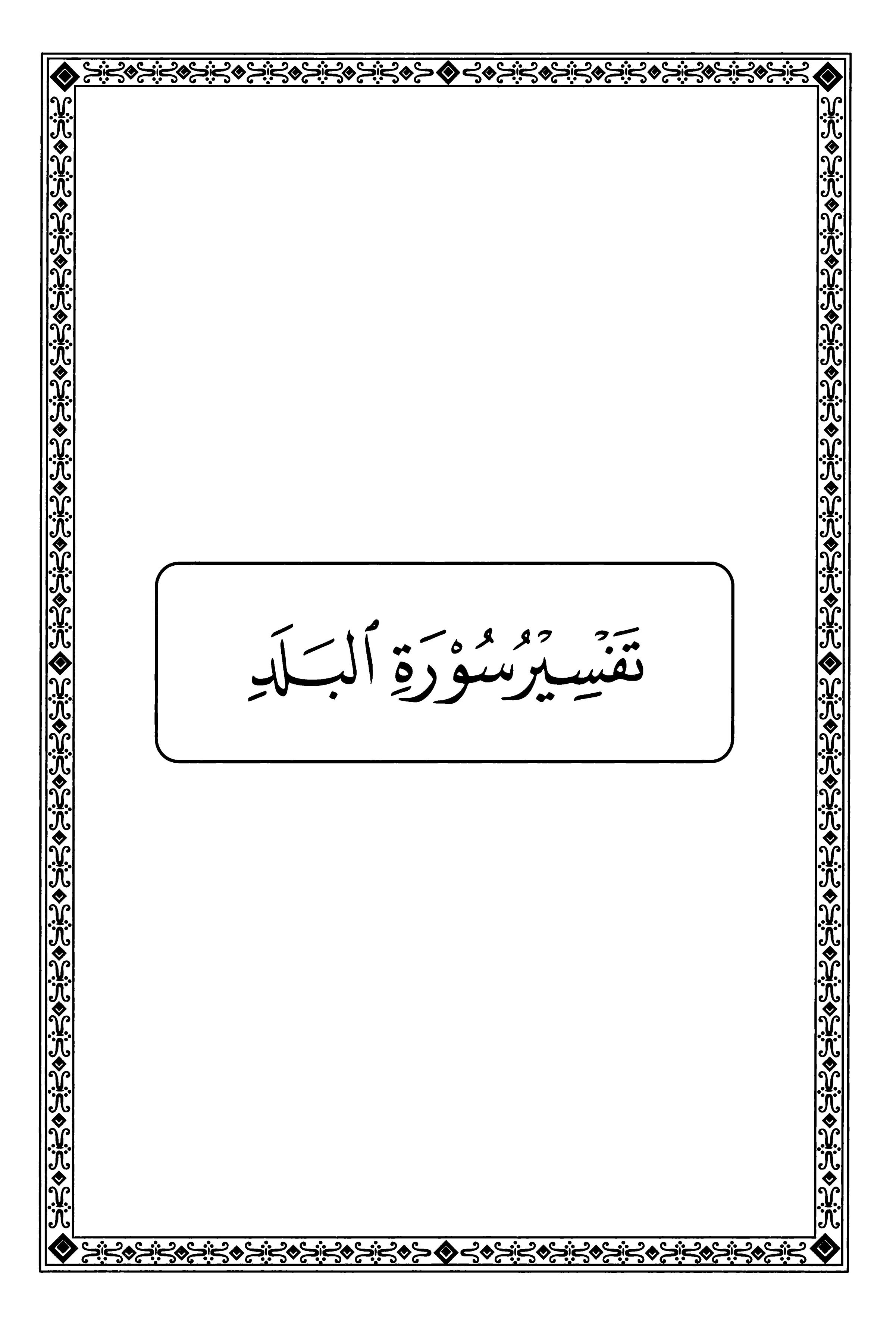
٦- تعذيبه عز وجل في ذلك اليوم للكفرة المجرمين عذابًا لا يعذبه أحد وإيثاقه لهم وثاقًا لا يوثقه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)﴾، وفي هذا من الوعيد والتهديد للكافرين ما فيه الكفاية.

٧- البشارة والتهنئة للنفس المؤمنة المطمئنة برجوعها إلى ربها راضية مرضية، ودخولها ضمن عباد الله المخلصين المكرمين، وفي جنته؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، وهذا غاية التكريم.

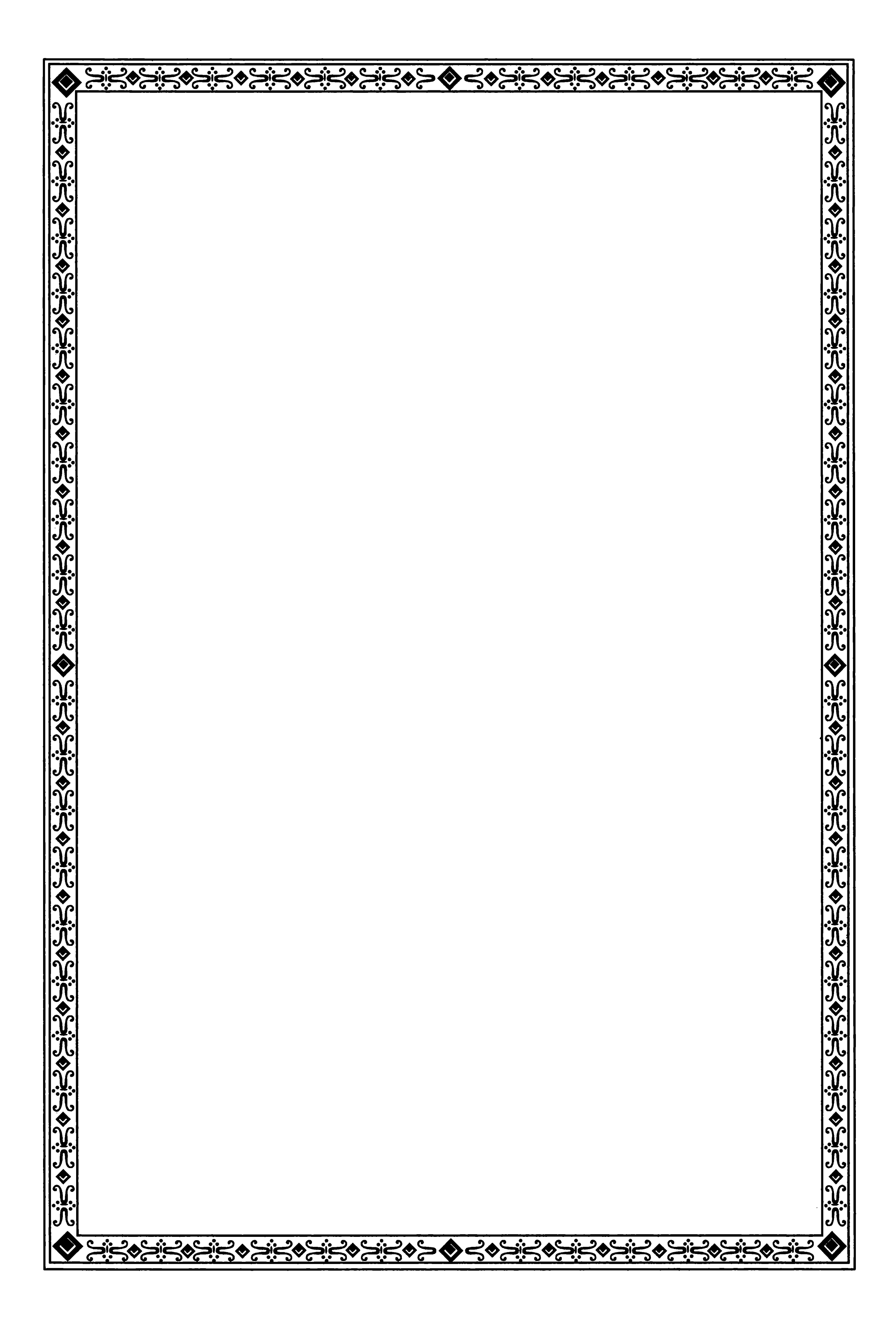
٨- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى ولقائه.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل عبوديته الخاصة.

* * *



تَفسِيرُ سُورَةِ البَلَدِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البلد»؛ لإقسامه تعالى في مطلعها به في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- تشريف مكة البلد الحرام

٢- بيان مكابدة الإنسان لمصائب الدنيا وشدائدها.

٣- تعداد بعض نعم الله على الإنسان في خلقه، وبيان الحق له.

٤- الترغيب في الإيمان ومكارم الأخلاق، من فك الرقاب وإطعام الطعام والصبر والرحمة.

٥- تهديد الكافرين بآيات الله.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾.

قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، «لا»: للاستفتاح والتنبيه، وتوكيد القسم، وليست نافية، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والمراد بـ«البلد» مكة أم القرى، أقسم الله عز وجل بها لشرفها وعظمها، فهي أحب أرض الله إلى الله عز وجل، كما قال ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١).

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الواو: حالية، والخطاب للنبي ﷺ.

والتقدير: أقسم بهذا البلد حال كونك يا محمد ﴿حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي: يحل لك أن تقاتل فيه، وذلك ساعة من نهار، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(٢).

ويحتمل أن المعنى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي: حال كونك حالًا فيه، أي: ساكنًا محلًا غير محرم؛ لأن حلول النبي ﷺ بهذا البلد يزيده شرفًا إلى شرفه ولأن أمن هذا البلد إنما تظهر به النعمة حال الحل من الإحرام، والحرمة هنا للمكان، وفي حال الإحرام للفعل، وأيضًا: فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة ٣٩٢٥- من حديث عبد الله بن عدي الزهري- رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح»

(٢) أخرجه البخاري في الحج جزاء الصيد ١٨٣٤، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، والترمذي في السير ١٥٩٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٣.

﴿وَوَالِدٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأقسم بالوالد، وهو آدم. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾، أي: والذي ولد وهم ذريته، فأقسم عز وجل بأصل المكان ومرجعه وهي مكة: «أم القرى».

وبأصل السكان ومرجعهم، وهو آدم عليه السلام.

وقيل: المراد كل والد من بني آدم وما ولد، أو كل والد من الحيوانات مطلقًا وما ولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالبلد الحرام حال كون النبي ﷺ حلًا فيه، وأقسم عز وجل بالوالد وما ولد على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد.

واللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في وجوب القسم، و«قد»: للتحقيق والتوكيد فأكّد عز وجل هذه الجملة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، و«قد».

ومعنى قوله: ﴿في كبد﴾، أي: منتصبًا مستويًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وهذا مما يوجب عليه شكر هذه النعمة العظيمة، لا أن يتجبر وتبطره النعمة.

ويحتمل أن المعنى: في نصب، في جميع أطوار حياته يكابد متاعب الدنيا ومصائبها، وأشد ذلك مجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا، والمجاهدة في الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة إلى أن يدخل الجنة إن كان من المقبولين، وإلا استمر على ذلك بل ازداد شقاء إلى شقاء إن كان من أصحاب الجحيم.

وكلا المعنيين صحيح، ولا مانع من حمل الآية عليهما معًا.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أيظن الإنسان.

﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أنه قد يغتر بعنفوان شبابه وكبريائه وقوته فيظن هذا الظن وأنه متروك سدى، فيقول أنا أعمل ما شئت بنفسي ومالي، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الباء: «لبَّدا»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لُّبَدًا﴾.

أي: أنفقت وأفنيت مالًا كثيرًا يُلبّد بعضه على بعض، فهو يفتخر في إفنائه المال الكثير في شهواته وفي غير وجهه، ولو أنفقه في وجهه لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل إبقاءً له، كما قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» وفي رواية «فأبقيت»[(١)].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ وهذا أيضًا إنكار عليه، أي: أيظن الإنسان أن الله عز وجل لم يطلع عليه فيما أهلك من ماله، وفي جميع أحواله فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، وفي هذا وعيد وتهديد لمن يغتر بقوته وماله.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: ألم نصيِّر له عينين يبصر بهما الأشياء، وهما من أعظم نعم الله عز وجل عليه ينظر بهما في آيات الله الشرعية والكونية ويبصر بهما الطريق، وينظر بهما إلى ما يريد، وهما الحبيبتان، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن جزاء إذا أخذت حبيبتيه فصبر إلا الجنة»[(٢)].

﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به ويتكلم، ويعبر به عما في نفسه، ويفصح به عما في ضميره، فتميز بذلك عن سائر الحيوانات، وعمن ابتلي بالبكم فأصبح لا يستطيع الإفصاح عما في نفسه إلا بلغة الإشارات القاصرة.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما في الكلام وأكل الطعام، وهما جمال لوجهه وفمه.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة: العينين، واللسان، والشفتين؛ لأنها أكثر الأعضاء حركة وأكثرها كسبًا للأعمال.

إما للإنسان بالتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، وفي ذكره وشكره والدعوة

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢ من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى- فضل من ذهب بصره ٥٦٥٣، والترمذي في الزهد- ما جاء في ذهاب البصر ٢٤٠٠، وأحمد ٣/ ٢٨٣- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وأخرجه أحمد أيضًا ٢/ ٢٦٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليه، وتعليم العلم ونحو ذلك، وإما على الإنسان بالنظر إلى ما حرم الله، وفي الكلام في الباطل والزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: ودللناه وبينا له طريق الخير والشر، والهدى والضلال والرشد والغي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

فذكَّر عز وجل الإنسان وقرره بأعظم نعم الله عليه؛ ليستدل بها على عظيم فضل الله عز وجل عليه، وعلى إثبات الخالق، وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده ووعيده كما قال عز وجل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

وليشكر الله عليها ويقوم بحقوقه.

لا أن يكفر به ويستعين بنعمه على معاصيه، كما هو واقع كثير من الناس وصدق الله العظيم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالبلد الحرام مكة حال كونه ﷺ حلًّا بها، وبالوالد وما ولد على أنه خلق الإنسان في كبد؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

٢- تعظيم الله عز وجل للبلد الحرام، وتشريفه لرسوله محمد ﷺ، وتكريمه للإنسان.

٣- نعمة الله عز وجل وفضله على الإنسان حيث سوى خلقه وجعله معتدل الخلقة، متناسب الأعضاء.

٤- أن الله عز وجل خلق الإنسان في كبد في هذه الحياة يعاني متاعب الدنيا ومصائبها، وشدائد الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

٥- خطأ الإنسان وجهله في ظنه أن الله لن يقدر عليه، ولن يراه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

٦- أن ما أنفقه الإنسان من المال في غير مرضاة الله عز وجل فهو خسارة

وسيحاسب عليه.

٧- تقرير تمام قدرة الله تعالى، وواسع بصره واطلاعه على كل شيء.

٨- تقرير الإنسان بنعم الله عز وجل عليه من العينين واللسان والشفتين، وهدايته النجدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

٩- إقامة الحجة على الإنسان ببيان طريق الخير وطريق الشر له بإرسال الرسل وإنزال الكتب إعذارًا وإنذارًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾.

أقسم الله عز وجل بالبلد الحرام، وبآدم وولده على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد مستوي الخلق يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وبين أنه قادر عليه ومطلع عليه، وذكَّره بما أنعم به عليه من العينين واللسان والشفتين وبيان طريق الخير والشر له.

وهذا كله يشير إلى الأمانة التي حملها الإنسان، وعظم الهدف الذي خلق من أجله، ولهذا قال بعده ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ الفاء عاطفة، و«لا»: نافية، أي: فلا هو اقتحم العقبة، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

ويحتمل أن تكون «فلا» للتحضيض، أي: فهلا اقتحم العقبة.

ومعنى ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾، أي: تجاوز. والاقتحام: التجاوز بمشقة.

﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾ «العقبة» في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، وتطلق على الأمر الشديد الصعب الشاق.

وهي هنا مَثَلٌ ضربه الله عز وجل لمجاهدة النفس والشيطان في فعل الطاعات والبعد عن المنهيات.

وقيل: المراد بالعقبة الصراط الذي يضرب على متن جهنم.

وفي الحديث: «إن العقبة كؤود لا يجوزها المثقلون»(١).

فهذه العقبة شديدة حسية كانت أو معنوية، لا يجتازها إلا المُضْمِرون المُخِفُّون المشمرون، ويهلك دونها المنقطعون، وهم أكثر الخلق.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ «ما»: اسم استفهام، والجملة اعتراضية بين العقبة وتفسيرها،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٤/ ٦١٨، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والمراد بها تعظيم أمر العقبة وتفخيم شأنها، والتشويق لها، أي: وما أعلمك ما العقبة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لقوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، أي: بيان لكيفية اقتحام العقبة، وبماذا تقتحم.

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «فكَ» بالفتح و﴿رَقَبَةٍ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون برفع ﴿فَكُّ﴾ وخفض ﴿رَقَبَةٍ﴾.

أي: عتق رقبة وتحريرها وتخليصها من الرق، أو من القتل، أو الأسر.

وفي تقديمها في الذكر تعظيم لعتق الرقاب، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إربٍ منها إربًا منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»[1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: علمني عملًا يدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟، قال: «لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الوكوف[2] والفيء على ذي الرحم الظالم، قال: فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير»[3].

وعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له كعدل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق

(١) أخرجه البخاري في الكفارات- قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ٦٧١٥، ومسلم في العتق- فضل العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور- ثواب من أعتق رقبة ١٥٤١، وأحمد ٢/ ٤٢٢.

(٢) أي: المنيحة كثيرة اللبن.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٩.

الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها»(١).

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار»(٢).

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أو أَطْعَمتم»، وقرأ الباقون: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾.

﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، أي: في يوم ذي مجاعة شديدة، والسغب: الجوع الشديد.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ اليتيم: من فقد أباه دون البلوغ؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(٣).

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: ذا قرابة لمن أطعمه؛ لأن الصدقة على القريب أفضل، كما قال ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»(٤).

والمعنى: أو أطعم في يوم ذي مجاعة شديدة يتيمًا من أقاربه، جمع بين الصفتين اليتم والقرابة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾، أي: أو أطعم ﴿مسكينًا﴾، و«المسكين» هو الفقير المحتاج الذي لا شيء عنده.

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: لاصقًا بالتراب، يلتحف الثرى والتراب من شدة الفقر والحاجة،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١٣، ٣٨٤، ٣٨٦، وأبو داود في العتق- أي الرقاب أفضل ٣٩٦٥، ٣٩٦٦، والنسائي في الجهاد ٣١٤٣، ٣١٤٤، ٣١٤٥. وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٢٢، وقال ابن كثير عن أسانيد هذا الحديث عند أحمد «وهذه أسانيد جيدة قوية» «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٢٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٧، ١٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في الزكاة- الصدقة على الأقارب ٢٥٨٢، والترمذي في الزكاة- الصدقة على ذي القرابة ٦٥٣، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، وأحمد ٤/ ٢١٤- من حديث سلمان بن عامر الضبي- رضي الله عنه. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٠ «وهذا إسناد صحيح».

ومن هنا سمي المسكين مسكينًا للصوقه إلى الأرض وسكونه فهو ساكن لا يتحرك، كالملقى على الأرض، ساكتٌ لا يتكلم؛ لأنه إن تكلم لم يسمع، وإن سُمع لم يصدق، أذله الفقر- الذي يذل أعناق الرجال، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»(١).

وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم والمسكين، لأن اليتيم فقد من ينفق عليه ويعوله ويدافع عنه وعن حقوقه، ولأن المسكين أذله الفقر والمسكنة.

ويعظم حق اليتيم والمسكين ويزداد عندما تطغى الأنانية والشح وتضعف الرحمة أو تنعدم عند كثير من الناس فيضيع اليتيم والمسكين في خضم الحياة، وبين الفواتح والخواتم والله المستعان.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «ثم»: عاطفة، وهي للتراخي في الفضل والرتبة، فالإيمان مؤخر في اللفظ مقدم في الفضيلة والرتبة.

وفي تقديم فك الرقبة وإطعام الجائع يتيمًا ذا قرابة أو مسكينًا ذا فاقة شديدة على الإيمان دليل على عظم هذه الأعمال.

أي: ثم هو مع هذا الإحسان العظيم إلى عباد الله بعتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين في وقت المجاعة من الذين آمنوا، أي: من الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإحسان إلى عباد الله، والإحسان في عبادة الله عز وجل، وبين العمل والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر.

والصبر: من صبر إذا حبس ومنع، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عما حرم الله، من لطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك، وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

والصبر منزلة عظيمة فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، أي: وأوصى بعضهم بعضًا بالرحمة للخلق التي هي من أنبل وأعظم الصفات، وأحبها إلى الله عز وجل، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجْنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»(٢).

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»(٤).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، أي: أصحاب اليمين، أي: المتصفون بهذه الصفات، والذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقد أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأنهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد ما ذكر صفات المؤمنين ومآلهم، أتبع ذلك بذكر الكافرين ومآلهم.

أي: والذين كفروا بآياتنا الكونية والشرعية وجحدوها وكذبوا بها.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الرحمة ٤٩٤١، والترمذي في البر- ما جاء في رحمة الناس ١٩٢٤- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٧، ومسلم في الفضائل ٢٣١٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٨، والترمذي في البر والصلة ١٩١١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الرحمة ٤٩٤٣، والترمذي في البر والصلة ١٩١٩ وقال: «حديث غريب».

﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أي: هم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال، الذين يعطون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

وقد أكد هذا الوصف فيهم بثلاث مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: مطبقة مغلقة الأبواب، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، كما قال تعالى في سورة الهمزة: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ [الآيتان: ٨، ٩].

الفوائد والأحكام:

١- عظم الأمانة التي حملها الإنسان، وأن أمامه عقبة كؤودًا لا يجتازها إلا المشمرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾.

٢- حضّ الإنسان وحثه على اجتياز العقبة بعتق الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين، مع الإيمان والتواصي بالصبر والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧﴾.

٣- أن الصدقة على اليتيم القريب صدقة وصلة، وأنه كلما اشتدت الحاجة كانت الصدقة أفضل.

٤- رعاية الإسلام لليتامى والمساكين؛ لقوله تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾.

٥- أن الإيمان شرط لقبول الأعمال من العتق والإطعام وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧﴾.

٦- الإشارة إلى عظم عتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، لتقديمهما على شرط الإيمان.

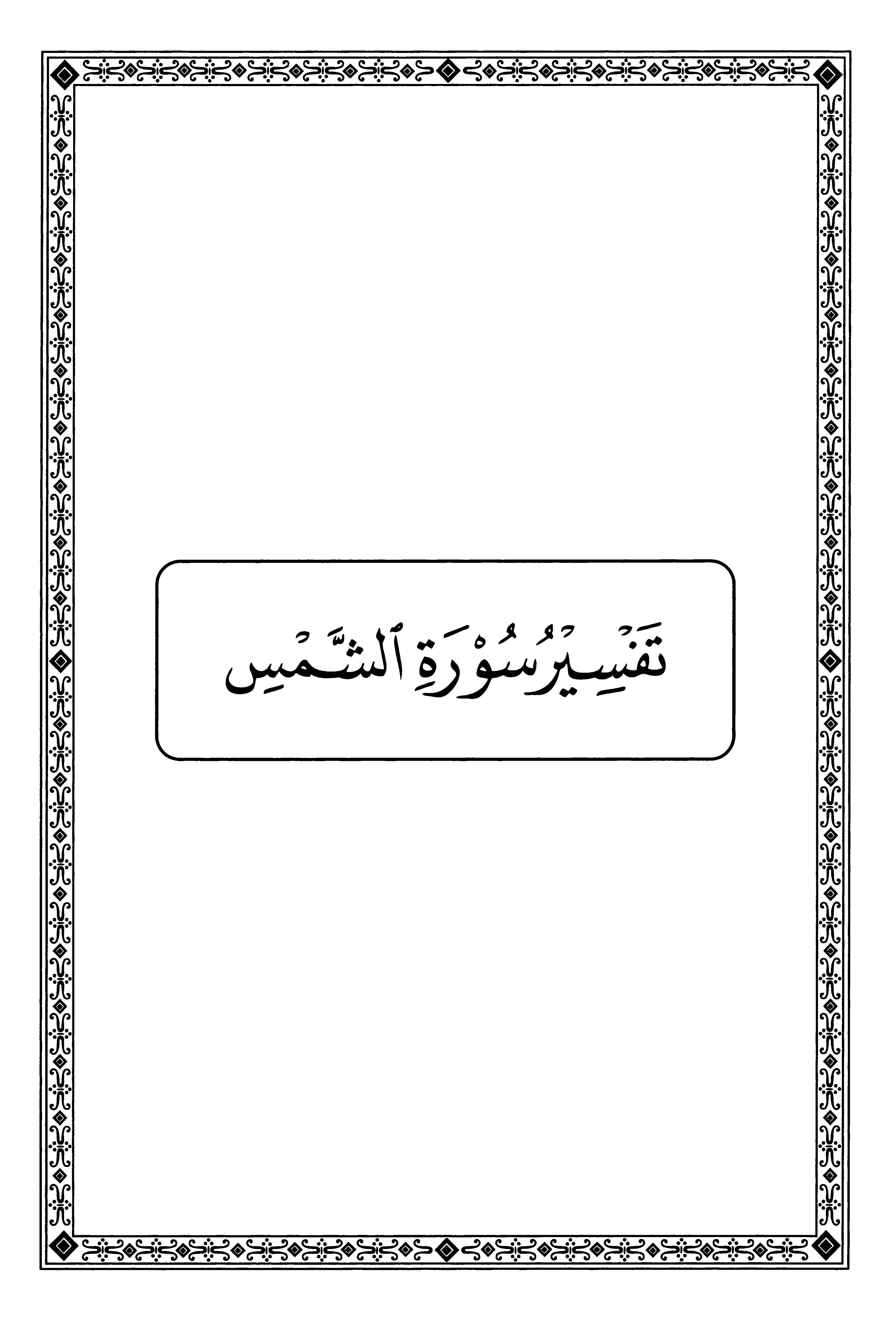
٧- الترغيب في الصبر والرحمة، والتواصي بهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾.

٨- أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فهو من أصحاب اليمين؛ لقوله تعالى:

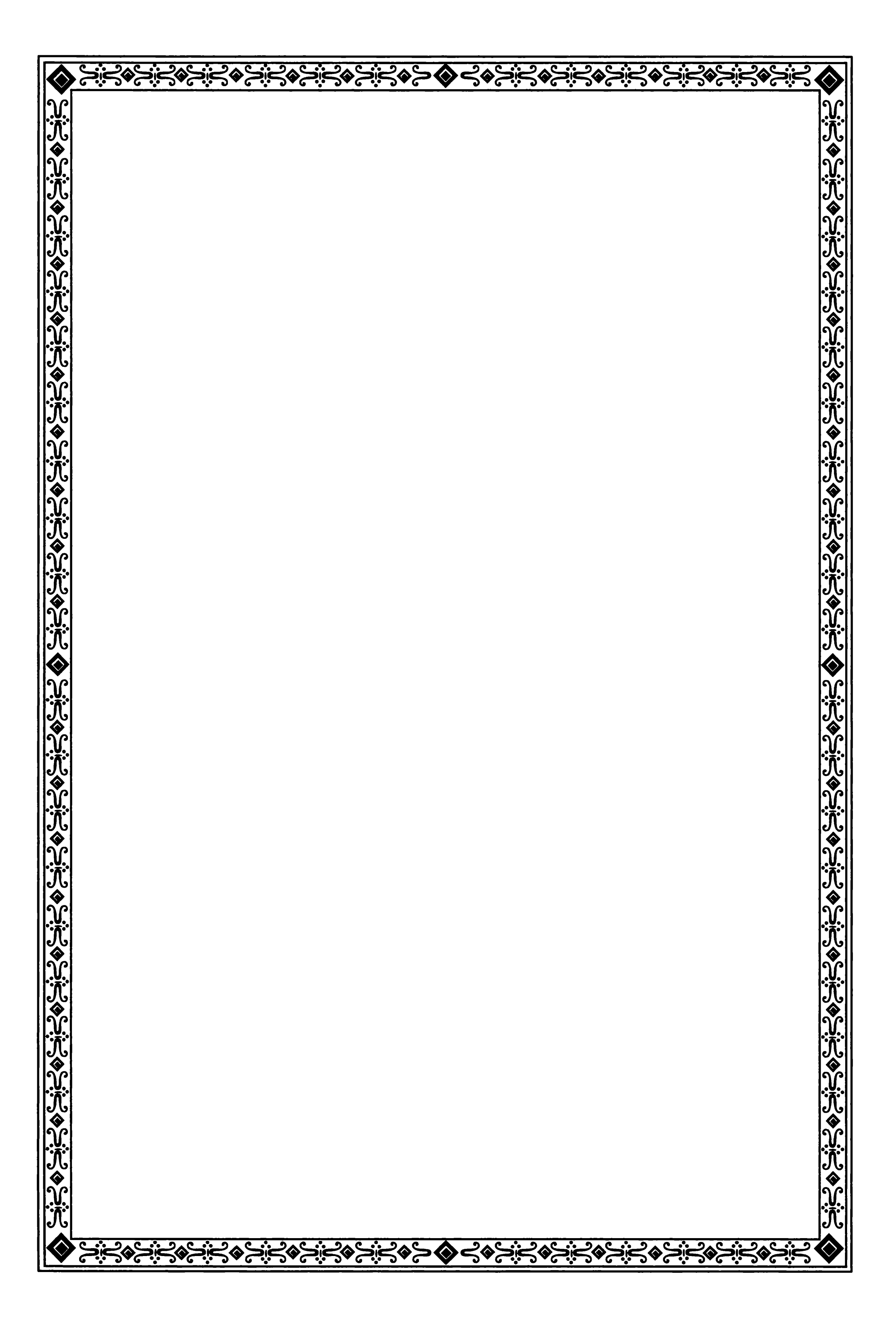
﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾.

٩- سوء حال ومآل الذين كفروا بآيات الله عز وجل فهم أصحاب الشؤم السالكون ذات الشمال إلى النار المؤصدة المطبقة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلشَّمۡسِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الشمس» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

وتسمى: «سورة والشمس وضحاها».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ» بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[1].

د- موضوعاتها:

١- ذكر دلائل تمام قدرة الله تعالى في آياته الكونية وعظمته.

١- تأكيد فلاح من زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك. وخيبة من أهانها بالكفر والمعاصي، والتحذير من ذلك.

٢- ذكر تكذيب ثمود لرسولهم صالح عليه السلام بسبب طغيانهم، وعقرهم الناقة، ومن ثم إهلاكهم.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الشمس»: مقسم به مجرور ﴿وَضُحَاهَا﴾: معطوف على الشمس، والمراد به ضوؤها، وهو النهار كله، كما في قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢].

وإنما أضاف الضحى إليها؛ لأن الشمس هي سبب النهار، وهي آية النهار المبصرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ الواو: عاطفة هنا وفي المواضع بعدها إلى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وكل هذا داخل في جملة المقسم به.

أي: وأقسم بالقمر إذا تلا الشمس، أي: إذا تبعها في المنازل والنور.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾، أي: وأقسم بالنهار حين يجلي الشمس ويظهرها، وإن كان ظهورها هو سبب النهار.

أو حين يجلي ظلمة الليل ويزيلها، أو يجلي الأرض والخليقة ويبينها ويظهرها ويضيئها بنوره، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، أي: والليل حين يغشى الشمس ويسترها وإن كان مغيبها هو سبب الليل. أو حين يغطي الأرض والخليقة ويسترها بظلامه.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾، أي: والسماء، والذي بناها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

فأقسم عز وجل بالسماء، وبنفسه الكريمة. وتكون «ما» هنا موصولة، بمعنى

«من» التي تطلق على العالم.

وقيل: إن «ما»: مصدرية، أي: والسماء وبنيانها العظيم.

وهكذا في قوله: ﴿وَمَا﴾، ﴿وَمَاسَوَّىٰهَا﴾.

ومعنى ﴿بَنَىٰهَا﴾: خلقها ورفعها وجعلها سقفًا محفوظًا، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾، أي: والأرض، والذي طحاها، أي: بسطها وفرشها ومهدها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وهتان الآيتان كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٦، ٧].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، أي: ونفس والذي سواها، وهو الله عز وجل، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَاسَوَّىٰهَا﴾ عام في كل نفس، أو خاص بنفس الإنسان المكلف بدليل ما بعده.

ومعنى ﴿سَوَّىٰهَا﴾: خلقها وجعلها مستوية الخلق، مستقيمة على الفطرة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٦- ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»(١).

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[(١)].

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، أي: جعلها محلًا للفجور والتقوى، وبيّن لها الفجور ونهاها عنه وحذرها منه، وأرشدها إلى التقوى وأمرها بها ورغبها فيها، وهداها ويسرها لما قدره لها كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟، فقال: «لا، بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾»[(٢)].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أ هل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)﴾ الآية»[(٣)].

وفي هذه الآية رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله وخلقه لأفعال العباد.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم الله عز وجل بالشمس وضوئها والقمر إذا تبعها، والنهار إذا جلى الظلمة، والليل إذا غطى البسيطة بظلامه، وبالسماء والذي بناها، وبالأرض والذي بسطها ومهدها، والنفس والذي سواها على أنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق في الموضعين وحذفت منه اللام؛ لطول الكلام وقوله: ﴿أَفْلَحَ﴾: فاز وأنجح وسعد ونجا من المرهوب، وحصل على المطلوب، وزحزح عن النار، وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن زَكَّاهَا﴾، أي: الذي زكا نفسه، أي: طهرها بالإيمان والعمل الصالح من

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥- من حديث طويل.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٠، وأحمد ٤/ ٤٣٨، والطبري في «جامع البيان»٢٤/ ٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي- رضي الله عنه.

الشرك والمعاصي والرذائل والأحداث، وسائر النجاسات الحسية والمعنوية- كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

وفي هاتين الآيتين إثبات فعل العبد وكسبه، وتعليق فوزه وعدمه على ذلك، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها﴾»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(٣).

وعن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(٤).

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: وقد خسر من أخفاها وأخملها، وأرداها، وأوبقها بالمعاصي وأهانها ودنسها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٣٦.
(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٠٩.
(٤) أخرجه مسلم في الذكر- التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، وأحمد ٤/ ٣٧١.

فشتان بين من طهر نفسه وأكرمها بطاعة الله تعالى، والبعد عن معصيته، ووضعها موضعها اللائق بها، فأفلح وسعد في دنياه وأخراه، وبين من أخملها وأخفاها، وأهانها وأذلها، فظلمها وبخسها حقها، وقد كرمها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(١).

وقد حكى هذا المعنى لبيد بقوله:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتَبِّرُ ما يبني وآخر رافع(٢)

قال ابن القيم(٣): «والفاجر أبدًا خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر نفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبَوَّأت بَيْتَك في مَعْلَمٍ ... رحيبِ المباءةِ والمسرحِ

كفيتَ العفاةَ طلابَ القِرى ... ونبحَ الكلابِ لِمُسْتَنْبِحِ»(٤)

وقد أحسن القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا(٥)

وقال الآخر:

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان لبيد» ص٥٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٤) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٢/ ١٤٦، «الحيوان» ٥/ ٧٤.

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٣٢٠، «الدر الفريد» ٢/ ٣٦٧.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكـن طالبًـا في النـاس أعـلى المراتـب[1]

وقال الآخر:

عـلى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارم[2]

وقال الآخر:

ومـن يتهيـب صـعود الجبـال يعـش أبـد الـدهر بـين الحفـر[3]

فانتبه أخي الكريم لهذه المعاني وضع نفسك موضعها اللائق بها، واحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها، وخذ نصيبك من ربك، ولا تأت يوم القيامة من المفلسين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بعدد من آياته الكونية، بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، وبالنفس الإنسانية، وبنفسه عز وجل للدلالة على عظمته، وكمال قدرته، والتأمل في آياته وشكره على نعمه وآلائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾.

٢- إقسام الله عز وجل على فلاح من زكى نفسه بطاعة الله وخيبة من أخفاها ودنسها بمعصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾.

٣- الترغيب في تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من تدنيسها وإهانتها بالمعاصي.

٤- إثبات القدر وأن الله خالق أفعال العباد، والرد على القدرية، وإثبات فعل العبد، والرد على الجبرية لقوله تعالى ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

* * *

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

(٣) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص٧٠. والبيت فيه: «**ومن لا يحب صعود الجبال**».

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على فلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها ثم أتبع ذلك بذكر قصة تكذيب ثمود وطغيانهم وعقرهم الناقة، وردهم الحق بعد ما عرفوه، وعقوبة الله عز وجل لهم. وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، أي: كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحًا عليه السلام فيما جاءهم به من الحق من عند الله عز وجل.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، أي: بسبب طغيانها ومجاوزتها الحد في الكفر وتجبرها وتكبرها. والطغيان: مجاوزة الحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فحملهم الطغيان ومجاوزه الحد في الكفر والمعاصي على التكذيب بالحق بقلوبهم، لأن من عقوبة المعصية المعصية بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ تفسير لتكذيبهم وطغيانهم، أي: إذ انطلق مسرعًا لعقر الناقة ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: أشقى ثمود، أي: أعظمها شقاء، وهو أحيمر ثمود، واسمه: قدار بن سالف، وكان رجلًا شريرًا صعب المرام.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس»؟، قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا- يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه، يعني لحيته»[(١)].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ يعني: قدار بن سالف، وكان رجلًا شديدًا عزيزًا منيعًا فيهم.

عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٣٨.

الذي عقرها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾: «انبعث لها رجل عارم[(١)]، عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»[(٢)].

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام، ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: ذروا ناقة الله، أو لا تمسوا ناقة الله بسوء، وهي الناقة التي طلبوها آية لهم فأخرجها الله لهم من صخرة صماء، وجعلها آية وحجة عليهم قال تعالى عن صالح عليه السلام أنه قال لهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: ٦٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾: شربها، أي: ولا تعتدوا على شربها يوم وردها. قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا رسول الله صالحًا عليه السلام فيما جاءهم به، وما حذرهم منه من الاعتداء على الناقة وشربها، وما توعدهم عليه من العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقروا الناقة، أي: قتلوها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ

---

(١) أي: صعب على من يرومه، كثير الشر.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٤٩٤٢، ومسلم في صفة الجنة ونعيمها- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٥، والترمذي في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٣٣٤٣، وأحمد ٤/ ١٧.

صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: أطبق عليهم ربهم العذاب بسبب ذنبهم.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: جعلهم في العقوبة سواء؛ لأنهم اتفقوا وأجمعوا على عقر الناقة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالفاء: «فلا يخاف».

وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾.

أي: ولا يخاف عز وجل عاقبتها وتبعتها، أي: لا يخاف تبعة إهلاكه لهم، وإطباقه العذاب عليهم، وجعلهم في العقوبة سواء؛ لأنه عز وجل لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود رسول الله إليهم صالحًا عليه السلام بسبب طغيانهم وإقدامهم على عقر الناقة التي طلبوها، وجعلها الله لهم آية، بعد تحذيره- عليه الصلاة والسلام لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

٢- أن الطغيان سبب للتكذيب والكفر، وأن المعصية تجر إلى المعصية بعدها.

٣- إهلاك الله عز وجل لثمود، وإطباق العذاب عليهم على السواء بسبب ذنبهم؛

---

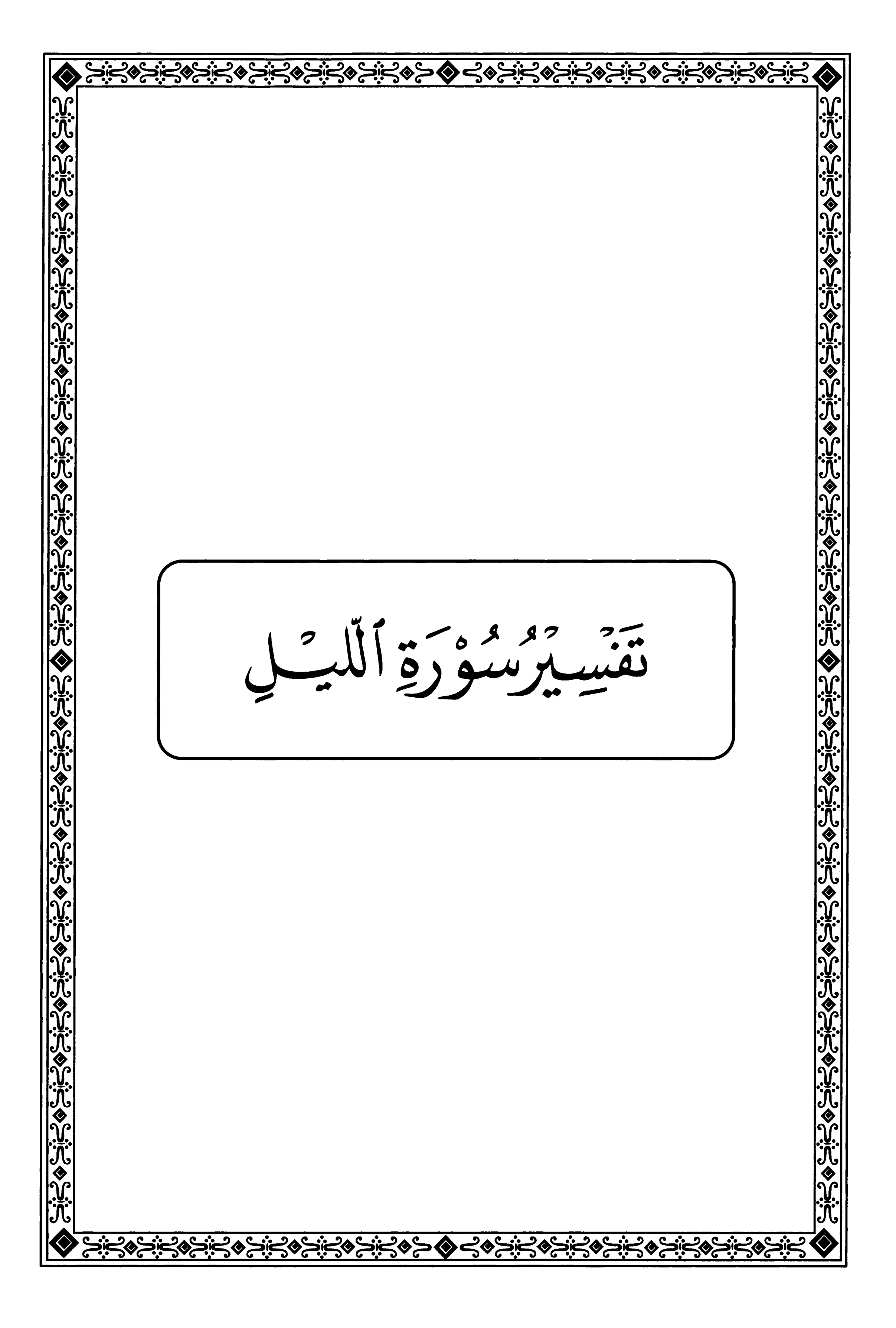
(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

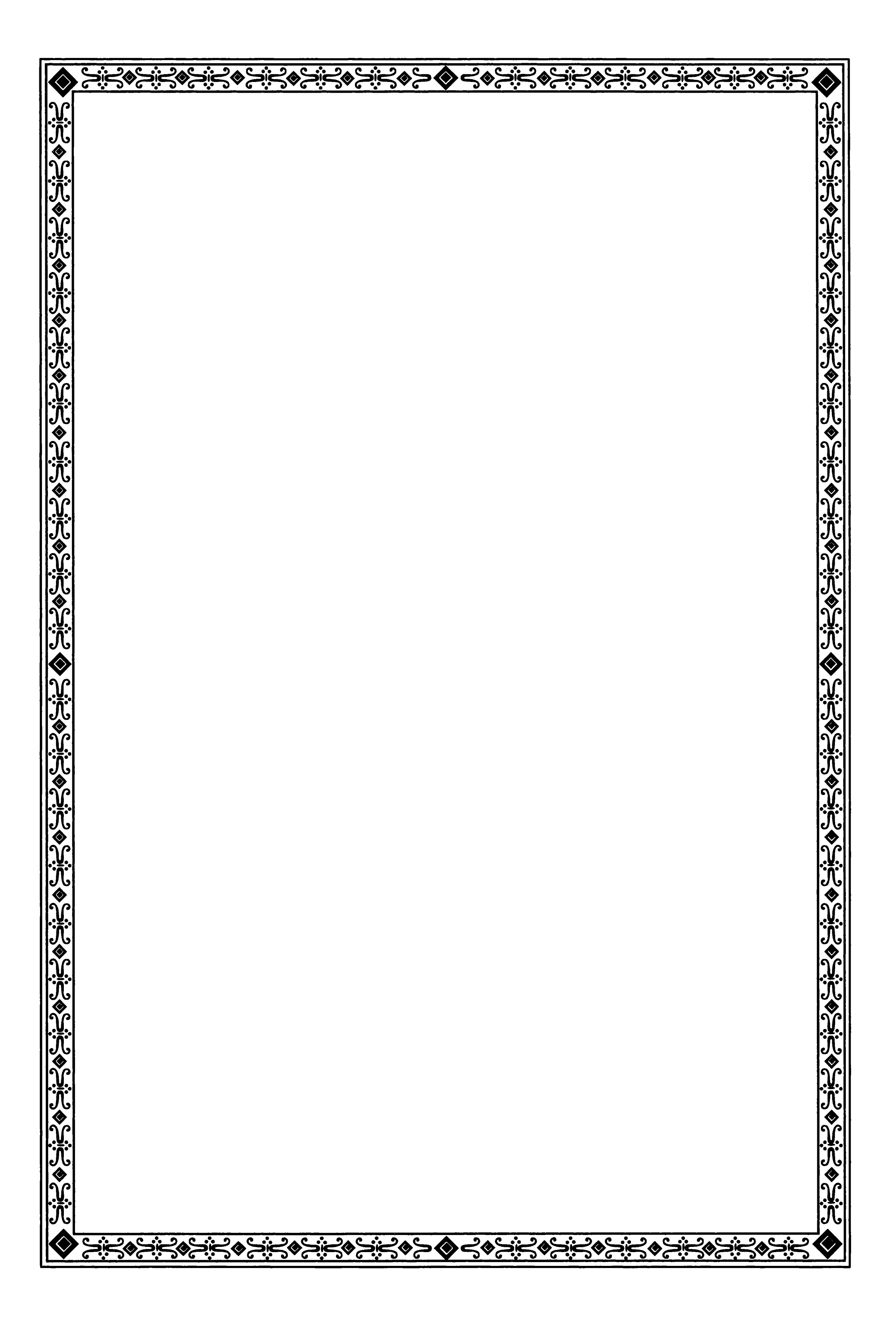
٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

٥- أن الله عز وجل لا يخاف عاقبة ما أوقعه بهم من العذاب؛ لأنه القوي العزيز، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

*　*　*



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱللَّيۡلِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الليل»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالليل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

وتسمى: «سورة والليل إذا يغشى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

تقدم في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾»[(١)].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أو في العصر نحو ذلك، وفي الفجر أطول من ذلك»[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- تأكيد اختلاف سعي الناس؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في إيباقها.

٢- الوعد لمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى بتيسيره لليسرى، والوعيد لمن بخل واستغنى وكذب بالحسنى بتيسيره للعسرى.

٣- تهديد من كذب وتولى بالنار، وبشارة من اتقى، وزكى ماله بالنجاة منها، وبرضى الله تعالى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٠١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الليل» مقسم به.

﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، أي: حين يغطي الأرض والخليقة بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ الواو: عاطفة في هذا الموضع والذي بعده، أي: وأقسم بالنهار إذا ظهر وبان، وأشرق وأضاء البسيطة بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ «ما»: موصولة، أي: وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى، من الإنس والجن وسائر الحيوانات والنباتات، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال بعضهم: إن «ما»: مصدرية، والمعنى: وخَلْقُ الذكر والأنثى.

عن إبراهيم النخعي، قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم فقال: «أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟، فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ؟ قال علقمة: ﴿وَٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والله لا أتابعهم»(١).

وفي لفظ عن إبراهيم عن علقمة: أنه قدم الشام، فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين، وقال: «اللهم ارزقني جليسًا صالحًا، قال: فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو

---

(١) أخرجه البخاري- تفسير سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ٤٩٤٤، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٩.

الدرداء: ممن أنت؟، قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾؟ قال علقمة: ﴿وَٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾. فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر، الذي لا يعلمه أحد غيره[1]، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ، صاحب الوساد: ابن مسعود، وصاحب السر: حذيفة، والذي أجير من الشيطان: عمار»[2].

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾: جواب القسم.

والسعي: هو العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه حسب الإمكان.

﴿لَشَتَّىٰ﴾، أي: لمختلف متفرق.

فأقسم عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا بان وظهر وأضاء البسيطة بنوره، وبنفسه عز وجل، وهو الذي خلق الذكر والأنثى- أقسم على أن سعي العباد وأعمالهم واهتماماتهم وجهودهم مختلفة، متنوعة متفرقة، فعامل خيرًا، وعامل شرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[3].

فشتان بين من يعمل لخلاص نفسه ونجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وبين من يعمل لهلاكها وشقائها في الدنيا والآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد   جمعًا فما الضدان يجتمعان[4]

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

---

(١) الوساد: المخدة، وفي رواية للبخاري: «صاحب السواك، أو صاحب السرار». وصاحب السر: أي صاحب سر رسول الله ﷺ، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البيت لابن القيم ضمن القصيدة «النونية» ص١١.

رُويَ أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان يعتق الأرقاء من المساكين ابتغاء وجه الله تعالى[١].

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين.

أي: فأما الذي أعطى، أي: أخرج ما أمر به من النفقات الواجبة والمستحبة كالزكاة والإنفاق على الأهل والأولاد، وسائر الصدقات، وقام بفعل المأمورات من الواجبات، كالصلاة والصيام والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغيرها، ومن المستحبات كنوافل العبادات وغيرها.

﴿وَاتَّقَىٰ﴾، أي: واتقى الله بالبعد عن المنهيات.

وفي تقديم قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ إشارة إلى أهمية أداء حقوق الخلق، وأهمية النفع المتعدي إلى الخلق، وأهمية فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، أي: صدق بلا إله إلا الله، وبما يستوجبه الإيمان بها من الإيمان بجميع أصول الدين وفروعه، كما جاءت في الكتاب والسنة.

وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك من الله عز وجل بالخلف في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

رُويَ عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم»[٢].

وهذه هي المراتب الثلاث التي يدور عليها الدين: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والسين للتحقيق، أي: فسنيسره لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ونوفقه لعمل الخير ونهيء له أسبابه، لأن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق:

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٦٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٤٥.

٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما الذي بخل بما آتاه الله من المال، فمنع حق الله فيه، ولم يقم بما أمره الله بالقيام به.

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾، أي: واستغنى بنفسه وماله عن ربه ورحمته وتقواه.

وقابل قوله: ﴿اتقى﴾ بقوله: ﴿استغنى﴾؛ تبشيعًا لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه، وأنه بهذا المسلك فعل فعل المستغني عن ربه، مع أن كل مخلوق لا غنى له عن ربه طرفة عين.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: وكذب بلا إله إلا الله، وبالمثوبة الحسنى والمجازاة على العمل في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، أي: فسنيسره في أموره كلها للعسرى، ونهيء له الشر وأسبابه، لأن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولا يُغتر بما عليه الكفار من النعم الظاهرة فهم في شقاء وضيق نفسي قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو أيضًا استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنَكَّس[1]، فجعل ينكت بمخصرته،

---

(١) المخصرة: ما أخذه الإنسان بيده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكئ عليه وقوله «فنَكَّس» أي: خفض رأسه وطأطأه على هيئة المهموم.

ثم قال: «ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة[1] إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة»، قال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟، فقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلاالثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا»، وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾»[3].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ «ما» استفهامية، أي: وأي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به.

﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾، أي: إذا هلك وألقي في النار.

والجواب: لا ينفعه هذا المال، ولا يدفع عنه شيئًا.

ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: وما ينفعه ماله، ولا يدفع عنه، إذا هلك وألقي في النار.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا تجلى وظهر، وبنفسه الشريفة، وهو الذي خلق الذكر والأنثى، أن سعي الناس مختلف، فساع في

---

(١) منفوسة، أي: مخلوقة ومولودة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر- ما جاء في الشقاء والسعادة ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة- باب القدر ٧٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٩- ٤٧١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤١.

خلاص نفسه وفكاكها، وساع في إهلاكها وإيباقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن يقسم بنفسه لما في ذلك كله من الدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته.

٣- الترغيب في التأمل في آيات الله عز وجل الكونية، الليل والنهار، وفي خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات، وشكره عز وجل على هذه النعم.

٤- شتان بين من يسعى في فكاك نفسه وإعتاقها، وبين من يسعى في هلاكها وإيباقها.

٥- البشارة لمن أعطى من ماله وقام بفعل ما أمر به، واتقى بترك ما نهي عنه، وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك بتوفيقه للخير، وتيسير أموره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾.

٦- وجوب دفع الإنسان ما عليه من حقوق مالية وغيرها كالزكاة والنفقة على الأهل، واستحباب السخاء والبذل مما أعطاه الله من مال وغيره، ووجوب تقوى الله وتصديق شرعه، والثقة بوعده.

٧- أن الأعمال الصالحة يأخذ بعضها برقاب بعض، والحسنة سبب للحسنة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٨- التحذير من البخل بما على الإنسان من حقوق في نفسه وماله، والاستغناء عما عند الله عز وجل والتكذيب بشرعه وجزائه، والوعيد لمن فعل ذلك بتيسيره للعسرى والشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾.

٩- أن الأعمال السيئة يجر بعضها بعضًا، والسيئة سبب للسيئة بعدها.

١٠- أن المال لا ينفع صاحبه ولا يدفع عنه إذا بخل به واستغنى به عن ربه عز وجل ولا ينقذه من عذاب النار إذا هلك وتردى فيها مما يوجب الحذر من التهالك في جمعه ونسيان حقوق الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾.

أقسم عز وجل في مطلع السورة أن سعي الناس مختلف، وبيَّن انقسامهم إلى فريقين وحال ومآل كل منهما، ثم أتبع ذلك بأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق وبيَّن لهم طريق الهدى، وأن الدنيا والآخرة ملك له، وحذر من النار، وبين صفة من يصلاها ومن يجنبها.

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، أي: إن علينا إرشادهم وبيان طريق الهدى لهم وطريق الضلال، وبيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

وأيضًا فإن طريق الهدى عليه عز وجل، وموصل إليه، كما قال عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر: ٤١].

وقد بين عز وجل للناس الهدى أتم بيان، وأقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأكمل الدين، وأتم النعمة ببعثة محمد ﷺ، فلم يلحق بربه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك[(١)].

قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»[(٢)].

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علَّمنا نبينا ﷺ حتى الخراءة»[(٣)].

أي: علمنا حتى آداب الخلاء وقضاء الحاجة.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٤- من حديث العرباض بن سارية- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة- الاستطابة ٢٦٢.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، أي: وإن لنا ملك الآخرة والدنيا والتصرف فيهما.

كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقدم الآخرة مع أنها متأخرة من حيث الزمن؛ لأهميتها، فهي الدار الحقيقية.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقدمها أيضًا: لأن فيها يظهر تمام ملك الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، أي: فحذرتكم وخوفتكم نارًا تتوهج وتستعر وتشتعل، وهي نار الآخرة.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار»، حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه»(١).

وعنه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»(٢).

وفي رواية: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»(٣).

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾، أي: لا يدخلها ويغمر فيها ويقاسي حرها.

﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾، أي: إلا الذي كتب عليه الشقاء، وبلغ فيه غايته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: تفسير للأشقى، أي: الذي كذب بقلبه ما أخبر الله به ورسوله

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنة والنار ٦٥٦١، ومسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٤، وأحمد ٤/ ٢٧٤.

(٣) أخرجها مسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، وأخرجها البخاري مختصرة في الرقاق ٦٥٦٢.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ بجوارحه عن العمل بما أمر الله به ورسوله، فخالف الأمر وارتكب النهي، وكفر ظاهرًا وباطنًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟، قال: «الذي لا يعمل بطاعة الله ولا يترك لله معصية»[(١)].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن كثير[(٣)]: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها».

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾، أي: وسيبعد عنها جانبًا، ويزحزح عنها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أي: التقي، وكلما كان الإنسان لله أتقى كان عن النار أبعد.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ تفسير لقوله: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أي: الذي يعطي ماله، أي: يخرج وينفق ماله ويصرفه في سبيل الله وطاعته.

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾، أي: يتطهر: ليطهر نفسه وماله، فتزكو نفسه وتطهر من الشح والبخل ونحو ذلك ويزكو ماله وينمو ويزيد ويسلم من الآفات بإذن الله عز وجل.

قال السعدي[(٤)]: «فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما فإنه غير مشروع، بل تكون عطية مردودة عند كثير من العلماء، لأنه يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب».

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٧٢٨٠، وأحمد ٢/ ٣٦١.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٤٤٤.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٣٩.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾، أي: وليس لأحد ممن يعطيهم هذا المزكي لنفسه وماله.

﴿عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، أي: ليس إعطاؤه لهم مكافأة لهم على سابق نعمة منهم إليه أو منة منهم عليه.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن ابتغاء وجه ربه، أي: إلا إخلاصًا لله عز وجل وتحقيقًا لرضاه وطلبًا لرؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الأعلى على جميع خلقه، الذي استوى على عرشه سبحانه وتعالى، الذي له العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ الواو: استئنافية واللام: موطئة للقسم، أي: والله لسوف يرضى بنيله ما كان يرجو من رؤية الله عز وجل والنعيم المقيم، والنجاة من نار الجحيم.

وسياق الآيات يدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكر هذا كثير من المفسرين، بل ذكر بعضهم الإجماع عليه، فإنها اشتملت على صفات عظيمة هي من صفات خواص المؤمنين، بل من صفات خواص الصديقين، ورتب عليها وعد بالرضى من المولى العظيم، ولا شك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل في عمومها، فلقد كانت له رضي الله عنه الأيادي البيضاء الكريمة والمواقف العظيمة النبيلة في بذل نفسه وماله في سبيل الله، والدفاع عن رسول الله ﷺ.

فقد كان صاحبه في الهجرة. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٦١ وقال «حديث حسن غريب».

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر، وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨]»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»[٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر، فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك، يا أبا بكر، ثلاثًا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: ثَمَّ أبو بكر؟، فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمعّر حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين، فما أوذي بعدها»[٤].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟، قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالًا»[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب ٣٦٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦١.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٤، والترمذي في المناقب ٣٨٨٥.

وقد أعتق أبو بكر رضي الله عنه من ماله كثيرًا من الأرقاء والمستضعفين من المسلمين من أيدي المشركين وتعذيبهم، منهم بلال بن رباح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما.

وكانت له أياد بيضاء على كثير من الناس حتى على بعض سادات العرب، ولهذا قال عروة بن مسعود الثقفي يوم صلح الحديبية لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: «امصص ببظر اللات أنحن نفرّ وندعه؟ يعني رسول الله ﷺ. فقال له عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان».

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟، قال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد ٢٧٣١، ٢٧٣٢- من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٦، ومسلم في الزكاة ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٢٨.

ذلك عندي مالًا، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله، لا أسبقه إلى شيء أبدًا»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[(٢)].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، و أبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[(٣)].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟، كأنها تقول الموت. قال ﷺ: «إن لم تجديني فائتي أبا بكر»[(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» الحديث[(٥)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٥.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٩، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٦، والترمذي في المناقب ٣٦٧٦.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة السنة ١٢٣٢.

(٦) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده. انظر: «المنتخب من مسند عبد بن حميد» ص١٠١ (١٢)، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» ١/ ٥٢ (١٣٥) من حديث عبد الله بن عتيك رضي الله عنه، وله شواهد عند الطبراني من حديث جابر وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص٤٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»(١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر»(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ١٢]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾(٣) [القصص: ٢٦]».

وقال بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين. قال: فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ» (٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٥، ومسلم في الإيمان ٢٠، وأبو داود في الزكاة ١٥٥٦، والنسائي في الزكاة ٢٤٤٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٧.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح، وروي مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما من طرق لا يخلو شيء منها من مقال، انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٤٩ حديث ٩٠٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦، وأخرجه ابن سعد والحاكم فيما ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٨٤.

(٤) انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٨.

الفوائد والأحكام:

١- تكفل الله عز وجل ببيان الهدى والرشاد إقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

٢- أن لله عز وجل ملك الآخرة والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾.

٣- التحذير والإنذار من نار شديدة اللظى واللهب، لا يدخلها إلا الأشقى المكذب بالحق المعرض عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

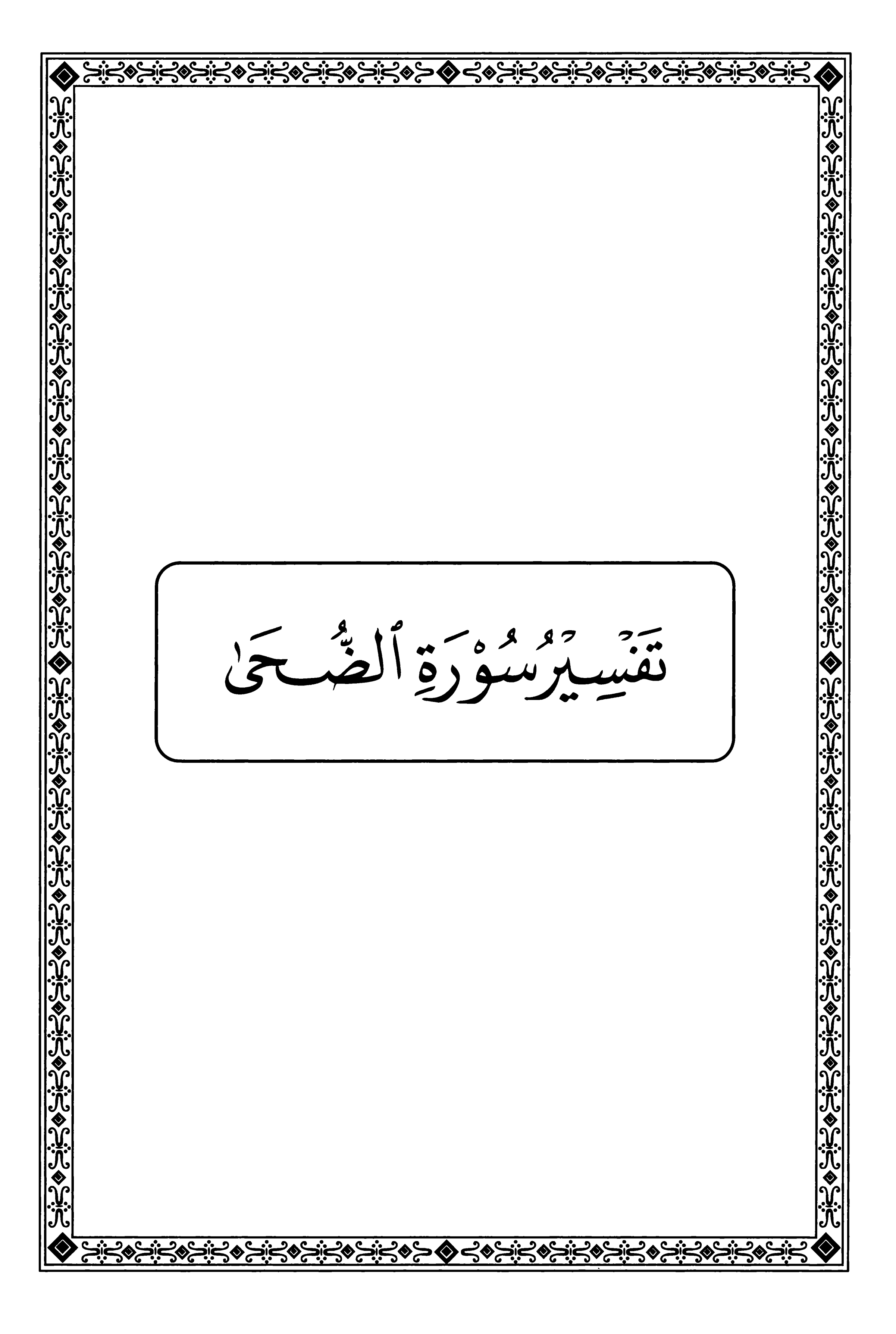
٤- وعد الله عز وجل الذي لا يخلف الميعاد بإبعاد الأتقى عن النار الذي ينفق ماله ليطهر نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى لا مجازاة لأحد على نعمة، ووعده تعالى بأن يرضيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨)﴾.

٥- الترغيب في الإنفاق ابتغاء وجه الله والإخلاص لله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾.

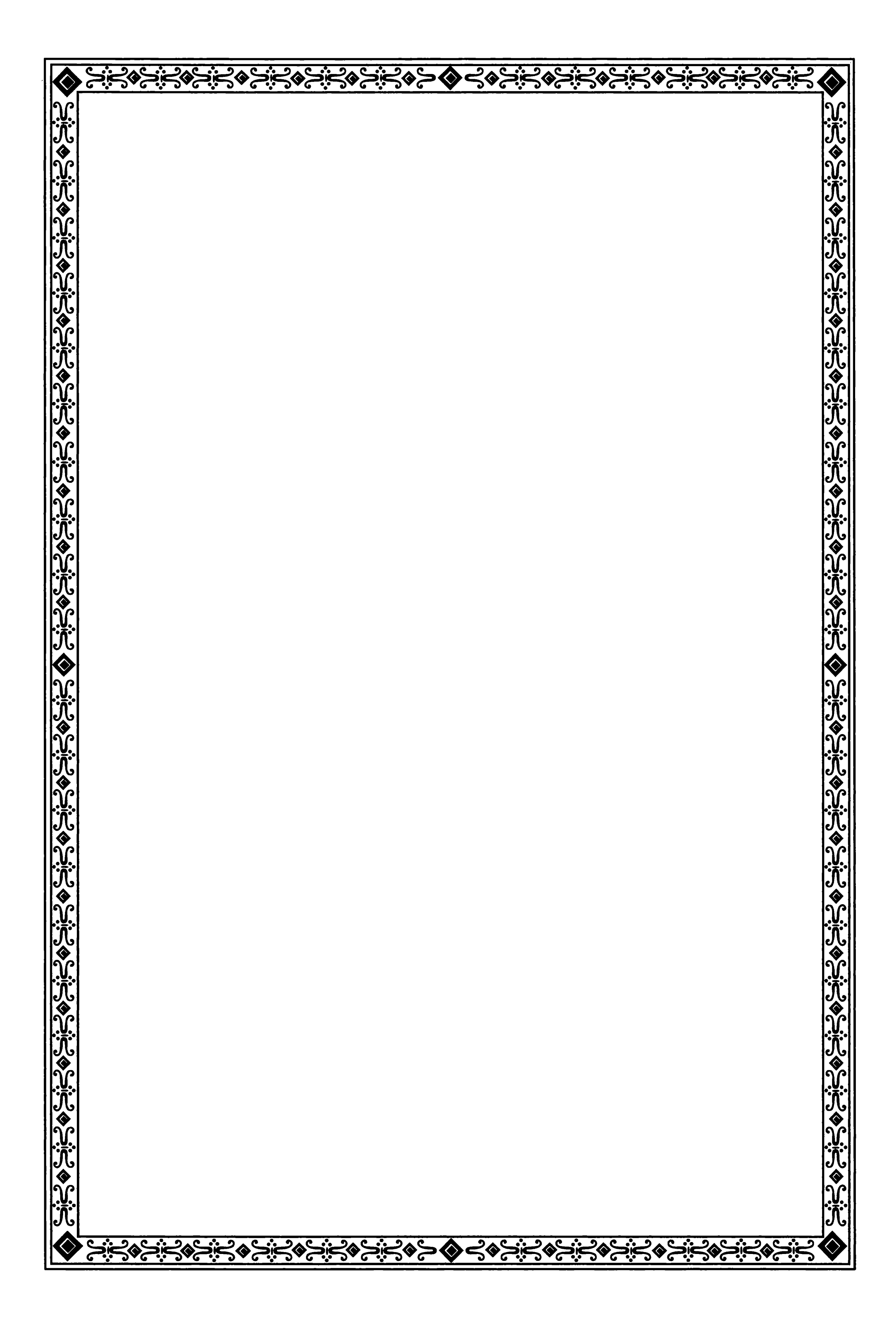
٦- إثبات الوجه لله عز وجل. وإثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجْهِ رَبِّهِ﴾.

٧- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلضُّحَىٰ



المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول قصار المفصل. وسميت: «سورة الضحى»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالضحى بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى بالناس فطوّل فقال النبي ﷺ : «اقرأ: و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ونحو هذا»(١).

د- موضوعاتها:

١- تأكيد عناية الله تعالى به ﷺ، وبشارته بما له في الآخرة، وبما سيعطيه الله عز وجل، وامتنانه عليه بما أعطاه.

٢- التذكير بحق اليتيم والمسكين، والتحدث بنعمة الله تعالى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾.

سبب النـزول:

عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة[1]، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾»[2].

وفي رواية عن جندب، قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: وُدِّع محمد، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾»[3].

قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ الواو: للقسم، و«الضحى»: مقسم به، وهو صدر النهار أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

أي: والضحى إذا أشرق وأضاء الأرض بنوره، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: إذا غشى وغطى الأرض والخليقة بظلامه وسكن وادْلَهَمّ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: ٤]، يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة الريح والأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾:

---

(١) قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿والضحى﴾ ٤٩٥٠، ومسلم في الجهاد- ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٧، وأحمد ٤/ ٣١٢- ٣١٣.

(٣) أخرجها البخاري في الجمعة ١١٢٥، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٧، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

هذا هو جواب القسم.

فأقسم الله عز وجل بالضحى وضيائه، والليل وظلامه، وهما من المتضادات الدالة على عظيم قدرة الله عز وجل، أقسم على أنه عز وجل ما ودع نبيه ﷺ وما قلاه، وأن الآخرة خير له من الدنيا وأن الله سيعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿مَاوَدَّعَكَ﴾، أي: ما تركك ربك، وما أهملك منذ اعتنى بك ورباك.

﴿وَمَاقَلَىٰ﴾، أي: وما قلاك ربك، وما أبغضك منذ أحبك.

وهذا في معرض الرد على قول المشركين لما أبطأ عنه ﷺ جبريل عليه السلام قالوا: «ودعه ربه وقلاه»، فنفى عز وجل أن يكون ترك نبيه ﷺ وأبغضه.

ومفهوم هذا أنه عز وجل معتنٍ به ﷺ، محبٌّ له، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أقسم عز وجل على نفي ما ادعاه المشركون من تركه عز وجل لنبيه ﷺ وبغضه له، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده له من الكرامة في الآخرة، وما سيمتنّ به عليه من النعم في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾، الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: للقسم في الموضعين، أي: والله للآخرة خير لك ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: من الدنيا. وسميت الآخرة بهذا الاسم لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا لما زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن رضي الله عنها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟، ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٥٤ وأخرجه ابن ماجه مختصرًا في الجنائز ١٦٣٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كما سميت الدنيا بهذا الاسم؛ لأنها متقدمة على الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، وقد تمثل ﷺ هذه الحقيقة المسَلَّمة في سيرته العطرة، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأشدهم طلبًا للآخرة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا؟، فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(٢)].

ولهذا لما خيَّر الله عز وجل نبيه ﷺ بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده اختار ما عند الله عز وجل[(٣)].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»[(٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٨٣، وابن ماجه في الزهد- مثل الدنيا ٤١٠٩، وأحمد ١/ ٣٩١، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، وأخرجه مختصرًا الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ٣٩٠٤، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

الكافر»(١).

فالدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

والآخرة خير من الدنيا له ﷺ خاصة وللمؤمنين عامة كما قال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، أي: ووالله لسوف يعطيك ربك فترضى. و«سوف»: لتحقيق الشيء في المستقبل.

فهذا وعد له ﷺ من ربه عز وجل بأن يعطيه من الخير في الدنيا والآخرة حتى يرضى.

وقد أعطاه عز وجل من الخير العاجل: التمكين لدينه، والتأييد له ونصره على أعدائه، وظهور الحق، وزهوق الباطل، ودخول الناس في دين الله أفواجًا إلى غير ذلك.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة»(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٤٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٨، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

وأعطاه الله عز وجل من الخير الآجل ما لا يخطر على بال من الشفاعة الكبرى والمقام المحمود والحوض المورود، وجنات الخلود وشهادته هو وأمته على الأمم وغير ذلك.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا، فسر بذلك، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ »(٢).

وقال ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، قالوا: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

وعد الله عز وجل في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه فيرضى، ثم ذَكَّره عز وجل بما أسبغ عليه من عظيم النعم؛ ليشكره عليها ويحدث بها ويتيقن أن ما عند الله له في الآخرة خير من الدنيا، وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التقرير، أي: ألم تكن يتيمًا فآواك، وذلك أن أباه توفي وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه آمنة بنت وهب، وعمره ست سنوات، فاجتمع عليه ﷺ مع اليتم بفقد الأب فقد الأم.

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، أي: فآواك، بأن سخر الله لك من يؤيك ويكفلك وينصرك حيث كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي وعمره ﷺ ثمان سنوات، ثم كفله عمه أبو طالب، فأحاطه بعظيم عنايته ورعايته في صغره، ولما ابتعثه الله على رأس الأربعين سنة من عمره ناصره

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٨٨- قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أشد المناصرة، ووقف سدًا منيعًا دون أذى قومه أن يصل إليه، فلم يستطيعوا النيل منه ﷺ حتى توفي أبو طالب قبيل الهجرة.

وفي هذا يقول أبو طالب[١]:

ولما رأيت القوم لاودّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قومًا علينا أظنةً ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل

إلى أن قال:

كذبتم وبيت الله[٢] نُبْزى[٣] محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

إلى أن قال:

لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

فلا زال في الدنيا جمالًا لأهلها ... وزينًا لمن والاه رب المشاكل

فمن مثله في الناس أيّ مُؤمَّل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلٰهًا ليس عنه بغافل

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تَجرَّ على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدًا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذّب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تُقصّر عنه سَورة المتطاول

(١) انظر: «ديوانه» ص٤٩.

(٢) هذا قسم بالبيت والقسم بغير الله لا يجوز ولكن ليس بعد الشرك ذنب فأبو طالب مشرك كافر.

(٣) أي: نسلبه ونغلب عليه.

حَـدِبتُ بنفسـي دونـه وحَمَيتـه ... ودافعـت عنـه بالـذّرى والكلاكـل

فأيـده رب العبـاد بنصـره ... وأظهـر دينًـا حقّـه غـيرُ باطـل

رجـال كـرام غـير ميـلٍ نَماهُـم ... إلى الخـير آبـاءٌ كـرام المحاصـل

فـإن تـك كعـب مـن لـؤيّ صُـقَيْبَة[(١)] ... فـلا بـد يومًـا مـرَّة مِـن تزايُـل[(٢)]

فسبحان من سخّر أبا طالب- وهو مشرك- يحوط النبي ﷺ ويدافع ويذود عنه، وينافح من أجله وصدق ﷺ إذ يقول: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[(٣)].

ولما توفي عمه أبو طالب استطال عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة إلى المدينة، فرحب به الأنصار رضي الله عنهم وآووه هو وأصحابه المهاجرين.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩].

واستقبلوه فرحين مستبشرين يرددون[(٤)]:

طلـع البـدر علينـا ... مـن ثنيـات الـوداع

وجـب الشـكر علينـا ... مـا دعـا لله داع

أيهـا المبعـوث فينـا ... جئـت بـالأمر المطـاع

جئـت شرفـت المدينـة ... مرحبًـا يـا خـير داع

فأحاطه الله عز وجل بعنايته منذ كان في بطن أمه، وبعد ولادته، وسخر له من يؤويه، وأيده بمن يناصره ويدافع عنه بعد مبعثه ﷺ حتى ظهر دينه على الأديان كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأصبح كل واحد من المؤمنين- وهم ولله

---

(١) يعني: قريبة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩١- ٢٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٣٠٦٢، ومسلم في الإيمان ١١١، وأحمد ٢/ ٣٠٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي ٢/ ٥٠٦، «الفوائد المنتقاة الحسان» للخلعي ٢/ ٣٣٦ (١٠٢٠).

الحمد لا يحصون كثرة- يفديه بنفسه وأهله وماله وكل هذا من إيواء الله عز وجل ونصره له ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، أي: وكنت ضالًا عن هذا الدين والشرع القويم، أي: لم تهد إليه بعد ﴿فَهَدَىٰ﴾، أي: فهداك الله إليه بما أنزل عليك من الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وليس معنى كونه ﴿ضَآلًّا﴾ أنه على دين قومه الشرك، بل كان ﷺ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، وكان يتعبد في غار حراء ابتعادًا عما عليه قومه من الشرك.

ومثل هذا قوله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة»(١).

أي: أنهم لم يهتدوا إلى هذا اليوم فهدانا الله إليه.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أي: وكنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله، بما أعطاك من مال خديجة رضي الله عنها، وبما أفاء عليك من الغنائم، ولهذا قال ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»(٢).

وأعظم من ذلك وأهم ما رزقه الله عز وجل من غنى النفس والقناعة، التي هي كنز لا يفنى.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨ من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقًا في الجهاد- ما قيل في الرماح.

فجمع الله- عز وجل- له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر- مع ما كان عليه ﷺ من ضيق الحال، وقلة ذات اليد، وقد عرضت عليه الدنيا، فلم يلتفت إليها، وآثر ﷺ أن ينام على الحصير.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا»، أو نحو هذا: «فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك»[١].

وكان يمر على بيوته ﷺ الهلالان والثلاثة لا يوقد فيها نار، فقيل لعائشة رضي الله عنها فما طعامكم حينئذ؟، قالت: «الأسودان التمر والماء»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر، أو خبز بر ثلاث ليال تباعًا»[٣].

وشكا إليه أزواجه ﷺ ضيق الحال وطالبنه بزيادة النفقة، فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها ومفارقتهن، وبين الله ورسوله والدار الآخرة والبقاء في عصمته ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وخرج ﷺ ذات يوم هائمًا على وجهه من شدة الجوع، فلقيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فسألهما «ما الذي أخرجكما في هذه الساعة؟»، فقالا: يا رسول الله أخرجنا الجوع، فقال ﷺ: «وأنا والله الذي أخرجني الجوع» الحديث[٤].

واستضافه ﷺ رجل، فدخل على أزواجه ﷺ فسألهن هل عندكن من شيء فقلن: لا، فخرج إلى أصحابه يسألهم: «من يضيف ضيف رسول الله ﷺ وله الجنة؟»، فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنا. وفيه وفي زوجته نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ » [الحشر: ٩]»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٧ وقال «حديث حسن» وأحمد ٥/ ٢٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه في تفسير سورة التكاثر.

(٥) سبق تخريجه.

واستمر به الحال ﷺ هكذا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، فتوفي ﷺ بأبي هو وأمي، ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[١].

ولو أراد ﷺ الدنيا لأتته من كل حدب وصوب، ولكنه ﷺ آثر ما يبقى على ما يفنى، وعرف حقارة الدنيا، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

فهي متاع حائل، وظل زائل؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٢].

ويقول ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[٣].

ويقول ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه»[٤].

وكان من أشد ما خاف ﷺ على أمته انفتاح الدنيا عليهم، قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[٥].

فإنه من حكمة الله تعالى أن يدرأ الدنيا عمن يحب، ويحوطه عنها، وذلك لأنها مزلة قدم، فكم من أناس غرقوا في وحلها فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، حيث انشغلوا بها عن طاعة الله عز وجل وعن الاستعداد لما أمامهم، وخرجت بهم من الحلال إلى الحرام فصار الحلال ما حل بأيديهم، ولو كان من طريق المعاملات المحرمة، قال ﷺ: «لو أن ابن آدم أعطي واديًا من ذهب لابتغى ثانيًا، ولو أعطي ثانيًا لابتغى ثالثًا، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩١٦- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[(١)].

وكانت نفقة الإمام أحمد رحمه الله في الشهر سبعة عشر درهمًا. وكان يقول: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل[(٢)].

وقال ابنه عبد الله: «بقيت حذاء أبي في رجله ثمان عشرة سنة كلما خرمت خصفها بيده».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

لما ذكر عز وجل ما امتن به على نبيه ﷺ من النعم الدينية والدنيوية أتبع ذلك بالأمر بأداء حقوق هذه النعم.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، وهذا خطاب له ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته، أي: فأما اليتيم فلا تذله وتهنه وتعتد عليه وعلى ماله وحقوقه، بل أحسن إليه وتلطف به وداقع عنه وعن حقوقه، وخص اليتيم لصغره وضعفه فهو عرضة لكل طامع، ممن لا يخافون الله، ولهذا عظم الله عز وجل حق اليتيم في كتابه الكريم، وعظمه رسوله المصطفى الكريم في سنته المطهرة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: وكما كنت ضالًا فهداك الله فلا تنهر السائل المسترشد الطالب للعلم والهدى ولا تزجره وترده، بل عامله باللطف واللين، وأرشده إلى الحق وبينه له.

وأيضًا فكما كنت عائلًا فأغناك الله فلا تنهر المسكين ذا الحاجة إذا جاء يطلب العون والمساعدة، بل ساعده ما أمكن أو اعتذر منه بلطف، قال ﷺ: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٨ من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وأخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الورع» لأحمد، رواية المروزي ص٨٠ (٢٤٥)، «أخبار الشيوخ وأخلاقهم» ص١٢١ (١٧٨)، «البداية والنهاية» ١٤/ ٤١٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ- في كتاب الجامع- مرسلًا من حديث زيد بن أسلم ١٨٧٦.

وقال ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»[١].

ولهذا كان ﷺ لا يرد سائلًا، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعطي حتى ينفد ما عنده، وكان ﷺ كما وصفه القائل:

تعود بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تراه إذا ما جئته متهللًا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله[٢]

وكان ﷺ أسوة في التواضع للوفود وطالبي الحاجات والسائلين والمسترشدين، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له ﷺ: «هوِّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[٣].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ «نعمة»: مفرد مضاف، فتعم كل نعم الله عليه من إيوائه بعد اليتم، وهدايته من الضلالة، وإغنائه من العيلة، وغير ذلك، ولكن أعظم هذه النعم وأهمها نعمة النبوة والرسالة.

والمعنى: وأما بنعمة ربك عليك بالنبوة فحدث وبلغ الناس.

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

وأيضًا: فحدث بنعمة الله عليك بإيوائك بعد أن كنت يتيمًا، وتذكر ذلك فلا تنهر اليتيم، وحدث بنعمة الله عليك بالغنى بعد أن كنت فقيرًا فلا تنهر السائل، وتحدث

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة- حق السائل ١٦٦٧، والنسائي في الزكاة- تفسير المسكين- رد السائل ٢٥٦٥، والترمذي في الزكاة- ما جاء في حق السائل ٦٦٥، وأحمد ٥/ ٣٨١- من حديث بجيد الأنصاري عن جدته رضي الله عنها.

(٢) الأبيات للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/ ٢٥، «نهاية الأرب» ٣/ ١٨٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

بسائر نعم الله عليك بذكرها وشكرها.

ولهذا كان ﷺ أشكر الناس لربه، قام ﷺ الليل حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[١].

وكان ﷺ يقول في الدعاء: «اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»[٤].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٥].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالضحى، والليل إذا سجا؛ لما فيهما من دلائل قدرته وعظمته، وتنبيهًا على أهمية الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

٢- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ وتثبيته له وطمأنته في الإقسام له على أنه ما ودعه

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- التشهد ٩٦٨- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١١، والترمذي في البر- الشكر لمن أحسن إليك ١٩٥٤، وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٨٢٠- وقال «حديث حسن». ورُويَ بمعناه من حديث أبي الأحوص عن أبيه رضي الله عنه- أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٦٣، والنسائي ٤٨١٩.

وما قلاه ردًا على ما زعمه المشركون المرجفون؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.

٤- أن ما عند الله عز وجل في الآخرة خير له ﷺ من الدنيا وما فيها، وكذلك لأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

٥- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف أنه سيعطي نبيه ﷺ من الخير في نفسه وأمته في الدنيا والآخرة حتى يرضى، وقد أعطاه من ذلك الكثير، وما ادخره له عنده عز وجل أجل وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

٦- امتنان الله عز وجل على نبيه ﷺ بإيوائه له بعد اليتم، وهدايته له بعد الضلال، وإغنائه له بعد العيلة تذكيرًا له بذلك، وتدليلًا على أنه سيعطيه من الخير العاجل والآجل حتى يرضى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

وفي هذا امتنان عليه وعلى أمته؛ ولهذا قال ﷺ: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»[1].

٧- النهي له ﷺ عن قهر اليتيم وإذلاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإيوائه بعد اليتم وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٨- النهي له ﷺ عن نهر السائل وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإغنائه بعد العيلة، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٩- تعظيم الإسلام لحق اليتيم والمسكين؛ نظرًا لشدة حاجتهما إلى العناية والرعاية، ولا عجب فهو دين التكافل الاجتماعي.

١٠- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه بالنبوة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وقد حدث ﷺ وبلغ البلاغ المبين وقام شكرًا لله حتى

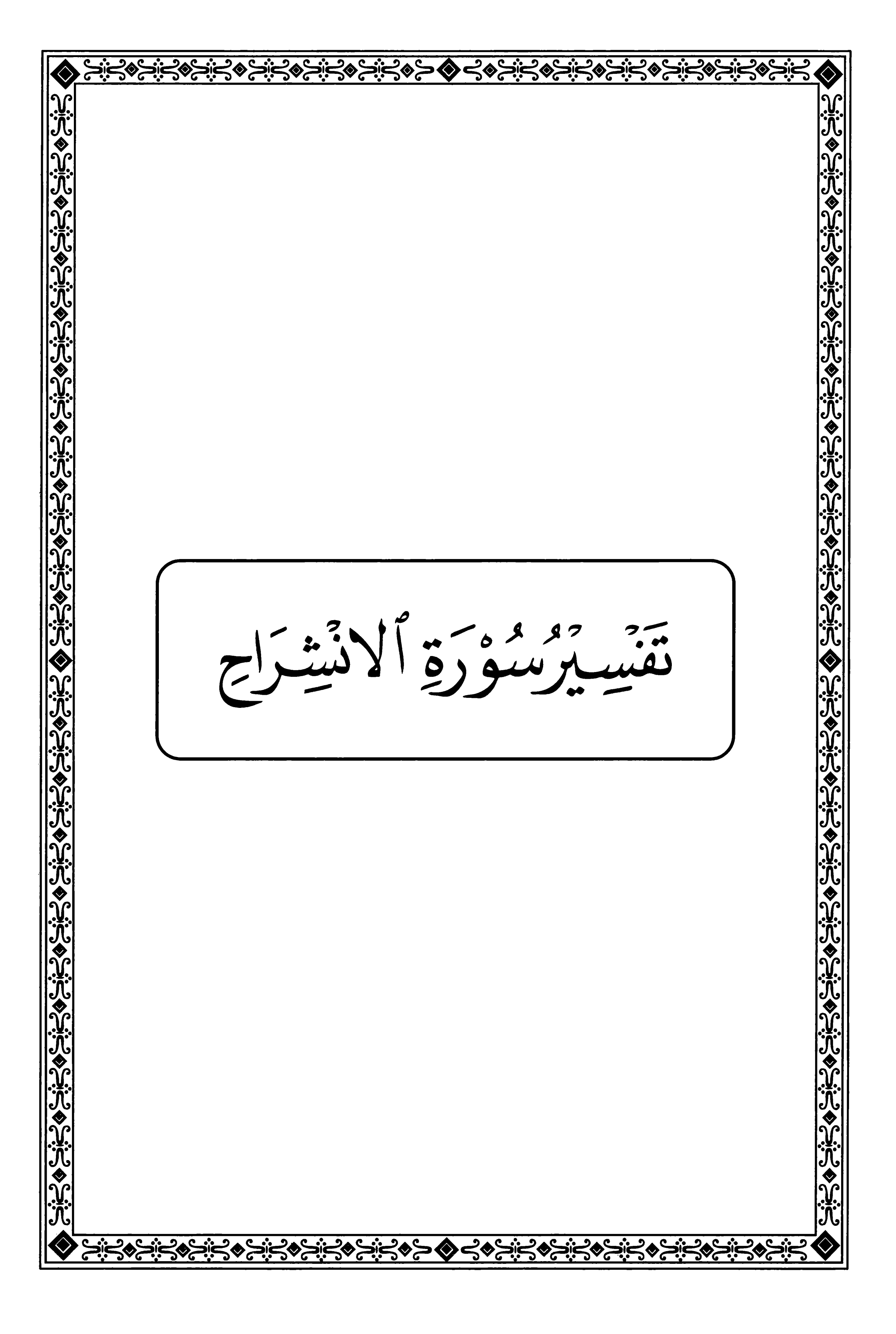
---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة ١٠٦١- من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

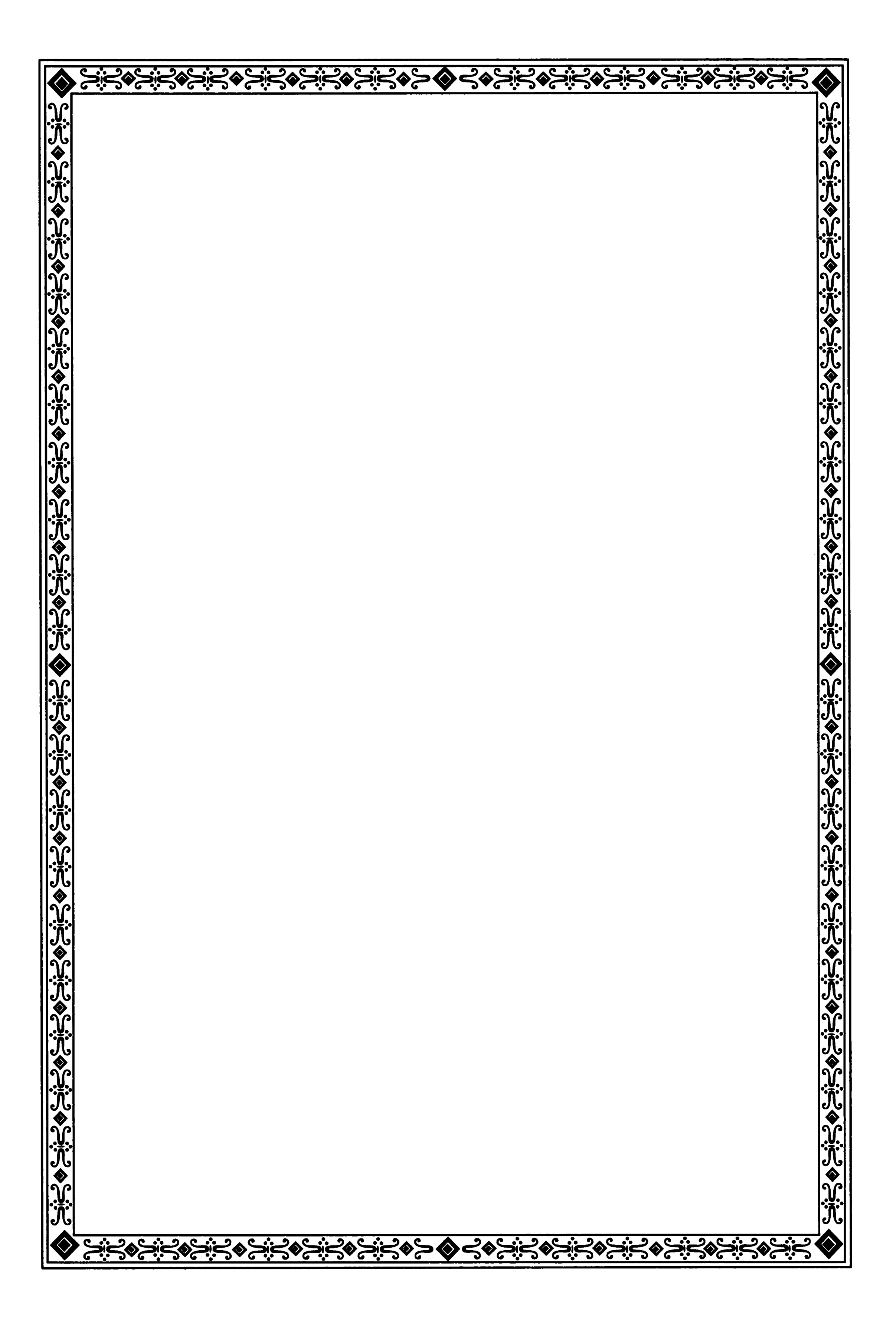
تفطرت قدماه، وأخبر بما من الله به عليه من سائر النعم.

١١- ينبغي للمؤمن أن يشكر نعم الله عز وجل عليه، ويتحدث بها، ويظهر أثرها اعترافًا لله عز وجل بها.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الانْشِرَاحِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشرح»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وتسمى: «سورة الإنشراح»، و«سورة ألم نشرح لك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- تعداد نعم الله تعالى على رسوله ﷺ، وحثه على شكرها.

٢- بيان أن مع كل عسر يسرين.

٣- الترغيب في الإكثار من العبادة بعد الفراغ من الشغل.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، أي: أما شرحنا لك صدرك، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك.

والمعنى: شرحنا لك صدرك للإسلام ونورناه بنور الإيمان والنبوة، فأصبح واسعًا رحبًا في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وامتثال أوامر الله- عز وجل- واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى أقدار الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

كما شرح الله صدره وشقه حسيًا كما في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم، أو قال في الحجر مضطجعًا إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة قال: فأتى فَقَدَّ، أو فشق ما بين هذه إلى هذه» يعني من ثغرة نحره إلى شعرته، قال: «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد» الحديث[(١)].

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في سماعه ﷺ وهو ابن عشر سنين وأشهر بكلام فوق رأسه، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو قال: نعم، إلى أن قال ﷺ: «فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦.

والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد، واسلم، فرجعت بها أغدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»[١].

ولهذا كان ﷺ كما وصفه الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: طرحنا وأنزلنا عنك ذنبك وغفرنا لك.

كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تفطرت قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٢].

وهو ﷺ وسائر الأنبياء معصومون عن الوقوع في الكبائر، وعن الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، لكنهم غير معصومين عن الصغائر، لكن لا يُقَرُّون عليها وسريعًا ما يتوبون منها[٣].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أي: الذي أثقل ظهرك وآلمه، فامتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بهذا، لأن ثقل الظهر يمنع من قطع مسافة السفر، فكيف بالسفر الطويل، فالأوزار تمنع القلب من السير إلى الله عز وجل، وتمنع الجوارح من النهوض في طاعته.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أي: أعلينا لك ذكرك، فجعلنا ذكرك عاليًا بين الأنبياء وبين سائر الناس من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، فهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟، قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٩.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩.

ذكرتَ معي»[١].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلًا، وموسى كليمًا، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟، قال: أوليس أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهرًا، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزًا من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٢].

فذكره ﷺ مرتبط بذكر الله عز وجل في الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، وهما الركن الأول من أركان الإسلام، وهما متلازمتان لا تصح إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمدًا رسول الله لم ينفعه ذلك وكذا العكس.

ولهذا قُرن بينهما في الأذان وهو من أعظم شعائر الإسلام.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٣]:

أغَـرُّ عليـه للنبـوة خـاتم ... مـن الله مـن نـور يلـوح ويشـهد

وضـم الإلـه اسـم النبـي إلى اسـمه ... إذا قـال في الخمـس المـؤذن أشـهد

وشـق لـه مـن اسـمه ليجلّـه ... فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

وقُرن بينهما بالتشهد في الصلاة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٥.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٥٢.

(٣) انظر «ديوان حسان» ص٣٣٨ تحقيق أ.د سيد حسنين، د/ حسن العيد- القاهرة ١٩٤٧ م.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٩٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

ورفع ذكره بأن أوجب تقديم محبته وطاعته على محبة كل مخلوق وطاعته، وجعل اتباعه شرطًا في صحة كل عبادة.

وكما شرح عز وجل صدر رسوله ﷺ ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فإن لأتباعه المؤمنين حظًا من ذلك بقدر صدق متابعتهم له ﷺ فهم أشرح الناس صدورًا، وأوضعهم أوزارًا، وأرفعهم ذكرًا.

وأبعد الناس عن الله عز وجل أضيقهم صدورًا، وأثقلهم أوزارًا، لأنهم يبحثون عن سعة الصدر والسعادة في ارتكاب الذنوب والأوزار، وهم أخمل الناس ذكرًا وأقلهم قدرًا.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ هذه هي النعمة الرابعة التي أنعم الله بها على نبيه محمد ﷺ وهي له ولأمته، وهو جعله مع العسر يسرًا، وفي هذا بشارة له ﷺ أن ما هو فيه من عسر وضيق من قومه سيعقبه اليسر بإذن الله عز وجل وهكذا حصل له ﷺ.

والعسر: الضيق والشدة، واليسر: السعة والفرج، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾»[(١)].

وقال ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسر»[(٢)].

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: توكيد لما قبله، وفيه دلالة على أنه لن يغلب عسر يسرين، أي: إن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، كما روي عن الحسن مرسلًا قال: «خرج النبي ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦، والبزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال «حسن صحيح».

عسر يسرين، إن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا »[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»[٢].

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن العسر لما ذكر معرفًا في الموضعين بأل التي للعهد دل ذلك على أن الثاني هو الأول فهو مفرد، وإن اليسر لما ذكر منكرًا في الموضعين دل على أن الثاني غير الأول فهما اثنان فكل عسر معه من الله يسران ولن يغلب عسر يسرين.

وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد، وخبره أصدق الأخبار.

ولهذا فإن من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير فعندما يشق على الإنسان الوضوء يتيمم، وعندما تشق عليه الصلاة قائمًا يصلي قاعدًا، وعندما يشق عليه الصوم يفطر، ويقضي، أو يطعم، وهكذا.

وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته أن جعل العسر يعقبه يسران، وجعل الكرب يعقبه الفرج، وجعل النصر مع الصبر، ولقد أحسن القائل:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج[٣]

وقال الآخر:

وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها الفرج القريب[٤]

وقال أبو العتاهية[٥]:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مخلد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥- ٤٩٦.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي ١/ ٢٩٦.

(٣) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي. انظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي ٥/ ١٥

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٢.

(٥) انظر: «ديوانه» ص١١٠.

واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب الآن تفرج من غد

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾، أي: فإذا فرغت من مشاغلك في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا وارتاح بالك.

﴿فَٱنصَبْ﴾، أي: فانصب في العبادة وقيام الليل.

وذلك أن حضور القلب إنما يكون بعد الفراغ من مشاغل الدنيا؛ ولهذا قال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء»(٢).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قدم المتعلق؛ لإفادة الحصر، أي: ارغب إلى ربك لا إلى غيره، أي أقبل على ربك، وأخلص له النية وتقرب إليه وثق به تمام الثقة في جميع أمورك.

وقيل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب في الدعاء وارغب إلى ربك بسؤال مطالبك، واستدل على هذا بمشروعية الدعاء والذكر بعد الصلوات المكتوبة.

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا فإن حمل الآية عليه فيه بعد، والأظهر القول الأول.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ بشرح صدره بالنبوة والإيمان والإسلام وهذه أعظم منة وأكبر نعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

٢- فضل الله عز وجل عليه ﷺ بوضع وزره ومغفرة ذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.

٣- أن الأوزار والذنوب ثقل وعناء في الدنيا والآخرة تستلزم التوبة وطلب المغفرة من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال ٥٦٠، وأبو داود في الطهارة- أيصلي الرجل وهو حاقن ٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٤٦٥، ومسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام ٥٥٨، وابن ماجه في الإقامة- إذا حضرت الصلاة ووضع العشاء ٩٣٥.

٤- إعلاء الله عز وجل شأن نبيه محمد ﷺ ورفع ذكره بين الأنبياء والخلائق في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

٥- تكفل الله عز وجل ووعده بأن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، وأنه لن يغلب عسر يسرين فلله الحمد والفضل والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

٦- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ إذا فرغ من مشاغله في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا، وارتاح باله بالعبادة وقيام الليل والرغبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾.

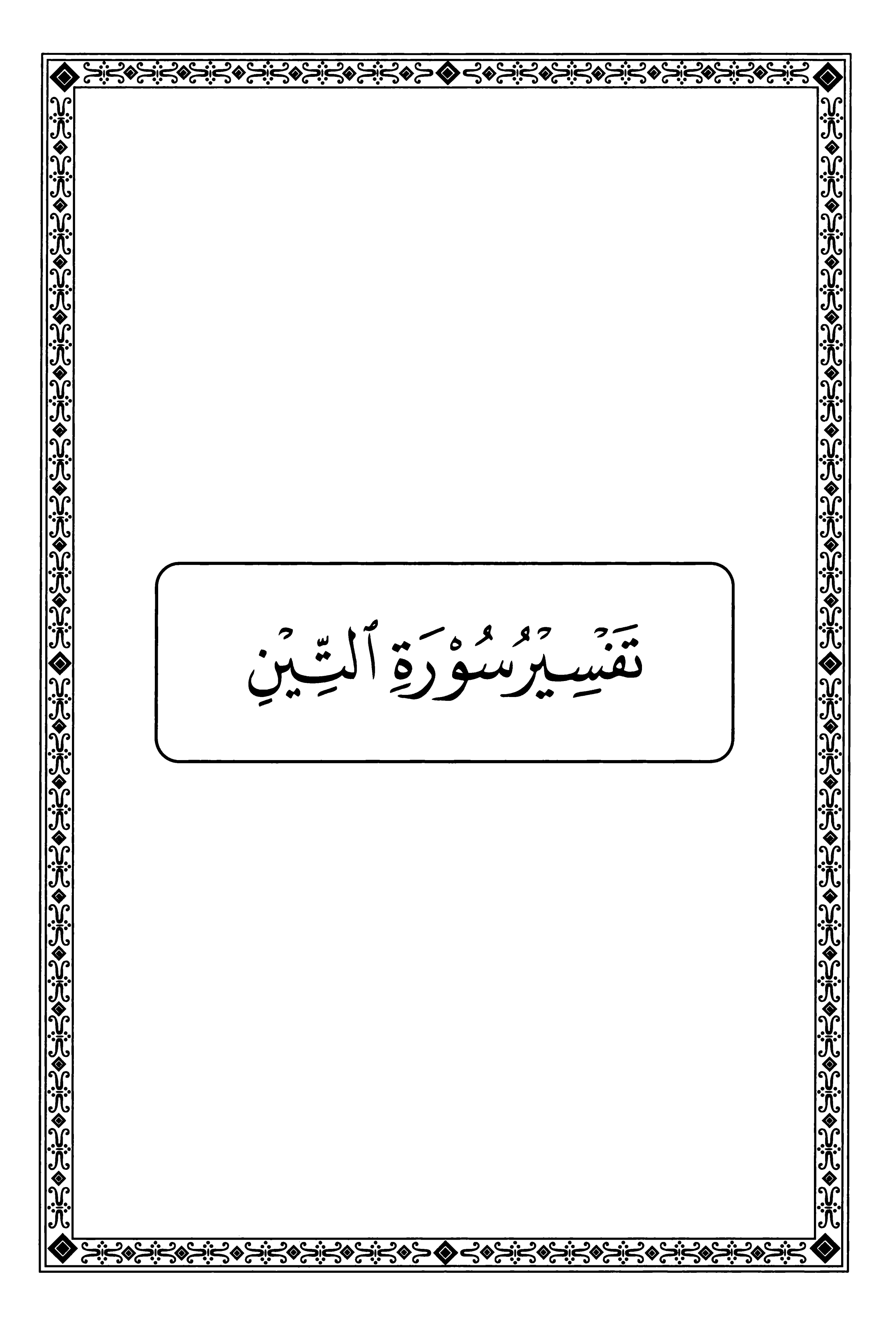
وللأمة فيه ﷺ الأسوة في هذا الأمر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: ابتغوا إليه القربة وارغبوا إليه بالأعمال الصالحة.

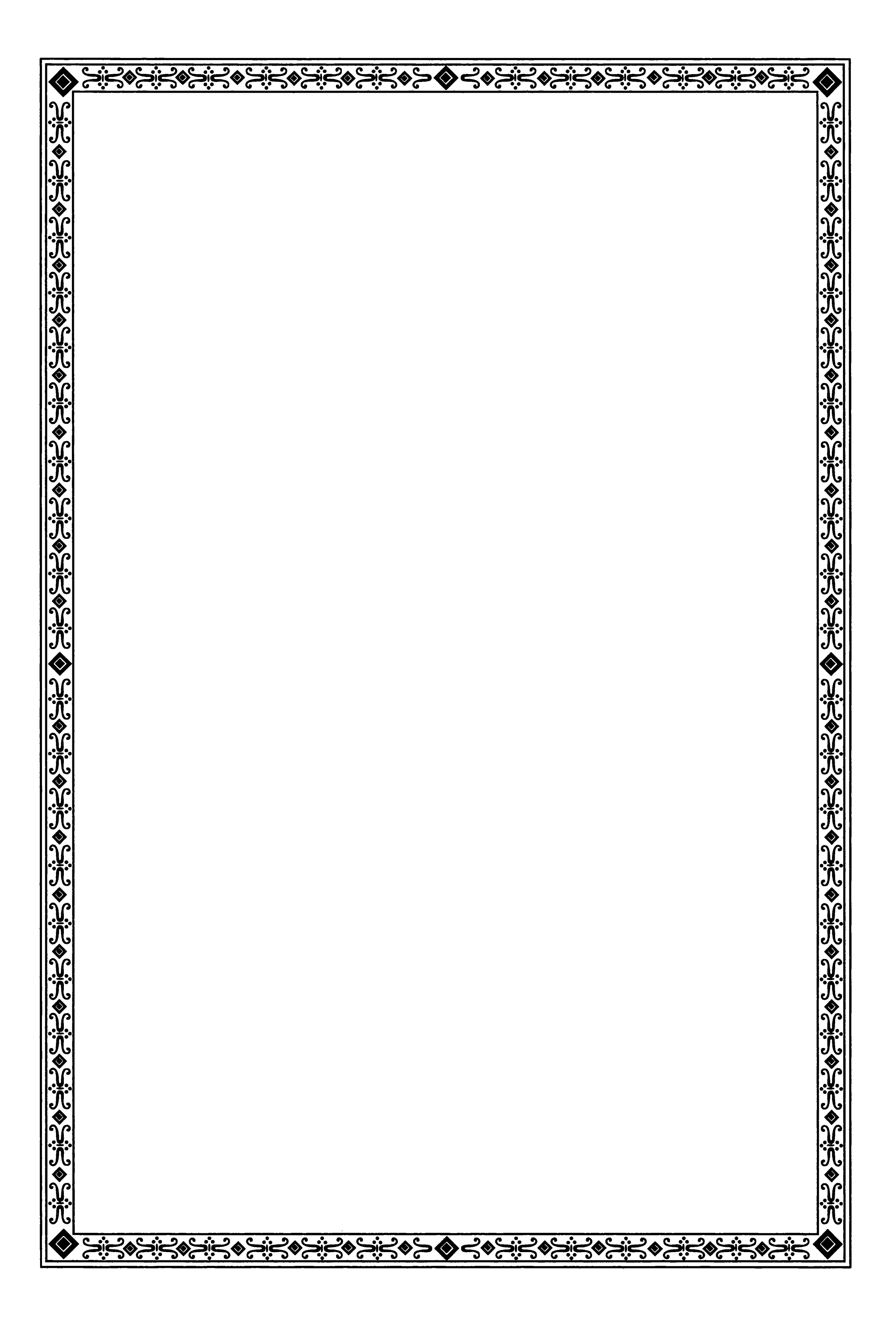
٧- تشريفه ﷺ بربوبية الله- عز وجل- الخاصة له وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

٨- عجبًا لمن يشتكي كثرة الفراغ والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾، فحياة المسلم بين انشغال في أمر دنياه مما لا بد منه، وبين اشتغال بعبادة الله تعالى بالذكر والصلاة وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع البر والإحسان.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتِّينِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التين»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، وتسمى: «سورة والتين والزيتون».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتًا منه أو قراءة منه»(١).

د- موضوعاتها:

١- تعظيم وتشريف الأماكن التي بعث الله بها أنبياءه موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأنزل عليهم فيها كتبه.

٢- تأكيد منّته عز وجل على الإنسان حيث خلقه في أحسن تقويم.

٣- رجوع الإنسان بالكفر إلى أسفل سافلين.

٤- وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأجر غير المقطوع.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الآذان- القراءة في العشاء ٧٦٩، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٢١، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٠، والترمذي في الصلاة ٣١٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٥، وأحمد ٤/ ٢٩٨، ٣٠٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الواو: للقسم و«التين والزيتون» مقسم بهما وهما الشجرتان المعروفتان اللتان هما من أفضل الأشجار وأكثرها فوائد، وأعظمها منافع، وأطيبها ثمرة، مَنْبِتُهما أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا، وهي الأرض التي بارك الله فيها، وبعث فيها كثيرًا من أنبيائه عليهم السلام.

فأقسم الله عز وجل بهذا الشجر ذي الثمر الطيب والفوائد الكثيرة والمنافع العظيمة، ومنابته المباركة أرض بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وأضيف «طور» وهو الجبل، إلى «سينين» وهي البقعة، يقال: سينين، ويقال: سيناء.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: وهو مكة، وإشار إليه بإشارة القريب لقربه، أقسم الله به لأنه أشرف البقاع، وأحبها إلى الله، البلد الحرام الذي يأمن من دخله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ﷺ: «إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(١).

فأقسم عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة العظيمة، التي بعث الله بها أنبيائه ورسله،

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أصحاب الشرائع العظام، والأمم العظيمة: عيسى بن مريم، وموسى، ومحمد- عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيمًا لهذه الرسالات العظيمة، وتشريفًا لهذه الأماكن، وبدأ بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم الأشرف منهما.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: جواب القسم.

فأقسم عز وجل بالمواضع الثلاثة على خلقه الإنسان في أحسن تقويم، واللام في قوله: ﴿لقد﴾: واقعة في جواب القسم، و«قد»: للتحقيق.

أي: والله لقد أوجدنا الإنسان في أحسن صورة، وأجمل هيئة، منتصب القائمة، متناسب الأعضاء، سوي الخلقة، وميزناه بالعقل، ولهذا خصصناه بالتكليف.

كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هذا من جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل على بداية الإنسان ونهايته، أي: ثم أرجعناه بعد هذا الحسن والخلقة السوية والتمييز بالعقل إن لم يؤمن بالله ويعمل صالحًا إلى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، أي: إلى الدرك الأسفل من النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ «إلا»: أداة استثناء. فاستثنى عز وجل من الرد إلى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم في أعلى عليين، كما قال تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك رده إلى أسفل سافلين في النار بسبب كفره، لا أن المراد رده إلى الهرم كما قال بعضهم.

قال ابن تيمية[1]: «فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد، بل على الأمور الغائبة، التي تؤكَّد بالأقسام، فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب. وفي نفس المقسم به- وهو إرسال هؤلاء الرسل- تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت».

ومعنى الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم واكتفى بالصفة وهو كون الأعمال صالحات، لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وفق سنة نبيه محمد ﷺ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: فلهم عند الله عز وجل ثواب عظيم وجزاء كبير، وسمى عز وجل ثوابهم أجرًا، لأنه سبحانه تكفل به والتزم به لهم تفضلًا وكرمًا.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، وغير ممنون به عليهم كما يمن المخلوق بما أَعطى، لأن الله عز وجل أكرم الأكرمين يعطي العطاء الجزيل بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨].

وله سبحانه وتعالى المنة الكبرى والنعمة العظمى على جميع خلقه، ومنته على عبده فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

والمراد بهذا الأجر نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، نسأل الله تعالى من فضله.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥٦.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ لم يقل: «فمن»؛ لأن «ما» يراد به الصفات دون الأعيان، أي: فما المكذب لك بعد بالدين، أي: بالجزاء على الأعمال بعد الإخبار به وذكر دلائله، أي: لا يكذبك به إلا جاهل ظالم لنفسه.

وعلى هذا فالخطاب في قوله: ﴿فما يكذبك﴾ للنبي ﷺ.

ويحتمل أن الخطاب للإنسان المكذب بالدين وتكون «ما» للاستفهام الإنكاري، أو للتعجب والتحقير لمن شأنه هكذا.

أي: فما الذي يحملك يا ابن آدم على التكذيب بالجزاء على الأعمال في الدنيا والبرزخ والمعاد، وقد عرفت أن الله هو الذي خلقك من العدم، وجعل خلقك في أحسن تقويم، وهو قادر على إعادتك وبعثك من باب أولى.

وسمي الجزاء على الأعمال بـ «الدين» لأن المرء فيه يجازى ويدان بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ولهذا يقال كما تدين تدان، أي: كما تعمل تجازى

وسمى الله عز وجل نفسه «الديّان، أي: المجازي لعباده بما عملوا كما في الحديث «أنا الملك أنا الديان»(١).

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: بلى سبحانه هو أحكم الحاكمين. و«أحكم» اسم تفضيل.

أي: هو- سبحانه- أحكم وأعدل الحاكمين في أحكامه الشرعية والكونية والجزائية، له كمال الحكم في أحكامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله كمال الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية وحكمته عز وجل تقتضي أن لا يترك الخلق سدى، بلا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: ﴿وَٱلتِّينِ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥- من حديث جابر رضي الله عنه عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ. وذكره البخاري بقوله: «ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان» كتاب التوحيد- باب ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالمواضع الثلاثة المباركة التي بعث الله بها محمدًا وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيمًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما في ذلك من الدلالة على عظمته وقدرته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٣- الامتنان بتأمين البلد الحرام، ووجوب تأمين من دخله، فلا يعتدى عليه، ما لم يعتد أو يرتكب جرمًا، فإن الحرم لا يجير محدثًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

٤- إقسامه عز وجل أنه خلق الإنسان في أحسن صورة وأعدل خلقة امتنانًا عليه بهذه النعمة العظيمة، وتذكيرًا له بها ليشكر الله عليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

٥- أن من تنكب الجادة وخرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وكفر بالله فمرده النار أسفل سافلين، ولا كرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

٦- أن الله عز وجل قدر الكفر كونًا، وإن لم يرضه شرعًا، لقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

٨- لا بد لصحة العمل وقبوله من كونه صالحًا يتوفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- أن الله عز وجل أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات أجرًا عظيمًا في الجنة غير

---

(١) سبق تخريجه.

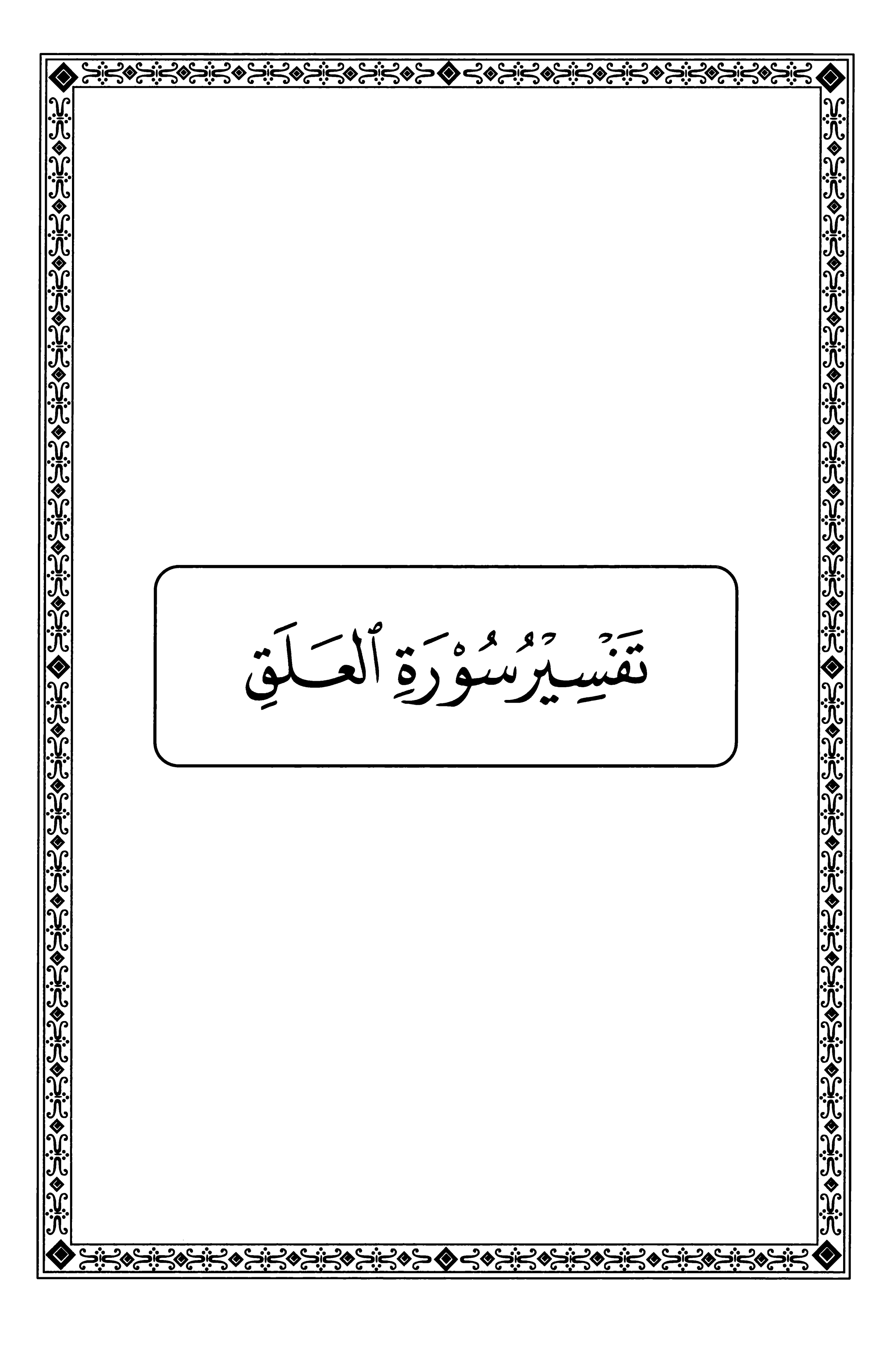
مقطوع عنهم، ولا ممنون به عليهم منة الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

١٠- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والإنكار على من يكذب به لقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾.

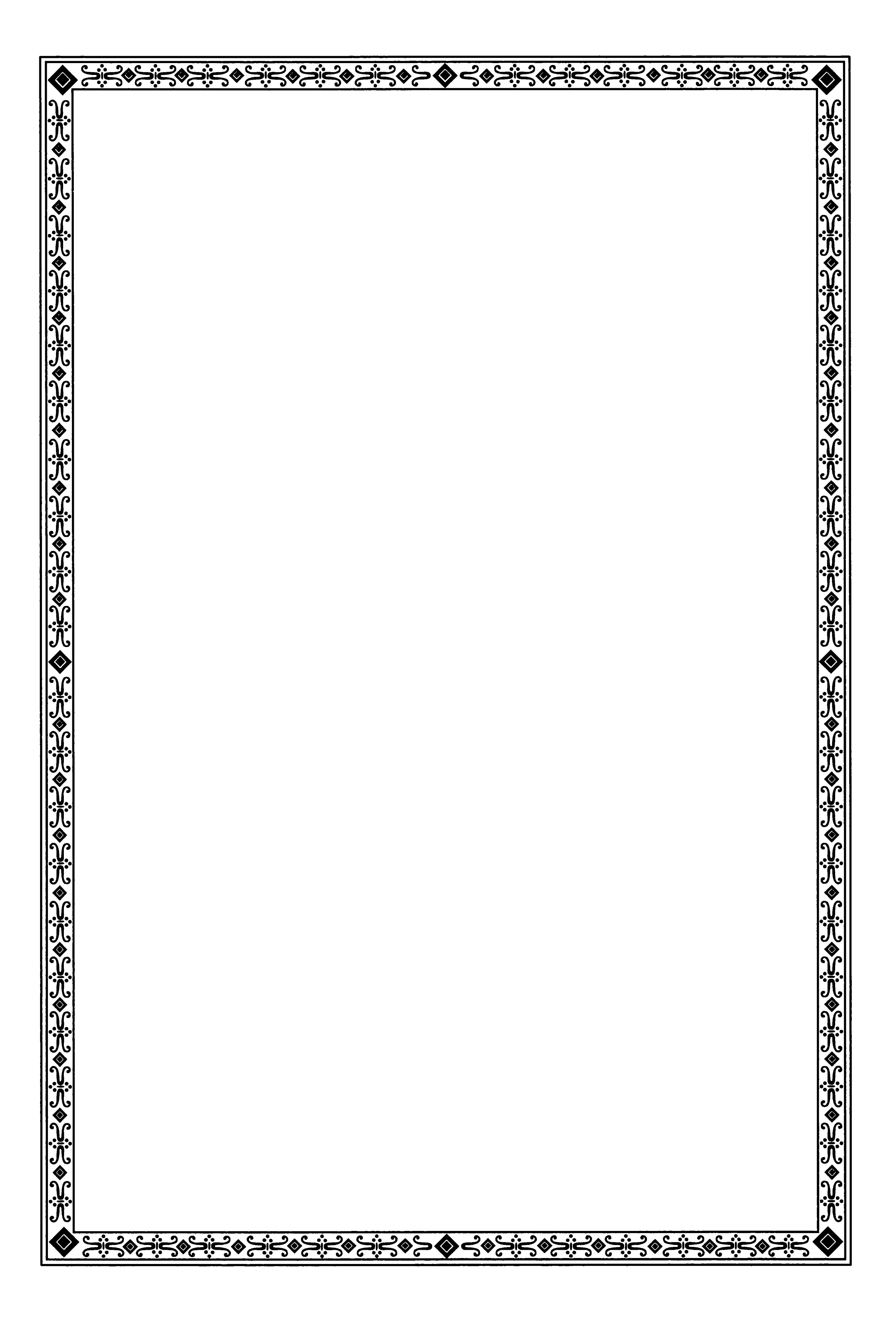
١١- تقرير أن الله عز وجل أحكم وأعدل الحاكمين، له كمال الحكم بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله تمام الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾.

١٢- أن ما قضاه الله وحكم به من بعث الرسل، وإنزال الكتب وخلق الإنسان وجعله محلًا للتكليف، وتقدير الكفر والإيمان، والبعث والحساب والجزاء هو الحكم العدل، والحكمة التامة.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلعَلَقِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العلق»؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

وتسمى: «سورة اقرأ»، و«سورة اقرأ باسم ربك».

ب- مكان نزولها:

مكية- وهي أول سورة نزلت من القرآن.

جـ-موضوعاتها:

١- بيان فضل القراءة والكتابة والعلم.

٢- بيان أن من طبيعة الإنسان الطغيان إذا استغنى.

٣- الإنكار على أبي جهل وتهديده لوقوفه في وجه الدعوة وأذيته للنبي ﷺ.

٤- تثبيت النبي ﷺ.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو: التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ[1]، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع» الحديث[2].

فهذه السورة العظيمة هي أول سورة نزلت، وهذه الآيات المباركات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما بدئ به من أمر النبوة والوحي إلى رسول الله ﷺ، وهي تباشير النعمة المهداة والرحمة المسداة للعالمين، بإنزال القرآن الكريم ومبعث سيد المرسلين نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرأ ما ينزل وما يتلى عليك من القرآن مبتدئًا ومستعينًا ومتبركًا ومتيمنًا باسم ربك، خالقك ومالكك ومدبرك، ولم يقل باسم الله، لأن المقام مقام خلق وتصرف وتدبير، ولإشعاره ﷺ بربوبية الله عز وجل له، الربوبية الخاصة.

---

(١) قوله: «ما أنا بقارئ، أي: إنني لست من ذوي القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان- بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢، وأحمد ٦/ ٢٣٢- ٢٣٣.

فأول آية نزلت من القرآن تأمر بالقراءة؛ تعظيمًا للعلم وبيانًا لشرفه وفضله، وإشارة إلى أن هذا الدين دين القراءة والعلم، كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

كما تأمر أيضًا بالتسمية في ابتداء القراءة وهي مشروعة في ابتداء السورة، لأنها آية مستقلة من القرآن تنزل مع كل سورة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: الذي خلق الخلق وأوجده ولم يذكر مفعول «خلق»؛ ليعم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

وهذا تذكير بعظمته عز وجل إذ لا خالق غيره، ولا رب سواه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تخصيص بعد تعميم؛ لشرف الإنسان من بين سائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

كرمه الله عز وجل بالعقل والعلم والمعرفة وخصه بالتكليف والجزاء.

و﴿عَلَقٍ﴾ جمع: علقة، وجُمع؛ لأن المراد بالإنسان في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الجنس، أي: جنس الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾.

ومعنى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، أي: أوجد الإنسان وأنشأه من علقة تعلق في جدار الرحم، فهو ينتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن يصير بشرًا سويًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد للأمر الأول، أو تأسيس؛ لأن الأمر الأول قرن بما يتعلق بالربوبية والخلق والقدر، والثاني قرن بما يتعلق بالعلم والشرع.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، «الأكرم»: اسم تفضيل، أي: الذي هو أكرم الأكرمين.

والكرم كثرة الخير، والخير كله منه عز وجل كما قال ﷺ: «والخير كله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤- من حديث أنس- رضي الله عنه.

بيديك»[١].

ومن كرمه العظيم وجوده العميم أن أنزل القرآن الكريم، وبعث محمدًا ﷺ نعمة على العباد، ورحمة للعالمين، وعلم الإنسان، وشرفه بالعلم على سائر المخلوقات، من الملائكة وغيرهم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علّم الكتابة بالقلم؛ لأن العلم يكون في الأذهان، ويكون في اللسان، ويكون بالكتابة، وهي أعظم وسيلة لحفظ العلم والحقوق والوصايا وضبط الشهادات، وتقييد ونقل مذاهب السلف وأخبارهم للخلف.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟، فأمسكت عن الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[٢].

وقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقة[٣]

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن والحكمة والكتابة بالقلم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٢- ٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤٦.

(٣) البيتان ينسبان للشافعي، ولم أجدهما في ديوانه. وانظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص٣٣.

الفوائد والأحكام:

١- أن أول القرآن نزولًا على النبي ﷺ قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٢- وجوب القراءة والتعلم، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

٣- مشروعية البسملة عند قراءة بداية كل سورة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾.

٥- تعظيم اسم الله عز وجل، وأنه سبحانه هو الخالق العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

٦- بيان أصل خلق الإنسان وضعفه وأنه خلق من علقة.

٧- إثبات أنه عز وجل هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

٨- فضل الله عز وجل على الإنسان، خلقه وشرفه على سائر المخلوقات، وعلمه الكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٩- الترغيب في تعلم الكتابة بالقلم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ۝١٩﴾.

سبب النــزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال: فما فَجِئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له مالك؟، فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا» قال: فأنزل الله عز وجل- لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة»(١).

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ «كلا»: كلمة ردع وزجر، وقيل: بمعنى حقًا.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، وبخاصة الكافر.

﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾ اللام: للتوكيد، أي: يتجاوز الحد في الفرح والأشر والبطر، ويتجاوز الحلال إلى الحرام والحق إلى الباطل، والإيمان إلى الكفر.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، أي: أن رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، فيظن أنه في غنى عن الله عز وجل ورحمته كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [الليل: ٨].

وهذا إنما يكون من الإنسان الكافر؛ لأن من اعتقد بأنه في غنى عن الله عز وجل وعن رحمته فهو كافر، وإن ادعى الإيمان، لكن كثيرًا من ضعاف الإيمان قد يغتر بالمال والغنى، وهذا أمر مشاهد مما يوجب الحذر من ذلك.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «منهومان لا يشبعان: صاحب العلم،

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ ٢٧٩٧، وأحمد ٢/ ٣٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٨.

وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]»(١).

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويحتمل كونه للإنسان عمومًا، أو لمن طغى واستغنى بماله، أي: إن إلى ربك المرجع والمآل والمصير فيجازي كلًا بما عمل.

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ هذه الآية إلى آخر السورة نزلت في أبي جهل لعنه الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»(٢).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟، أما والله، إني لأكثر هذا الوادي ناديًا، فأنزل الله: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته»(٣).

قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الاستفهام: للتعجب. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له.

والناهي هنا هو أبو جهل- لعنه الله- كما دل عليه سبب النزول، أي: أخبرني عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ٣٣٤٩، وأحمد ١/ ٣٢٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٧، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

حال هذا الرجل، وتعجب من حاله.

وقوله: ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ المراد به نبينا محمد ﷺ، فأبو جهل ينهى الرسول ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، وأطلق عز وجل عليه ﷺ اسم العبودية، لأنها أفضل ما يوصف به البشر. وصفه الله عز وجل بها في أعلى المقامات حال قربه منه في الصلاة والقراءة والدعاء فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن: ١٩]، وحال قربه منه ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

ولو كان هناك وصف أفضل من وصف العبودية لوصفه به في هذين المقامين.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب لأبي جهل- لعنه الله-، أي: أخبرني إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة وهو محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، أي: على الحق والسداد والرشاد في فعله.

﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ «أو» عاطفة بمعنى الواو، أي: وأمر بالتقوى بقوله، أي: و أمر بتقوى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ﷺ كذلك في فعله وقوله، فِلمَ تنهاه وتتوعده على ذلك.

﴿أَرَءَيۡتَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: أرأيت يا محمد.

﴿إِن كَذَّبَ﴾ هذا الناهي، أي: إن كذب بالحق بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، أي: أعرض عن الحق ببدنه، أي: استمر على التكذيب والتولي.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، والتهديد والوعيد، أي: ألم يعلم هذا الناهي عن الصلاة المكذب بالحق المتولي عنه أن الله عز وجل مطلع عليه وعلى غيره يرى أفعاله، ويسمع كلامه وسيجازيه بما عمل.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾ «كلا»: كلمة زجر وتهديد ووعيد، واللام: موطئة للقسم، أي: كلا لئن لم يرجع أبو جهل عما هو عليه من التكذيب بالحق والإعراض والصد عنه.

﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم ينته ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدةً، والناصية: مقدمة شعر الرأس، أي:لنقبضن على ناصيته ونأخذه ونجذبه بها بشدة وقوة وعنف.

و«ال» في «الناصية»: للعهد الذهني، أي: ناصيته المعهودة، كأنه اشتهر بها وقد أُخذ وجر بناصيته في الدنيا يوم بدر، ويؤخذ بناصيته ويجر بها في الآخرة في النار، وتوسم بالسواد، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ «ناصية»: بدل من ناصية الأولى.

﴿كَـٰذِبَةٍ﴾: في مقالها ﴿خَاطِئَةٍ﴾ متعمدة الخطأ في فعالها، يقال: خاطئ، ومخطئ، فالخاطئ من ارتكب الذنب عمدًا، والمخطئ من ارتكبه جهلًا ونسيانًا فهذا معذور والأول مأزور غير معذور.

فهذا الناهي كاذبة أقواله، خاطئة أفعاله، وليس بعد الكفر والتكذيب بالحق ذنب.

قيل: وصفت الناصية بأنها كاذبة خاطئة؛ لأنها محل العقل المفكر المدبر للإنسان.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام: لام الأمر، وفيها معنى التحدي ﴿نَادِيَهُۥ﴾، أي: أهل ناديه، والنادي في الأصل المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون للتخاطب والتشاور والاستئناس، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله ناد يجتمع إليه الناس فيه، من قومه وعشيرته، وكان يفتخر فيهم.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الزبانية: جمع: زبنية، مأخوذ من «الزبن» وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، وخزنة جهنم الغلاظ الشداد، أي: سندعوهم إلى أخذه، وحينها يعلم غروره بافتخاره بكثرة أهل ناديه وعشيرته، وأنهم لن يجدوا عنه شيئًا.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر لأبي جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أي: لا تطعه يا محمد فيما ينهاك عنه من الصلاة والعبادة عند الكعبة، وأينما كنت، واثبت على ما أنت عليه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨].

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾، أي: صل واقترب إلى ربك بالعبادة والركوع والسجود، واستمر على ذلك، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة.

وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه من أفضل حالاتها، ومن أعظم أركانها، قال ﷺ:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»[(١)].

ويشرع السجود عند تلاوة هذه الآية، لما روي أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾[(٢)].

الفوائد والأحكام:

١- الردع والزجر والتهديد والوعيد لمن أطغاه الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾.

٢- أن من طبيعة الإنسان أن يطغيه الغنى ويبطره؛ لقوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، إلا من رحم الله فثبته وحفظه، ولهذا يجب أن يكون المسلم من هذا على حذر.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ ولأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤- إثبات المعاد وأن المرجع والمصير إلى الله عز وجل.

٥- التعجب من حال أبي جهل- لعنه الله- والإنكار عليه في نهيه للنبي ﷺ عن الصلاة، وفي تكذيبه بالحق وإعراضه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

٦- إثبات وتقرير أنه ﷺ على الهدى في عبادته لله عز وجل وصلاته وفيما يأمر به من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾.

٧- تقرير رؤية الله عز وجل لأبي جهل وأذاه لرسول الله ﷺ، واطّلاعه التام على جميع الخلق وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؟

٨- الزجر والتهديد لأبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من الأذى لرسول الله ﷺ والصد عن الحق بأخذه بناصيته الكاذبة الخاطئة، وتأكيد زجره وتهديده؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

٩- جهل أبي جهل بعظمة الله عز وجل وقوته وقدرته؛ ولهذا تحداه الله عز وجل بدعوة أهل ناديه؛ ليدافعوا عنه ويمنعوه من زبانية جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

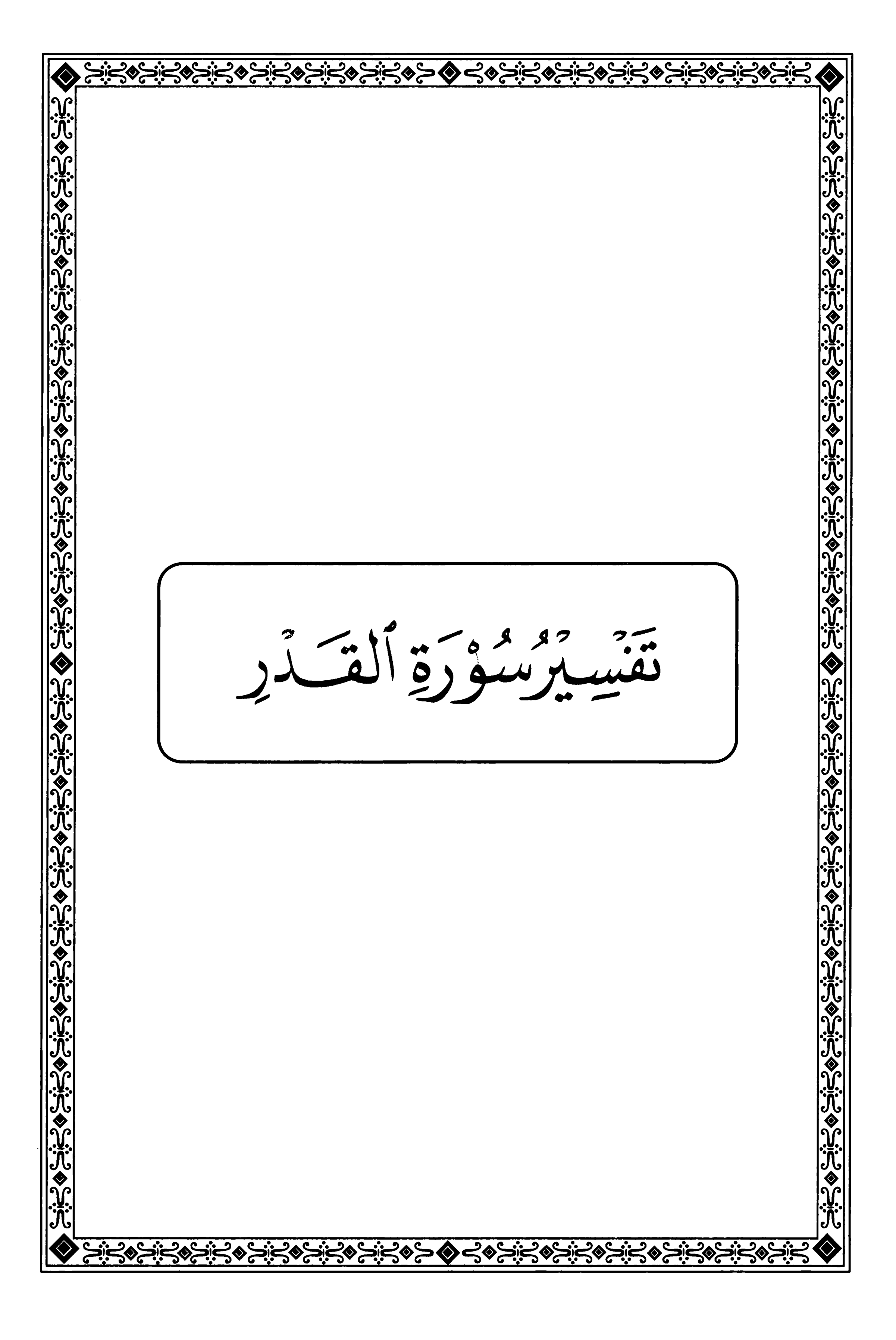
١٠- إثبات خزنة جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

١١- نهيه عز وجل له ﷺ عن طاعة أبي جهل، وأمره عز وجل له ﷺ بالصلاة والسجود والتقرب إليه والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

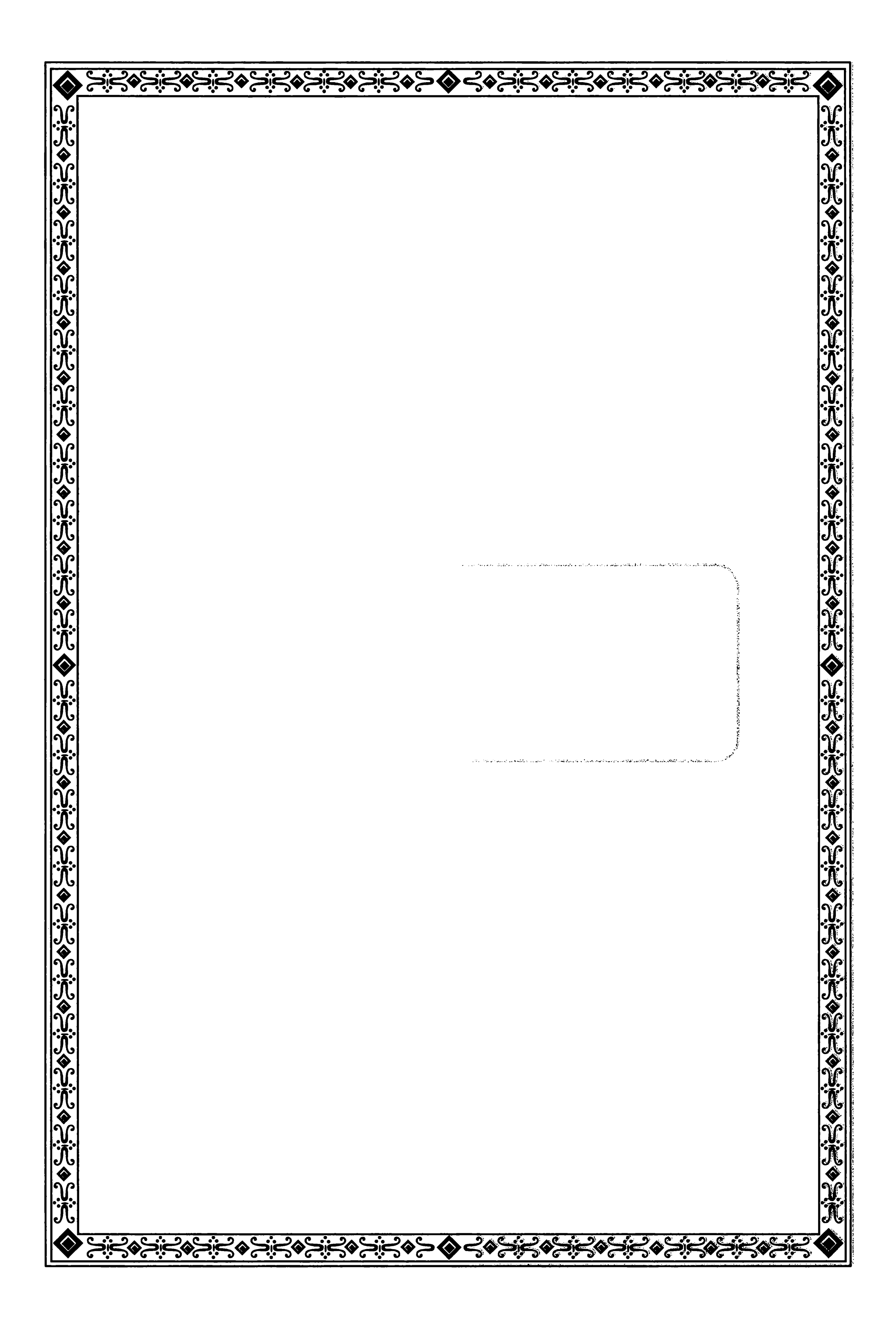
١٢- الاستعانة بالصلاة والسجود، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

١٣- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآيات.

* * *



تَفسِيرُ سُورَةِ ٱلقَدرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القدر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

وتسمى «سورة ليلة القدر».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- تعظيم القرآن.

٢- بيان فضل ليلة القدر، وشرفها وبركتها، والترغيب في إحيائها.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه هو العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الهاء في قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر في السورة، لكنه معلوم، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعلوم المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: ٢].

﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ الليلة: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر. و«القدر»: هو الشرف والعظمة.

والمعنى: في الليلة العظيمة ذات القدر والشرف العظيم، والتي تقدر فيها الأعمال وهي الليلة المباركة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: ٣، ٤].

وهي في شهر رمضان المبارك، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومعنى إنزال القرآن فيها بدء نزوله فيها، ثم تتابع نزوله بعد ذلك على رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: معنى إنزاله فيها: أنه أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

والصحيح الأول.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾: تعظيم لأمرها، وتفخيم لشأنها، أي: وما أعلمك ﴿مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ هي ليلة عظيمة القدر، رفيعة الشرف، كثيرة الخير والبركة.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

أي: أن العمل الصالح في هذه الليلة فيها خير وأفضل من العمل في ألف شهر خالية منها، أي: خير من العمل بما مقداره ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، ليس فيها هذه الليلة، وهذا كما قال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»(١).

وقال ﷺ «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»(٣).

ولهذا قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(٤).

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾، أي: تتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا، والملائكة: جمع مَلَك.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام؛ لمكانته بينهم؛ لأنه الأمين على الوحي، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة العظيمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أي: بأمره عز وجل الكوني، وذلك لكثرة بركتها وخيرها، وتنزل الرحمة فيها، قال ﷺ: «وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»(٥).

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: بكل أمر مما يأمرهم الله تعالى به، ومن أجل كل أمر قضاه الله

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٦٢، ٦٥- من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨١، والنسائي في الجهاد ٣١١٨، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٦ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٨٩٨، ١٨٩٩، ومسلم في الصيام ١٠٧٩، والنسائي في الصيام ٢٠٩٧، والترمذي في الصوم ٢٨٢، وأحمد ٢/ ٢٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠١، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٠، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٢، والنسائي في الصيام ٢٢٠٢، والترمذي في الصوم ٦٨٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سيأتي تخريجه.

وقدره في تلك السنة من الآجال والأرزاق وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام: «مطلِع».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَطْلَعِ﴾، أي: هي سلام، أي: ما يقدر فيها إلا السلامة والخير، ويكثر فيها سلام الملائكة على المؤمنين، والسلامة من الذنوب ومغفرة الآثام.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: وقتها إلى مطلع الفجر الثاني.

وقد أخفى الله عز وجل هذه الليلة؛ ليجتهد الناس في العبادة تحريًا لها، وهي في رمضان، وفي العشر الأواخر منه على الصحيح، وهي في أوتار العشر آكد، وأكدها ليلة سبع وعشرين[(١)].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر، في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين» وكان سقف المسجد جريدًا من النخل، وما نرى في السماء شيئًا، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه» وفي رواية: «في صبح إحدى وعشرين»[(٢)].

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: «أُريت ليلة القدر ثم أُنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، قال: وكان

---

(١) هناك أقوال أخرى ضعيفة لا دليل عليها، فقيل إنها في السنة كلها، وقيل في رمضان كله، وقيل أول ليلة منه، وقيل ليلة سبع عشرة، وقيل ليلة تسع عشرة وقيل غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٦٦، ومسلم في الصيام- فضل ليلة القدر ١١٦٧، وأبو داود في الصلاة ٨٩٤.

عبد الله بن أنيس يقول: ثلاث وعشرين»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»(٢).

وعن بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»(٣).

وعن واثلة بن الأسقع- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»(٤).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»(٥).

وقد فسره أكثر أهل العلم بليالي الأوتار، وهو الأظهر، وحمله بعضهم على الأشفاع.

وقوله «في تاسعة تبقى» في حال نقصان الشهر تكون ليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين، وفي حال تمامه تكون ليلة اثنتين وعشرين.

وقوله: «في سابعة تبقى» تحتمل ليلة ثلاث وعشرين وذلك في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليلة أربع وعشرين في حال تمامه.

وقوله: «في خامسة تبقى» تحتمل ليلة خمس وعشرين في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليلة ست وعشرين في حال تمام الشهر.

---

(١) أخرجه مسلم في الباب السابق ١١٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠١ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨: «إسناده رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ١٢ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨ «ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن بلال: «أنها أول السبع من العشر الأواخر» قال ابن كثير: فهذا الموقوف أصح».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢١، وأبو داود في الصلاة ١٣٨١.

وعن زر قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه، فقلت: «إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، فقال: رحمه الله، أراد أن لا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأي شيء تقول ذلك، يا أبا المنذر؟، قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو: إني لأظن، أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ قال: سابعة تمضي- أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟، قال ابن عباس، فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبع أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له، وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧- ٣١]»[(٣)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٦٢، والترمذي في الصوم ٧٩٢، وأحمد ٥/ ١٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩ قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، وغريب جدًا، والله أعلم».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢٣.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو آخر ليلة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»(٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر»(٣).

لهذه الأحاديث وغيرها بلغت الأقوال في تحديدها إلى عشرة أقوال عدد ليالي العشر حال تمام الشهر ولا إشكال في أنها في العشر الأواخر من رمضان لاتفاق الأحاديث الصحيحة على ذلك، وأوتارها آكد، وآكدها ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وسبع وعشرين، وآكد هذه الثلاث ليلة سبع وعشرين.

ومع صحة الأحاديث في تحديدها في أكثر من ليلة فالأولى التماسها وتحريها في جميع ليالي هذه العشر، إضافة إلى أن من أهل العلم من قال: إن ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»(٤).

وهكذا جاء في حديث عبادة المتقدم: «التمسوها في العشر الأواخر».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ «أرى رؤياكم قد

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٩ وأبو داود الطيالسي، انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠٠، قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٧٠: «تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به».

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم- ما جاء في ليلة القدر ٧٩٤، قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٧، ومسلم في الصيام- فضل ليلة القدر ١١٦٩، والترمذي في الصوم ٧٩٢.

تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟، قال: «بل هي في رمضان»، قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت[٢]؟، أم هي إلى يوم القيامة؟، قال: «بل هي إلى يوم القيامة»، قلت: في أي رمضان هي؟، قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر»، ثم حدّث رسول الله ﷺ وحدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟، قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها، ثم حدّث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك، بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟، فغضب عليّ غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»[٣].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في هذه الليالي العشر ما لا يجتهد في غيرها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٤].

وفي رواية عنها: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره»[٥].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من

---

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠١٥، ومسلم في الباب السابق ١١٦٥.

(٢) أخذ من هذا بعض أهل العلم أن ليلة القدر كانت في الأمم الماضية وجمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع أنها من خصائص هذه الأمة، وروي في هذا أن النبي ﷺ أُري أعمال أمته، فكأنه تقاصر أعمارهم ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمل، فأعطاه الله ليلة القدر، خيرًا من ألف شهر»، انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٦٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧١.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٤، ومسلم في الاعتكاف- الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ١١٧٤، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٦، والترمذي في الصوم ٧٩٦، وابن ماجه في الصيام ١٧٦٨، وأحمد ٦/ ٦٦.

(٥) أخرجها مسلم في الموضع السابق ١١٧٥، والترمذي في الموضع السابق ٧٩٦.

رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان»[٢].

وينبغي الحرص على تحري هذه الليلة وقيامها والإكثار فيها من الصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، والاستغفار والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أعمال الخير.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[٣].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

٢- إثبات العلو لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، لأن الإنزال يكون من أعلى.

٣- تعظيم القرآن الكريم وأنه معلوم معهود لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

٤- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ وهذا ما عليه سلف الأمة وأهل السنة، خلافًا للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٥- أن ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، في شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾، وقوله في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥].

٦- فضل ليلة القدر، وعظم شأنها ومكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم- الاعتكاف في العشر الأواخر ٢٠٢٦، ومسلم في الاعتكاف- اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ١١٧٢، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٥، ومسلم في الباب السابق ١١٧١، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٥، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٣.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٣، وابن ماجه في الدعاء- الدعاء بالعفو والعافية ٣٨٥٠، وأحمد ٦/ ١٨٢.

٧- الترغيب في قيام هذه الليلة والإكثار من الأعمال الصالحة فيها.

٨- تنزل الملائكة والروح في هذه الليلة بإذن ربهم وأمره، وكثرتهم في الأرض، وفضل جبريل عليه السلام وشرفه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾.

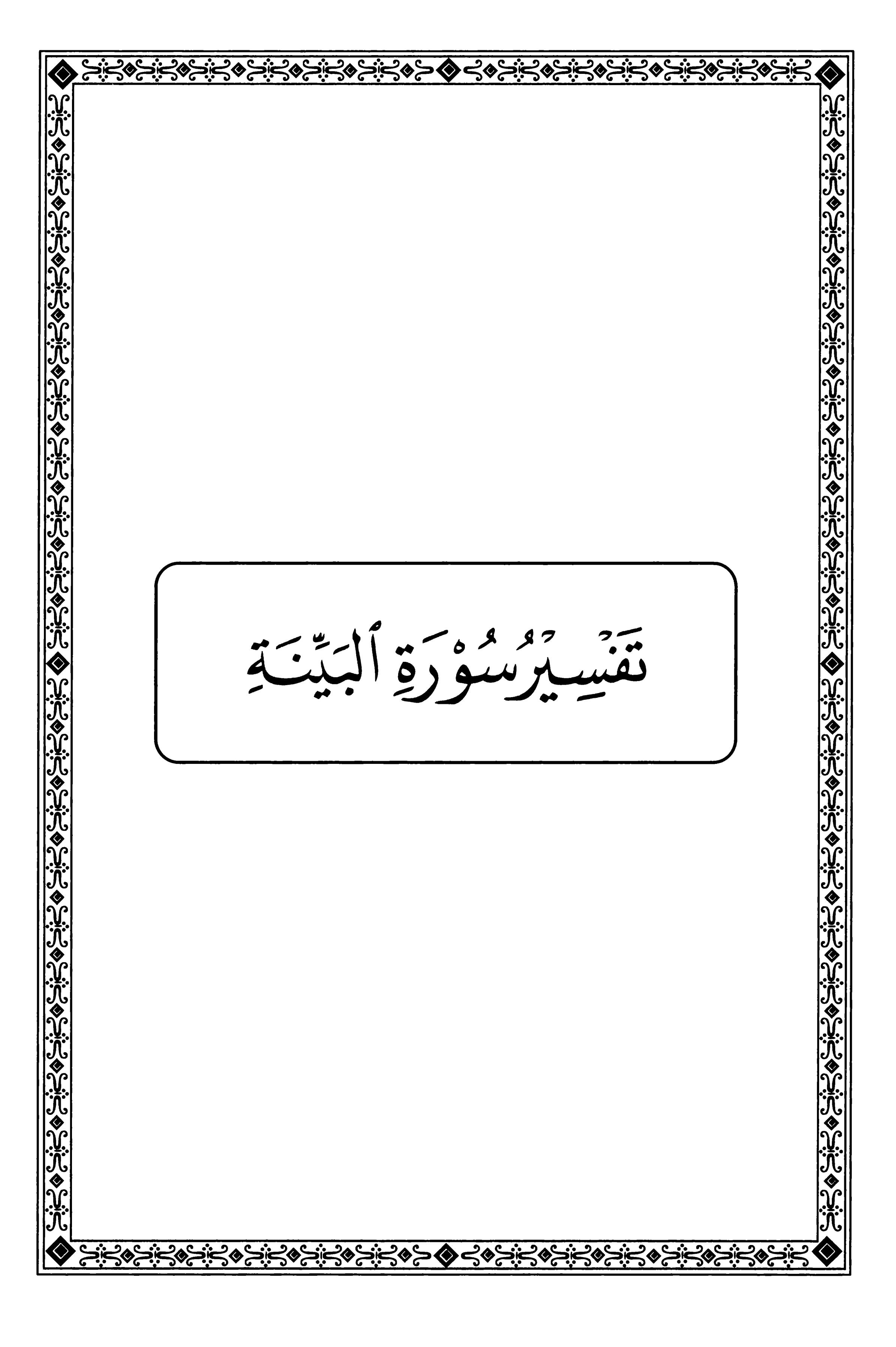
٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للملائكة عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾.

١٠- أن هذه الليلة سلام، يقدر فيها الخير والسلامة من الشرور، ومغفرة الذنوب والآثام، وكثرة السلام على المؤمنين من الملائكة ومن بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

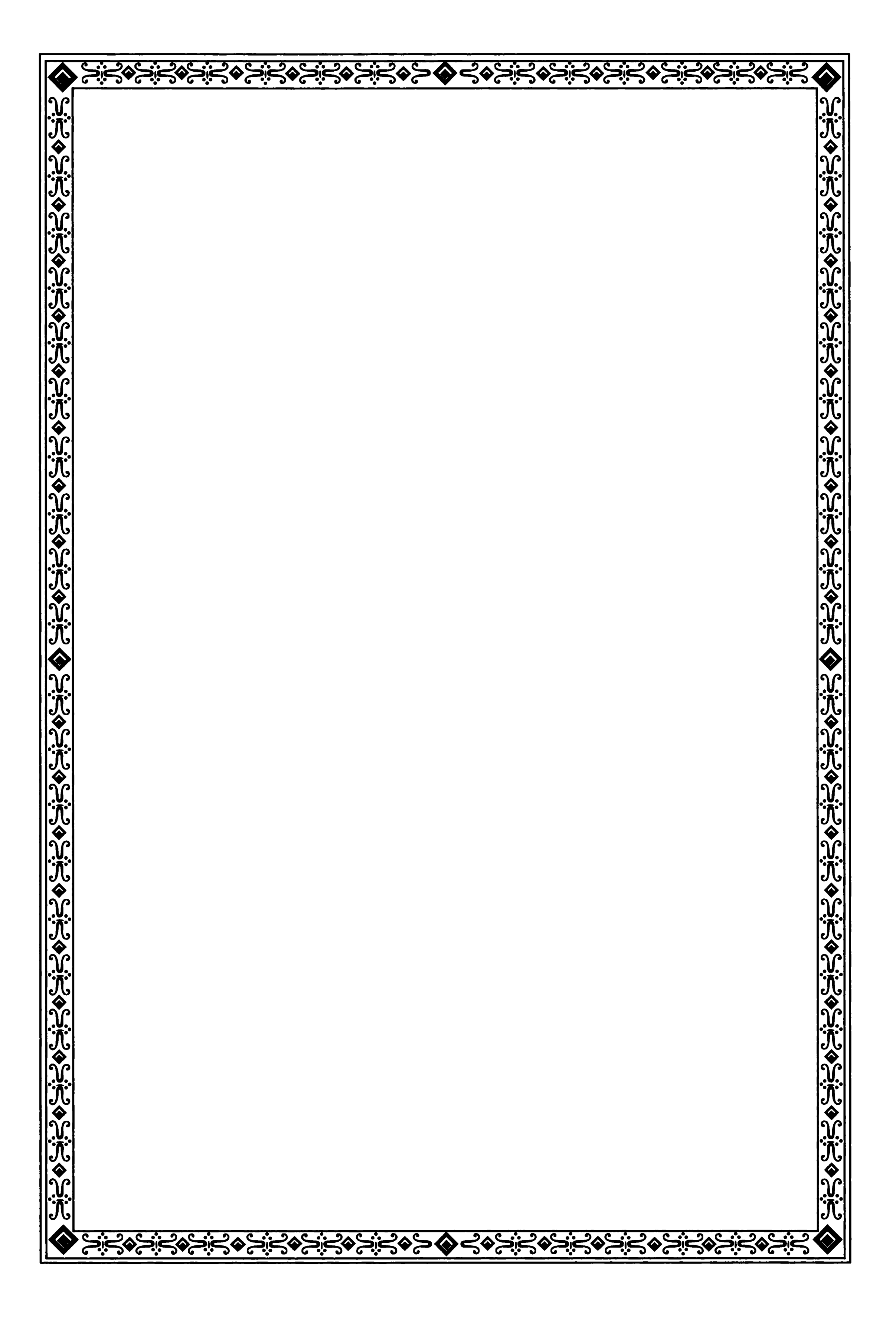
١١- أن ليلة القدر تبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

١٢- فضل الله عز وجل على هذه الأمة بإعطائهم هذه الليلة المباركة العظيمة التي تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، أي عبادة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر خالية من هذه الليلة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والمحروم من حرم خير هذه الليلة.

❊ ❊ ❊



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلبَيِّنَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البينة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة لم يكن الذين كفروا» و«سورة لم يكن»، و«سورة المنفكين»، و«سورة الانفكاك»، و«سورة القيمة»، و«سورة البرية»، و«سورة أهل الكتاب».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ-فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾»، قال: وسماني لك؟ قال: «**نعم**» **فبكى**[(١)].

وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: «**لما نزلت:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ **إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيًّا. فقال النبي ﷺ لأبي:** «**إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة**». قال أبي: وقد ذكرتُ ثم يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» قال: فبكى أبي»[(٢)].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**إن رسول الله ﷺ قال لي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾» **الحديث**[(٣)].

والمراد بقوله: «اقرأ عليك، أي: قراءة تبليغ وإسماع وتلقين لأبي بن كعب رضي الله عنه- كما دلت عليه الأحاديث السابقة. وليس المراد به أن النبي ﷺ يقرأ ليصحح له أبي بن كعب قراءته- كما قيل. وقالوا هذا من باب تواضعه ﷺ.

د- موضوعاتها:

١- توبيخ أهل الكتاب والمشركين على إصرارهم على كفرهم.

٢- بيان أن تفرق أهل الكتاب واختلافهم لم يكن عن جهل بل من بعد ما جاءتهم

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٠٩، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أبي بن كعب ٧٩٩، والترمذي في المناقب، فضل أبي بن كعب ٣٧٩٢، وأحمد ٣/ ١٣٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣، واحمده/ ١٢٣، ١٣١، ١٣٢- وقال الترمذي: «حديث حسن».

البينة بغيًا بينهم وعناداً.

٣- بيان أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده مخلصين الدين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين الملة القيمة.

٤- بيان أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم شر البرية. وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، ووعدهم بجنات عدن خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لم يكن الذين كفروا، أي: جحدوا ربوبية الله- عز وجل- وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أمر الله بالإيمان به، أو شيئًا من ذلك، أو استكبروا عن الانقياد له، أو أعرضوا عنه، أو شكوا فيه.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ «من»: بيانية فيها بيان لاسم الموصول «الذين»، فكل من أهل الكتاب والمشركين كفار؛ لأنهم كذبوا الرسول ﷺ وما جاءهم به من عند الله، بل إن أهل الكتاب كذبوا رسلهم الذين بشروا به ﷺ.

و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ هم عبدة الأوثان والأصنام.

وكل من أهل الكتاب وعبدة الأوثان والأصنام مشركون؛ لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإنما أفرد أهل الكتاب بالذكر عن المشركين؛ لأنهم أوتوا الكتاب، فإذا ذكر المشركون بالإفراد دخل معهم أهل الكتاب وعبدة الأوثان عمومًا؛ لأن الكل مشركون، وإذا قرن بينهما بالذكر فالمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى خاصة، والمراد

بالمشركين عبدة الأوثان والأصنام.

﴿مُنفَكِّينَ﴾، أي: تاركين ما هم عليه من الكفر والشرك، منتهين عن غيهم وضلالهم، ولم يكونوا أيضًا متفرقين في أمر النبي ﷺ، أو لم يكونوا متروكين على ما هم عليه بلا نذر، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، أي: إلا بعد مجيء البينة، أو حتى إقامة الحجة عليهم بإيتائهم البينة التي فيها بيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾: بدل من البينة وتفسير لها، فالبينة: رسول مرسل من عند الله عز وجل وهو محمد ﷺ.

وفي تنكير «رسول» تعظيم له ﷺ، فهو ﷺ أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو سيد ولد آدم ولا فخر، من غير غلو ولا إطراء.

﴿يَتْلُواْ﴾، أي: يقرأ: ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٤].

وصحف: جمع صحيفة، وهي الورق والألواح التي فيها القرآن الكريم.

ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، أي: مطهرة من الزيادة والنقص والتبديل والتغيير والباطل.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾، أي: في هذه الصحف المطهرة مكتوبات وأحكام.

﴿قَيِّمَةٌ﴾ فأخبارها صادقة وأحكامها مستقيمة عادلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى

هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ كان المؤمل في أهل الكتاب أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والشرك بعد إتيان البينة إليهم ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن الكريم، لكن أهل الكتاب لما جاءتهم البينة تفرقوا فآمن بعض منهم وكفر أكثرهم حسدًا منهم وبغيًا.

وكانوا يقولون للمشركين من عبدة الأصنام قبل مبعثه ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فلما بعث الله محمدًا ﷺ من العرب كفروا به وتفرقوا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟، قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة ٣٩٩١- ٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد أيضًا: من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٢٠، ١٤٥.

ونص على أهل الكتاب بالتفرق دون المشركين؛ لأن أهل الكتاب عندهم علم به لوجوده في كتبهم فتفرقهم عن عناد واستكبار وحسد فالحجة عليهم أقوم وتفرقهم وتكذيبهم أعظم.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾، أي: وما أمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، وما أمروا هم وجميع الناس في القرآن الكريم ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: إلا بعبادة الله عز وجل.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: حال كونهم في عبادتهم لله مخلصين له العبادة وحده ﴿حُنَفَآءَ﴾، أي: على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، أي: مائلين عن الشرك، معتدلين على التوحيد والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

وهذا ما دعا إليه الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وكذا فعل المباحات من الأكل والشرب والنوم والترويح عن النفس ونحو ذلك بقصد المحافظة على صحة البدن، والتقوي بذلك على طاعة الله تعالى. ولهذا قال أهل العلم: الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

أي: ويقيموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾

[التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم والتي هي حق الله عز وجل في المال.

والزكاة: في اللغة النماء والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من رذيلة البخل والشح، وتزكي نفس الفقير من الحقد والحسد لإخوانه الأغنياء، وتحميه بإذن الله عز وجل عن البحث عن المال من طرق الحرام كالسرقة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، في زمن مخصوص، لطائفة مخصوصة.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ الإشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن الكريم والأمر بعبادة الله، والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

والمعنى: وذلك دين الملة الحنيفية المستقيمة ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

ودين الأمة المعتدلة الوسط أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

بعد ما ذكر كفر أهل الكتاب والمشركين وتفرق أهل الكتاب بعد بيان الحق لهم في كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ذم الفريقين، وبين أن مصيرهم ومآلهم نار جهنم، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وسوادها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الصحيح الذي دل عليه القرآن

الكريم أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، ولا ينتهي عذابهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع بالهمز: «البريئة»، وقرأ الباقون بلا همز: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك هم شر الخليقة التي ذرأها وبرأها الباري سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- إخبار القرآن الكريم بأن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منفكين ومنتهين عما هم عليه من الكفر والشرك والضلال، أي: لا يزالون على غيهم وضلالهم حتى تأتيهم البينة؛ لقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

٢- أن أهل الكتاب كفار، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، بل لم يؤمنوا برسلهم الذين بشروا به ﷺ كما أنهم مشركون.

٣- أن ببعثته ﷺ ظهر الحق، وبان الصبح لذي عينين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ (١) رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ (٢)﴾.

٤- عظم منزلة الرسول ﷺ، وما جاء به من الوحي والشرع القويم؛ لقوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ (٢) فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ (٣)﴾.

٥- أن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى بعث النبي ﷺ فآمن بعضهم وكفر أكثرهم حسدًا منهم وبغيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

٦- لم يؤمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل ولا في القرآن هم وغيرهم من الناس إلا بعبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة- فأصول الشرائع كلها متفقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٧- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل وحده بلا شريك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن ذلك هو الدين القيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

٨- عظم منزلة التوحيد، وأنه أساس الإيمان، وعظم منزلة الصلاة فهي أهم

العبادات البدنية، وعظم منزلة الزكاة فهي أهم العبادات المالية.

٩- الوعيد الشديد للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وأن مآلهم نار جهنم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

١٠- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

١١- ذم الكفرة من أهل الكتاب والمشركين وأنهم شر الخليقة وكفى بهذا ذما؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

بعد ما ذم عز وجل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وبين أن مصيرهم نار جهنم امتدح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين ما أعد لهم من عظيم الجزاء في جنات عدن.

وهم طبقات أربع كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

وحذف الموصوف، وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه «صالحًا»، يتوفر فيه: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، أي: أولئك هم خير الخليقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم ورفعة لشأنهم، وقد أكد خيريّتهم بعدة مؤكدات: إن، وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة[(١)] استوى عليه، ألا أخبركم بالذي يليه»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يَسأل بالله فلا يُعطى به»[(٢)].

(١) هيعة: أي صوت مفزع ومخيف.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩٦.

وقد استَدل بهذه الآية من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ »[١].

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، أي: ثوابهم وأجرهم عند ربهم يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ إشارة لتكفله عز وجل لهم بذلك، وعظمة جزائهم؛ لأنه من الرب العظيم الخالق المالك المدبر الجواد الكريم سبحانه وتعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية، والجنات: هي المساكن العظيمة والمنازل العالية، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، والتي تجن وتستر من فيها لكثرة بساتينها، وأشجارها وثمارها وغرفها.

﴿عَدۡنٍ﴾ العدن: الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن نعيم أهل الجنة أن كلًا منهم لا يريد التحول عن مكانه وعما هو عليه؛ لأنه لا يرى أن أحدًا أكمل منه، ولا أن هناك مكانًا أو نعيمًا أفضل مما هو فيه، لأن الله عز وجل أذهب عنهم الحزن، وأذهب عن قلوبهم الغل، فلا يظعنون منها ولا يرتحلون، ولا يطلبون غاية فوقها.

كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقد ضمن الله عز وجل لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨﴾ [الحجر: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٦].

وهذا بخلاف حال أهل الدنيا، فإن الإنسان لا يكاد يكمل بناء بيته إلا ويرى أنه لو وضع كذا مكان كذا لكان أولى وهكذا، ولا يكاد يستقر في منزل، إلا ويرى أنه لو انتقل إلى أحسن منه، سواء رأى ذلك من تلقاء نفسه، أو زهده فيه أولاده وأهله، أو الجار، أو أهل الحي أو غير ذلك؛ لأن الله كتب النقص على الدنيا وأهلها فاقنع فيها بما تيسر، واستعد لما أمامك.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٤.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسير من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩].

وهي كما ذكر الله عز وجل ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد: ١٥].

يشربون منها ويتمتعون برؤيتها ويصرفونها حيث شاؤوا بلا أخدود، قال ابن القيم(١):

أنهارهـا في غـير أخـدود جـرت ... سـبحان ممسـكها عـن الفيضـان

من تحتهم تجري كما شاؤوا مفـ معجـ ... ـجـرة ومـا للنهـر مـن نقصـان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لا يموتون ولا يمرضون ولا يبأسون، ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بسبب إيمانهم، وأعمالهم الصالحة؛ ولهذا جازاهم خير الجزاء وأعلى ذلك وأعظمه رضاه عنهم ورؤيتهم لوجهه الكريم.

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بما أثنى به عليهم من الخيرية بين البرية، وبما أعده لهم من الجزاء العظيم في جنات النعيم، فلا تسأل عن حالهم- وقد نزلوا ضيوفًا على أكرم الأكرمين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟

---

(١) انظر «النونية» ص٢٢٩.

فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل لكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ الإشارة للثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم الذي أعده الله لهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له، أي: ذلك الثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم للذي خاف ربه مع هيبة وإجلال وتعظيم له، فاتقاه وآمن وعمل صالحًا.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فانتبه أخي لهذا، وخذ نصيبك من ربك.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٢- إثبات أن الإيمان قول وعمل واعتقاد والرد على أهل الإرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٤- ثناء الله عز وجل وامتداحه للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم خير الخليقة؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وكفى بهذا شرفًا وفخرًا لهم.

٥- عظم ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات عنده في جنات عدن من الأنهار وألوان النعيم مع الخلود الأبدي فيها، ورضى الله عنهم ورضاهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

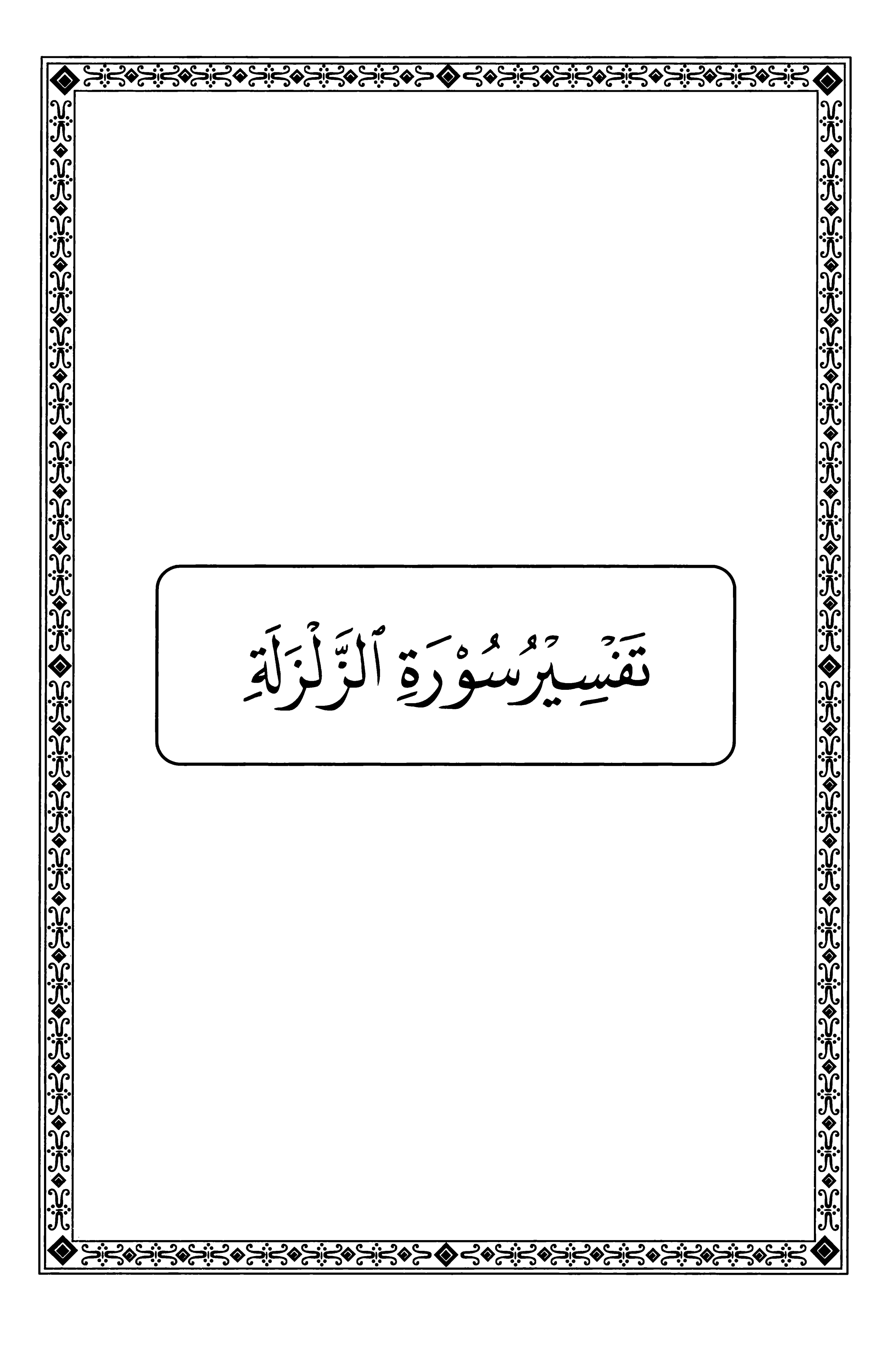
٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين أهل خشيته- عز وجل؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

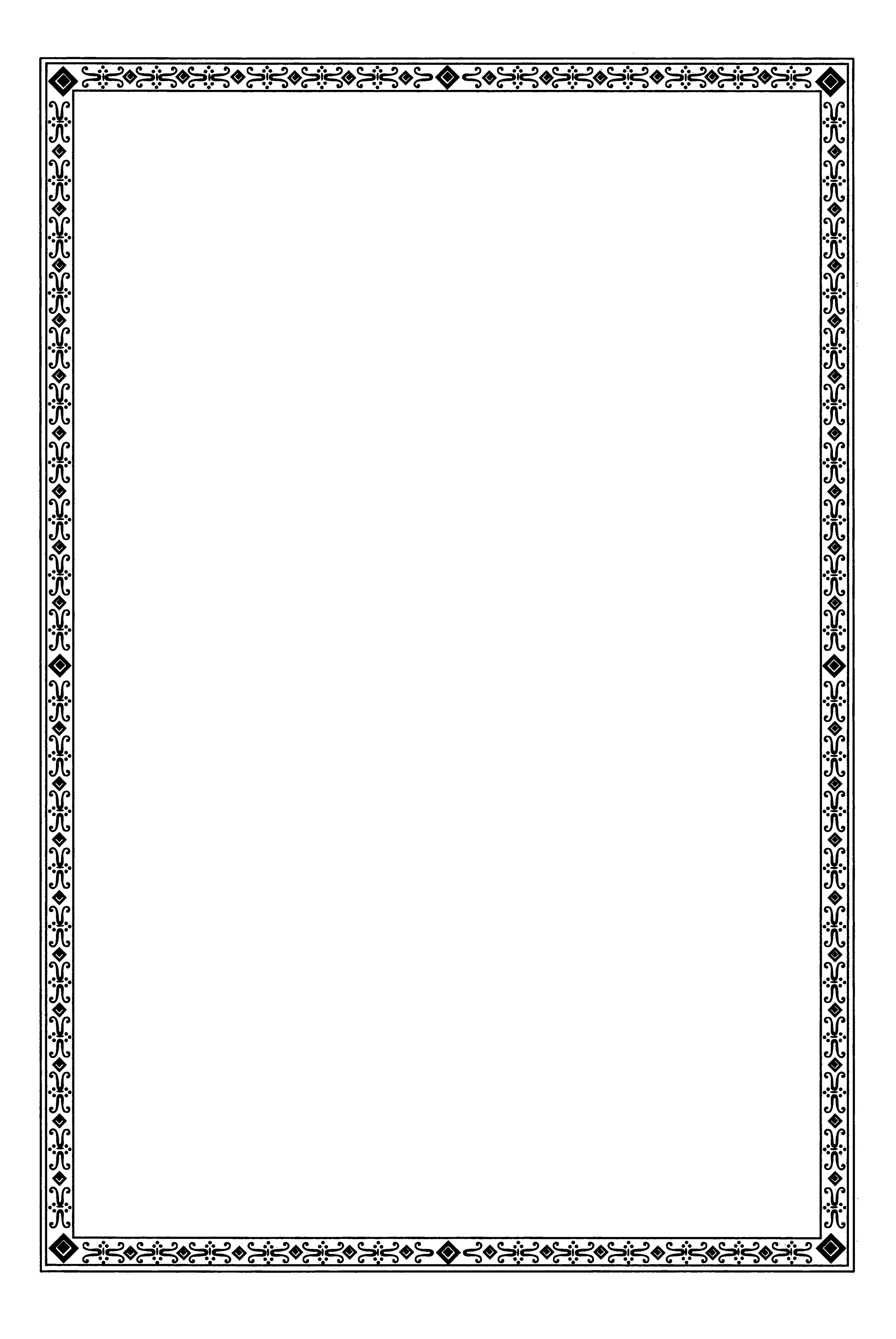
تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

٧- الترغيب في خشية الله عز وجل، وأن هذا الأجر العظيم لكل من خشي ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الزلزلة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

وتسمى: «سورة إذا زلزلت»، «وسورة إذا زلزلت الأرض»، و«سورة زلزلت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رجلًا قال: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فاقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل: والذي بعثك لا أزيد عليها أبدًا، ثم أدبر. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به. قال: «أليست معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟». قال: بلى. قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»[٢].

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة وشدة الكرب ذلك اليوم.

٢- مجازاة كل بما عمل خيراً كان أو شراً، قليلًا كان أو كثيرًا.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٩٩، وأحمد ٢/ ١٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن- ما جاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٥. وقال: «حديث حسن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا حركت الأرض واضطربت وارتجفت وارتجت.

﴿زِلْزَالَهَا﴾، أي: تحريكها واضطرابها الشديد العظيم، فاندك ما عليها من بناء وجبال حتى صارت قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي: أخرجت الأرض ما فيها من الموتى ودفائن الكنوز والأموال، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قَطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئًا»(١).

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: الكافر المنكر للبعث مستنكرًا مستغربًا، أو جنس الإنسان

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿مَا لَهَا﴾، أي: ما الذي حدث لها تزلزلت واضطربت بعد ما كانت ساكنة مستقرة ثابتة، وأخرجت ما في باطنها بعدما كان مستورا، كما قال تعالى عن منكري البعث: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: في ذلك اليوم تخبر الأرض بما عمل الناس على ظهرها من خير أو شر، وتشهد عليهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها»[(١)].

وعن ربيعة الجرشي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرًا إلا وهي مخبرة به»[(٢)].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة سمعته من رسول الله ﷺ»[(٣)].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: بأن ربك يا محمد أمرها بأن تتزلزل، وتخرج أثقالها، وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يصدرون ويرجعون من موقف الحساب.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٩، وأحمد ٢/ ٣٧٤، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٨١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان- رفع الصوت بالنداء ٦٠٩، والنسائي في الأذان ٦٤٤، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه ٧٢٣.

﴿أَشۡتَاتٗا﴾ حال، أي: مختلفين ومتفرقين تفرقًا، لا لقاء بعده، فسعيد سالك ذات اليمين إلى الجنة نسأل الله تعالى من فضله، وشقي سالك ذات الشمال إلى النار نسأل الله تعالى السلامة، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الروم: ١٤].

﴿لِّيُرَوۡاْ﴾، أي: ليريهم الله أعمالهم، فيشاهدوها؛ ليجازوا عليها.

وذلك بأن يعطى كل منهم كتاب عمله، فمنهم من يعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، فيقرأ كل منهم كتابه، فيرى أعماله، ويحاسب عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل زنة ذرة من خير، والذرة هي النملة الصغيرة، أو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

﴿يره﴾: جواب الشرط، أي: ير عمله وثوابه فيجازى بما عمل من خير، مهما قل أو كثر.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، أي: ير عمله وعقابه، فيجازى بما عمل من شر، مهما قل أو كثر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].
وهذا لعمر الله منتهى العدل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر..» الحديث- وفيه: «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر،

فقال: «ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾»(١).

وعن صعصعة بن معاوية رضي الله عنه عم الفرزدق: «أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها»(٢).

وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عمّن يشاء ممن عملوا الشر إذا كان ذلك دون الشرك بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ترغيب في عمل الخير وإن كان قليلًا، ولهذا قال ﷺ فيما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٦٠، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- اتقوا النار ولو بشق تمرة ١٤١٧، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٦، والترمذي في الأطعمة ١٦٣٣.

(٥) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٦٦، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بالقليل ١٠٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠.

(٦) أخرجه أحمد ٦/ ٧٩.

كما أن في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ تحذيرًا من عمل الشر وإن كان قليلًا.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفّاه يوم القيامة»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، ففيها تتزلزل الأرض وتضطرب وتخرج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾.

٢- استنكار الإنسان واستغرابه ما حصل للأرض من التزلزل بعد الثبات والاستقرار، وإخراج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾، يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

٣- إخبار الأرض آنذاك بأن الله أوحى لها بالتزلزل وإخراج ما فيها، والإخبار بما

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٣، وأحمد ٦/ ١٥١، والدارمي في الرقاق ٢٧٢٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢- ٤٠٣.

(٣) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٦٤.

عمل عليها من خير أو شر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

٥- صدور الناس من موقف الحساب متفرقين ليروا أعمالهم وجزاءها فسالك ذات اليمين، وسالك ذات الشمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

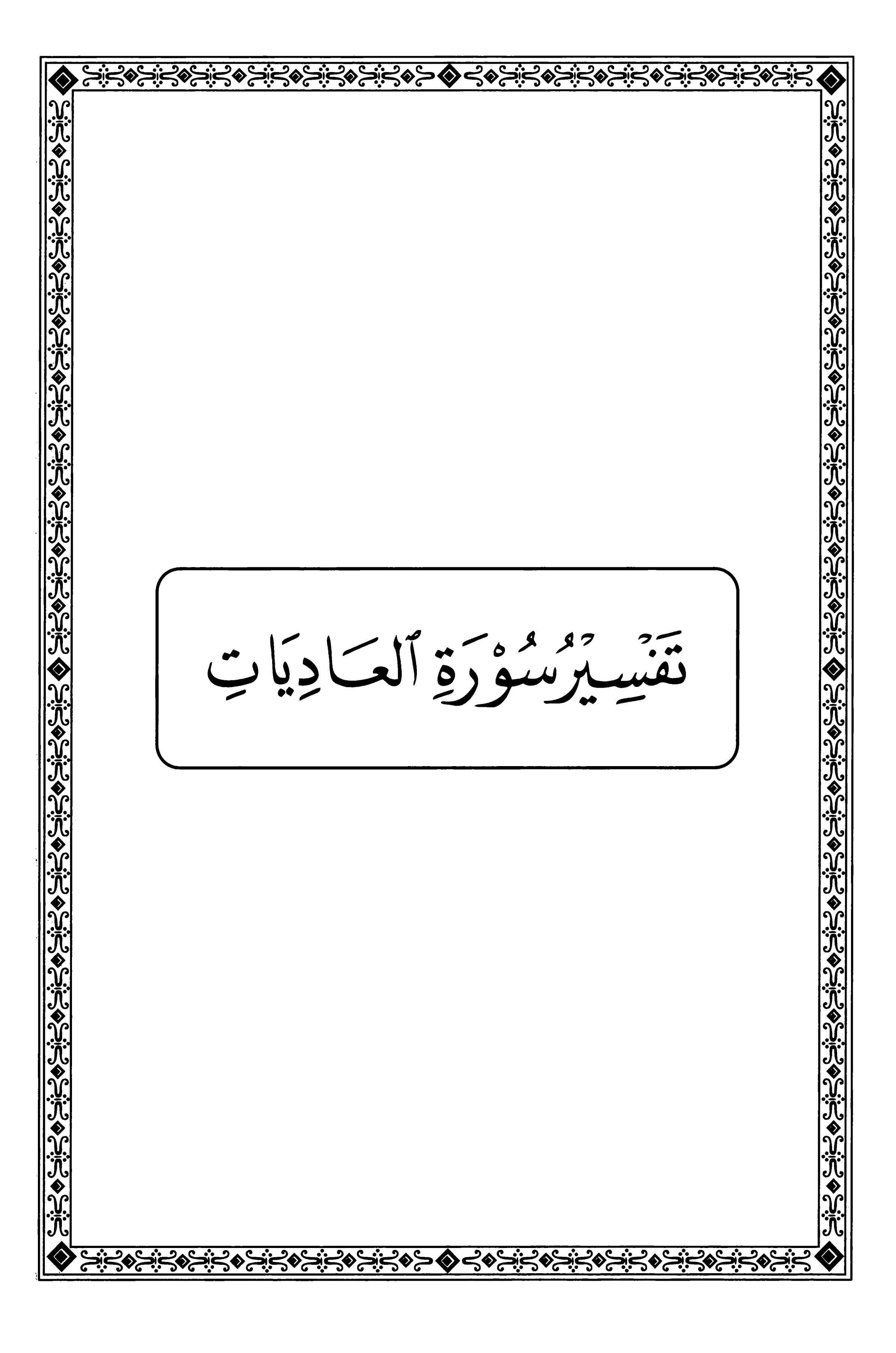
٦- محاسبة الخلائق بالعدل الحقيقي والوزن الدقيق على أعمالهم، من غير زيادة ولا نقصان وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل، فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عن من يشاء ممن عملوا الشر، إذا كان ذلك دون الشرك.

٧- إثبات الوزن لأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

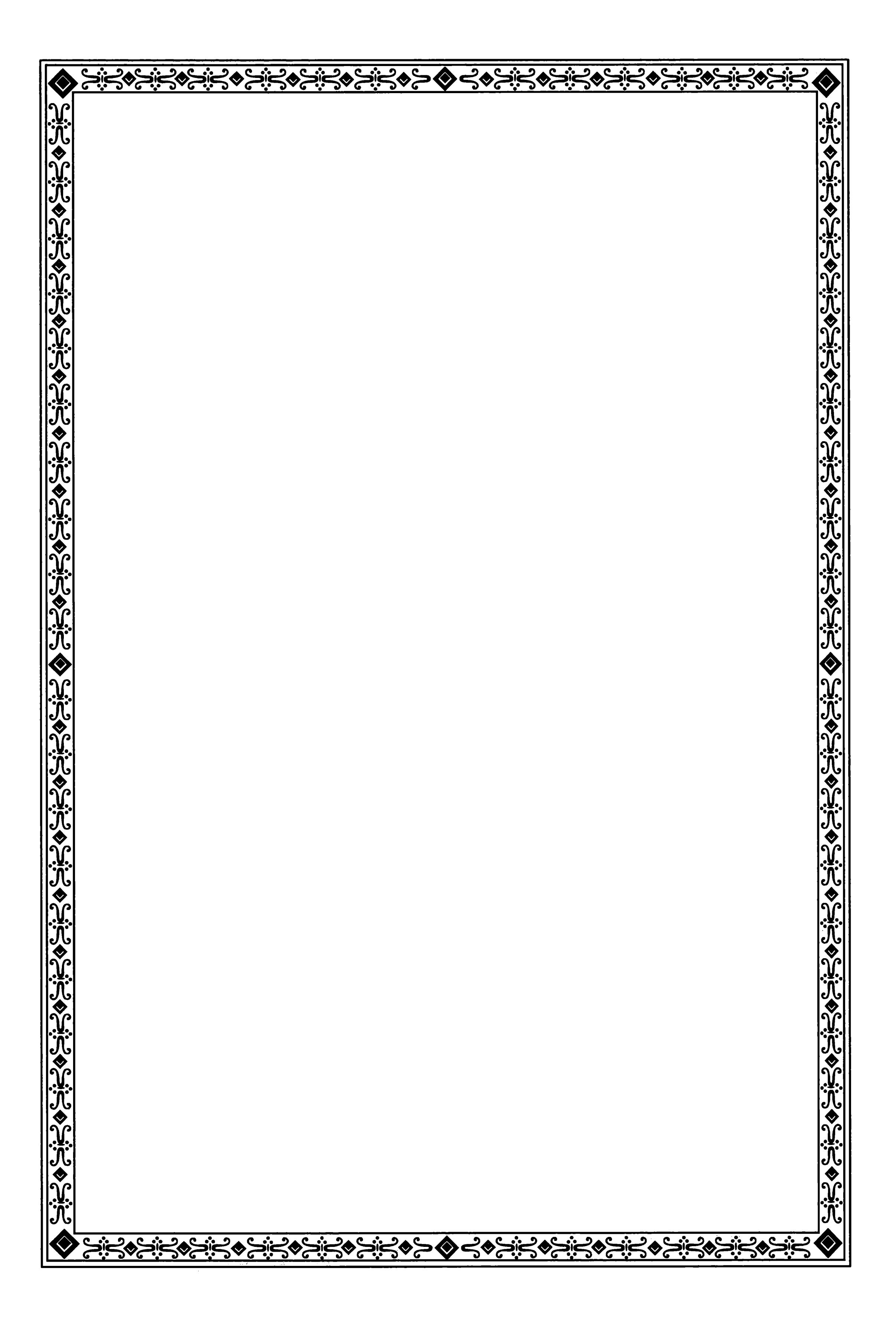
٨- وجوب محاسبة النفس محاسبة دقيقة في أداء حقوق الله، وحقوق الخلق وفي القيام فيما يتولى الإنسان من مصالح الأمة؛ لأن الحساب دقيق والناقد بصير.

٩- الحرص على فعل الخير مهما قل والبعد عن الشر مهما قل.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلعَادِيَاتِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العاديات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- فضل الجهاد في سبيل الله، ومكانة الخيل في الإسلام وأهميتها في الجهاد.

٢- كفر الإنسان بربه وجحوده لنعمه إلا من هداه الله.

٣- الترغيب بالإخلاص والعمل الصالح.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«العاديات»: مقسم به، والمراد بها الخيل تعدو في سبيل الله، والعدو: الجري السريع الشديد.

وقيل: المراد بالعاديات الإبل.

﴿ضَبْحًا﴾: منصوب على المصدرية، أي: يضبحن ضبحًا، أو على الحال، أي: ضابحات.

والضبح: صوت نفس الفرس في صدرها يسمع حين تعدو بشدة وقوة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حكاه «أَحْ، أَحْ»(١)، قال عنترة:

والخيل تكدح حين تضـ ... ـبح في حياض الموت ضبحًا

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، أي: الخيل توري النار عند قرع حوافرها على الأرض الصخرية حين تعدو في سبيل الله لصلابة حوافرها.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، أي: الخيل تغير على الأعداء وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلًا، فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب...»(٢).

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾، أي: حرَّكن وهيجن في وقت إغارتهن وفي معترك الخيول ووسط

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- ما يحقن الأذان من الدماء ٦١٠.

المعركة.

﴿نَقۡعٗا﴾، أي: غبارًا من شدة العدو والكر والفر.

﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾، أي: توسطن جميعهن بمن عليهن أرض المعركة وجموع الأعداء.

وفي إقسامه عز وجل بالخيل وهي تعدو في سبيل الله، وتضبح أصواتها، وتوري النار بقدح حوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتثير الغبار وتتوسط الجموع، في هذا كله دلالة على أهمية الجهاد في سبيل الله، وعظم مكانته في الإسلام، وعلى أن الخيل من أعظم وسائل الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طِيَلَها[(٢)] في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين[(٣)] كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورئاءً ونواءً[(٤)]، فهي على ذلك وزر». فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٣، والنسائي في الخيل ٣٥٧٥، والترمذي في الجهاد ١٦٩٤، وابن ماجه في التجارات ٢٣٠٥ من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) الطِيَل: رباط الفرس، أي: جعل رباطها طويلًا بحيث تدور وترعى فيما حولها.

(٣) قال في «النهاية» مادة «سنن»: «استن شرفًا أو شرفين»: استن الفرس يستن إستنانًا، أي: عدا لمرحه ونشاطه شوطًا أو شوطين، ولا راكب عليه».

(٤) أي: مناوأة ومعاداة.

(٥) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٧١، ومسلم في الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في =

والناظر في أحوال الناس اليوم يرى أن كثيرًا ممن يقتنون الخيول يقتنونها للرياء والمفاخرة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه.

فأقسم الله عز وجل بالخيل حين تعدو وتغير في سبيل الله على ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ اللام للتوكيد، أي: لجحود كفور، والمراد بالإنسان جنس الإنسان من حيث هو.

ومعنى الآية يحتمل الجحود والكفر المخرج من الملة، ويحتمل كفر النعم، التي قل من يشكرها، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: وإن الله عز وجل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾، أي: على ما يحصل من الإنسان من الكفر والجحود لنعم الله.

﴿لَشَهِيدٌ﴾، أي: شاهد مطلع؛ لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس: ٤٦].

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ إلى الإنسان، أي: وإن الإنسان على كفره وجحوده لشهيد يشهد على نفسه بلسان حاله، لظهور ذلك عليه في أقواله وأفعاله وعلى جوارحه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا يقوي أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعود إلى الإنسان.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: لحب المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ

=
فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: إن ترك مالًا.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: شديد المحبة للمال، حريص عليه، بخيل به ممسك له. قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويعتلي عقيلة مال الفاحش المتشدد[1]

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التحضيض.

أي: أفلا يعلم الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، أي: بعث الذي في القبور من الأموات وأخرج ونشر للحساب والجزاء.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، أي: مُيِّز وجمع الذي في الصدور من الأسرار والمكنونات، وأبرز وأظهر، خيرًا كان أو شرًا، فصار السر علانية والباطن ظاهرًا.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩].

فصار الجسم بارزًا على الأرض والسر باديًا على الوجه كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٦].

فياخيبة قلوب حصيلتها الكفر والتكذيب والنفاق، وواأسفا على قلوب مليئة بالضغائن والأحقاد، وسوء الظن والحسد للعباد.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ اللام للتوكيد، والخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها، وخفياتها، وهو عز وجل مطلع من باب أولى على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها.

وفي إضافة اسم «الرب»- عز وجل- إلى ضميرهم في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ إشارة إلى كمال وتمام خبرته عز وجل بهم؛ لأنه ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وهو سبحانه وتعالى خبير بالعباد في جميع الأوقات والأماكن والأحوال في الدنيا والآخرة، لا تخفى عليه منهم خافية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وإنما قال عز وجل في الآية ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فخص خبره بهم في ذلك اليوم- مع أنه خبير بهم في كل وقت؛ لظهور تمام وكمال خبرته عز وجل في ذلك اليوم عندما تعرض على الخلق أعمالهم، كمثاقيل الذر؛ لمجازاتهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن كفر بالله وجحد نعمه.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالخيل حال عدوها في سبيل الله، وضبحها وقدح حوافرها، وإغارتها صباحًا، وإثارتها للغبار وسط المعركة- ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

٢- عظم مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل الخيل وأهميتها في الجهاد.

٣- استحباب الإغارة على الأعداء في الجهاد صباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾.

٥- جحود الإنسان وكفره بربه وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

٦- وجوب الإيمان بالله، والاعتراف بنعمه- عز وجل- وشكرها والحذر من جحودها وكفرها.

٧- أن الإنسان شهيد بلسان مقاله أو حاله على كفره بربه وجحوده لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، والله مطلع عليه وهو خير الشاهدين.

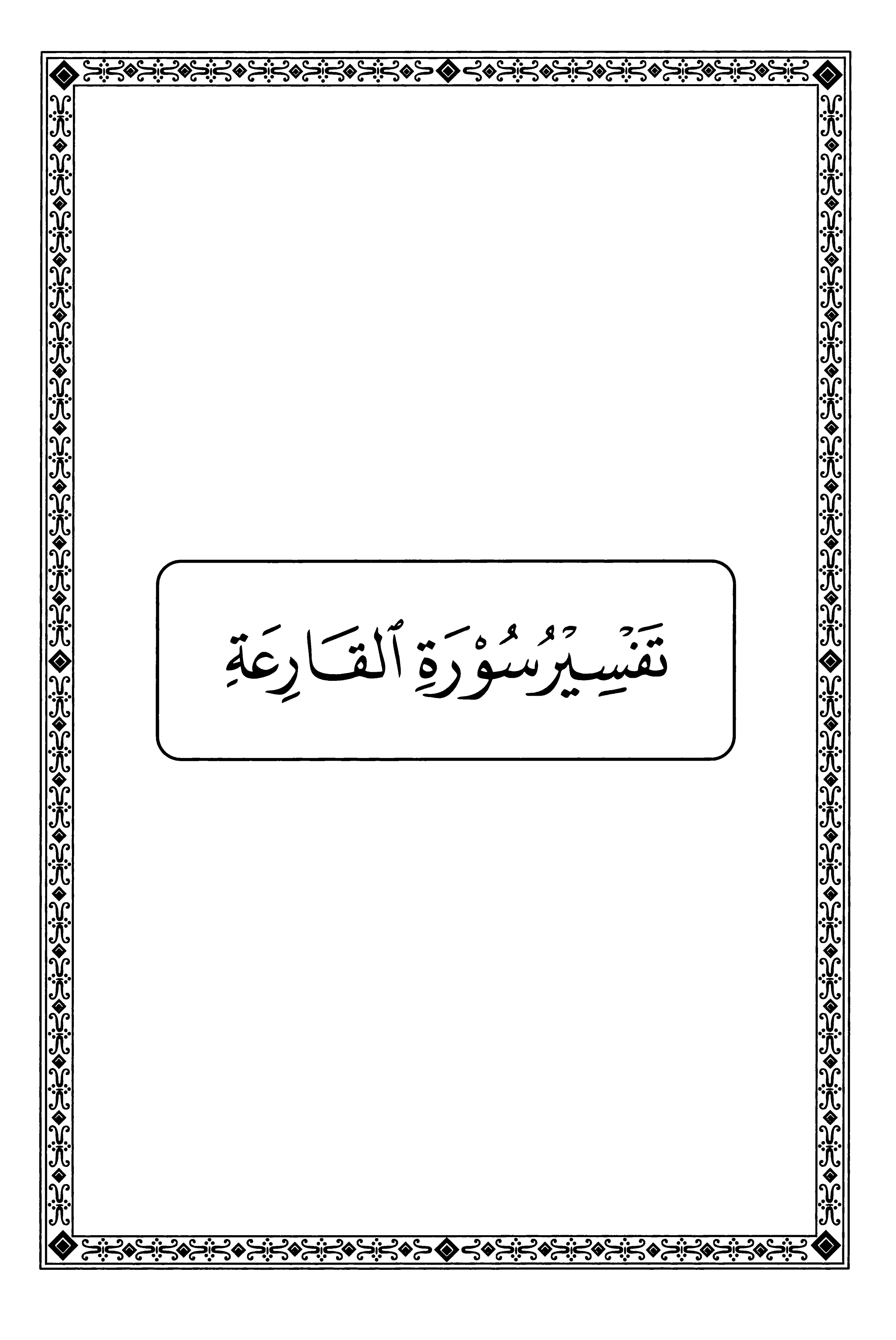
٨- أن الإنسان مجبول على حب المال، فينبغي الحذر من الانسياق وراءه ونسيان الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

٩- إثبات البعث والحساب وإخراج ما في القبور من الأموات والكنوز، وما في الصدور من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

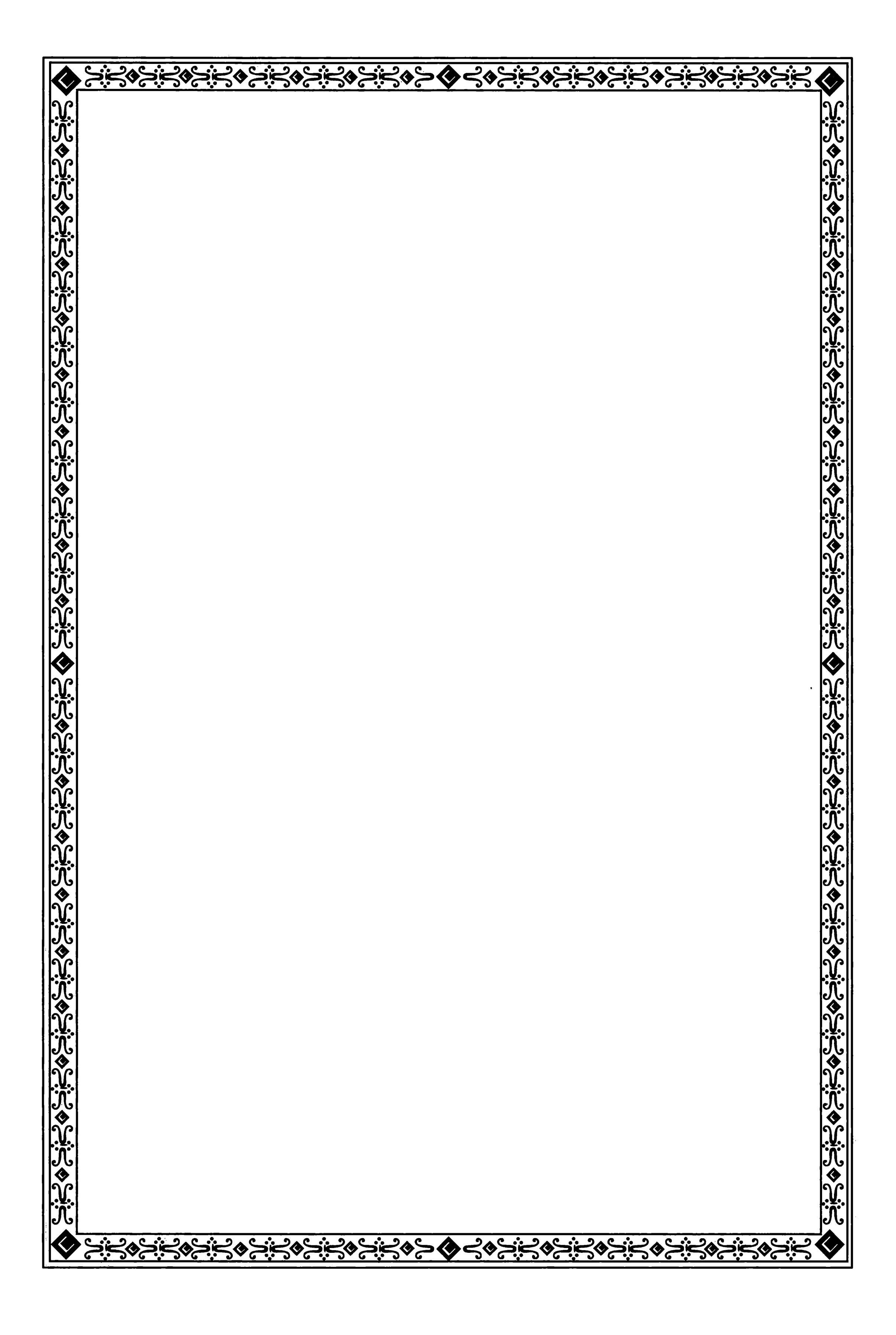
١٠- وجوب العمل على إصلاح القلوب، وسلامة الصدور، قبل أن تفتضح بإظهار ما فيها من الفساد، وسوء الاعتقاد، والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١١- ظهور كمال علم الله عز وجل ودقيق خبرته للخلائق إذا أخرج ما في القبور من الأموات والدفائن، وجمع وأظهر ما في الصدور من المعتقدات والمكنونات والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

❊ ❊ ❊



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡقَارِعَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القارعة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة وشدتها.

٢- وعد من ثقلت موازينه بالعيشة الراضية، ووعيد من خفت موازينه بالنار الحامية.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أي: القيامة، وسميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وتفزع الناس وتزعجهم بشدائدها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ «ما» للاستفهام، ومعناه: التعظيم والتفخيم لأمرها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: تعظيم لأمرها بعد تعظيم، أي: وما أعلمك ما القارعة، أمرها عظيم، وهولها جسيم، وعذابها شديد، وخبرها أكيد.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ هذا وما بعده تفسير للقارعة، فيه بيان شيء من أهوالها وأحوالها، أي: يوم يكون الناس من شدة الهول والفزع والتفرق والانتشار والحيرة والذهول.

﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ الفراش: جمع فراشة، وهي الحيوانات الصغيرة الطائرة، التي يموج بعضها في بعض، لا تدري أين تذهب، وتتهافت في الليل على الأنوار والمصابيح وعلى النار؛ لضعف إدراكها. وسميت بالفراش؛ لافتراشها وانتشارها.

﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾: المتفرق المنتشر، والذي يتطاير هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧].

فتأمل أخي المسلم حال الناس في ذلك الموقف الرهيب، وحيرتهم وذهولهم، وهم أهل العقول والأذهان وتأمل حالك بينهم.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، أي: وتكون الجبال الصم الصلاب الراسيات كالصوف المنفوش المبعثر الذي لخفته وتمزقه تطير به أدنى ريح، فالجبال في

ذلك اليوم في سرعة سيرها وخفتها وتفتتها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ الآيات.

بعد أن ذكر عز وجل بعض أهوال القيامة، وحال الناس فيها، ذكر انقسام الناس فيها إلى قسمين حسب أعمالهم:

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي ثقلت موازين أعماله الصالحة ورجحت حسناته على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: في عيشة كريمة في الجنة يرضاها لنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فرجحت سيئاته على حسناته، بأن طاشت موازين أعماله الصالحة، فرجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات أصلًا كالكافر.

﴿فَأُمُّهُۥ﴾، أي: فمرجعه ومصيره ومأواه الذي يأوي إليه لا مأوى له سواه.

﴿هَاوِيَةٌ﴾، أي: نار عمقها شديد، وقعرها بعيد، يهوي المعذب فيها على أم رأسه في دركاتها لا يكاد يدرك قعرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا»؟، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها»(١).

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٤.

المشرق والمغرب»[١].

وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفًا في النار»[٢].

وعن الأشعث بن عبد الله الأعمى، قال: «إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوِّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه، ما فعل فلان؟، فيقول: مات، أوما جاءكم؟، فيقولون: ذهبوا به إلى أمه الهاوية»[٣].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾: تعظيم لأمرها وهولها وخطرها، أي: وما أعلمك ما هي والهاء: للسكت.

﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾، أي: هي نار شديدة الحرارة لقوة لهبها وسعيرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟، فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فائذن لي بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»[٥].

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، وأنها تقرع القلوب بأهوالها، وأن أمرها عظيم وخطبها

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٠، وأحمد ٢/ ٢٩٧، ٣٣٤، ٣٥٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي «حسن غريب».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة- شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤، ٤٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في الباب السابق ٣٢٦٠، ومسلم في المساجد ٦١٧، وأبو داود في الصلاة ٤٠٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٢، وابن ماجه في الصلاة ٦٧٨.

جسيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

٢- اضطراب الناس في ذلك اليوم وتفرقهم وحيرتهم لما يشاهدون من أهوال القيامة، وخوفًا من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

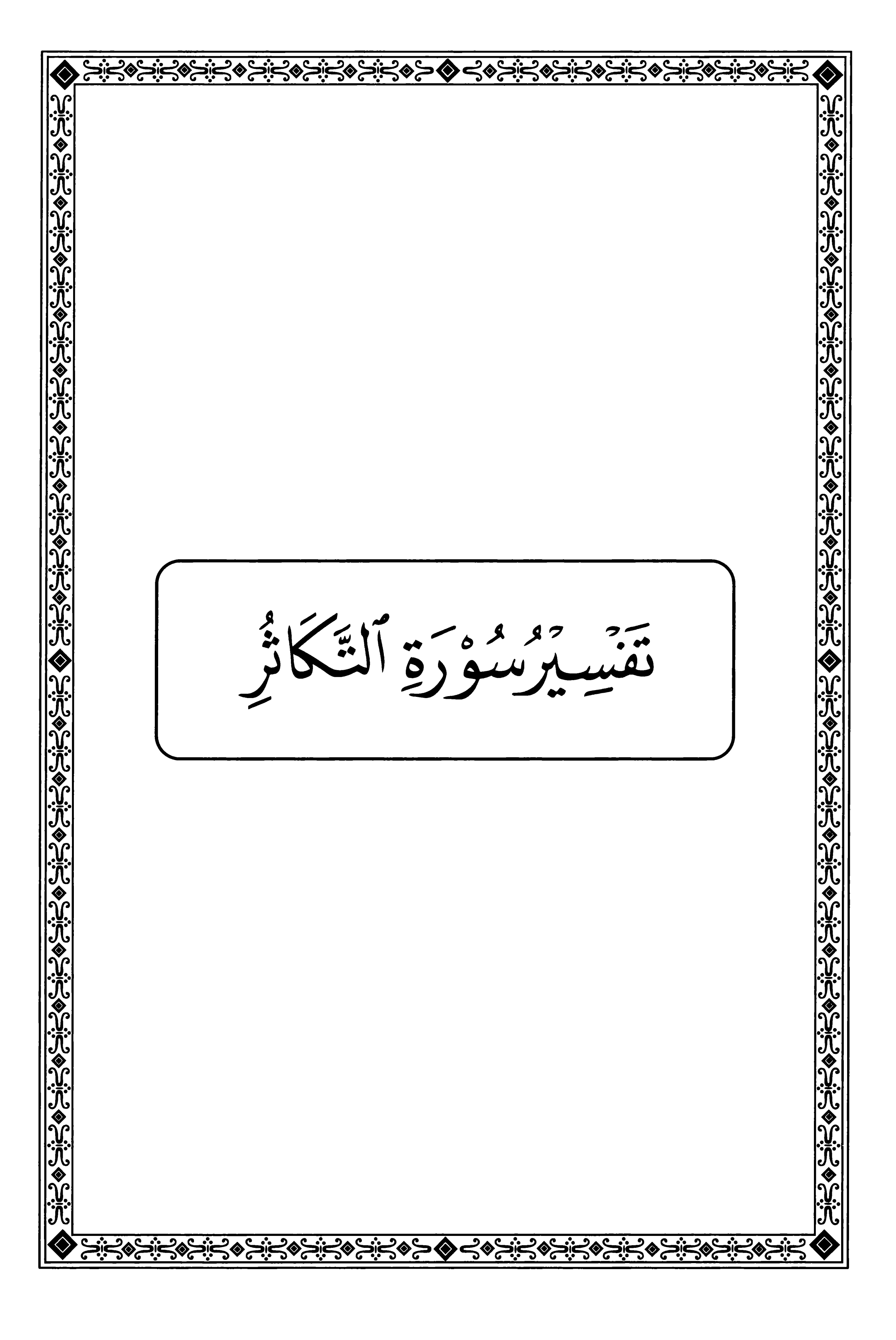
٣- تغير أحوال الجبال الراسيات مع عظمتها من أهوال ذلك اليوم، وكونها في الخفة كالصوف المنفوش تمهيدًا لدكها ونسفها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق ثقلت موازين حسناتهم فهم في عيشة راضية في الجنة، وفريق خفت موازين حسناتهم فمآلهم النار الحامية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

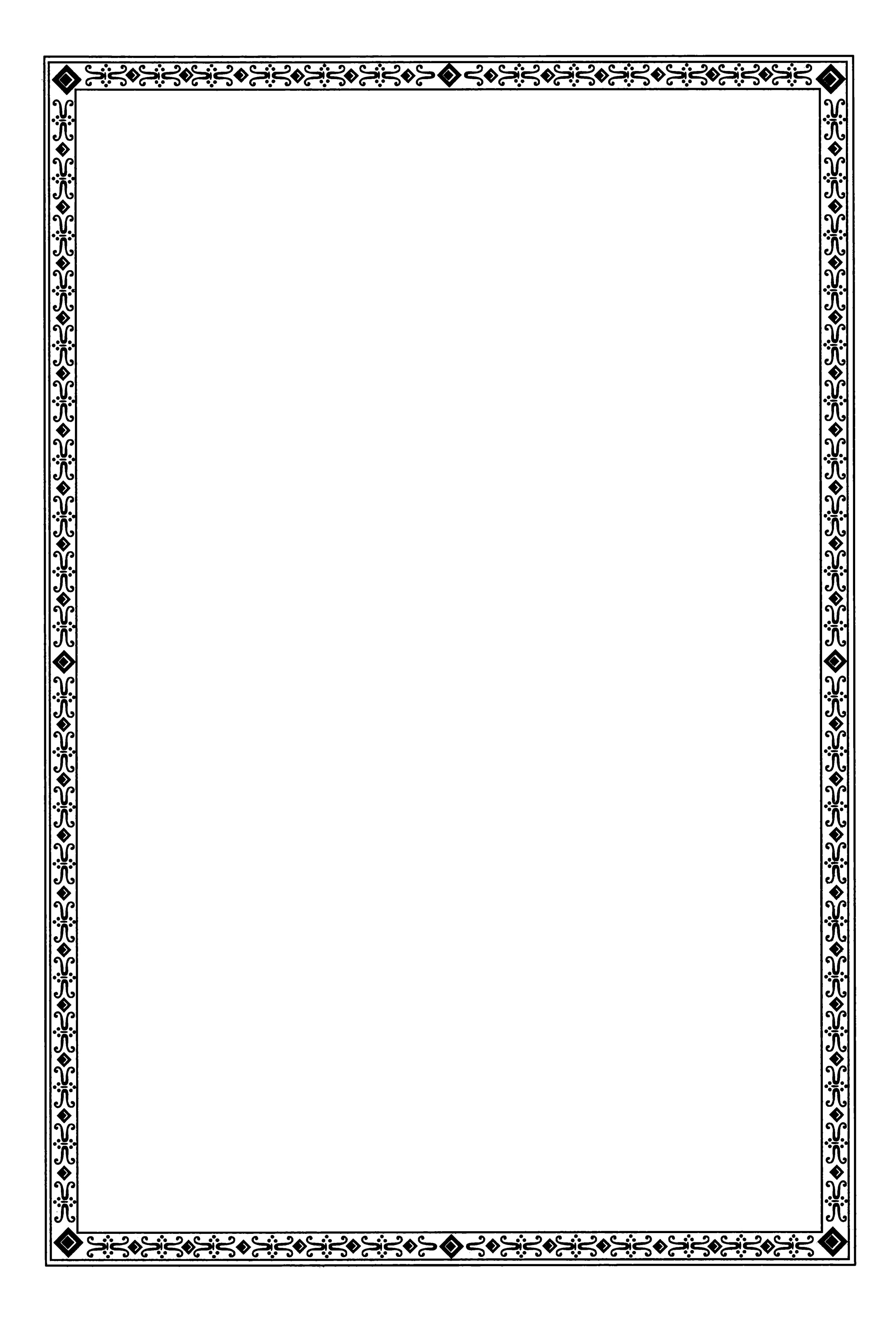
٥- إثبات وزن الأعمال، والعدل بين الناس في حسابهم ومجازاتهم على قدر أعمالهم.

٦- الترغيب في الاستزادة من الحسنات، والترهيب من كثرة السيئات.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّكَاثُرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكاثر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

وتسمى: «سورة ألهاكم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- التحذير من التكاثر بالأموال والأولاد وغير ذلك من أمور الدنيا والتهديد والوعيد لمن التهى بذلك عن العمل الصالح.

٢- تأكيد رؤية النار يوم القيامة، والمساءلة والحساب.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قال ابن القيم[1]: «أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها».

قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف من جميع الناس فكل من ألهاه التكاثر من المسلمين وغيرهم فهو داخل تحت هذا الخطاب.

أي: شغلكم وأذهلكم التكاثر عن طاعة الله عز وجل وعبادته، وعن المقصود من خلقكم، وهو عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، أي: ألهاكم مكاثرة بعضكم لبعض، أي: طلب كل واحد منكم أن يكون أكثر من الآخر بالمال والولد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وحذف متعلق التكاثر؛ ليشمل كل ما يُتكاثر به سوى طاعة الله تعالى من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والعدد والعدة والعتاد وغير ذلك، كما قال تعالى عن صاحب الجنة أنه قال لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

قال ابن القيم[1]: «فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومنافسة إليها».

وإذا كانت المكاثرة فيما يتقرب به إلى الله تعالى كالعلم ونحوه لأجل المكاثرة نفسها

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٧- ٣٠٨.

والرياء والسمعة والمفاخرة فإن هذا أشد خطرًا وأعظم ضررًا.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، أي: إلى غاية أن متم ودفنتم في المقابر، وكلما شاب الإنسان ازداد حبه للمال والمكاثرة به.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال: قلت: طهور؟، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: «فنعم إذًا»[١].

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يشيب ابن آدم وتبقى معه اثنتان: حب الدنيا، وطول الأمل»[٤].

وفي حديث أنس «ويبقى معه اثنتان حب المال، وطول العمر»[٥].

وفي رواية: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»[٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٧٠، وأحمد ٣/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ ٣٣٥٤، وأحمد ٤/ ٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٩، وأحمد ٢/ ٣٦٨، ٤١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٤٧، والترمذي في الزهد ٢٣٣٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٤.

(٦) أخرجها أحمد ٣/ ١١٥.

عمله»[١].

وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: «كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن «لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» حتى نزلت هذه السورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها»[٢].

وعن ميمون بن مهران قال: «كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، أي: من جنة أو نار».

ورُويَ أن بعض الأعراب سمع رجلًا يتلو هذه الآية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: «بُعث القوم ورب الكعبة، أي: أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره»[٣].

فالمكث في القبور وإن طال هو مجرد زيارة، والمصير والمآل إلى دار القرار، إما في الجنة، وإما في النار.

وبهذا يعلم خطأ ما يكتب في الصحف والجرائد والمجلات وغيرها عن المتوفى من قولهم «انتقل إلى مثواه الأخير» فإن المكث في القبور مجرد زيارة وإنما المثوى الأخير في الآخرة إما في الجنة وإما في النار.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ردع وزجر ووعيد وتهديد، وإنذار وتخويف، أي: كلا سوف تعلمون في المستقبل.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: توكيد للردع والوعيد، كقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [الآيتان: ٤، ٥].

أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم، وأن التكاثر لا ينفعكم.

وقيل: ليس هذا من التأكيد، بل العلم الأول في القبر، والثاني في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٩.

(٣) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٥٩- ٣٥٦٠.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة والثاني عند البعث.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر.

واستدل ابن القيم لصحة هذا القول من عدة أوجه قال[1]: «أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العِلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين، زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا يقينًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده، من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى، وتراخي الثانية عنها».

والآية محتملة كل ما ذكر والله أعلم.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر والتهديد.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، أي: لو تعلمون علم اليقين في الحال.

أي: العلم اليقيني الذي يحملكم على العمل، ولا يتخلف موجبه غالبًا، فلو علمتم ذلك علمًا يقينيًا لما ألهاكم شيء عن موجبه، وهو تقديم طاعة الله تعالى على كل شيء، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر[2]:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٩- ٣١٢.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٦٦٤، «السيرة النبوية» لابن كثير ٢/ ٤٥٤، «البداية والنهاية» ٣/ ٣٦٠.

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لترون الجحيم قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء: «لترُون»، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذا تفسير للوعيد المتقدم في قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وأبهم المتوعد به أولًا وكرره، ثم أظهره هنا تفخيمًا وتعظيمًا للأمر، وتغليظًا في التهديد والوعيد، وزيادة في التهويل.

واللام في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾: لام قسم محذوف، لتوكيد الوعيد، والتقدير: والله لترون الجحيم، أي: لتشاهدنها بأبصاركم.

قال ابن تيمية[1] : «والخبر محذوف، أي: لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمرًا عظيمًا، ولألهاكم عن إلهكم، فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[2]».

وحذف جواب «لو» كثير في القرآن تعظيمًا وتفخيمًا، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ، إذ المخبر ليس كالمعاين».

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، أي: نفس اليقين، معاينة بعيونكم، ومشاهدة بأبصاركم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها...» الحديث[3].

فعلم اليقين يدل عليه الدليل الصحيح المتواتر، وعين اليقين: الرؤية بالعين، وليس

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٢١، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٧٣.

الخبر كالمعاينة- كما قال ﷺ(١).

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهو- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- عنده العلم اليقيني بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

لكنه أراد زيادة اليقين والاطمئنان القلبي باجتماع عين اليقين إلى علم اليقين.

ولهذا قال نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»(٢).

يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يشك ولو شك لكنا أولى بالشك منه.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ثم: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، والتقدير: ثم والله لتسألن.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، بعد زيارتكم المقابر، والخطاب لجميع الناس، فالمؤمن يسأل سؤال تذكير، والكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع.

﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن كل ما أنعم الله به عليكم، مما تتنعمون به في هذه الدنيا من اللذات ورغد وطيب العيش ولينه، من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب والفرش والملابس، ومن الأمن في الأوطان والصحة في الأبدان.

كما قال ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(٣).

يُسألون عن كل ما هم فيه من النعيم، من أين اكتسبوه، وفيم صرفوه وبذلوه، وهل شكروا الله تعالى عليه، واستعانوا به على طاعته أم جحدوه وكفروه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع، يا رسول

---

(١) أخرجه أحمد ١ / ٢١٥، ٢٧١- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٢، ومسلم في الإيمان ١٥١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١- من حديث سلمة بن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه وقال الترمذي «حسن غريب».

الله، قال: «والذي نفسي بيده، لا أخرجني إلا الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟، قالت: ذهب يستعذب لنا ماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(٣).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: «لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟، قال أما إنه سيكون»(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، وقال: «إنما هو الأسودان، وسيوفنا على عواتقنا، فقال: «إن ذلك سيكون»(٥).

أي: إن النعيم سيكون ويحدث لكم، أو إن السؤال يقع على ذلك، وإن كان تمرًا

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٣٨ وابن ماجه في الذبائح ٣١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٦. وأخرج الترمذي أيضًا نحوه من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠، وأحمد ١/ ٢٥٨، ٣٤٤.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٦ وقال «حديث غريب».

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٧.

وماءً، فإنه من النعيم.

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص واعلم أن الله عز وجل لم يكلفنا شططا، بل أمرنا بالتوسط في فقاتنا؛ وفي جميع أحوالنا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة»[(١)].

واعلم أيضًا: أن الدنيا والآخرة أشبه بالضرتين فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى لا محالة وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[(٢)].

والمراد بالهلاك في قوله ﷺ: «فتهلككم» الهلاك الحقيقي، وهو نسيان لقاء الله تعالى والدار الآخرة، وهو الخسارة الكبرى، والمصيبة العظمى، وذلك؛ لعظم فتنة المال، فهو سبب للإخلال بالواجبات، والتي من أعظمها الصلاة فيحمل على الانشغال عنها وتأخيرها ونسيانها، وعدم حضور القلب، فيها كما يحمل صاحبه على التكبر والطغيان كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد يحمل صاحبه على الجرأة على التعامل المحرم، ومنع الواجب، إضافة إلى ما يسببه من صدمات وأمراض نفسية وبدنية وفقدان للسعادة، فإن صاحب المال في تعب في النهار، وقلق وتفكير في الليل. فالانهماك في طلب المال والدنيا سبب للتقصير في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في اللباس ٣٦٠٥، وأحمد ٢/ ١٨١- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وذكره البخاري معلقًا في اللباس- باب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ انظر «فتح الباري» ١٠/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

حقوق الخالق وفي حقوق الخلق، والشقاء في الدنيا والآخرة.

واعلم أن للتكاثر صورًا كثيرة منها بل من أعظمها وأظهرها:

أن يسعى الإنسان جاهدًا؛ ليكون أكثر من غيره وأفضل في ماله وولده ومنصبه وجاهه ومسكنه ومركبه وغير ذلك من أمور الدنيا مباهاة ومفاخرة، ومنافسة في زخرف الدنيا وحطامها الفاني.

ومنها: أن يكون هم الإنسان وشغله الشاغل وتفكيره في يقظته ومنامه زيادة رصيده في البنك، فتراه يلهث طول يومه لتحقيق ذلك بشتى الوسائل، وربما وقع في المتشابه أو المحرم من أجل ذلك، ومن تأمل أحوال الناس رأى هذا عيانًا.

ومنها: أن يكون همّ الإنسان التمتع بأكبر قدر من متع الدنيا ولذائذها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك- كأنه خلق لهذا- فتجده يسعى جاهدًا في اختيار أنواع الأكلات، والتفنن في أشكال الطبخات والمشويات ونحو ذلك. نظرية من يعيش ليأكل، لا من يأكل ليعيش.

وقد قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه»[1].

قال أبو الفتح البستي[2]:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... لتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وتجد من هذا همه ومبلغ علمه يسعى جاهدًا في تشييد المباني وزخرفتها في هذا العمر الزهيد، وكأنه سيخلد في الدنيا، أو سيعمر فيها عمر نوح عليه السلام.

وتجده يسعى دائمًا لتأمين الكماليات، ومتابعة الموديلات والموضات في السيارات والملابس والأثاث وغير ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩- من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٣٦.

وقد نام ﷺ على حصير فأثر في جنبه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له أصحابه رضي الله عنهم: لو اتخذنا لك وطاءً فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وتجد أيضًا من كان هذا همه مشغوفًا بالأسفار والتنقلات وتزجية أوقات العمر هنا وهناك، بل ربما سافر إلى بلاد الكفار، ترويحًا عن النفس كما يقولون، وبحثًا عن السعادة كما يزعمون.

فإهدار للأموال، وتضييع للأعمار، وتعرض للأخطار، واقتراف للأوزار- نسأل الله تعالى إصلاح الأحوال.

فكن أخي الكريم من الدنيا على وجل، واعبرها ولا تعمرها عمارة المقيم، وتوازن في جميع أمورك وأحوالك، واحرص على حفظ وقتك، وساعات عمرك، واستعد لما أمامك، واعلم أن السعادة كل السعادة في طاعة الله تعالى، ولا تنس نصيبك من الدنيا، قال الله عز وجل ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

واعلم بارك الله فيك أنك لا تلام على كفاف، كما قال ﷺ(٢).

فخذ نصيبك من الدنيا زادًا وبلغة، وكن خائفًا من فتنتها أشد من خوفك من الفقر، عسى أن تسلم من فتنتها وما إخالك سالما.

واحرص على شكر نعم الله عز وجل باستعمالها في طاعته ومرضاته والاعتراف له بها ظاهرًا وباطنًا، وعدم الإسراف والمباهاة والمفاخرة فيها، فإن الفضل لله عز وجل ولا يجوز تقليد الآخرين، ومجاراتهم في البذخ والإسراف في الولائم، بل ولا في الحياة اليومية إرضاءً للسفهاء، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس كما جاء في الحديث(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٣٦ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

والعجيب أن بعض الناس إذا قدّم الطعام لضيوفه قال لهم معتذرًا: هذا ليس حقكم، أو ليس قدركم، ونحو ذلك، بمعنى: أن حقكم علينا أكبر من هذا، وهذا لا يجوز لما فيه من ازدراء النعمة وانتقاصها، بل ينبغي أن يقدم لهم ما تيسر، ويحمد الله على ذلك.

واحذر أخي الكريم من إهانة النعم، واقتصد فيها، واعلم أن هناك الملايين من المسلمين يموتون جوعًا، وهم في أمس الحاجة إلى الطعام وغيره من متطلبات الحياة، فتصدق عليهم بما زاد عندك، وخذ نفسك وأهلك بالمحاسبة، ومعرفة قدر نعم الله عليك، واعلم أن الفخر كل الفخر، والكرم كل الكرم بتقوى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

واحرص على الحفاظ على ما يتبقى من فضول الطعام وغيره واحترامه بإعطائه المحتاجين أو الجهات الخيرية التي توصله إليهم، فإن كان باقي الطعام لا يصلح للإنسان أكله فليعط للحيوانات والطيور، فإن لم يمكن ذلك، فليوضع في مكان نظيف تأكله السباع والهوام وغيرها.

ولنحذر جميعًا من وضعه في صناديق الزبالة مع القذر والأذى، فإن ذلك سبب للعقوبة العاجلة والآجلة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالنعم صيد والشكر قيد، والنعم إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فرّت، قال علي رضي الله عنه(١):

إذا كنت في نعمة فارعها	فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بتقوى الإله	فإن الإله سريع النقم

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من التكاثر والمباهاة والمفاخرة بالأموال والأولاد وغير ذلك، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد للدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

(١) انظر «ديوانه» ص١٧٥- ١٧٦ جمع نعيم زرزوره. وقد نسبا لأبي العتاهية. انظر: «الدر الفريد» ٢/ ٣٩٥.

٢- أن من حصلت عنده الكثرة من غير مكاثرة ولم تشغله عن طاعة الله تعالى، بل استعان بها على ذلك فليس داخلًا في الذم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثم رتب عليه ما رتب من الوعيد.

وقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم من أكثر الناس مالًا، وما ضرهم ذلك لما جعلوا المال مطية للآخرة، فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة: ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، حتى قال النبي ﷺ فيه: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم»[(١)].

وقد قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[(٢)].

٣- الإشارة إلى حقارة الدنيا وما فيها من الملذات على اختلاف أشكالها، وأن الاشتغال بالمكاثرة بذلك من اللهو واللعب، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

٤- الإشارة إلى أن الاقتصاد والتوسط في الأمور والأحوال الدنيوية هو الأصل وهو الأولى؛ لأن الخروج عن ذلك قد يؤدي بالإنسان إلى ما لا ينبغي من المكاثرة ونحو ذلك.

٥- أن المكاثرة بما يعود على الإنسان بالنفع في دينه وآخرته ليست من التكاثر المذموم بل من المسابقة والمسارعة إلى الخيرات والمنافسة فيها، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد تسابق أبو بكر الصديق والفاروق- رضي الله عنهما لما دعا النبي ﷺ إلى الصدقة، فجاء عمر بنصف ماله وظن أنه يسبق أبا بكر، وإذا أبو بكر قد جاء بكل

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠١- من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢.

ماله- رضي الله عنهما، فقال عمر: «والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا»[١].

٦- إعجاز القرآن الغيبي حيث أخبر بهذا الخطاب العام للناس بأنه ألهاهم التكاثر وهذا هو الواقع فعلًا في السابق واللاحق، إلا من رحم الله، وفي هذا الإشارة إلى عدم الاغترار بما عليه كثير من الناس من التكاثر وغيره، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٧- إثبات القبر وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾.

٨- إثبات البعث بعد الموت والقيامة، وما فيها من الأهوال، ورؤية النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ فهذا يدل على أن الإقامة في البرزخ وفي المقابر زيارة فقط ثم يبعث الناس ويردون إلى الدار الآخرة دار القرار.

٩- الزجر والردع والوعيد الشديد، والتهديد الأكيد بالجحيم لمن ألهاه التكاثر عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾.

١٠- العلم اليقيني برؤية النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١].

١١- أن من ألهاه التكاثر عن طاعة الله وما خلق له فعلمه اليقيني برؤية النار ضعيف إذ لو اكتمل عنده علم اليقين برؤيتها ما ألهاه التكاثر عما خلق له؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾.

١٢- اجتماع عين اليقين إلى علم اليقين في رؤية النار في الآخرة، فعلم اليقين بأن رؤيتها حاصلة بل وورودها دل عليه القرآن والسنة، وفي عرصات القيامة ترى عيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾.

١٣- إثبات الحساب، والسؤال عن النعم التي أنعم الله بها على العبد في الدنيا،

---

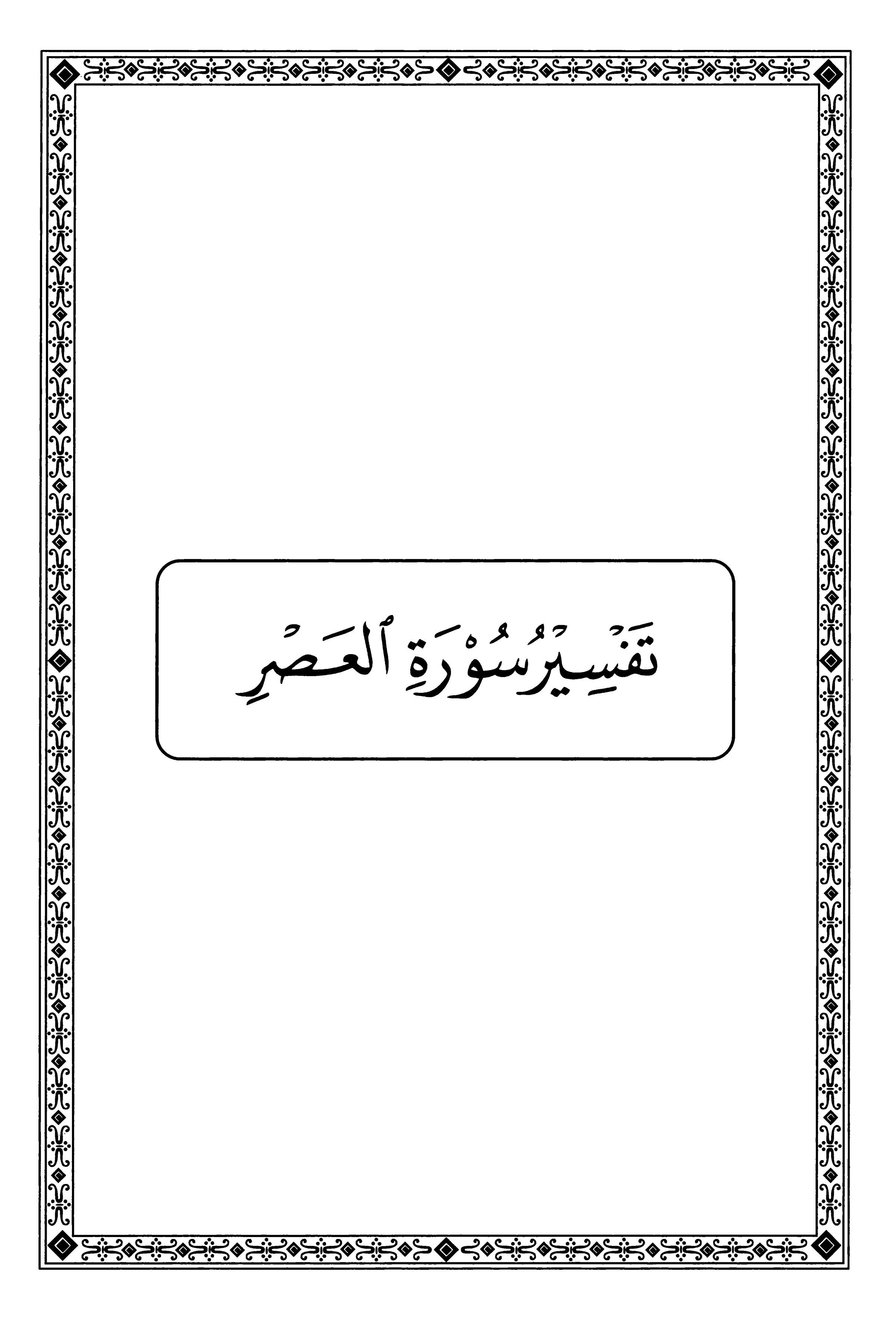
(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥، والدارمي في الزكاة ١٦٦٠- من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

وهل شكرها أو كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

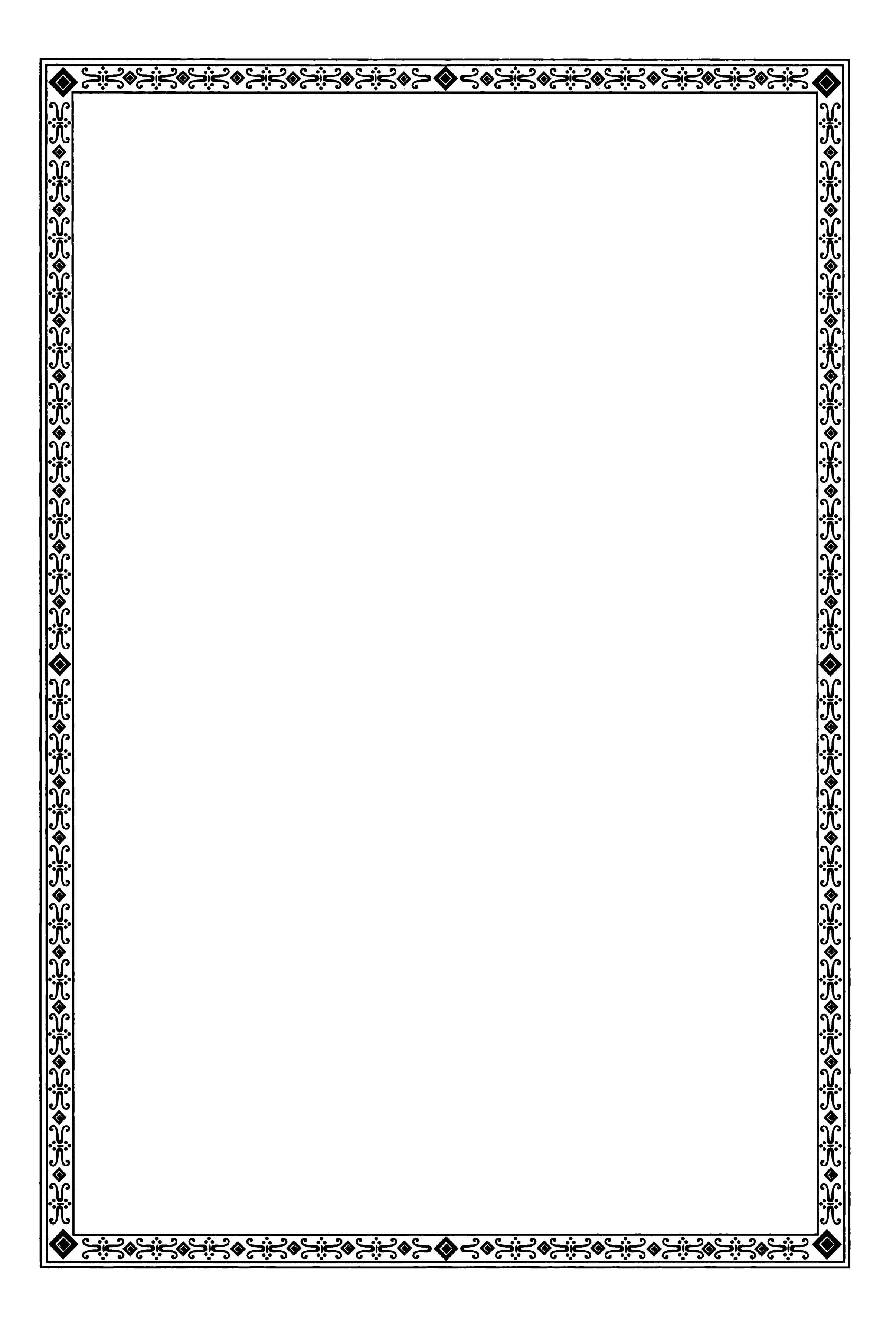
١٤- وجوب أخذ النعم من طرق حلال، وصرفها في وجوهها في الطرق الحلال.

١٥- وجوب شكر نعم الله تعالى في استعمالها في طاعته والبعد عن معصيته، وأداء حق الله فيها، واحترامها وعدم إهانتها، وعدم الإسراف فيها، وكفرها.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلعَصۡرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العصر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

قال ابن كثير[١]: «ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وماهي؟ فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر».

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»[٢].

وقال الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»[٣].

د- موضوعاتها:

١- بيان وتأكيد خسارة كل إنسان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

* * *

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٩٩.

(٢) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر: «والوبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان».

(٣) انظر «مفتاح دار السعادة» ص٦١، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٩٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، الواو: حرف قسم وجر، و﴿وَالْعَصْرِ﴾: مقسم به. والعصر: هو الزمان والدهر، وهو الأيام والليالي، كما قيل:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما [(١)]

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: جواب القسم. والمراد بالإنسان: جنس الإنسان.

والخسر: ضد الربح، أي: إن الإنسان جنس الإنسان من حيث هو لفي خسران ونقصان وهلاك.

قال ابن القيم[(٢)]: «الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به».

وإقسامه عز وجل بالزمن بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وكذا في مواضع عدة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ١- ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١- ٢].

كل ذلك للدلالة على أهمية الوقت؛ لأنه عمر الإنسان، ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهو الذي سيحاسَب عنه العبد، ويسأل عنه يوم القيامة، كما قال ﷺ: «لا تزول

---

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو في ديوانه ص ٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»[(١)].

وهو مما أقام الله به الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة»[(٢)].

وهو أغلى وأنفس ما أعطاه الله للعبد وأمره بحفظه.

قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع[(٣)]

وقال الآخر:

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان[(٤)]

وهو عمر الإنسان الذي بذهابه ذهاب المرء كما قيل:

يسر المرء ما ذهب الليالي ... وكان ذهابهن له ذهابا[(٥)]

وكما قيل:

المرء يفرح بالأيام يقطعها ... وكل يوم يُدَنِّيه إلى الأجل[(٦)]

وإقسامه عز وجل بالعصر على أن الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بالصفات المذكورة يعد إشارة إلى أن الخسارة الحقيقية هي الخسارة في الدين، فهي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا يجبر.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٧- من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال : «حديث حسن صحيح». وأخرجه أيضًا: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٤١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للوزير الصاحبي يحيى بن هبيرة. انظر (الذيل لطبقات الحنابلة) ٤/ ٢٣٦.

(٤) البيت للشاعر أحمد شوقي، وهو ضمن قصيدته في رثاء مصطفى كامل باشا، وهو في ديوانه «الشوقيات» ٣/ ١٥٨.

(٥) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية» ١/ ١٠٢.

(٦) انظر: «البصائر والذخائر» ٥/ ١٠٢، «زهر الآداب» ١/ ٣٦٧.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالمصيبة العظمى والخسار الذي لا خسار بعده أن يصاب الإنسان في دينه، فيموت على الكفر أو على المعاصي، كما قال تعالى عن أبي لهب ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خسرت يداه وخسر فعلًا. نسأل الله السلامة.

فليست المصيبة- أن يصاب الإنسان بالخسارة في ماله أو في نفسه أو في أهله أو ولده، أو قريبه أو صديقه سواء بمرض أو موت أو غير ذلك، وهذا- وإن كان كله يسمى مصيبة- لكن المصيبة العظمى هي المصيبة في الدين وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

وهي التهلكة والهلاك. فإن الأنصار رضي الله عنهم لما أعز الله الإسلام قال بعضهم لبعض: لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا، كأنهم أرادوا ترك الجهاد، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥](٢).

وقال ﷺ: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(٣).

وقد فهم هذا المعنى سلف هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من ذوي البصيرة في الدين، فنأوا بأنفسهم عن المعاصي، وها هو سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه يأتي فزعًا مرعوبًا إلى رسول الله ﷺ قائلًا: «يا رسول الله هلكت وأهلكت». قال له رسول الله: «ما أهلكك؟» قال: يا رسول وقعت على امرأتي وأنا صائم..» الحديث(٤).

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد- قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ٢٥١٢، والترمذي في التفسير ٢٩٧٢، وابن ماجه ٤٧١١، والحاكم ٢/ ٨٤، ٢٧٥- من حديث أبي أيوب. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ١٩٣٦، ومسلم في الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ١١١١، وأبوداود في الصوم =

فقد أحسّ رضي الله عنه بعظم المعصية وسوء عاقبتها وجاء تائبًا يسأل عن المخرج منها.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «إلا»: أداة استثناء فاستثنى عز وجل من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف، وهي: «الأعمال»، واكتفى بالصفة وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

والعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

يدل على هذين الشرطين أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمما يدل على وجوب الإخلاص لله تعالى من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ومن السنة قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[(١)].

ومما يدل على وجوب متابعة الرسول ﷺ من الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ومن السنة قوله ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[(٢)].

ويجمع الدلالة على الشرطين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع الرسول ﷺ.

= ٢٣٩٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبوداود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، قال ابن القيم[(١)]: «إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٣٢]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾، «الحق»: هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ انكاره مما جاء في الكتاب والسنة، أي: أوصى بعضهم بعضًا بلزوم الحق والتمسك به؛ قولًا وفعلًا واعتقادًا، فعلًا للطاعات، وتركًا للمنهيات.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر.والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله. وأقسامه ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وأعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله. ثم الصبر على أقدار الله.

قال ابن القيم[(٢)]: «والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار.

قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»[(٣)]، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خفّ واستخف، فالمؤمن الصابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف، والله

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠- ٣٣١.
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

المستعان».

وقال ابن القيم أيضًا[١] بعد ما ذكر قول الشافعي: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم». قال: «وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداها: معرفة الحق، الثانية: عمله به، الثالثة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذه نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قُوَّتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير».

الفوائد والأحكام:

١- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وذلك لأن إقسامه عز وجل بما خلق يدل على عظمته هو، فكأنه عز وجل يقول: أقسم بما خلقت. أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله؛ لأن القسم تعظيم للمقسم به، ولا يجوز ذلك إلا لله. قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[٢]. وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[٣].

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه أبوداود في الأيمان والنذور ٣٢٥١، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان ٦/ ٢٧٨، والحاكم ١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧ ووافقه الذهبي، وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٧٩، ومسلم في الإيمان ١٦٤٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، =

٢- الإشارة إلى ما في العصر وهو الوقت من العبرة والآية، فإن مرور الليالي والأيام والشهور والأعوام وجريان الأفلاك وتعاقب الفصول من أعظم الآيات الكونية، كما أن في ذلك دلالة على أهمية العصر وهو الوقت في حياة الإنسان؛ لأن الله عز وجل أقسم به للدلالة والتنبيه على أهميته ووجوب الحفاظ عليه واستغلاله، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ١٢].

٣- أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بالصفات الأربع المذكورة في السورة لأن الله أقسم بالعصر، إن الإنسان لفي خسر، واستثنى من ذلك من اتصف بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

٤- أن حقيقة الخسران أن يصاب الإنسان في دينه لأن الصفات الأربع المذكورة كلها مما يتعلق بالدين.

٥- أن حقيقة الربح والفوز أن يسلم للإنسان دينه؛ فكل خسارة أو مصيبة دون ذلك تهون؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة في الدين.

٦- وجوب الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٧- لابد من الإيمان بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن من شرط قبول العمل أن يكون صالحًا، أي: يتوفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- وجوب التواصي بلزوم الحق والأخذ به، والتعاون والتناصح في ذلك؛ لقوله

=

وأخرجه مسلم ١٦٤٨ من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٠- أنه لا يكفي مجرد الإيمان والعمل الصالح بالنفس فقط دون وصية الآخرين به وحثهم عليه، والتناصح في ذلك والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

١١- وجوب الصبر، والتواصي به؛ صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

١٢- أن من لازم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق: التواصي بالصبر. فلا يتم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق إلا بالتواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة.

فلا يستقيم دين الإنسان إلا بالصبر. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[(١)].

وهو نصف الإيمان[(٢)]؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال ﷺ: «ما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[(٣)].

قال ابن القيم[(٤)] «فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد».

١٣- أن الرابحين حقًا من جمعوا بين الصفات الأربع المذكورة، وهي الإيمان

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «شعب الإيمان»: «أن الصبر نصف الإيمان» انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٠، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٧.

والعمل الصالح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فكل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات.

قال ابن القيم(١): «وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان، وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمره غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين».

وقفة تأمل:

أخي المسلم: قف عند كل آية من آيات هذه السورة العظيمة بل عند كل كلمة منها، بل عند كل حرف وتأمل فيها.

تأمل وتفكر، لماذا أقسم المولى عز وجل بالعصر؟ وما هو العصر؟ وما حقيقة الخسارة؟ وما حقيقة الربح؟

واعلم أن الله عز وجل أقسم بالعصر تنبيها وتذكيرًا وإشارة ودلالة على أهمية العصر وعظيم قيمته ووجوب حفظه، والعصر هو الزمن، وهو عمر الإنسان، الذي لا يقدر بثمن عند من عرف أن الأمر جد، ليس بالهزل كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(٢)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٣)

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

وعند من عرف قدر الحياة، وأنها ميدان التنافس والتسابق والمسارعة للأعمال الصالحة التي فيها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ونعمت المسابقة والمسارعة والمنافسة والله المستعان.

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا (١)

أخي في الله لا يغرك ما عليه كثير من الناس من المنافسة على أمور الدنيا الفانية، والزهد فيما دعاهم الله إليه من المنافسة والمسارعة والمسابقة فيما فيه سعادة الدارين من الأعمال الصالحة، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ [ص: ٢٤].

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

فخذ أخي في الله نفسك بالجد والمنافسة والمسابقة والمسارعة في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واعلم أن الغبطة حقًا في العمل الصالح، الذي هو صمام الأمان

---

(١) هذان البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص١٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

وسر السعادة في الدنيا والآخرة، فاجعل منافستك في ذلك.

قال بعض السلف: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[(١)].

كن سباقًا إلى المساجد، وإلى أداء الواجبات؛ من حقوق الله وحقوق الخلق، كن ورعًا مبتعدًا عن محارم الله.وإذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.

واعلم وفقك الله أن الغبن في هذا ليس باليسير، بل لا يكاد يوصف، وفرق ما بين الثرى والثريا. وكما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرسٌ تحتك أم حمار[(٢)]

واعلم أن الخسارة في هذا لا تشبهها خسارة، فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، والكسر الذي لا يمكن جبره أن يصاب الإنسان في دينه فيخسر دنياه وآخرته ونفسه وأهله وولده وماله وكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

واعلم أن الربح في هذا لا يقدر ولا يحد، بل هو سعادة الدنيا والآخرة- نسأل الله تعالى من فضله التوفيق للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فهذا غاية الربح، وهذا تمام النعمة الذي عناه الله عز وجل بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وبقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣].

وهو طريق الذين أنعم الله عليهم النعمة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وهو الهداية المنشودة لعباد الله بقولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فقف أخي- بارك الله فيك- على مفترق هذين الطريقين وتأمل ببصيرة وحضور

---

(١) انظر: «المصنف» لابن أبي شيبة ٧/ ١٨٨ (٣٥٢٠٣)، «الزهد» لأحمد ص١٧٦ (١٢١٥)، «الزهد» لابن أبي الدنيا ص٢٢٩.

(٢) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤.

قلب، وقارن وقلّب الفكر والنظر عسى أن يظهر لك ويتبين البون الشاسع والفرق الواسع فتجتنب طريق أهل الخسران، وتلزم طريق أهل الربح والسعادة والإنعام وما أراك تعدل به طريقا وفقك الله.

واعلم- أخي الكريم- أن الربح والسعادة مطلب لكل أحد، فكل يسعى بحثًا عن ذلك، لكن المؤسف حقًا- كم هم الذين عرفوا طريق السعادة حقًا- سؤال يطرح نفسه؟ وجوابه باختصار:

أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير مظانها فصدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس(١)

ففئام من الناس حسبوا الربح والسعادة بالسعي لتحقيق شهوات النفس، وإرخاء العنان لها في ذلك، ولو كان بما حرم الله، كالفجور وشرب الخمور والغناء والمجون ونحو ذلك، وأين لهؤلاء الربح والسعادة، وقد طلبوهما بما يحقق الخسران والشقاوة.

وفئام من الناس حسبوا الربح والسعادة في الانهماك بالمباحات فهم يلهثون وراء جمع المال، وتنويع المآكل والمشارب، واختيار الملابس الأنيقة، والفرش الوثيرة، والمساكن المزخرفة، والمراكب الفاخرة والموضات والموديلات والمخترعات والأسفار والتنقلات بين الدول والبلدان بحثًا عن الأجواء اللطيفة المعتدلة، والحدائق الغناء والمناظر الجميلة والآثار القديمة والملاعب والملاهي- وهؤلاء أيضًا أخطؤوا طريق السعادة وحرموا منها، فلم يذوقوا لها طعما.

وأقول لأولئك وهؤلاء ولنفسي ولكل من يطلب الربح والسعادة حقًا: أبى الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

قال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذّ ما فيها». قيل:

---

(١) البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه ص١٩٤.

وما ألذّ ما فيها؟ قال: معرفة الله والأنس به»[١].

نعم والله إننا مساكين، فما أكثر الذين خرجوا ويخرجون من الدنيا وما ذاقوا هذه اللذة.

وقال الحسن رحمه الله: «تفقدوا حلاوة الإيمان في ثلاث: في الصلاة، وذكر الله، وقراءة القرآن، فإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

فليت شعري من ذاق منا تلك اللذّة، لذة الإيمان، ومن دخل منا تلك الجنة جنة التنعم بتلقي أوامر الديان، وخدمته، والتلذذ بمناجاته وعبادته، والتوكل عليه، فهذا غاية الربح ومنتهى السعادة، نسأل الله الكريم من فضله.

فَتَذَوَّق أخي لذة الإيمان، وتنعم بجنة الدنيا بالانقياد للملك الديان وأسلم وجهك له، وسلِّم أمرك إليه، كما قال عز وجل ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣] فإن أخذت بهذا فأبشر فأنت ولدت الآن.

هنا تجد في نفسك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الخير وأهله، ومحبة المسارعة لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وأعمال البر كلها، والورع عن المحرمات.

هنا تجد في الله عوضًا عن كل ما فاتك من الدنيا، ولا تأسى على شيء منها، وإنما تحزن على فوات نصيبك من ربك.

هنا تجد قلبك معلقًا بالمساجد، تجد أحلى صوت تسمعه: الله أكبر.

هنا تجد أسعد اللحظات في عمرك وقوفك مصليًا تناجي ملك الملوك، أكرم

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» ٨/ ١٦٨، «تاريخ دمشق» لابن عساكر ٥٦/ ٤٢٠-٤٢١، «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٣٦٣، «مدارج السالكين» ١/ ٤٥٢، «الجواب الكافي» ص٧٧.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» ٦/ ١٧١، «شعب الإيمان» ٩/ ٣٨٥ (٦٨٣٤)، «الرسالة القشيرية» ٢/ ٣٧٨، «مدارج السالكين» ٢/ ٣٦٩.

(٣) انظر «الوابل الصيب» ١/ ٦٩.

الأكرمين وأرحم الراحمين، المولى العزيز الرحيم.

هنا تجد القناعة في نفسك، تجدك لا تحس بالفراغ النفسي لامتلاء قلبك بحب الله وما يقربك إليه.

إن طلب الناس السعادة في المساكن والمراكب والمنتزهات وأنواع الشهوات والملذات طلبتها في مناجاة الله، وتدبر كلامه والقيام بطاعته وأمره، وهذا قمة السعادة.

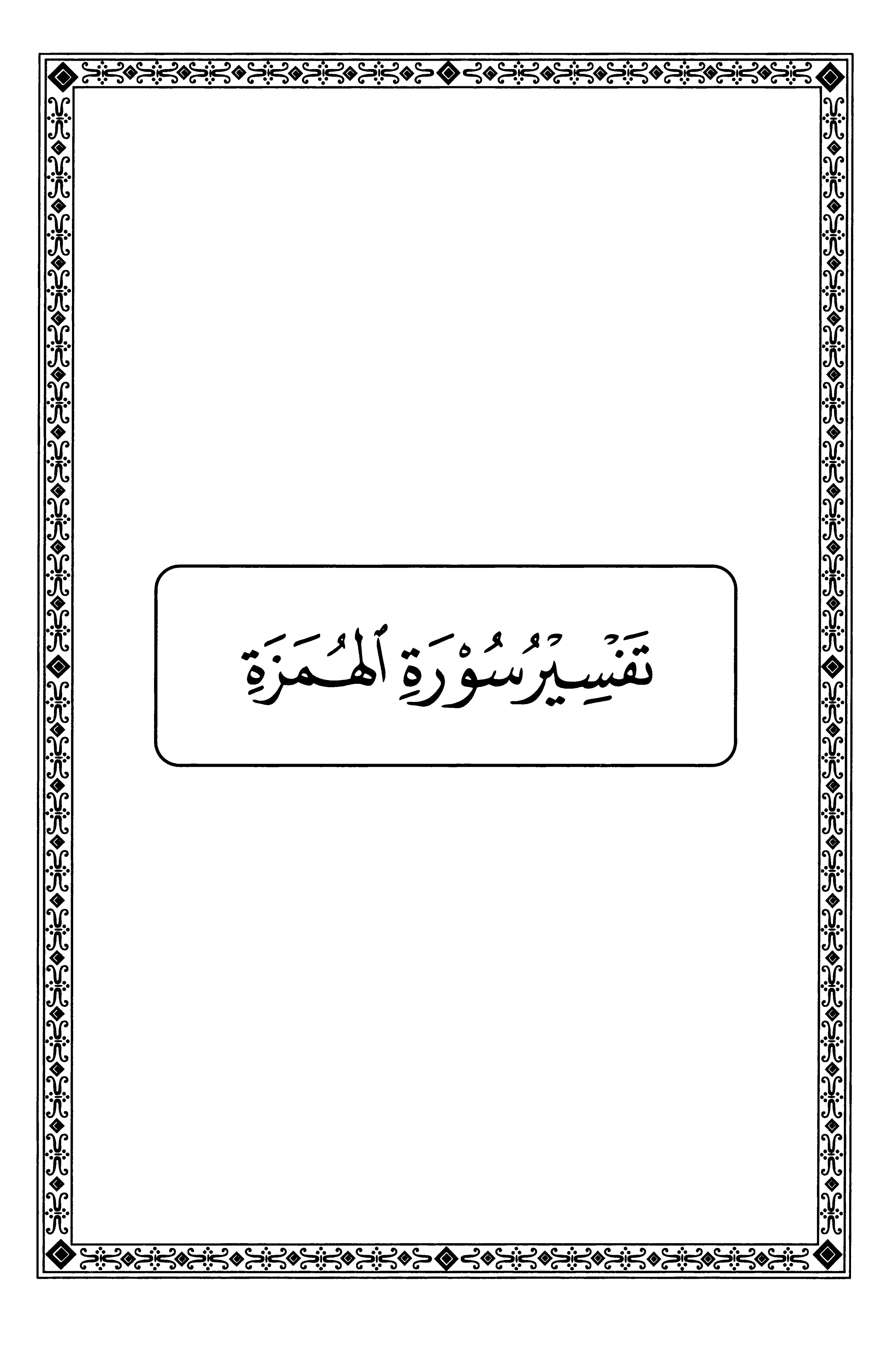
هنا تجد الأمن، تجد الطمأنينة، تجد الرضى بما قسم الله لك، تجد البركة في العمر ولو كان قصيرًا، تجد البركة في الرزق وإن كان مضيقًا، تجد تيسير الله لأمورك، وتسخيره الخلق لك، بلا درهم منك لهم ولا دينار، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»[(١)].

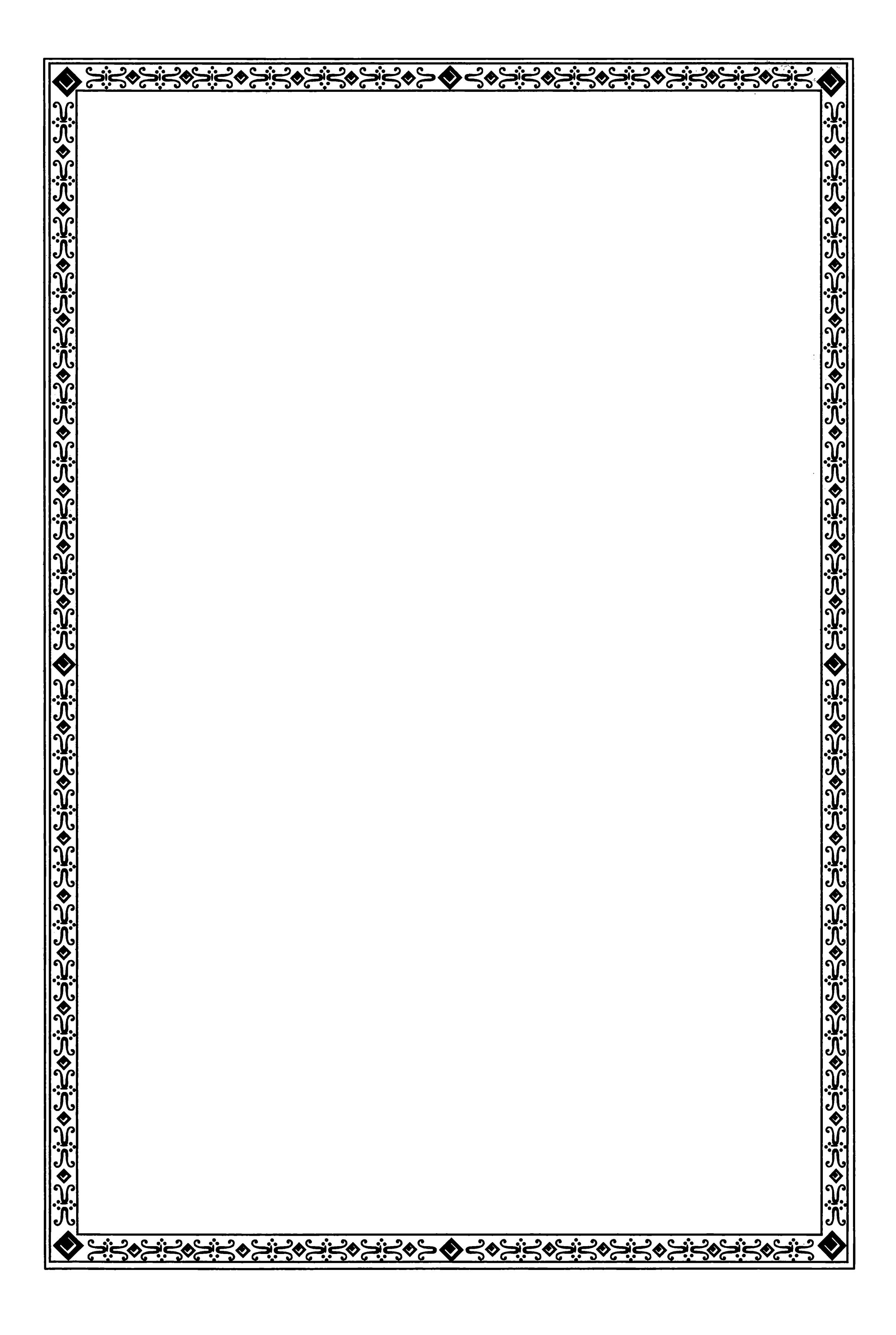
وختامًا: فإن من لم يجد السعادة بتلقي أوامر الله وتنفيذها، والحذر من نواهيه والبعد عنها وإسلام الوجه لله، وتسليم الأمر لـه والتوكل عليه فلن يجد للسعادة طعمًا ولو حيزت لـه الدنيا بحذافيرها.

❋ ❋ ❋

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ٤٢٩.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْهُمَزَةِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الهمزة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

ويقال لها: «سورة ويل لكل همزة»، و «سورة الحطمة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- الوعيد لكل همزة لمزة.

٢- التهديد لمن انشغل بجمع المال وتعداده بالنار التي تحطم كل ما يلقى فيها، وتحطم القلوب والمعنويات.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

روي أن هذه السورة نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل في أُبي بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة- والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾

﴿وَيْلٌ﴾ دعاء وزجر وتهديد ووعيد بالوبال وسوء الحال وشدة العذاب والهلكة والخسارة والخزي، وقيل: هو اسم واد في جهنم.

قال الشاعر:

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرض من قاضي السماء[1]

﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الهمزة: كثير الهمز، واللمزة: كثير اللمز، وفي هذا ما يفيد أن الهمز واللمز صارا صفتين ملازمتين له.

والهمز يكون بالفعل بالسخرية من الناس، بالإشارة باليد أو بالعين أو اللسان أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

واللمز يكون بالقول باللسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقيل العكس: الهمز يكون بالقول، واللمز يكون بالفعل، ويكونان في الحضور، وقد يكونان في الغيبة، قال الشاعر:

---

(١) هذان البيتان ينسبان للبلهول. انظر: «عقلاء المجانين» لابن حبيب النيسابوري ص٧١. وذكرا بلا نسبة. انظر: «الجليس الصالح الكافي» ص٧١٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣١٣، «المستطرف» ص١٠٩.

تـــدلي بـــودي إذا لاقيتنـــي كـــذبا وإن أُغيَّـــبْ فأنـــت الهـــامز اللمـــزة[1]

قال ابن تيمية[2]: «الهمز أشد؛ لأن الهمز الدفع بشدة.. ومنه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه» فالهمز مثل الطعن لفظًا ومعنى، واللمز الكذب والعيب».

والمعنى: الهلاك والخسار والعذاب والخزي والبوار لكل من يهمز الناس ويلمزهم بقوله وفعله وإشارته ويطعن فيهم، ويعيبهم، ويأكل لحومهم، وينتقصهم ويزدريهم في حال غيبتهم أو حضورهم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وروح بتشديد الميم: «جمّع» على التكثير، وقرأ الباقون: ﴿جَمَعَ﴾ بدون تشديد.

أي: جمع المال بعضه على بعض، وركب من أجله كل صعب، واستباح كل محظور، من المعاملات الربوبية المحرمة وغيرها، وبالغ في جمعه حتى حمله ذلك على منع الحقوق الواجبة فيه والمستحبة، كما قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [القلم: ١٢].

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، أي: بالغ في تعداده وانشغل به تكاثرًا وتفاخرًا واغتباطًا به، وخوفًا من نقصانه، وطمعًا في زيادته، كما قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[3].

فحمله حب المال على الحرص على جمعه وتعداده، والبخل به، كما حمله الكبر وحب الشرف على انتقاص غيره بالهمز واللمز.

عن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- قال: «سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني. ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا

---

(١) البيت لزياد الأعجم انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٣١١، «جامع البيان» ٢٤/ ٦١٦.
(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٨.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٦، ومسلم في الزكاة ١٠٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا فكان أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- يدعوان حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبله» الحديث [(١)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه المال أمن الحلال أم من الحرام»[(٢)].

وقد قال ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...» الحديث[(٣)].

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ في هذا تهكم به، وسخرية منه، وتعجب منه، وإنكار عليه، أي: يظن أن ماله يبقيه حيًا لا يموت أو يزيد في عمره، ويخلد ذكره، فكان ماله سببًا في طول أمله في الحياة الدنيا، وغفلته عن الآخرة، وما درى أنه بالجمع للمال، وتعداده، ومنع الحقوق فيه، وبهذا الظن يقصف أيام عمره ويقضي على بركته، ويخمل ذكره ولهذا قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[(٤)].

وفي هذا إشارة إلى أن سبب البركة في العمر، هو العمل الصالح، وأن يكسب المال من حلال ويؤدي حق الله فيه، ولا يشتغل به عن طاعة الله تعالى، وأن يكون كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»[(٥)].

فما أبرك عمر من كان هذا شعوره وما أقصر عمر من كان ساهيًا لاهيًا حتى فاجأه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٢، ومسلم- مختصرًا في الزكاة ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٧١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الموت، مهما طال عمره في هذه الحياة.

﴿ كَلَّا ﴾ كلمة زجر وردع له ووعيد وتهديد، ونفي لما توهمه من أن ماله سيخلده، وقد أحسن القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع

كم واثق في العمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع[1]

﴿لَيُنۢبَذَنَّ ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لينبذن في الحطمة.

أي: ليلقين ويطرحن فيها، والنبذ: الإلقاء على سبيل الإهانة. فلم ينفعه ماله الذي كان يجمعه ويعدده، ويظن أنه سيخلده، بل صار زاده إلى النار، كما قال ﷺ لكعب بن عجرة- رضي الله عنه: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»[2].

و ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ النار، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣]، أي: يدفعون إليها بشدة.

وسميت النار الحطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقى فيها حسًا ومعنى.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تفخيم وتهويل وتعظيم لشأنها، و«ما»: استفهامية، أي: وما أعلمك ما الحطمة.

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: تفسير لـ «الحطمة».

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ﴾ أضافها عز وجل إليه؛ لزيادة التخويف، أي: نار الله العظيمة التي خلقها وأعدها؛ لتعذيب الكفرة والعصاة، عدلًا منه عز وجل، وما ظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾، أي: المستعرة المشتعلة، التي وقودها الناس والحجارة.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، أي: التي من شدة حرها وعذابها تشرف على القلوب، أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب، التي عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، والتي هي

---

(١) البيتان لجحظة البرمكي. انظر: «نشوار المحاضرة» ٤/ ٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤، ٤٦٥، «غذاء الألباب» ٢/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الجمعة ٦١٤- وقال: «حديث حسن غريب».

محل الألم المعنوي، فيجمع للمعذبين فيها بين الألم الحسي للأبدان، والألم المعنوي للقلوب، والألم المعنوي لا يقل عن الألم الحسي، من تحطيم المعنويات والإهانة والتبكيت والتقريع والتوبيخ والتيئيس من الخروج ونحو ذلك.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: الحطمة، ﴿عَلَيْهِم﴾، أي: على كل من ألقي ونبذ فيها، من كل همزة لمزة جمّاع للمال معدد له، يظن أنه سيخلده، من الكفرة والعصاة.

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة مغلقة الأبواب.

قال الشاعر:

تحـــن إلى أجبـــال مكـــة نـــاقتي ومن دونها أبواب صنعاء موصدة[1]

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «في عُمُد» بضم العين والميم، وقرأ الباقون بفتحها.

وهي على القراءتين جمع عمود، ومعنى ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ طويلة ممدودة.

والمعنى: أن هذه العمد ممدودة من خلف الأبواب؛ لزيادة الإيصاد وإحكامه عليهم.

وفي هذا إشارة إلى يأسهم من الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾.

٢- الوعيد والتهديد للهمزة اللمزة الذي من صفته همز الناس ولمزهم والطعن فيهم واغتيابهم وتنقصهم بقوله وفعله وإشاراته وحركاته والاغترار بما جمعه من مال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③﴾.

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري ٤/ ٧٩٦، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٢٠/ ٧٢.

٣- التنديد بالمغترين بالمال المنشغلين بجمعه وتعداده عن طاعة الله تعالى، المانعين لحق الله فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى وعبادته وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

٥- شدة خطر التكالب على جمع المال ومنع حق الله فيه، والانشغال بعده وإحصائه وأنه سبب لنسيان الآخرة، وطول الأمل.

٦- استحالة الخلود في هذه الدار؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

٧- الزجر والردع لمن كانت هذه صفته همزة لمزة جماعًا للمال معددًا له ظانًا أن هذا المال سيخلده، وبيان أن مصيره أن يلقى ويطرح في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

٨- شدة عذاب النار وأنها تحطم كل ما يلقى فيها، وتحطم المعذبين فيها حسيًا ومعنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾.

٩- تأكيد عظم هول النار وشدة خطرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾.

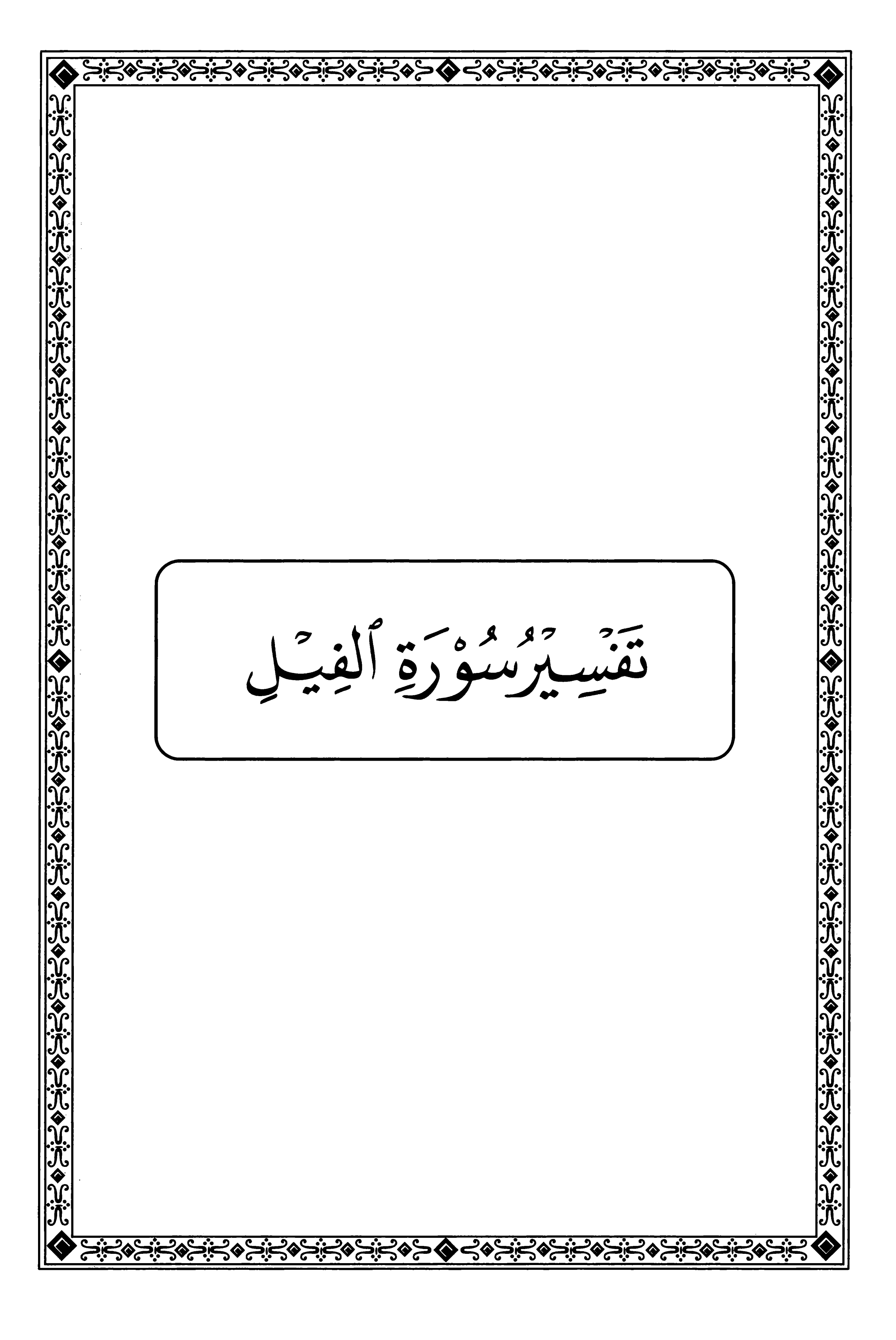
١٠- أن النار مسعرة موقدة مهيأة لتعذيب الكفرة والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾.

١١- أن عذاب النار كما يؤلم الأجساد حسيًا يشرف على القلوب ويؤلمها معنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.

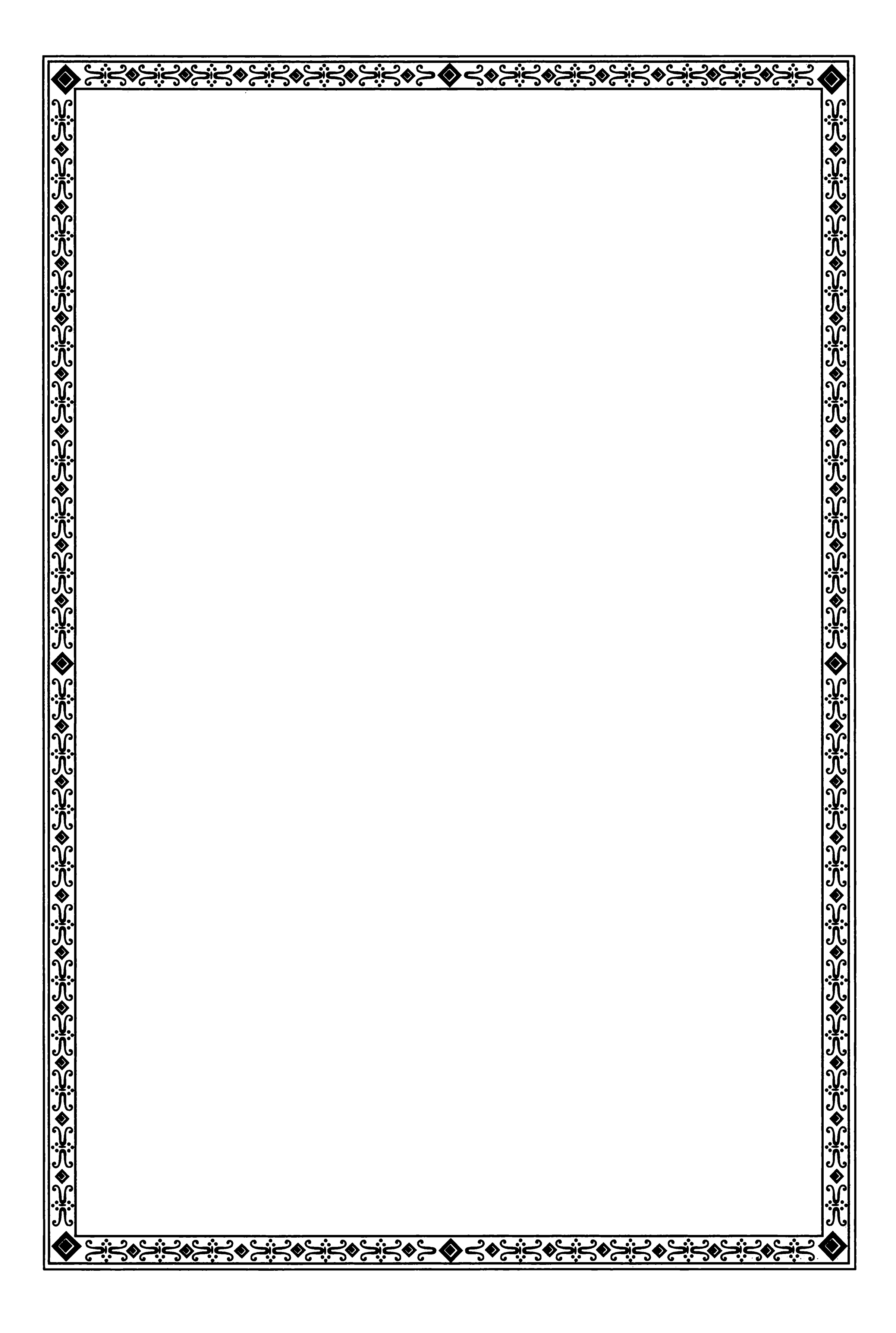
١٢- أن النار تطبق وتغلق على من فيها، وتحكم عليهم أبوابها، بوضع العمد من خلفها، تيئيسًا لأهلها من الخروج منها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡفِيلِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفيل»، لقوله تعالى في أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، وذكر ما آل إليه أمر أصحاب الفيل من بطلان كيدهم وهلاكهم.

وتسمى: «سورة ألم تر».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذكر قصة أصحاب الفيل وإهلاكهم وجعل كيدهم في تضليل.

٢- تذكير أهل الحرم بنعمة الله عليهم، والبشارة له ﷺ بنصرة الله تعالى له وللمؤمنين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)﴾.

قال ابن كثير(١): «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الاستفهام في الموضعين: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ألم تشاهد وتُخبر وتسمع.

والمعنى: أنك قد رأيت آثار فعل الله بهم وسمعت الأخبار بذلك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ وعلى أمته، بحفظ بيته وحمايته، وتخويف للمجرمين المكذبين.

قال القرطبي(٢): «كانت قصة أصحاب الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدًا لأمره وتمهيدًا لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٢.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ١٩٥.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ أي: ألم يصيِّر وكيدهم، أي: مكرهم وتدبيرهم السيء، في السر والعلن؛ لصد الناس عن الحرم وسعيهم لهدم الكعبة.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾، أي: في ضياع وبطلان وخيبة وخسران وضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أبابيل، أي: جماعات يتبع بعضها بعضًا، وهي طيور سود بحرية أمثال الخطاطيف، كل طيرٍ يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ السجيل: الشديد الصلب، وهي حجارة من طين محرّق حتى تحجر، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، أي: «التبن»، أو ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار درينًا وألقته الرياح هنا وهناك.

قال ابن كثير[(١)]: «المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرا، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، وكما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات».

وخلاصة قصة أصحاب الفيل:

أن أبرهة الأشرم ملك اليمن آنذاك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة يقول له: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب «القلَّيس»؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها، كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته، فكرهت

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٩.

العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلًا، فأحدث فيها وكر راجعًا، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرًا حجرا.

وقيل إن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: «محمود» وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ويقال: معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلًا، وقيل: غير ذلك؛ لأجل أن يهدم الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمع العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًا، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله من هدمه وخرابه، فأجابوا وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسر «نفيل بن حبيب» فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحميري، وأمره بأن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم، إلا أن تصدوه عن البيت، فدل على عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه، فلما رآه أبرهة

أجلَّه، وكان عبد المطلب رجلًا جميلًا حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه قل له ما حاجتك؟، فقال للترجمان إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!، فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا يمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك.

ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال تخوفًا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاَهُمَّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع حِلالك

لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالُهم غدْوًا مِحالك

وذُكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق فينتقم الله منه، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «ابرك محمود أو ارجع راشدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام» ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين، وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه- أي: أدموه- ليقوم فأبى فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل

على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أيـــن المفــر والإلــه الطالـــب   والأشرم المغلـــوب لـــيس الغالـــب

ويقول من أبيات عدة:

حمـــدت الله إذ أبصـــرت طـــيرًا   وخِفْـــتُ حجـــارة تلقـــى علينـــا

فكـــل القـــوم يســـأل عـــن نفيـــل   كـــأن عـــليّ للحبشـــان دينـــا

فمنهم من هلك مكانه، ومنهم من هرب، وجعل يتساقط عضوًا عضوًا، وغنم أهل مكة ما معهم من ذهب وأموال وغير ذلك[1].

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بحفظ بيته العتيق وحمايته.

٢- تسلية الرسول ﷺ عما يلاقيه من تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

٣- التخويف والتحذير للمكذبين والمجرمين.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- وجوب التأمل والاعتبار في آيات الله الكونية، وعقوباته لأعدائه المجترئين على حرماته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

٦- شدة أخذ الله وانتقامه وأليم عقابه في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٧- شدة اجتراء بعض الخلق على حرمات الله ومحادة الله تعالى والإفساد في الأرض فهذا أبرهة أراد هدم بيت الله الحرام فأبطل الله كيده، وقبله فرعون كابر بما هو أشد من

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٣- ٥٠٧. وانظر «جامع البيان» ٢٤/ ٦٣٥- ٦٤٣ «تاريخ الأمم والملوك» ٢/ ١٣٦- ١٣٨، «سيرة ابن هشام» ١/ ٥١- ٥٥.

ذلك فادعى الربوبية والألوهية- تعالى الله عما يقول ويفعل الظالمون علوًا كبيرًا.

٨- أن كيد الكافرين والفاسقين وأهل المحادة لله عز وجل ومدبري السوء والشر في ضلال وبطلان وبوار وخسران.

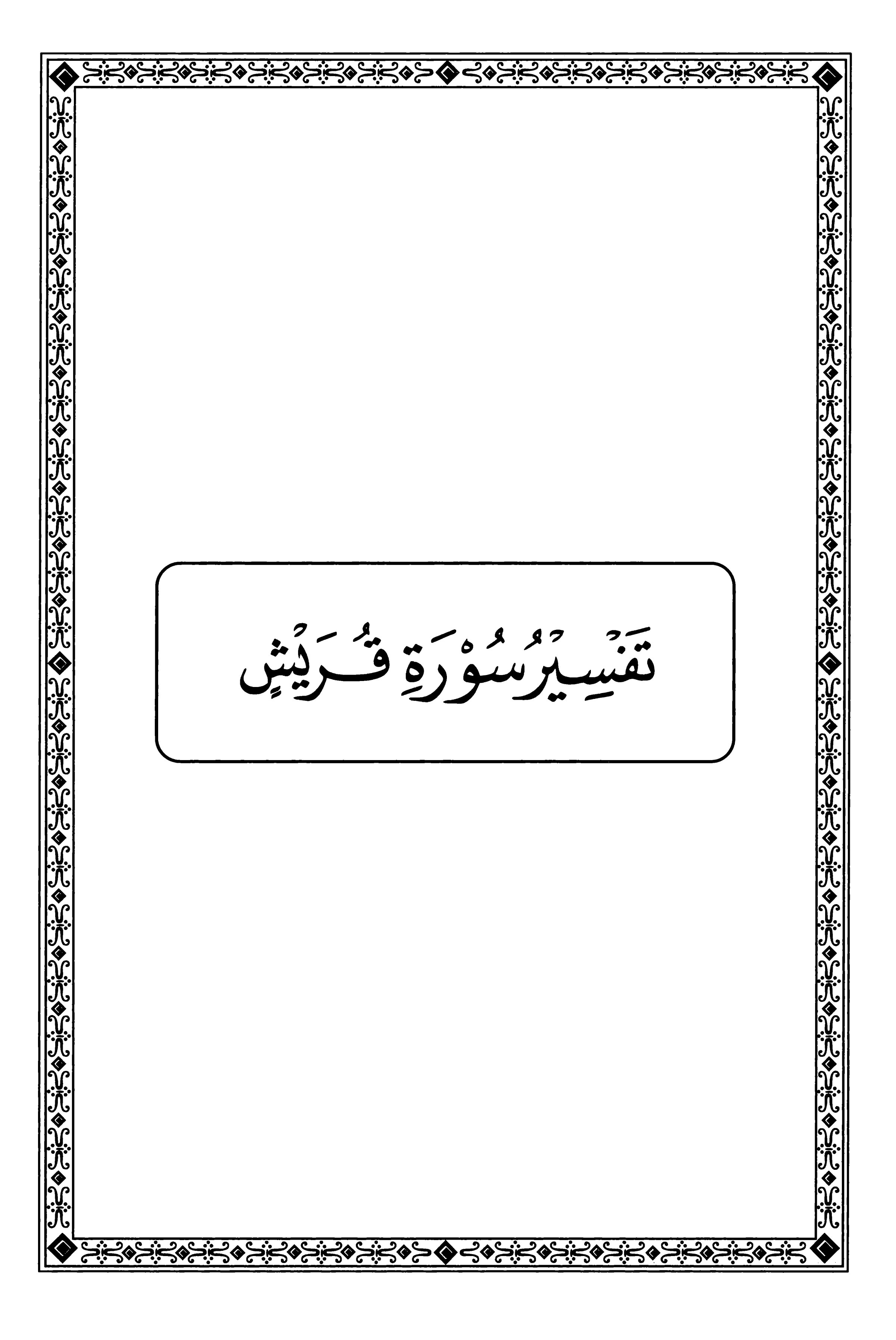
٩- قدرة الله تعالى التامة، وعظيم سلطانه وتسخيره ما شاء من المخلوقات لنصرة الحق والدفاع عن حرماته عز وجل فامتناع الفيل من التوجه نحو مكة بقدرة العزيز الحكيم، وبقدرته عز وجل العظيمة سلط عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بهذه الحجارة التي كان بها هلاكهم.

١٠- عظم حرمة الكعبة والبيت الحرام قبل الإسلام وبعده، فما قصه الله علينا في هذه السورة من إهلاك أصحاب الفيل دليل على عظمة هذا البيت وحماية الله له، ودفاعه عنه منذ أن بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولا تزال حرمة هذا البيت إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

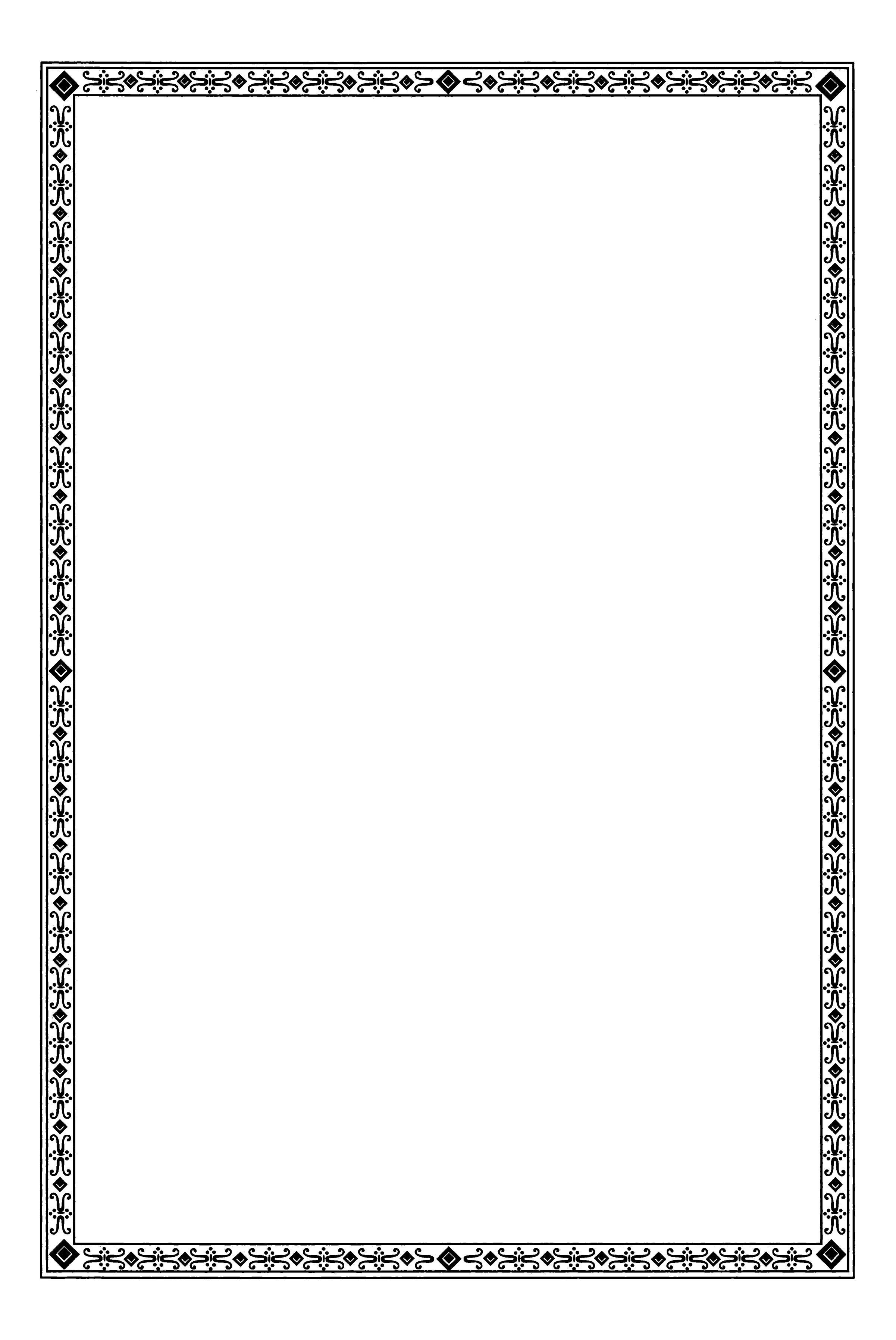
وقال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»[(١)].

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللقطة ٢٤٣٤، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها ١٣٥٥، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



تَفْسِيرُ سُورَةِ قُرَيْشٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة قريش»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ وذكر اعتيادهم هاتين الرحلتين.

وتسمى: «سورة لإيلاف قريش».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- الامتنان على قريش وأهل الحرم بتأمينهم في سفرهم ومقامهم، وإطعامهم.

٢- التذكير بعظم نعمة الأمن وعدم الخوف، ونعمة الشبع وعدم الجوع.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ «إيلاف»: مصدر يقال: آلف الشيء يؤالفه إيلافًا. ويقال ألف المكان يألفه إلفًا وإلافًا؛ إذا اعتاده وألفه، وزالت الكلفة عنه، والنفرة منه.

قرأ ابن عامر: «لإلف قريش» وقد جمعها من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريش   لهم إلف وليس لكم إلاف[1]

وقرأ أبو جعفر: «ليلاف قريش»، وقرأ الباقون: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾.

والجار والمجرور ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش فاللام: لام التعجب.

أي: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، يؤيد هذا إجماع المسلمين على أن سورتي الفيل وقريش كل منهما سورة مستقلة عن الأخرى.

وقيل تقديره: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فكأن السورة على هذا متعلقة بسورة «الفيل» فسورة الفيل وما جاء فيها تعليل لهذه السورة وما جاء فيها، وهما في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة بلا فصل.

أي: أهلكنا أصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام؛ لأجل التجارة والمكاسب.

والأظهر المعنى الأول، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

وقيل: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

وقريش: ولد النضر بن كنانة، وهم قبائل شتى، وسموا قريشًا بتصغير القرش بدابة في البحر عظيمة، تعبث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار.

---

(١) انظر «الكشاف» ٤/ ٢٣٥، «لسان العرب» مادة «ألف».

وقيل: سموا بذلك من القرش وهو الكسب؛ لأنهم كانوا يضربون في الأرض طلبًا للكسب، قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

ومعنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾: لأجل إيلاف قريش، أي: إلفهم واعتيادهم هتين الرحلتين لقوله بعد هذا: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ فقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ومفسر له و«رحلة»: مفعول به منصوب: «لإيلافهم»، وفيه تفخيم لأمر الإيلاف، وتذكير بعظيم النعمة فيه.

أي: لإيلافهم وإلفهم واعتيادهم رحلة الشتاء إلى اليمن لدفء جوها في الشتاء ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة جوها في الصيف، وذلك في تجاراتهم وتنقلاتهم فهم آمنون في سفرهم ومقامهم لحرمة الحرم وأهله.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: شكرًا لله عز وجل على هذه النعمة العظيمة عليهم، وتأمينهم في مقامهم وأسفارهم بحرمة الحرم يجب أن يعبدوه وحده كما ذكر الله عز وجل عن نبيه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع والتواضع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل.

وهي في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل فعل الواجب والمندوب، والمباح مع حسن النية والقصد، وكذا ترك المحظور والمكروه.

و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر، فرب البيت بمعنى: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.

ورب كذا أيضًا بمعنى صاحبه، كما قال عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، أي: صاحب العزة.

والبيت: المراد: به الكعبة والبيت الحرام، والبيت في الأصل: ما يقوم على أركان،

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب ٣٦٠٥ من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» للتعظيم.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ الذي: صفة لـ«رب» في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وهي صفة كاشفة؛ لأن إطعامهم من جوع من معاني ربوبيته، ومن تدبيره وتصريفه لهم، والمعنى: أنه منّ عليهم بالرزق والمطاعم.

والجوع: هو المخمصة، وخلو البطن من الطعام، يعقبه الموت، وقد استعاذ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»[1].

فالجائع لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أنه عز وجل منّ عليهم بنعمة الأمن وعدم الخوف في مقامهم وأسفارهم بسبب حرمة الحرم، فهم في الحرم آمنون لحرمة الحرم، وإذا خرجوا في أسفارهم أمنوا؛ لأنهم أهل الحرم، والأمن سبب للرزق. فمّن الله عز وجل عليهم بإطعامهم من الجوع وقاية لهم من الهلاك في أمر باطن، وأمّنهم من الخوف وقاية لهم من الهلاك بأمر ظاهر.

وذلك بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي تنكير «جوع» و«خوف» إشارة إلى شدة ما كانت عليه قريش من الجوع والخوف، وأعظم بهما من مصيبتين لا تقل إحداهما عن الأخرى؛ لأن الجائع والخائف كل منهما لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه، والخوف سبب للجوع، والجوع سبب للموت، لهذا امتن الله عز وجل على قريش بهتين النعمتين العظيمتين اللتين هما سبب الاستقرار والحياة، والعمل الديني والعمل الدنيوي، وهما الرزق والمطاعم للأبدان، والأمن على الدماء والأعراض والأموال في الأسفار والأوطان، كما قال عز وجل:

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٤٧، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٦٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]، فبذلك تقوم أمور دينهم ودنياهم، وكما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وعنه ﷺ قال: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١).

ولا يعرف قدر هتين النعمتين إلا من فقدهما.

ويفهم من قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أن من لم يقيد هتين النعمتين بعبادة الله عز وجل وشكره عليهما فإنه عرضة لزوالهما، إذ بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول وتحل النقم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بنعم الله عز وجل ولفت الأنظار إلى النظر والتفكر في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ للقيام بما يجب تجاهه.

٢- أن من نعم الله تعالى وأفضاله على قريش أن يسر لهم الرزق وأسبابه بأمنهم في مقامهم وفي أسفارهم.

٣- انقسام السَّنة إلى شتاء وصيف لقوله: ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ يقال: طلوع الثريا أول الصيف وستة أشهر بعده صيف، وبعد الستة الشتاء.

٤- جواز التنقل والاختيار في التجارات والأعمال والحاجات حيث الجو المناسب

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

برودة ودفئًا؛ لأن الله امتن على قريش بإيلافهم هاتين الرحلتين وأقرهم على ذلك.

٥- وجوب شكر نعمة الربوبية، نعمة الخلق والرزق والأمن وغير ذلك، بالعبودية لله تعالى وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، أي: وحده دون سواه.

٧- شرف البيت وفضله، والامتنان على قريش به؛ لأن الله خصه هنا بالربوبية فقال: ﴿رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ مع أنه عز وجل رب كل شيء، لكن ربوبيته عز وجل للبيت من الربوبية الخاصة.

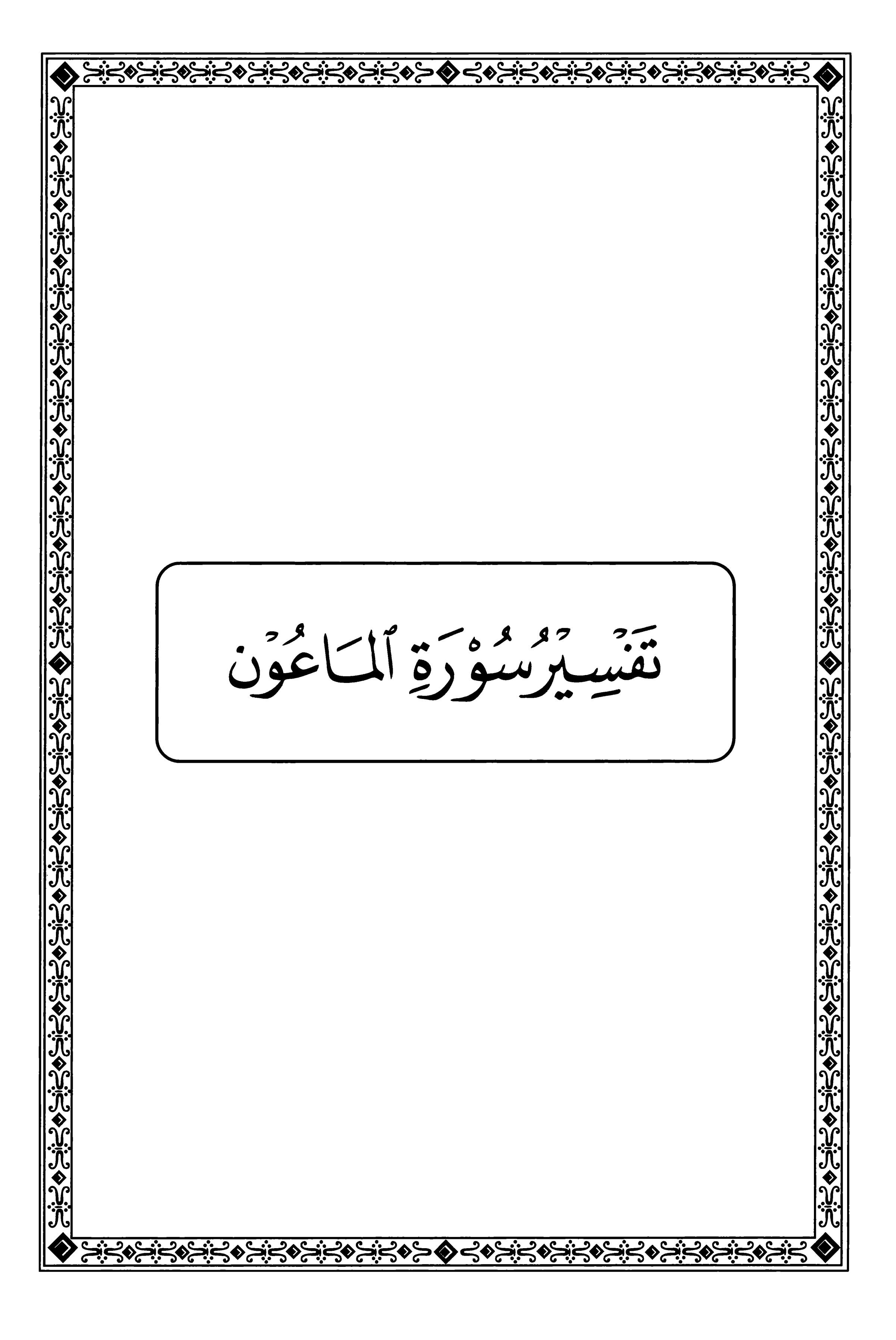
٨- أن المستحق للعبادة هو الرب الخالق المالك المدبر مطعم عباده من الجوع، ومؤمنهم من الخوف، دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٩- أن كل ما يتمتع به الخلق من الرزق والأمن وغير ذلك من النعم التي لا تحصى كل ذلك من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

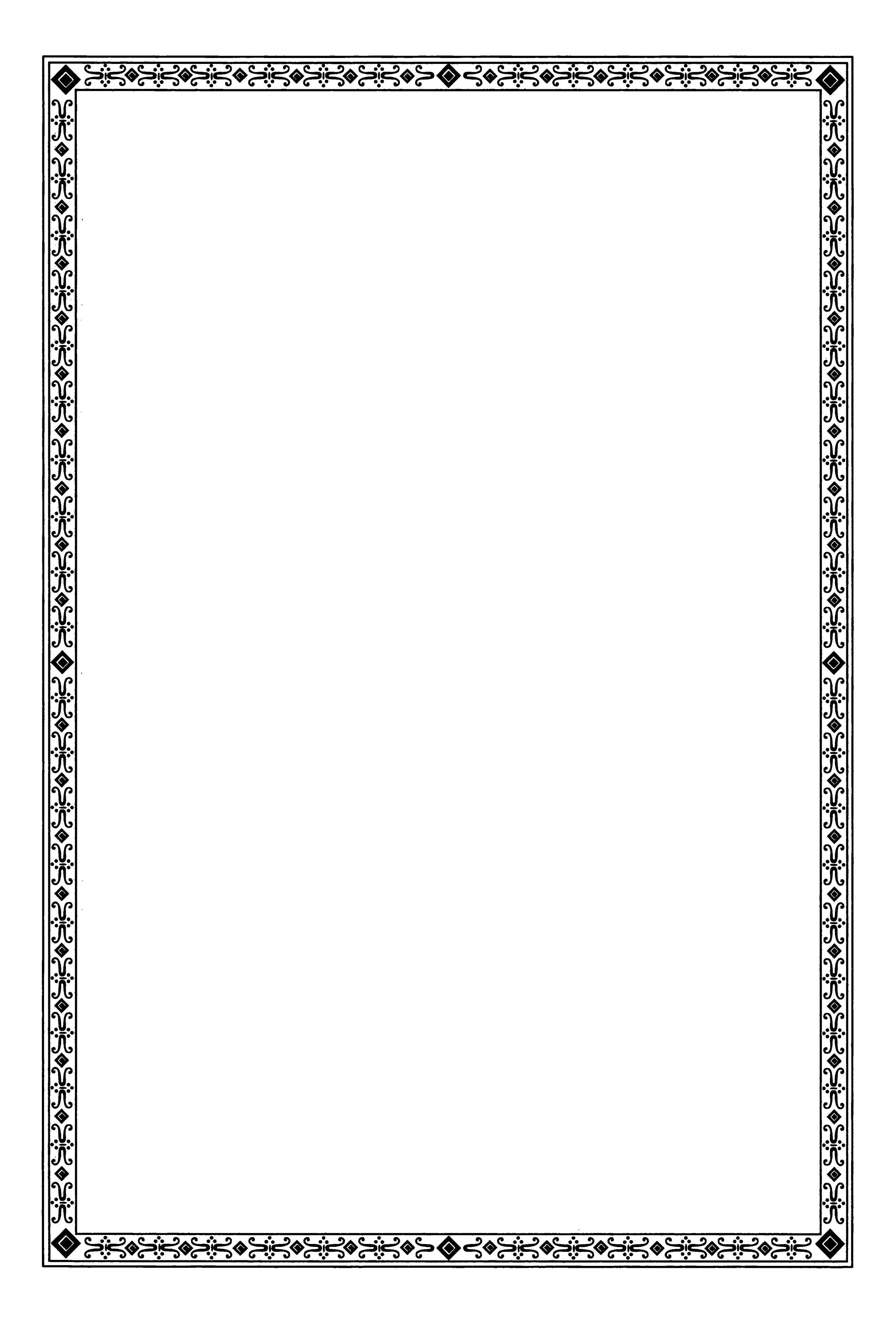
١٠- عظم نعمة الرزق والإطعام من الجوع، ونعمة الأمن؛ ولهذا خصهما سبحانه وتعالى بالذكر وامتن عليهم بذلك فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمة الرزق والإطعام والأمن في الأوطان، وعلى سائر نعمك الظاهرة والباطنة.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الماعون»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

وتسمى: «سورة أرأيت»، و «سورة الدين»، و «سورة التكذيب»، و«سورة اليتيم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- التعجيب من حال المشركين في تكذيبهم البعث، ومنعهم حقوق اليتامى والمساكين.

٢- الوعيد لمن يسهون عن الصلاة، ويؤخرونها عن وقتها، الذين يراؤون في أعمالهم ويمنعون الحقوق الواجبة عليهم.

*　　*　　*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: هل عرفت، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، أي: الذي ينكر البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، كما قال عز وجل ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

ولهذا سُمي يوم القيامة: «يوم الدين»، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ لأن الناس فيه يدانون ويجازون بأعمالهم.

ثم بين صفة هذا المكذب بالدين، فقال:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يرحمه، ولا يحسن إليه ولا يعطف عليه، قد نزعت الرحمة من قلبه والعياذ بالله.

و«اليتيم» هو من مات أبوه، وهو دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١). فهو بحاجة إلى من ينفق عليه ويدافع عنه ويربيه، ويرعى حقوقه، وبخاصة عندما يطغى الظلم والأنانية، ولهذا عظم الشرع حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٩].

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «أكل مال اليتيم»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما»[١].

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾، أي: ولا يحث غيره، ولا يبعث أهله على طعام المسكين كقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

وإذا كان لا يحث على طعام المسكين، فمن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، لأن الإطعام والإنفاق أثقل على النفوس، وقد قال قائل المشركين فيما حكى الله عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يس: ٤٧].

والمسكين: هو من لا يجد شيئًا أو من لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون وهو اللصوق بالأرض وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، وبخاصة عندما يقاس الناس بالدرهم والدنيار، فهو إن تكلم لم يسمع كلامه، وإن سُمع لم يُصدق، كالمريض بين الأصحاء وما به من مرض، حاله بين الناس كما قال الشاعر:

إذا قل مال المرء قل صحابه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا ... أقدامه خير له أم وراؤه

وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقًا بقاؤه[٢]

وقد عظم الإسلام حق المساكين والفقراء، وجعل لهم نصيبًا من الزكاة، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [الآية: ٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، وأبو داود في الأدب ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لأبي حيّان التوحيدي، انظر «ديوانه» ص٢٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٣، ومسلم في الزهد ٢٩٨٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٩، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٠.

فوصف عز وجل المكذب بالدين بأنه: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ لأن أداء الحقوق وإنفاق المال في سبيل الله محزّ عظيم، به يعرف الصادق من الكاذب، وقوة الإيمان وضعفه فكم من إنسان يهمهم في المساجد ويحوقل، ولكنه لا ينصف من نفسه ويعتدي على الآخرين ويأكل حقوقهم، ويمنع ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة، والدين إنما هو: إحسان في عبادة الله عز وجل، وإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم ونفعهم.

وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

﴿فَوَيۡلٌ﴾ ويل: بمعنى: هلاك وحسرة وزجر ووعيد وتهديد وعذاب، ويقال أيضا: هو اسم واد في جهنم[3].

﴿لِّلۡمُصَلِّينَ﴾، أي: الذين يصلون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ قال: «عن صلاتهم» ولم يقل «في صلاتهم»؛ لأن السهو في الصلاة ليس أمرًا اختياريًا، ومما لا يمكن التحرز منه تمامًا، وقد وقع منه ﷺ فغيره من باب أولى.

ولهذا رُويَ عن أنس وعطاء بن دينار رضي الله عنهما أنهما قالا: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: «في صلاتهم»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤- وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) جاء في الأثر أن جهنم تستعيذ منه في اليوم أربعمائة مرة أعد للمرائين، أخرجه الطبراني في الصغير ٢/ ١٤٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٥.

(٤) ذكره عن أنس الزمخشري في «الكشاف» ٤/ ٢٣٦، وذكره عن عطاء بن دينار ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٤، وأخرج بعضه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٦٤ عن عطاء.

ومعنى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: عن صلاتهم غافلون، غير مبالين بها، إما بتركها أحيانًا كفعل المنافقين يصلون أمام الناس ويتركونها إذا خلوا، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا»(١).

وإما بتأخيرها عن وقتها المحدد لها شرعًا، أو بالتهاون بأدائها بشروطها وأركانها وواجباتها على الوجه المأمور به، وعدم الخشوع وحضور القلب لما يتلى فيها، أو تأخيرها إلى أن يضيق وقتها، أو إلى وقت الضرورة، ونحو ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، أي: يقصدون الرياء في أعمالهم، فيعملون العمل ويحسِّنونه؛ ليراهم الناس فيثنوا عليهم، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وفي الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به وحقره وصغره»(٢).

والرياء أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؛ ولهذا قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال الرياء»(٣).

وقال ﷺ في الدعاء: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٤٩، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٢٢، وأبو داود في الصلاة ٤١٣، والنسائي في المواقيت ٥٠٩، والترمذي في الصلاة ١٦٠.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٢.
(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

ونستغفرك لما لا نعلم»[١].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، أي: ويمنعون العارية المعتادة بين الناس بخلًا منهم، كالقدر والفأس، والدلو والميزان والإبرة والكتاب وغير ذلك من الأمتعة التي يتعاطاها الناس، بل ويمنعون الحق الواجب كالزكاة.

قال عكرمة: «رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والإبرة»[٢].

وقال محمد بن كعب: «الماعون: المعروف»[٢].

وقال الحسن: «هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله، فإن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «أي: لا أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى».

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

٢- أن الإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال من أعظم ما يحمل الإنسان على الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ إلى آخر السورة.

ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر من أعظم ما يحمل على الامتثال حيث فيه الجزاء على الأعمال.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣- من حديث أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٢٤٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥١٦.

لرأيت من الناس غير ما ترى».

٣- أن من صفات المكذب بالدين أنه يدفع اليتيم ويظلمه ولا يؤدي حقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

٤- أن من صفات المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام المسكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

٥- الحث على العناية باليتيم وأداء حقوقه، وإطعام المسكين والإحسان إليه؛ لأن ذلك من صفات المصدقين بوعد الله.

٦- حفظ الدين الإسلامي لحقوق اليتامى والمساكين والضعفاء، وتعظيمه لخطر الاعتداء على حقوقهم؛ ضمانًا لها ودفاعًا عنها؛ ولهذا رتب على الاعتداء عليها أعظم الوعيد.

٧- الوعيد الشديد للذين يتهاونون بالصلاة، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾.

٨- الحث على أداء الصلاة في وقتها، على الوجه الأكمل، وكذا سائر العبادات لأن ذلك من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله.

٩- وجوب الإخلاص لله، والحذر من الرياء لأنه من صفات المكذبين بالدين والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

١٠- التحذير من منع الحقوق الواجبة والمستحبة كالزكاة والصدقة والعارية، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

١١- الحث على فعل المعروف والإحسان بعد أداء الواجب؛ لأن هذا من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولئن أمشي في حاجة أخي أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد- يعني مسجد المدينة- شهرًا»[(١)].

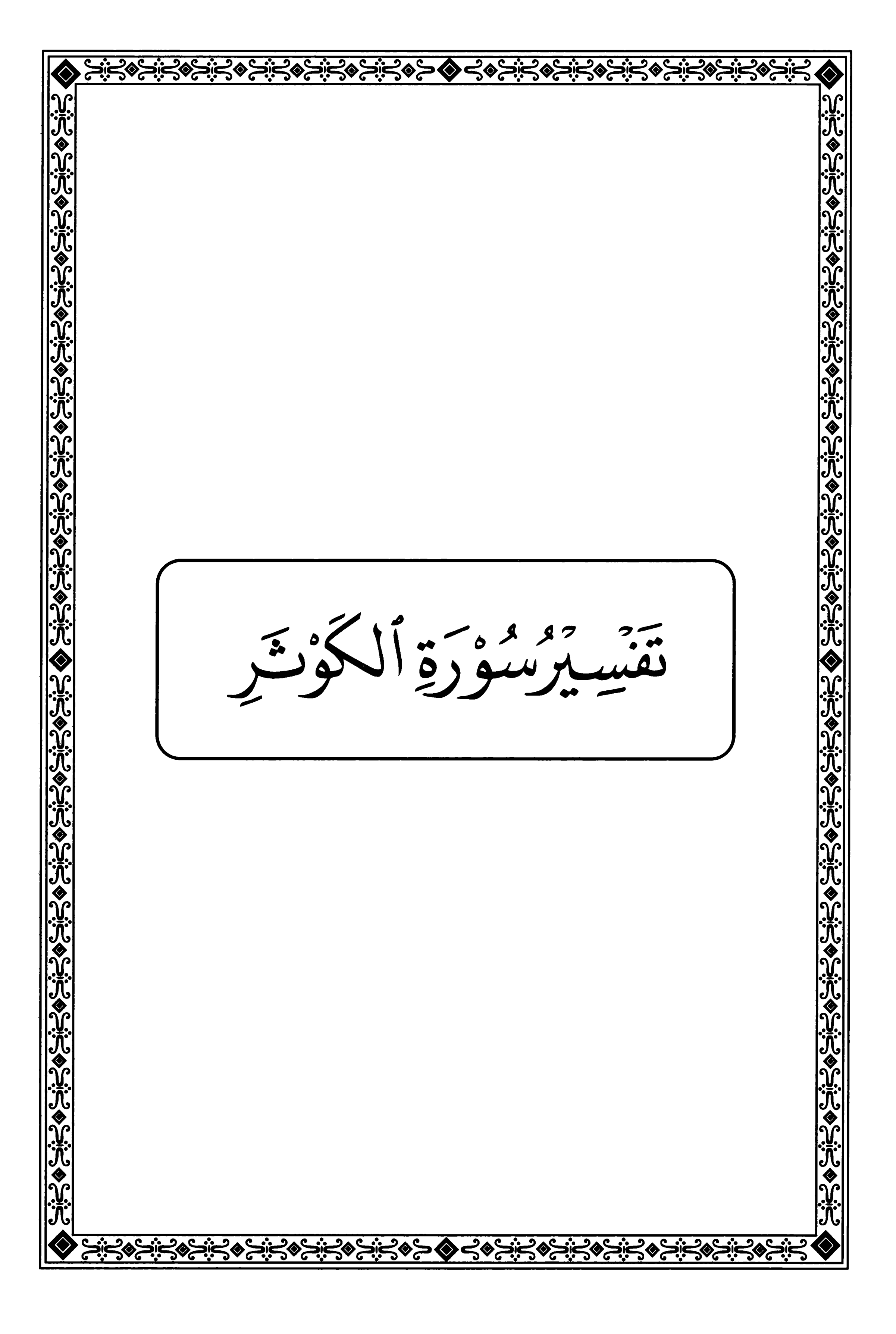
(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٨٤.

١٢- أن المطلوب من المسلم أمران هما: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. فقد بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله كاليتيم والمسكين ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها، وبخاصة الصلاة التي هي عمود الدين وحذرت من الرياء، ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان من أداء الزكاة والعارية.. الخ، وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وغيرها وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1].

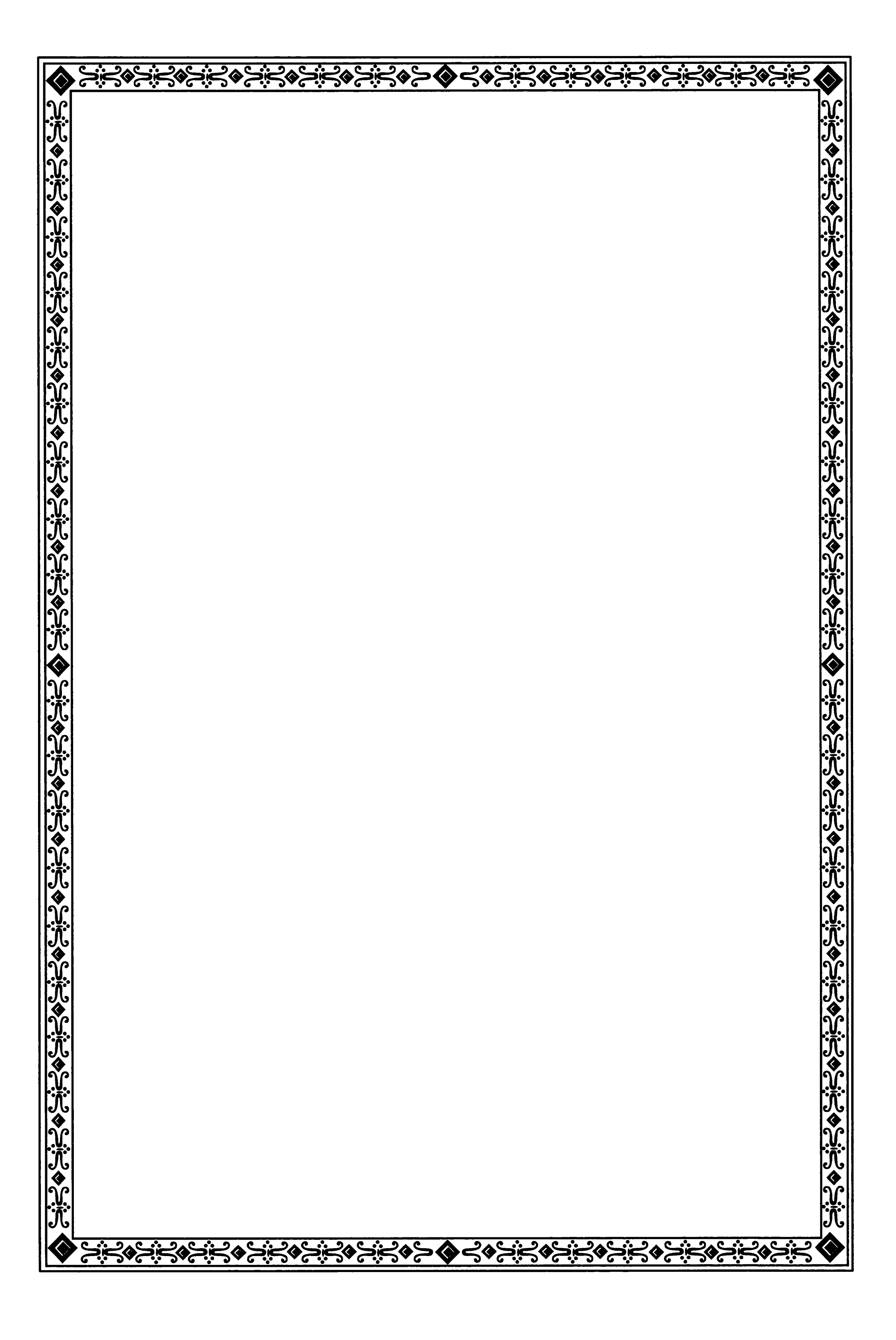
فتأمل أخي المسلم هذين المحورين الذين تركزت عليهما معاني هذه السورة واعلم أن القرآن كله بل التشريع كله بما فيه الكتاب والسنة يدور عليهما واغتنم أيام عمرك دائرًا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل؛ إخلاصًا له سبحانه وتعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْكَوْثَرِ



المقدمة

هذه السورة أقصر سورة في القرآن- تليها سورتا العصر، والنصر، فكل منها ثلاث آيات.

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكوثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

وتسمى: «سورة النحر»، و«سورة إنا أعطيناك الكوثر».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- وعد النبي ﷺ وبشارته بما له عند الله من الخير الكثير، والحوض المورود، وغير ذلك.

٢- ذم من عاداه ﷺ.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

عن يزيد بن رومان قال: «كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عقب له، إذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُنْبَتِر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحج، وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فنزلت إن شانئك هو الأبتر»(٢).

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم؛ لما له من صفات الكمال والجلال في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: آتيناك، ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: الخير الكثير.

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه النهر والحوض الذي ترد عليه أمته ﷺ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: أنزلت علي آنفًا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه

(١) أخرجه ابن إسحاق- انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٣٩٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/٦٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٠٠، والبزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٢٥ قال ابن كثير «إسناده صحيح».

أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: الكوثر»(٢).

وجاء في بعض روايات حديث أنس رضي الله عنه: «ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء»(٤).

وجاء في وصفه: طوله شهر وعرضه شهر، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

وعن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه»، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»(٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكوثر: نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»(٦).

ومن الكوثر، وهو الخير الكثير: اصطفاؤه ﷺ للرسالة، ورفع ذكره، وشرح صدره، قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ١ - ٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، ٤٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٠٤، وأحمد ٣/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٤، ومسلم في الإيمان ١٦٢، وأبو داود ٤٧٤٨، وأحمد ٣/ ٢٤٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٥- ٦٨٩.

(٣) أخرجها أحمد ٣/ ٢٢٠- ٢٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٨- ٦٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٦.

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧٩- ٦٨٠ وإسناده صحيح.

ومنه ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[(١)].

وقدم الضمير «نا» من ﴿إِنَّآ﴾ وبنى عليه الفعل؛ للدلالة على أن هذا العطاء منه عز وجل خاصة، وأكد ذلك بحرف التوكيد «إن».

وحذف موصوف الكوثر على طريق الاتساع والتعميم ليعم كل خير.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فشكرًا لربك على ما أعطاك من الخير الكثير في الدنيا والآخرة صل له الصلوات الخمس المكتوبة وصلاة العيد وصلاة النوافل وغيرها، ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: وانحر هديك وأضحيتك له وباسمه عز وجل بعد صلاة العيد. والنحر يكون للإبل، والذبح لغيرها.

أي: أخلص لله تعالى في صلاتك ونحرك، ولا تبال بمن يتعبد لغير الله فيسجد لغير الله وينحر لغير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكان ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»[(٢)].

وقد جعل الله عز وجل قرة عينه ﷺ وراحة بدنه في الصلاة[(٣)].

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة نحر منها

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم- باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ٣٣٥، ومسلم في- المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، وأحمد ٤/ ٣٠٣- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٣٩.

ثلاثًا وستين بيده الشريفة»(١).

وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن لا تتأسف على شيء من الدنيا، واترك الالتفات إلى الناس، ولا تبال بما ينالك منهم وعليك بالاعتصام بالله، والصلاة والنسك له، وفيها التعريض بحال الأبتر الشاني الذي صلاته ونسكه لغير الله.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾: استئناف فيه تعليل للأمر بالإقبال على الصلاة لربه والنحر له وعبادته وحده وعدم المبالاة بشانئه.

ومعنى ﴿شَانِئَكَ﴾، أي: مبغضك يا محمد. والشَنَآن: هو البغض الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ مقطوع الأثر والذكر.

والمعنى: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق هو مقطوع النسل والأثر والذكر، المقطوع عن كل خير، فلا تباله.

وفي هذا تثبيت لقلبه ﷺ وتقوية له، وقد أكد عز وجل هذا له بعدة مؤكدات: «إن»، وضمير الفصل «هو»، وتعريف الخبر، وكونه على وزن «أفعل» التفضيل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل لقوله عن نفسه ﴿إِنَّآ﴾ بضمير الجميع والعظمة.

٢- عظم ما أعطاه الله لرسوله ﷺ وأكرمه به وما وعده به من الخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

٣- إثبات الحوض المورود الذي أعطيه ﷺ في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وقد فسره ﷺ بالحوض المورود في الجنة.

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٧٨٧، والترمذي في الحج ٨١٧.

٤- أن العطاء والمنع من الله عز وجل فهو المعطي والمانع، رب جميع الخلق؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ورازقهم، فيجب التوجه بالسؤال إليه لا إلى غيره، كما قال عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

٥- إثبات وإظهار كبريائه عز وجل وعلو شأنه وعز سلطانه يؤخد هذا من الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، ولم يقل «فصل لي».

٦- تشريفه ﷺ بخطاب الله- عز وجل له، وربوبيته الخاصة له وتكريمه، والامتنان عليه بذلك.

٧- وجوب الإخلاص لله تعالى في جميع العبادات البدنية والمالية من الصلاة والنسك وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

٨- عدم جواز الأضحية قبل صلاة العيد لقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

وعن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعله فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء.

فقام أبو بردة بن نيّار، وقد ذبح، فقال: إن عندي جذعة، فقال: اذبحها، ولن تجزي عن أحد بعدك، فمن ذبح بعد الصلاة تم نسكه، وأصاب سنة المسلمين»[1].

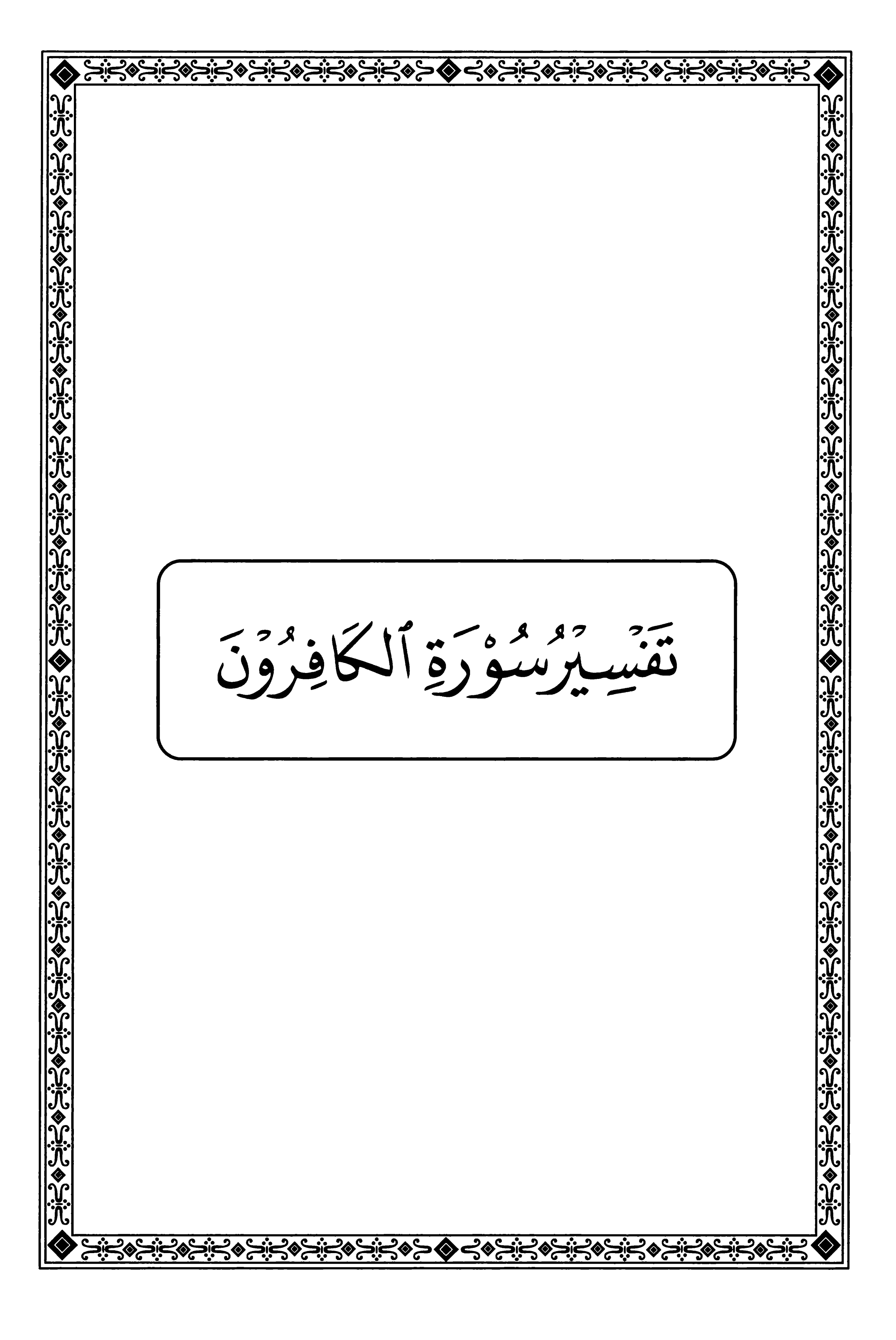
٩- أن الأبتر مقطوع الأثر والذكر، المقطوع من كل خير هو من أبغض رسول الله ﷺ وما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

١٠- دفاع الله عز وجل عن رسوله ﷺ وعنايته به وبأوليائه عز وجل، كما قال عز وجل ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

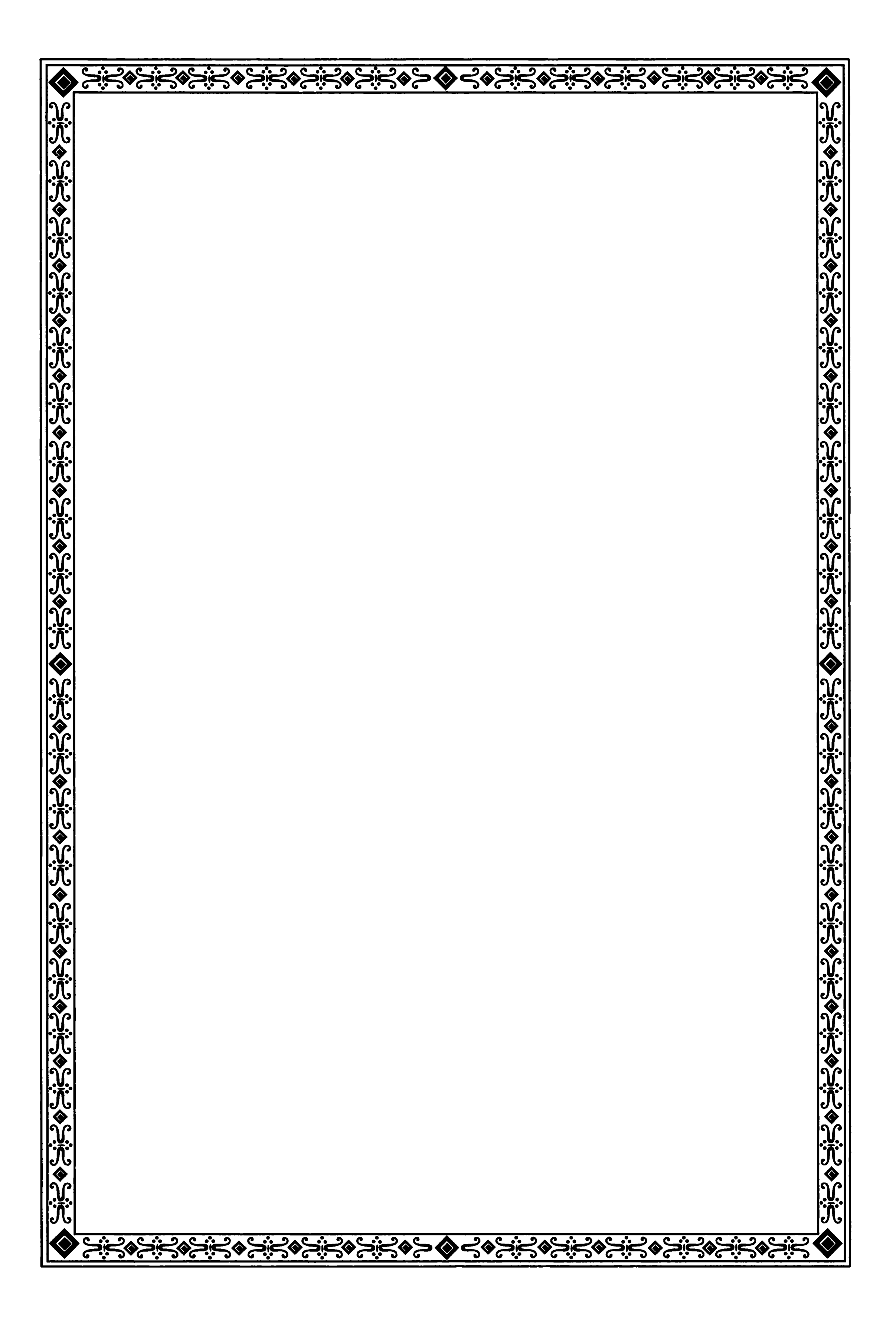
١١- أن العاقبة للتقوى، وأن الفوز والفلاح لأولياء الله عز وجل، وأن الخيبة والخسران والبوار لأعداء الله وأعداء رسله.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي ٥٥٤٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٦٣.



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡكَافِرُونَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكافرون»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وتسمى: «المقشقشة»، كما تسمى سورة الإخلاص بذلك.

قيل: لأنهما تقشقشا من الشرك، أي: تبرئان منه. كما تسمى «سورة براءة» بالمقشقشة؛ لأنها تبرئ من النفاق.

وتسمى: «سورة الكافرون» أيضًا: «سورة العبادة»، و «سورة الدين».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قرأ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، و بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر**»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «**أن الرسول ﷺ يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب**»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يقول: «نعم السورتان هما تقرئونهما في الركعتين قبل الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٩٦٣، والترمذي في الحج ٨٦٩، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٦، والنسائي في الافتتاح ٩٤٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٤٨.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٩٢، والترمذي في الصلاة- تخفيف ركعتي الفجر ٤١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- فيما يقرأ في الركعتين قبل الفجر ١١٤٩، وأحمد ٢/ ٢٤، ٩٤، ٩٩- وقال الترمذي: «حديث حسن».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ** ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **في ركعة واحدة**»[1].

وعن فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أويت إلى فراشي. قال: «**اقرأ** :﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، **فإنها براءة من الشرك**»[2]. وتقدم في مقدمة سورة الزلزلة حديث أنس رضي الله عنه «أن سورة الكافرون تعدل ربع القرآن».

د- موضوعاتها:

- إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبراءة من الشرك وأهله.

* * *

(١) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، ١٧٠٣، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

رُوِيَ أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة فأنزل الله هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [ن: ٩].

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ «يا»: حرف نداء، و «أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى منصوب على أنه مفعول به، و«الكافرون»: صفة لأي، أو بدل منها.

والكافرون: جمع كافر، والكفر في اللغة: الستر والتغطية والجحود، ومنه سُميَ الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسُمي وعاء طلع النخل كفرًا؛ لأنه يستر الطلع بداخله.

فالكافرون: من جحدوا شريعة الله، وأنكروا وجود الله، أو ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسماءه وصفاته، أو شيئًا مما أوجب الله الإيمان به، وهو ضد الإيمان.

والكافرون هنا مخصوص بمن سيموتون على الكفر، ممن علم الله أنهم لا يؤمنون كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأمية بن خلف، والأسود بن عبد المطلب وكعب ابن الأشرف، وأبي جهل وغيرهم.

ولهذا قال ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل «يا أيها الذين كفروا» للدلالة على هذا المعنى، وأن الكفر وصف ملازم لهم، مما يوجب البراءة والمجانبة لهم دائمًا.

ويحتمل أن المراد عموم الكافرين، أي جنس الكفار وهو ظاهر اللفظ.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا: نافية و«ما»: موصولة، أي: لا أعبد الآن الذي تعبدونه

من الأصنام والأوثان والأنداد، من الأحجار والأشجار وأصحاب القبور وغير ذلك، وأتبرأ من ذلك ظاهرًا وباطنًا.

وعبر بـ «ما»؛ لأن معبوداتهم منها العالِم وغير العالِم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، الواو عاطفة، و«لا»: نافية كسابقتها، والخطاب للكافرين.

و«ما» موصولة، وجاء التعبير بها هنا، وهي لغير العالم، لأن المقصود الصفة، وهو كونه عز وجل الموصوف بأنه المعبود الحق، كما أن «ما» و«من» يتعاقبان، فتأتي إحداهما مكان الأخرى.

والمعنى: ولا أنتم عابدون الآن الذي أعبد، وهو الله وحده لا شريك له.

وجاء النفي بـ «لا» في هذين الموضعين، وفي الموضعين بعدهما دون «لن»؛ لأن النفي بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأدل على دوام النفي وطوله.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: ولا أنا عابد في المستقبل الذي تعبدونه من الآلهة، ولا يجوز ذلك شرعًا، ولا يمكن أن يكون مني ذلك؛ لعصمته ﷺ.

فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي للفعل؛ لأنها جملة فعلية، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلًا لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي. وفي ذلك نفي للموافقة في المعبود، ونفي للموافقة في العبادة.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: ولا أنتم في المستقبل عابدون الذي أعبد، وهو الله عز وجل، بل ستزدادون بعدًا عن الحق، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

فالخلاصة أن النفي في الجملتين الأوليين نفي للعبادة في الماضي، وفي الجملتين الأخيرتين نفي للعبادة في المستقبل مع ما في ذلك من تأكيد النفي في الحالين، لكن نفي عبادته ﷺ معبوداتهم أبلغ في التأكيد؛ لأنه جاء مرة بالفعل، ومرة باسم الفاعل، بينما جاء نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل فقط.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، وهو: الكفر والشرك، ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ وهو: الإيمان والتوحيد.

وفي هذا إعلان البراءة والانفصال التام عن كل ما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن

كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وحذفت الياء من قوله: ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ مراعاة للفواصل - والله أعلم - كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قل﴾ وفي هذا الرد على طائفتين من طوائف أهل الضلال: الطائفة الأولى من يزعم من المشركين وغيرهم بأن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به، والطائفة الثانية طائفة الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٢- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٣- جواز مخاطبة الكافرين وندائهم بما هم عليه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤- تثبيت الله عز وجل لنبيه ﷺ على ما هو عليه من عبادة الله عز وجل وحده، في الحاضر والمستقبل لقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: في الحاضر، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: في المستقبل وفي هذا تيئيس للكافرين من تنازله ﷺ لهم عن شيء مما جاء به، وبيان لعصمة الله عز وجل له عن ذلك.

٥- استمرار هؤلاء الكفار الذين وجه لهم النداء في هذه السورة على الكفر، وأنهم لا يمكن أن يؤمنوا، فكما لم يؤمنوا في الماضي، فلن يؤمنوا في الحاضر، ولا في المستقبل، لقوله في الموضعين ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

٦- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء في الأزل، كما قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل

الشقاوة»[1].

فمن كتب الله له الهداية فلا سبيل لإضلاله، ومن كتب عليه الضلالة فلا سبيل لهدايته.

ومن تقدير الله سبحانه ثباته ﷺ على عبادة الله وحده وعدم عبادته ما يعبده الكافرون، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر وعدم عبادتهم لمعبوده ﷺ وهو الله وحده لا شريك له.

٧- إثبات علم الله الأزلي المحيط بكل شيء ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومن ذلك إخباره عز وجل بثباته ﷺ على الإيمان والإخلاص، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر والشرك.

٨- إثبات إعجاز القرآن الكريم فيما أخبر به من أخبار وقعت كما أخبر.

٩- إثبات نبوته ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله حق لما اشتمل عليه من أخبار وقعت كما أخبر.

١٠- وجوب البراءة المحضة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ وإثبات العبادة لله وحده لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فالأول نفي عبادة غير الله، والثاني إثبات العبادة لله عز وجل وحده، فتضمنت السورة النفي والإثبات، وهو معنى كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله»، ومعنى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا سميت هذه السورة مع ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورتي الإخلاص، وكان النبي ﷺ يقرن بينهما في سنة الفجر وسنة المغرب، وركعتي الطواف وفي الوتر.

١١- الإشارة إلى ما كان عليه ﷺ من الثبات على عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وأن ذلك هو المقصود الأول من السورة؛ لهذا قدم قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وهو براءته من معبوداتهم، على ذكر براءتهم من معبوده، والذي هو المقصد الثاني من السورة، والذي هو أيضًا مكمل ومحقق لبراءته ﷺ من معبوداتهم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦ وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي رضي الله عنه.

١٢- تقرير المفاصلة والمباعدة بين أهل الإيمان والتوحيد، وأهل الكفر والشرك، وعدم الالتقاء بين الفريقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وفي هذا رد على من يريدون التوفيق بين الأديان الباطلة والمنسوخة وبين الإسلام، وبين المعتقدات الباطلة وبين معتقد أهل السنة والجماعة، فشتان بين الحق والباطل.

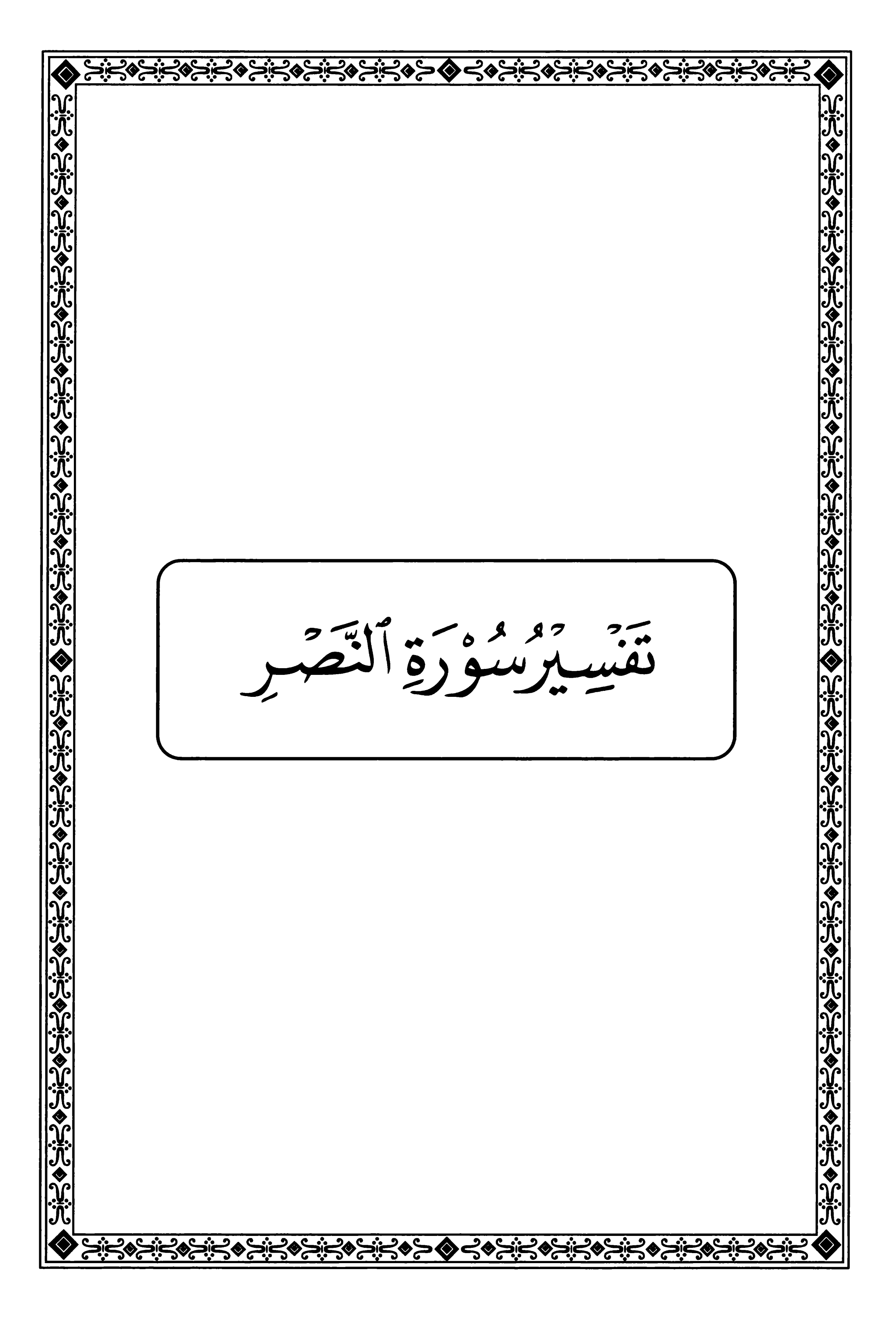
شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان [1]

١٣- التهكم بالكفار فيما اختاروه لأنفسهم من نصيب الكفر والشرك بدل عبادة الله وحده، يدل على هذا تقديم قسمهم ونصيبهم في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فهم أشبه بمن اقتسم مع شريكه سمًا وعسلًا فرضي لنفسه بالسم ولشريكه بالعسل.

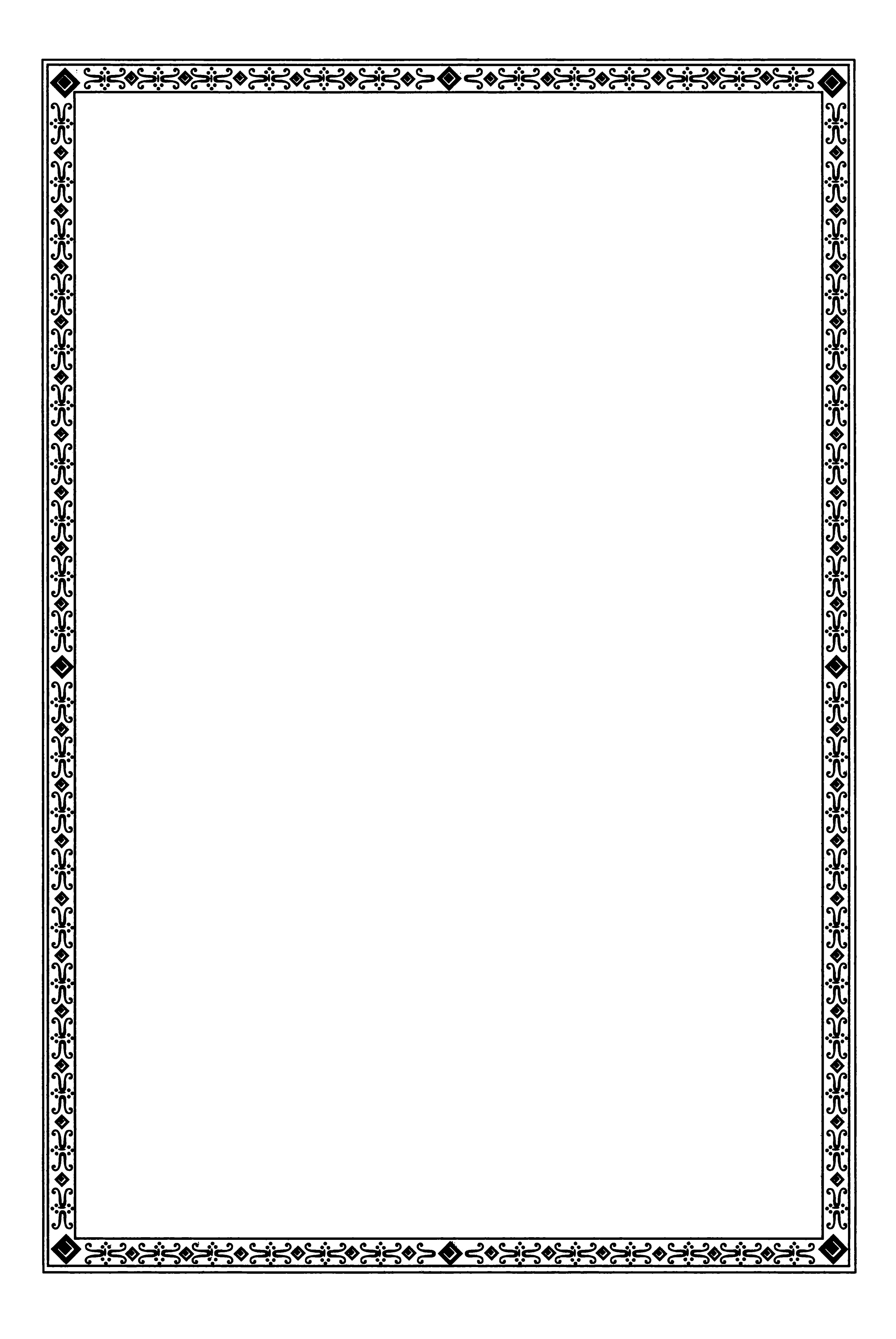
* * *

---

(١) هذا البيت من القصيدة النونية لابن القيم انظر ص١١.



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّصۡرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة النصر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

وتسمى: «سورة إذا جاء نصر الله والفتح»، و«سورة الفتح»، و«سورة التوديع».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. قال: صدقت»[(١)].

جـ- فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «سورة النصر تعدل ربع القرآن»[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- الوعد والبشارة بنصر الله وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا.

٢- الامتنان عليه ﷺ بالنصر والفتح وحثه على التسبيح والاستغفار والاستعداد للقاء الله تعالى.

٣- الإيذان بقرب وفاته ﷺ، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: « إنه قد نُعِيَتْ إليّ نفسي » فبكت ثم ضحكت، وقالت:

---

(١) أخرجه النسائي فيما ذكر ابن حجر في «فتح الباري» ٨/ ٧٣٤، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣١.

وقد أخرج البخاري في التفسير ٤٦٥٤ عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «أن آخر سورة نزلت براءة» والمراد به- والله أعلم-: بعضها، وأن آخر سورة نزلت كاملة هي النصر. انظر: «فتح الباري» ٨/ ٣١٦، ٧٣٤.

(٢) سبق تخريجه في تفسير «سورة الزلزلة».

أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: « اصبري فإنك أول أهلي لحاقًا بي» فضحكت»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصوءا فرحلت. ثم قام فخطب الناس... فذكر خطبته المشهورة»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه ممن علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أعلم منها إلا ما تقول»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره؛ يعني: ونصلي له، ونستغفره معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح

(١) أخرجه البيهقي- فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٨/ ٥٢٩. وأخرجه أحمد ١/ ٢١٧، ٣٤٤، ٣٥٦ مختصرًا دون ذكر فاطمة، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي حاتم في « تفسيره » ١٠/ ٣٤٧٢- الأثر ١٩٥٢١ من حديث أم حبيبة رضي الله عنها قصة بكاء فاطمة.. الخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الحج- باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق ٥/ ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ٤٩٦٩، ٤٩٧٠، والترمذي في التفسير ٣٣٦٢، والطبري في «جامع البيان » ٣٠/ ٢١٥- ٢١٦

(٤) في « تفسيره » ٨/ ٥٣٢.

مكة ثماني ركعات. وفي سنن أبي داود: « أنه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين »[١].

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن.

قال ابن كثير: وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة- وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجًا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾».

وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله» فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل نفديك، أو فديناك بآبائنا وأمهاتنا وأموالنا»[٢].

وهكذا روي عن جميع المفسرين من التابعين ومن بعدهم أنها في الإخبار بدنو أجله ﷺ والاستعداد للقاء ربه[٣].

ولهذا روي: «أنها لما نزلت بكى عمر والعباس رضي الله عنهما. فقيل لهما: إن هذا يوم فرح. فقالا: بل فيه نعي النبي ﷺ»[٤].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٥٧، ومسلم في الحيض ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة١٢٩٠، ١٢٩١، والنسائي في الطهارة ٢٢٥، والترمذي في الصلاة ٤٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٢٣ عن أم هانئ: «أنه ﷺ عام الفتح قام فصلى ثمان ركعات... قالت: وذاك ضحى».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ من حديث ابن أبي المُعَلّى عن أبيه رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب»، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر «الكشاف» ٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر « جامع البيان » ٣٠/ ٢١٥- ٢١٦.

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، «إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة قال الزمخشري[١]: «منصوب بسبح وهو لما يستقبل. قال: والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة».

ويحتمل كونها للماضي، بمعنى: إذ قد جاء، وعليه تكون متعلقة بمقدر، كـ «كمل الأمر» أو «أتم النعمة على العباد» أو نحو ذلك، لا بـ«سبح».

و « جاء » فعل ماضٍ مبني على الفتح، وهو فعل الشرط.

﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: عونه لك على الأعداء من كفار قريش وغيرهم.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾: فتح مكة. وعطفه على قوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو من نصر الله من عطف الخاص على العام؛ تنويهًا بشأنه.

و «ال» فيه للعهد الذهني، أي: الفتح العظيم المعروف المعهود في أذهانكم.

قال ابن كثير[٢]: «والمراد بالفتح هـهنا فتح مكة قولًا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه، فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا».

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، وحين دخلها ﷺ وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »[٣].

﴿ وَرَأَيۡتَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿ٱلنَّاسَ﴾: البشر، بنو آدم من العرب وغيرهم.

---

(١) في « الكشاف » ٤/ ٢٣٩.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٥٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في العمرة ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤- من حديث ابن عمر مطولًا.

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، على اعتبار أن «رأيت»، بصرية، أو هي مفعول ثان على اعتبار «رأيت» علمية.

ومعنى ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: يسلمون، فيدخلون في دين الله «الإسلام» الذي لا يقبل الله من أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿أَفۡوَاجٗا﴾ جمع فوج، والفوج: الجماعة، أي جماعات، جماعات.

عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم[١] بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن. قيل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال قوم رقيقة قلوبهم، ليِّنة طباعهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية»[٣]. وفي رواية زيادة «سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[٥].

قال ابن كثير[٦]: «فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض

---

(١) تتلوم، أي: تنتظر. انظر «لسان العرب» مادة «لوم».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٠٢، والنسائي في الأذان ٦٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣١.

(٤) ذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٥٧٥، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبوداود في المناسك ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٣.

سنتان حتى استو سقت [١] جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل لـه: ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون من دين الله أفواجًا» [٢].

والمعنى: إذا أتم الله لك النصر على الأعداء، وفتح مكة، ودخل الناس في دين الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك الخ.

ويؤيد هذا ظاهر السياق، وإجراء «إذا» على معناها للاستقبال ويكون في هذا البشارة بحصول ذلك، وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، ويكون نزول السورة قبل فتح مكة.

ويحتمل أن المعنى: قد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا. ويؤيد هذا ما جاء في أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، وفتح مكة قبل ذلك بسنتين تقريبًا، ويكون في ذلك الامتنان عليه ﷺ بما تم من النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿ فَسَبِّحْ ﴾هذا أمر، والأمر في الأصل للوجوب.

والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: متلبسًا بحمد ربك، أي: حامدًا لـه مثنيًا عليه واصفًا له بالكمال مع المحبة والتعظيم قارنًا جامعًا بين تسبيحه عز وجل وحمده، بقولك: «سبحان الله وبحمده»، «سبحانك ربنا وبحمدك» ونحو ذلك.

وبما هو أعم من ذلك، بذكره وشكره عز وجل، وعبادته والصلاة لـه وغير ذلك؛ ولهذا لما فتح ﷺ الكعبة صلى ثماني ركعات.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾، أي: سله واطلب منه المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما جاء في حديث ابن

(١) أي: امتلأت إيمانًا، انظر: «لسان العرب» مادة «وسق».
(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣.

عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه- أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، إلى قوله: فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

وقَرَن عز وجل التسبيح والتحميد باسم الرب وصفة الربوبية تذكيرًا بنعمه عز وجل، وهو أنه هو المربي بنعمه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

كان: مسلوبة الزمان، أي: كان ومازال سبحانه وتعالى.

﴿تَوَّابَۢا﴾، أي: ذا التوبة الواسعة الكثيرة العظيمة، فهو كثير التوفيق لعباده للتوبة، كثير القبول لتوبة من تاب منهم، يتوب على الكثيرين مرات وكرات.

وتوبة الله على العبد: تنقسم قسمين:

القسم الأول: توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب، كما قال عز وجل عن الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبوله توبة عبده إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلا يقول: فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٢).

وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن »(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣، وأحمد ٢/ ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ٤٩٦٧، ومسلم في الصلاة ٤٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ٤٩٦٨، ومسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأبوداود في الصلاة- الدعاء في الركوع والسجود ٨٧٧، والنسائي في =

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابًا، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده»، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخر السورة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- البشارة بنصر الله لرسوله ﷺ وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾. بعد أن كانوا من أعدائه. وقد وقع هذا المبشر به.

٢- تحقيق نصر الله عز وجل للرسول ﷺ والمسلمين وتمكينهم من فتح مكة

التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٤٩، ١٩٠. ومعنى «يتأول القرآن، أي: يرى أن ذلك معنى قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ وعملا بمقتضاه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأحمد ٦/ ٣٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ /٢١٦.

(٣) سبق تخريجه.

وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال بعضهم: المعنى: قد جاء نصر الله والفتح.

٣- دخول الناس في دين الله أفواجًا بعد نصر الله لرسوله ﷺ والمسلمين وفتح مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

بخلاف ما كان عليه الأمر قبل الفتح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحديد: ١٠].

٤- امتنان الله- عز وجل- على رسوله ﷺ والمؤمنين بنصره لهم، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وأن ذلك من نعم الله تعالى عليهم الموجبة لشكره، ولهذا قال بعده ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

٥- أن النصر بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٦- وجوب تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، مقرونًا ذلك بحمده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

٧- أن لله عز وجل الكمال المطلق من جميع الوجوه، والحمد المطلق، فهو المنزه عن جميع النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وهو المحمود في جميع الأحوال وعلى كل حال.

٨- التذكير بنعم الله على العباد التي لا تحصى، من نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، فَقَرْنُ الحمد بوصف ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ فيه تذكير بنعمه- عز وجل- عليه وعلى أمته.

٩- تشريفه ﷺ وتكريمه بربوبية الله- عز وجل- الخاصة له وخطابه عز وجل له،

وإضافة وصف الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

١٠- وجوب الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وهو أمر لـه ﷺ ولأمته.

ولهذا كان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة»[1].

وكان يقول ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2].

وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اغفر خطئي وعمدي، وجدِّي وهزلي، وإسرافي في أمري، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»[3].

وليس في أمره عز وجل لنبيه ﷺ بالاستغفار ما يلزم منه وقوع الذنب منه ﷺ مع أنه ﷺ وكذا غيره من الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، ومن الوقوع في الكبائر، أما الصغائر فقد تقع منهم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكنهم لا يُقَرُّون عليها، بل سرعان ما يتوبون منها[4].

١١- وجوب شكر الله على نعمة النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل بتسبيحه وتحميده واستغفاره والتوبة إليه.

١٢- مشروعية سجدة الشكر، وقول «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥، وأحمد ٤/ ٢١١، ٢٦٠- من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٩٨، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٩٣- ٣١٣، ١٥/ ١٥٠، «الرسل والرسالات» للأشقر ص١٠٧- ١١١.

في الركوع والسجود؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(١).

١٣- الإشارة إلى أن النصر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولم يزل نصر الله لدينه في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لما كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة بحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله، ولما حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله أصابها ما أصابها من الضعف والاختلاف والتفرق، ووعد الله بالنصر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

١٤- الإشارة إلى قرب دنو أجله ﷺ، وحثه ﷺ على ختام عمره بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، ليستعد ويتهيأ للقاء ربه.

١٥- فضل التسبيح والتحميد والاستغفار؛ لأن الله أمر بذلك في ختام الأعمار، كما في هذه السورة، وأمر به في ختام الأعمال، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

١٦- وجوب الاستعداد للقاء الله عز وجل، والانتقال من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لهي الحياة الحقيقية.

فيجب على كل إنسان الاستعداد لهذا اللقاء العظيم، ولذلك الانتقال، وأن يزداد في الاستعداد لذلك كلما تقدم به العمر، فيكثر من التسبيح بحمد الله واستغفاره، فإن التسبيح والتحميد والاستغفار ختام الأعمال وختام الأعمار، ولنا في نبينا ﷺ خير أسوة فقد أمره الله عز وجل بذلك بعد أن أتم لـه النصر والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتقدم به العمر صلوات الله وسلامه عليه، فكان يكثر من تسبيح الله عز وجل وحمده واستغفاره وذكره استجابة لأمر الله عز وجل لـه في هذه السورة، وفي قولـه:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨]. فكان أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو التوبة الواسعة العظيمة، يتوب على من يشاء من عباده؛ بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فائـــدة: بم يكون الاستعداد للقاء الله؟

يكون الاستعداد للقاء الله عز وجل بأمور عدة من أهمها ما يلي:

الأمر الأول:تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهي رأس الأمر كله، ومن أعظم ما يعين على ذلك ما يلي:

أولًا: التفكر في عظمة الله عز وجل، وما له من صفات الكمال والجلال، مما جاء في الكتاب والسنة، ودلت عليه الآيات الكونية. قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانيًا: التفكر في نعم الله عز وجل على العباد، التي لا تحصى، وثمرة شكرها وآثار كفرها، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثالثًا: التفكر في حقارة الدنيا، ودنو منزلتها، وكيف وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى:﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٣).

ويالله ما مدى بركة عمر من وفقه الله لهذا التصور، ثم أعطاه من العمر ما أعطاه.

ويا لله ما أقل بركة عمر معمر غاب عنه هذا التصور، وعاش غافلًا لاهيًا حتى فاجأه الأجل.

ولقد أحسن القائل(٤):

فما نحن في دار المنى غير أننا ... شغفنا بدنيا تضمحل وتذهب

فحثوا مطايا الارتحال وشمروا ... إلى الله والدار التي ليس تخرب

رابعًا: التفكر في عظمة الآخرة وعلو مكانتها ورفعة منزلتها، وأنها دار القرار ودار الحياة الحقيقية، إما نعيم أبدي، نسأل الله من فضله، أو عذاب سرمدي، نسأل الله السلامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

خامسًا: أن يتفكر الإنسان في ضعفه، فهو من أضعف المخلوقات، إن لم يكن

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٤) البيتان للشاعر ابن عثيمين. انظر: «ديوانه» ص٤٩٨.

أضعفها، وعمره بالنسبة لأعمار من سبق من الأمم لا يساوي شيئًا. قال ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»[1].

فيستمد قوته من القوي المتين سبحانه، ويستمد بركة العمر من الحي القيوم الذي لا يموت.

سادسًا: أن يكون فراق هذه الدنيا، والرحيل منها دائمًا منه على بال، وأن يكثر من ذكر هاذم اللذات «الموت».

كما قال ﷺ «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[2].

فمن وفقه الله عز وجل للتفكر في هذه الأشياء كان ذلك- بإذن الله عز وجل- من أكبر العون له على تقوى الله.

فمن عظم الله عز وجل وقدره دعاه ذلك إلى الفرار إليه واللجوء إليه ومحبته وخوفه ورجائه، ومن تفكر في نعمه عز وجل على العباد دعاه ذلك إلى شكره، ومن تفكر في حقارة الدنيا دعاه ذلك إلى عدم الاغترار بها، ومن تفكر في عظمة الآخرة دعاه ذلك إلى الإقبال عليها والتزود لها، ومن تفكر في ضعفه دعاه ذلك إلى استمداد القوة من القوي المتين، ومن تفكر في قصر عمره دعاه ذلك إلى الحرص على استغلاله بالخير والعمل الصالح، ومن تذكر الموت والرحيل من هذه الدار دعاه ذلك إلى المبادرة بالعمل الصالح أيام الحياة، والاستعداد للدار الآخرة.

الأمر الثاني: مما يستعد به للقاء الله والدار الآخرة:

أداء ما عليه من حقوق لله تعالى، أو للخلق، والخروج منها كلها وبخاصة حقوق الخلق من الدماء والأعراض والأموال وغير ذلك، فإن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، فأمك وأبوك وولدك كل منهم سيطالبك بحقه إن كان له حق عندك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٧، والنسائي في الجنائز ١٨٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

بل إن العاقل اللبيب يحرص كل الحرص على عدم تحمل أي حق للخلق من الديون وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الأجل، ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، كما جاء في الحديث[١].

ومن صدق الثقة بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه أن يعفو الإنسان عما له من حقوق عند الآخرين، من دم أو عرض أو مال ونحو ذلك ما أمكنه ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فاحرص أخي المسلم بارك الله فيك على أن تقدم على ربك وليس لأحد من الخلق عليك حق ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وتأمل خطورة الأمر، وتذكر قول الناصح الأمين ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٢].

واحرص أخي المسلم على مسامحة إخوانك المسلمين والعفو عن هفواتهم، واعلم أنك كما تدين تدان، فإن كنت تحب أن يعفو الله عن ذنوبك وهفواتك فاعف عن الآخرين، وكن من الذين قال الله فيهم: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٤٣]. نسأل الله

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز ١٠٧٨، ١٠٧٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٤١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكريم من فضله.

واحذر أن يكون في نفسك حقد أو عداوة أو ضغينة أو حسد لأحد من المسلمين، حتى وإن أساء إليك، واعلم أنه قل من يسلم من ذلك، واعلم أن هذا مركب صعب وعقبة كؤود وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

واعلم أخي المسلم أنك لن تهدأ، ولن تنام قرير العين ولن تذق طعم السعادة حتى تجعل العفو والتسامح ديدنك، وما إخالك ترضى بالدون، وأنت تجد ما هو أعظم وأوفى منه، فإن من كان شعاره العفو والتسامح فأجره على العفو الكريم، بلا حد ولا عد ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فعالج قلبك، والعاقبة للمتقين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، عسى أن تلقى الله وقد تخلصت مما عليك من الحقوق فلا أحد يطالبك بشيء، وعفوت عما لك من الحقوق فيكافئك عن ذلك صاحب العفو والفضل والإحسان بكرمه وجوده- وما أراك تعدل بهذا شيئًا.

وتأمل وفقك الله مدى الفرق الشاسع والبون الواسع بين من يأتي غدًا يطلب حقوقه عند الآخرين من أقاربه وجيرانه وإخوانه وغيرهم فيقتطع له من أعمالهم بقدر حقه ولو كان مثقال ذرة، وبين من يقال له بلسان الحال أو المقال: أنت سامحت أصحاب الحقوق التي لك والله- عز وجل- أولى منك بالمسامحة، فخذ ما شئت من الأجر والفضل بلا حد ولا عد- شتان بين هذا وهذا، وبين الثرى والثريا.

الأمر الثالث مما ينبغي أن يستعد به للقاء الله تعالى:

كتابة وصيته، وما عليه من حقوق، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له

شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[١].

والوصية واجبة بالاتفاق إذا كان الإنسان عليه أو له حقوق يجب بيانها وكتابتها، كأن يكون عليه ديون للناس، أو له عليهم ديون، ليؤدَّى ما عليه من حقوق من تركته، ولأن الحقوق التي له على الناس تعد من تركته.

وجمهور العلماء على أنها مستحبة إذا لم يكن عليه حقوق يجب بيانها فيستحب أن يوصي بشيء من ماله للفقراء والمساكين من غير الوارثين. قالوا: لأن وجوب الوصية منسوخ بآيات المواريث.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة قالوا: لأن آيات المواريث إنما هي مخصصة لآية الوصية خصصتها في الأقربين غير الوارثين. فالميراث للوالدين والأقربين الوارثين، والوصية لغير الوارثين.

ومما ينبغي أن يعلم من أحكام الوصية أمران، وهما من الأهمية بمكان:

الأول: مقدارها.

اعلم أخي المسلم- بارك الله فيك- أن الوصية جائزة في الثلث وما دونه لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»[٢].

ويستحب أن تكون الوصية دون الثلث، لقوله ﷺ لسعد: «والثلث كثير».

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لكان أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير، أو كبير»[٣].

وقال ابن عباس أيضًا: «الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع،

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٣٨، ومسلم في الوصية ١٦٢٧، وأبوداود في الوصايا ٢١١٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٥، والترمذي في الجنائز ٩٧٤، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨، وأبوداود في الوصايا ٢٨٦٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٢٦، والترمذي في الوصايا ٢١١٦ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٣، ومسلم في الوصية ١٦٢٩.

والذي يوصي بالربع أفضل من الذي يوصي بالثلث»[١].

وقد أوصى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بالخمس وقال: «رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه ورسوله»[٢] يعني في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال علي رضي الله عنه: «لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إليَّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئًا»[٣] فالأفضل أن تكون الوصية في الخمس، وعليه أكثر السلف، واستحب بعضهم إذا كان المال كثيرًا والورثة أغنياء أو قلة أن يزيد من الخمس إلى الربع لأنه أنفع للفقراء والمساكين[٤].

والعجيب أن كثيرًا من الناس يعتقدون أن الوصية لابد أن تكون في الثلث، وكأنها لا تجوز بأقل منه، وذلك أمر مشتهر بين عامة الناس من المنتسبين إلى العلم والعوام، ينقله الخلف عن وصايا السلف.

الأمر الثاني: مصرفها:

اعلم أخي- بارك الله فيك- أن الوصية ينبغي أن توجه للأفضل من أعمال البر، وأن تكون مطلقة في وجوه البر كلها يُقدّم الأهم فالأهم، ويترك ذلك للناظر على الوصية.

والعجيب في هذا الأمر: أن كثيرًا من الوصايا في السابق مقيدة في جهات- هي بلا

(١) أخرجه البيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في الوصايا «المصنف» ٩/ ٦٦، الأثران ١٦٣٦٣- ١٦٣٦٤، وابن أبي شيبة في الوصايا «المصنف» ١١/ ٢٠٠- الأثر ١٠٩٦٥، والبيهقي في الوصايا «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠.

(٣) أخرجه عن علي عبد الرزاق في الوصايا ٩/ ٦٦ وابن أبي شيبة في الوصايا ١١/ ٢٠٢، والبيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٤) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق ٩/ ٦٦، ٦٧، «المصنف» لابن أبي شيبة ١١/ ٢٠٠- ٢٠٣، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠، «أحكام القرآن» للهراسي ١/ ٣٧٠، «الكشاف» ١/ ٢٥٠، «المحرر الوجيز» ٤/ ٩٣، «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٩٢، «العذب الفائض» ٢/ ١٨٢.

شك من البر- لكن نفعها وفضلها أقل، كأن تكون مقيدة في حجة أو أُضحية أو عشاء في رمضان، وهذه وإن كانت من وجوه البر فهناك ما هو أولى منها وأهم كبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم والسنة المطهرة ومساعدة الفقراء والمساكين وحفر الآبار وفتح الطرق، وبناء المستشفيات والمراكز لغسيل الكلى وعلاج الأورام وغيرها، ودور الرعاية الاجتماعية وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون في مصالحهم العامة والخاصة.

كما أن مما يستحب أن يوصي به أهله ومن خلفه تقوى الله والصلاة، وحقوق من تحت أيديهم، فعن علي- رضي الله عنه- قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[١].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ- حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[٢].

وفي حديث أم سلمة- رضي الله عنها: «فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه»[٣].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنه ﷺ أخذ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[٤]، وعنها: أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى»[٥].

هذا وقد استحب بعض أهل العلم أن يكتب في صدر الوصية ما رواه محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: «كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان، إنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وأن الجنة حق، وأن النار حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٥٦، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٧، وأحمد ٣/ ١١٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ١٦١٩، وأحمد ٦/ ٢٣١.

﴿يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وأوصى من تركه من أهله أن يتقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]»[(١)].

وإنني أقول بهذه المناسبة يجب على طلبة العلم والمحاضرين والخطباء تنبيه الناس إلى هذه الأحكام وأمثالها التي تخفى على الكثيرين وهي من مهمات أمور الدين. وفق الله الجميع لكل خير.

وأخيرًا، وعودًا على بدء أقول: إن من الاستعداد للقاء الله والدار الآخرة- مع ما سبق ذكره- أن يكون الإنسان كلما تقدم به العمر أكثر تنظيمًا لأحواله وتفرغًا لعبادة ربه، فإن الله عز وجل في هذه السورة العظيمة سورة النصر آذن رسوله ﷺ بقرب وفاته، وبانتهاء مهمته في هذه الحياة، وأمره بالتوجه إلى الله والتفرغ لتسبيح الله وحمده واستغفاره، كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ولن يتيسر ذلك للإنسان إلا إذا اكتفى من التعلق بالدنيا بما تدعو الحاجة إليه، وهو نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وأنت أخي المسلم أحد رجلين: إما منّعم موسع عليه في رزقه، وإما مبتلى مضيّق عليه في ذلك- كما ذكر الله عز وجل[(٢)]، فإن كنت ممن ابتلي بضيق الحال، وقلة ذات اليد، وتحتاج إلى الكد والعمل الساعات الطويلة للسعي في طلب الرزق، لإعفاف نفسك وأهل بيتك، مما لا تستطيع معه التفرغ للعبادة فالزم أداء الفرائض واجتناب النواهي مع القيام بما قدرت عليه من النوافل، وأبشر بالخير فإنك مثاب مأجور على

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» الوصايا- كيف تكتب الوصية ٩/ ٥٣، وابن أبي شيبة في «المصنف» الوصايا ١١/ ٢٣٢، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٢٢٧.

(٢) في قوله تعالى ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وإما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ [الفجر: ١٥- ١٦].

طلب الرزق لإعفاف نفسك بإذن الله عز وجل فإن السعي لطلب الرزق من طاعة الله تعالى وعبادته. فإن الإنسان يؤجر حتى على ما يجعل في في امرأته(١).

وإن كنت ممن نعمّه الله ووسع له في رزقه فاحذر أن تبطرك النعمة وتلهيك الدنيا عن طاعة الله عز وجل، وفرغ نفسك بعض الوقت لعبادة ربك والاستزادة من نوافل العبادة، واحرص على ذلك كلما تقدم بك العمر، وخذ أكبر نصيب من ربك، واحفظ دينك، وقدم مالك وقاية لدينك، فإن كان لك أموال تشغلك إدارتها، من تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غير ذلك فشجع أولادك على مساعدتك، بل وعلى النيابة عنك لتتفرغ لما هو أهم وهو عبادة ربك، ولا تبخل على أولادك في هذا ولوشاطرتهم بعض مالك، فالمال إن بخلت به عنهم شغلك عن طاعة الله حتى آخر لحظة من عمرك، ثم تركته وانتقل بعدك إليهم، بل لا تبخل بمالك على من تقيمه يدير أعمالك وإن لم يكن من أولادك مادام أنه يكفيك إدارة تلك الأموال لتتفرغ لعبادة ربك بقلب حاضر خاشع منيب.

واعلم أن الدنيا بما فيها لا قيمة لها إذا أضعت نصيبك من ربك.

وختامًا أقول: أخي المسلم تذكر أن المفازة بعيدة، وأن السفر طويل، وأن العقبة كؤود، فأعدَّ للأمر عدته.

بكى أبو هريرة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، ثم قال رضي الله عنه: «والله ما أبكي على دنياكم هذه، وإنما أبكي على طول سفري وقلة زادي»(٢).

وبكى بعض السلف عند وفاته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي إذا صلى المصلون ولست فيهم، وإذا صام الصائمون ولست فيهم وإذا ذكر الذاكرون ولست فيهم»(٣).

وإن مما يثير العجب أن الواحد منا إذا أراد سفرًا من الأسفار كالسفر للحج أو

---

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «وإنك لن تنفق نفقه تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك» أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٠.

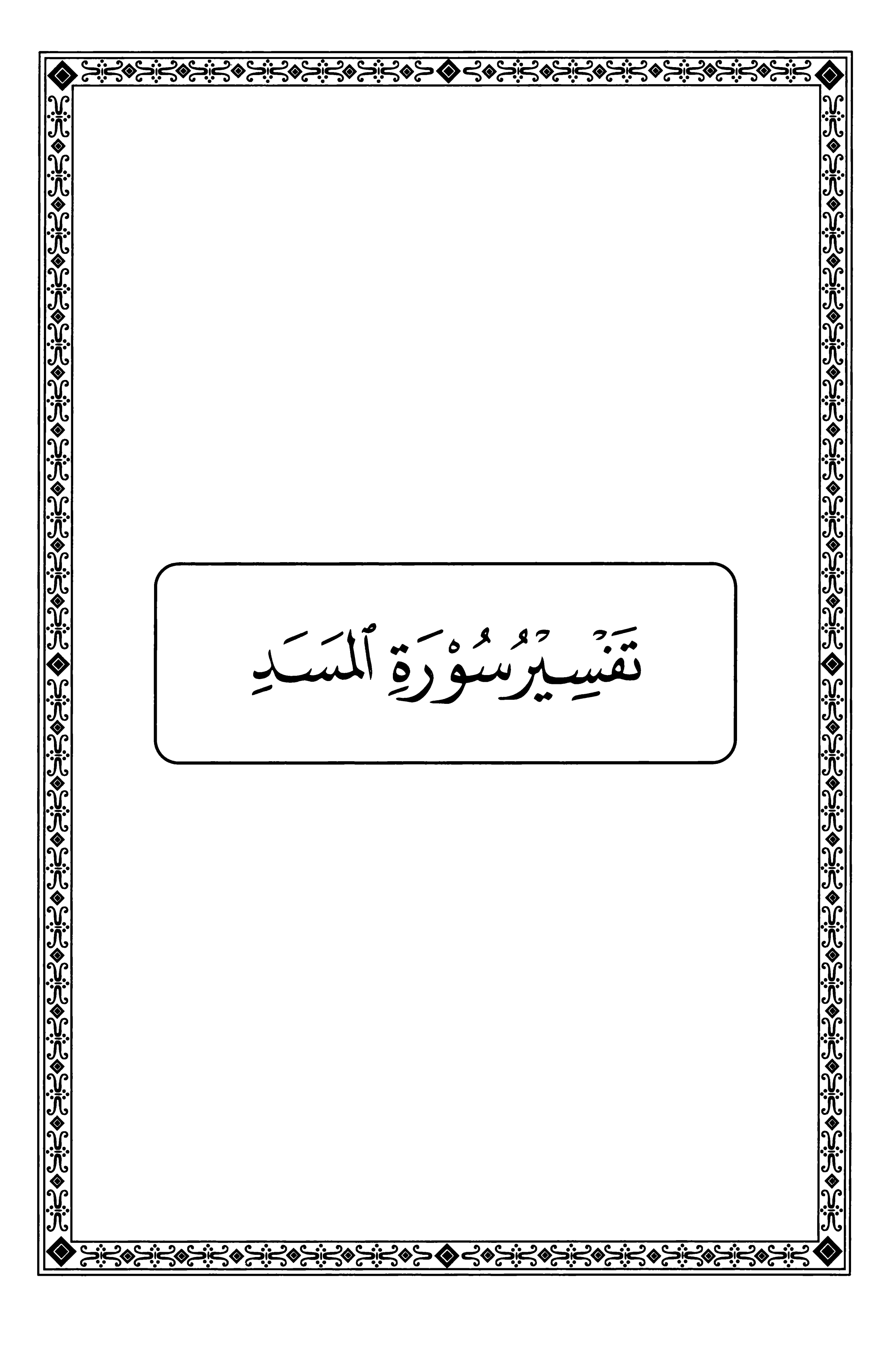
(٣) انظر: «شعب الإيمان» ٥/ ٤٢٠ (٣٦٥٠)، «المحتضرين» لابن أبي الدنيا ص١٤٦ (١٩٢)، «التبصرة» لابن الجوزي ١/ ٢١٧، «لطائف المعارف» لابن رجب ص٣٠١.

العمرة أو غير ذلك يعد للأمر عدته ويتجهز لذلك بإعداد الزاد والمزاد والراحلة واختيار الرفقة، ويتفقد السيارة ومحركاتها وعجلاتها ونحو ذلك.

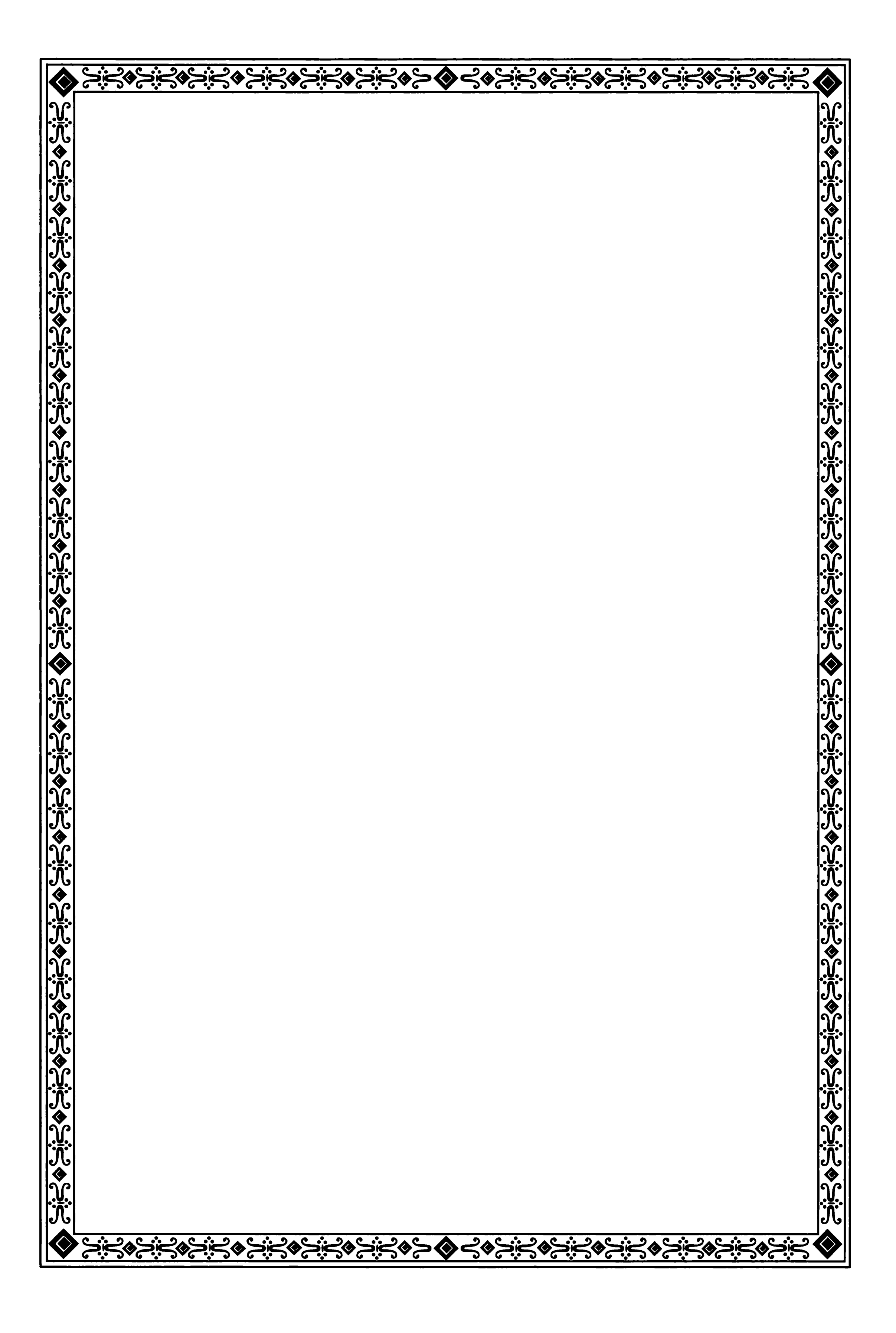
بل إن بعض الناس إذا هم بسفر من الأسفار ظل طول ليله يدخل ويخرج، يرقب الصباح، ولم تذق عينه غمضًا اهتمامًا وتحفزًا لهذا السفر- فأين هذا السفر من السفر للقاء الله والدار الآخرة.

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا للاستعداد لما أمامنا، ووفقنا للإخلاص والسداد في القول والعمل، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلمَسَدِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المسد» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ٥].

وتسمى: «سورة تبت»، و «سورة أبي لهب»، و «سورة اللهب».

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ- موضوعاتها:

١- الحكم على أبي لهب بالتباب والخسران، وتوعده وامرأته بالنار الملتهبة.

٢- تحذير المكذبين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبًا لك، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

وفي رواية: «فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»[(١)].

قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قرأ ابن كثير: «أبي لهْب» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بفتحها.

﴿تَبَّتْ﴾، أي: خسِرت وخابت وهلكت، والتباب: هو الهلاك والخيبة والخسران، يقال في المثل: «أشابة أم تابة، أي: هالكة من الهرم والتعجيز.

وأبو لهب: هو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة، وإنما سمي بـ «أبي لهب» لإشراق وجهه ووضاءته، وكان شديد البغض والعداوة والكراهة للنبي ﷺ، شديد التنقص له ﷺ، والازدراء به، وبدينه، كثير الأذية له ﷺ، لا دين يردعه، ولا حمية للقرابة تمنعه.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ ٤٩٧١- ٤٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧١٥- ٧١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٣.

عن أبي ربيعة الديلي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذا غديرتين[١]، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب»[٢].

ومعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: هلك وخاب وخسر وشقي هو بنفسه، وضل عمله وسعيه، وإنما خص التباب باليدين؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤].

ولا يقال في مثل هذا مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل، بل واضح من السياق أن المراد بذلك الشخص نفسه.

وليس في ذكر «أبي لهب» بكنيته تكريم له، كما يقال: إن الأصل في الكنية التكريم، وإنما ذكر بكنيته- والله أعلم- ليشتهر أمره، لأنه مشهور بكنيته، ولأن اسمه «عبد العزى» معبد لغير الله وليوافق نسبه وكنيته ما آل إليه، فهو أبو لهب وسيصلى نارًا ذات لهب.

﴿وَتَبَّ﴾، أي: تحقق هلاكه وخيبته وخسرانه فعلًا، فلم يربح، وهذا إخبار من الله عز وجل بمصيره ونهايته، وأنها التباب والهلاك والخيبة والخسران قال ابن كثير[٣]: «الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه».

وقد وقع هذا كما أخبر الله عز وجل، حيث مات أبو لهب على الكفر والشرك فخسر دينه ودنياه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾، ﴿مَآ﴾: نافية، أي: ما دفع عنه العذاب ماله الذي كان يجمعه عنده ويحتمل أن تكون «ما»: استفهامية ويكون المعنى: أيّ شيء أغنى عنه ماله

---

(١) الغديرتان: هما الذؤابتان من الشعر.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١- ٣٤٢ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٣٥١، ٤٢٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٤ والدعاء عليه يحتمل أن يراد به تعليم الله عباده الدعاء عليه، وأمرهم بذلك، ويحتمل أن يراد به ذمه في الملأ الأعلى، كما أن الصلاة على النبي ﷺ من الله معناها: الثناء عليه في الملأ الأعلى.

الذي كان يجمعه.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والذي كسب، أو وكسبه.

أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء، ومن الجاه ومن الولد وغير ذلك؛ لأن الولد من الكسب، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم»[(١)].

وقد روي عنه أنه كان يقول: «إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[(٢)].

والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل أو ولد وغير ذلك، والذي كان سبب طغيانه، ولم يدفع عنه عذاب الله، والتباب والخسران في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن قوم نوح ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾، أي: سيدخلها ويقاسي حرها ولفحها، ويغمر فيها، وتحيط به من كل جانب. والسين للاستقبال، وتفيد الوعيد، أي: هو كائن لا محالة، وإن تراخى وقته إليها، ونكرت «نارًا» للتهويل والتعظيم.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات: صفة لـ «نارًا» منصوبة، أي: ذات توقد واشتعال، وشرر ولهيب، وإحراق شديد.

فلم ينفع أبا لهب قربه من النبي ﷺ، لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله وقد أحسن القائل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالًا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب[(٣)]

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع- الرجل يأكل من مال ولده ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات- ما للرجل من مال ولده ٢٢٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقد سبق تخريجه من حديث عائشة ١/ ٢٨٣.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٥ من رواية ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٤١٤.

ولما سأل ﷺ ربه أن يدعو لأمه أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

ولما شق عليه ﷺ وعز عليه أن يموت عمه أبو طالب على الكفر مع الأيادي البيضاء التي قدمها للنبي ﷺ في الدفاع والذود عنه طيلة حياة أبي طالب أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم(١)

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، الواو عاطفة، «وامرأته»: معطوف على الضمير المستتر في قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾.

فالتقدير سيصلى هو وامرأته نارًا ذات لهب، ويحتمل كون الواو استئنافية وامرأته: مبتدأ، وخبره جملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ﴾.

﴿حَمَّالَةَ﴾ قرأها عاصم بالنصب، مفعول به لفعل محذوف تقديره «أذم»، وقيل: حال من «وامرأته»، وقرأها الباقون بالرفع: ﴿حَمَّالَةَ﴾ صفة لـ «امرأة».

و﴿حَمَّالَةَ﴾ مضاف، و ﴿الْحَطَبِ﴾ مضاف إليه.

وهي أم جميل العوراء، واسمها أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، وكانت شديدة الأذى لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ.

وكانت تحمل الشوك من الحسك والسعدان وغير ذلك وتلقيه في طريق النبي ﷺ أذية له وكرهًا، وكانت تمشي بالنميمة.

يقال: فلان يحطب على فلان، إذا ورّش عليه ووشى به، قال الشاعر:

---

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

من البيض لم تُصطد على ظهر لأمة ... ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب[١]

يعني: لم تمش بين الحي بالنميمة، وجعل الحطب رطبًا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر.

فهي بأذيتها للرسول ﷺ وسعيها بالفساد والنميمة، ومساعدتها لزوجها على الباطل والكفر والجحود والفساد تجمع على ظهرها الأوزار كما تجمع الحطب في النار لتحرق نفسها وزوجها.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ «في جيدها» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«حبل» مبتدأ مؤخر «من مسد» جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ «حبل» التقدير: كائن من مسد.

و«جيدها»: عنقها ورقبتها.

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، أي: مما يفتل فتلًا قويًا من الحبال من الليف، أو الخوص، أو الجلود وغير ذلك.

قال الجوهري[٢] : «المسد: الليف، والمسد أيضًا: حبل من ليف أو خوص، قد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومَسَدت الحبل أمسُده مسدًا: إذا أجدت فتله».

والمعنى: في عنقها حبل مفتول فتلًا قويًا من النار يطوق به.

وقد رُوِيَ أنها كانت لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلًا في جيدها من مسد النار[٣].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء، أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مذممًا أبينا... ودينه قلينا... وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا

(١) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ٤٣٤، «شرح نهج البلاغة» ٥/ ٢٢.

(٢) في «الصحاح» مادة «مسد».

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣٦.

رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت، وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها»[1].

الفوائد والأحكام:

١- ذم أبي لهب وخيبته وخسرانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ وهذا دعاء عليه، وذم له.

٢- حكم الله تعالى الكوني بهلاك أبي لهب وخسرانه، وإبطال كيده الذي يكيد به للرسول ﷺ ولدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾.

٣- أن ما حكم الله به كونًا نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾ وهذا من الله إخبار بأن أبا لهب تب وخسر فعلًا، وهذا موجب أن يموت أبو لهب على الكفر والشرك وقد وقع ذلك.

٤- أن المال والكسب من الولد وغيره لا يغني عن صاحبه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ولا يدفع عنه أو يمنعه عذاب الله إذا لم يتخذ العبد له وقاية من عذاب الله بالإيمان بالله والعمل الصالح.

٥- أن المال والولد ونحو ذلك قد يكون سببًا للفتنة، ورد الحق، والتكبر عن الانقياد له، والغرور بذلك، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى عن الوليد ابن المغيرة: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١١-

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٢- الأثر ١٩٥٢٢. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٦ وقال: «وقد روى الحافظ أبو بكر البزار معناه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال البزار: «لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه».

١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

٦- الوعيد لأبي لهب وامرأته حمالة الحطب في إصلائهما النار ذات اللهب والشرر والتوقد والاشتعال الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

٧- أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، وأنه لا ينفع الإنسان غدًا إلا ما قدم من الإيمان والعمل الصالح، فلا ينفع الإنسان شرف نسبه، ولا قرابته، مع الكفر والشرك والمعاصي، فأبو لهب عم النبي ﷺ لم ينفعه ذلك لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله، بل سيصلى نارًا ذات لهب.

٨- صحة أنكحة الكفار فيما بينهم لقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ وهكذا أسلم الكثير من الصحابة، ولم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد أنكحتهم، وكان ﷺ يدعوهم لآبائهم.

٩- أن مما تعذب به امرأة أبي لهب حمالة الحطب أن يجعل في عنقها حبل من مسد النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

١٠- التحذير من أذية الرسول ﷺ والمؤمنين وقد ذكر المفسرون أن امرأة أبي لهب كانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعين زوجها على أذيته والكيد له وللإسلام والمسلمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

١١- التحذير من السعي بين الناس بالنميمة، وقد ذكر أهل التفسير أن امرأة أبي لهب كانت تمشي بالنميمة بين الناس.

والنميمة من أكبر الكبائر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٠٩، ومسلم في الطهارة ٤٣٩، وأبو داود في الطهارة ١٩، والنسائي في =

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»[(١)].

قال الفضيل بن عياض: «ثلاث تهد العمل الصالح، وتفطر الصائم، وتنقض الوضوء[(٢)]: الغيبة والنميمة والكذب»[(٣)].

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: «إياكم والنميمة فإنها محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر»[(٣)].

قال بعضهم:

إن النميمة نار ويك محرقة ... ففر عنها وجانب من تعاطاها[(٤)]

١٢- في هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

١٣- في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح، وبرهان ساطع على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل فحيث دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتباب حكم الله عز وجل- عليه بذلك، وكما كان هو وامرأته يؤذيان النبي ﷺ كان لهما العذاب والأذى في نار جهنم.

* * *

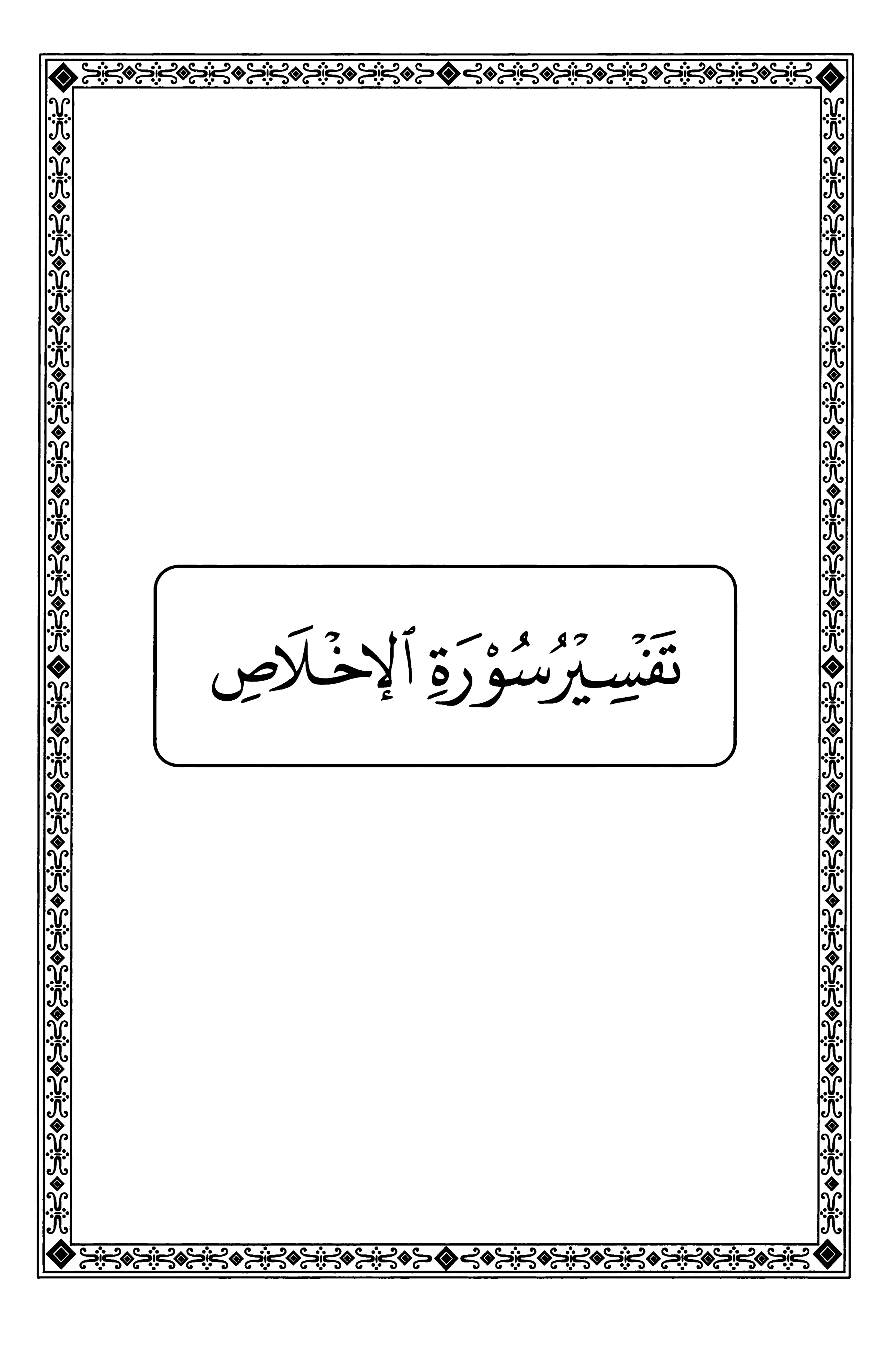
= الجنائز ٢٠٤١، والترمذي في الطهارة ٦٥ وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤١.

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان ١٠٥، وأبو داود في الأدب ٤٨٧١، والترمذي في الصلة ٢٠٢٦.

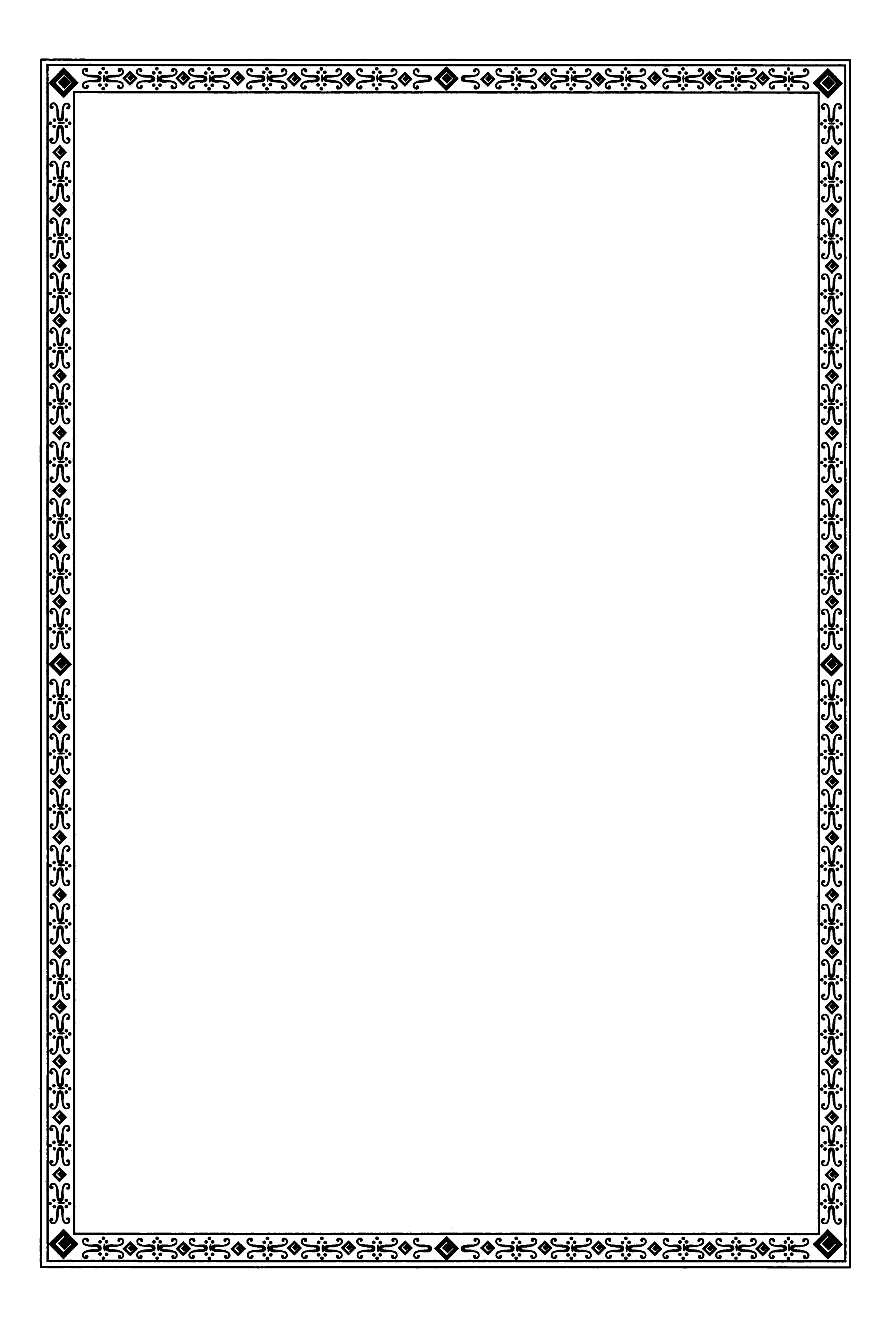
(٢) كونها تهد العمل الصالح ظاهر فأعمال النمام تذهب لغيره، وأما كونها تفطر الصائم وتنقض الوضوء فمعناه أنها تنقص الأجر.

(٣) انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٥٠٢.

(٤) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٩.



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلإِخْلَاصِ



المقدمة(١)

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الإخلاص»؛ لإخلاصها التوحيد بأقسامه الثلاثة لله تعالى وحده.

وتسمى: «سورة قل هو الله أحد»، و«سورة الصمد»، و«سورة التوحيد» و«سورة الأساس»، و«المقشقشة». وغير ذلك.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

سورة الإخلاص سورة عظيمة من أعظم سور القرآن الكريم لما اشتملت عليه من الدلالة على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ ولهذا سميت سورة الإخلاص.

وقد وردت أحاديث عدة في فضلها، وفضل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، وللاستشفاء بها، وفي أنها تعدل ثلث القرآن، إلى غير ذلك. منها ما يلي:

١- ما ورد في فضل قراءتها، وفضل حبها وحب قراءتها:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه، لأي شي يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»(٢).

---

(١) قد أفردت هذه السورةمع سورتي المعوذتين برسالة سميتها «الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير، مع ما فيها من الإطناب والاستطراد لأمور تربوية وتوجيهية وفوائد أرجو من الله العلي القدير أن ينفع بها وأن يعفو عني.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين - فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، =

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرا سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه في كل ركعة»؟ قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة»(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب»(٣).

٢- ما ورد في أنها تعدل ثلث القرآن:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

= ٨١٣، والنسائي في الافتتاح - الفضل في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٩٩٣.

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الأذان ٧٧٤، والترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في سورة الإخلاص ٢٩٠١، وقال: «حديث غريب»،وأخرجه أحمد ٣/ ١٤١ مختصراً عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن - ماجاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٧، ومالك في الموطا - كتاب القرآن - ما جاء في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حديث ٤٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٧ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤: «تفرد به أحمد» وأخرجه الدارمي في مسنده من حديث سعيد بن المسيب بأطول من هذا، ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤ وقال: «مرسل جيد».

أَحَــدٌ ﴾يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(١).

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ﴾ ثلث القرآن»(٢).

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده لتعدل نصف القرآن، أو ثلثه»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج النبي ﷺ، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ثم دخل. فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت سأقرأ عليكم

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان - باب كيف كان يمين النبي ﷺ، ٦٦٤٣، وفي فضائل القرآن - فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ٥٠١٣، ٥٠١٤، وفي التوحيد ٧٣٧٤، وأخرجه أبوداود في الصلاة ١٤٦١، والنسائي في الافتتاح ٩٩٥. وروى نحوه من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أحمد ٤/ ١٢٢، وابن ماجه في الآداب - ثواب القرآن ٣٧٨٩.

(٢) أخرجها البخاري في فضائل القرآن - باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ٥٠١٥ وقد أخرج مسلم في صلاة المسافرين - فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ٨١١، وأحمد ١/ ٤٧٧ - من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. وكذلك روى نحوه من حديث أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أحمد ٥/ ٤١٨- ٤١٩، والترمذي في فضائل القرآن - فضل سورة الإخلاص ٢٨٩٦.

ومن حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن» أخرجه أحمد ٦/ ٤٠٣-٤٠٤.

وهكذا روي عن نفر من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه النسائي في اليوم والليلة. انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٤٢.

(٣) أخرجها البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٤، وأحمد ٣/ ١٥، ورُويَ معنى هذا من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أخرجه أحمد ٢/ ١٧٣.

ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن»[١].

وذلك لأن فيها إثبات التوحيد بأقسامه الثلاثة، والقرآن: توحيد وقصص وأحكام[٢].

٣- ما ورد في فضل قراءتها مع المعوذتين في الصباح والمساء.

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «قل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»[٣].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال يا عقبة: «أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٤] قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ؛ فابتدأني فأخذ بيدي فقال يا عقبة بن عامر: «ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم قال: يا عقبة، «لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن»، قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن» وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨١٢، والترمذي في فضائل القرآن - ماجاء في سورة الإخلاص ٢٩٠٠، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٧.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤١.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٢٠٧-٢٠٨.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥٠٨٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٢٨، ٥٤٢٩، والترمذي في الدعوات ٣٥٧٥، وأحمد ٥/ ٣١٢.

(٤) في هذا التوجيه الكريم: التحذير من فضول الكلام، وفضول مخالطة الأنام، والحث على صدق الإنابة والتوبة من الآثام. والله المستعان.

فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك [(١)]»[(٢)].

٤- ما ورد في قراءتها مع المعوذتين عند النوم:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[(٣)].

وسبق ذكر قراءتها مع سورة الكافرون في ركعتي الطواف، وفي الركعتين قبل الفجر، والركعتين قبل المغرب، وقراءتها مع سبح والكافرون في الوتر[(٤)].

٥- ما جاء أن فيها اسم الله الأعظم:

عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو، يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله

---

(١) هذه الصفات الثلاث لا تتوفر إلا لمن وفقه الله للتذرع بالصبر كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٥].

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨-١٥٩، وأخرجه الترمذي مختصراً - وليس فيه ذكر خيريّة هذه السور - في الزهد - ما جاء في حفظ اللسان ٢٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

وهذا الحديث إن صح لا يعارض ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي سعيد بن المعلى وغيره من أن سورة الفاتحة هي أفضل وأعظم سورة في القرآن، وتكون خيرية هذه السور الثلاث بين سور القرآن ما عدا سورة الفاتحة التي هي أفضل سورة في القرآن بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - باب المعوذات ٥٠١٧، وأبوداود في الأدب ما يقال عند النوم ٥٠٥٦، والترمذي في أبواب الدعوات - ما يقرأ من القرآن عند النوم ٣٤٠٢، وابن ماجه في الدعاء ، ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ٣٨٧٥.

(٤) راجع مقدمة سورة الأعلى وسورة الكافرون.

باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[١].

د- موضوعاتها:

- إثبات الوحدانية لله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته فلا شريك له في ذلك ولا مثيل.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الوتر - باب الدعاء ١٤٩٣، والترمذي في أبواب الدعوات - جامع الدعوات ٣٤٧٥، وابن ماجه في الدعاء - باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

سبب نزول هذه السورة:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، الذي بعثك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه شيء ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٥/ ١٣٣- ١٣٤، والترمذي في التفسير- تفسير سورة الإخلاص ٣٤٢٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٧ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤- الأثر ١٩٥٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨. وقال «إسناده مقارب» وقال ابن كثير أيضًا- بعدما ذكر رواية ابن جرير لـه قال: «وقد أرسله غير واحد من السلف».
وقد روي من طريق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك» فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨ وقال: «قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره عن أبي وائل مرسلًا».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤- الأثر ١٩٥٣٤، وفي رواية عن يوسف بن عبدالله بن سلام أن عبد الله بن سلام قال: «يا رسول الله انعت لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة، فأسلم عبد الله بن سلام» أخرجها ابن أبي حاتم- الأثر ١٩٥٣٣.

ومحصل هذه الروايات بمجموعها أن المشركين من أهل مكة ومن أهل الكتاب سألوا النبي ﷺ أن ينسب ويصف لهم ربه فأنزل الله هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

﴿قُلْ﴾: أمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح لـه الأمر والخطاب من أفراد أمته، أي: قل قولًا جازمًا به، معتقدًا لـه، عارفًا بمعناه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، «هو»: ضمير الشأن مبتدأ، وخبره «الله أحد».

والجملة من المبتدأ وخبره في محل نصب مقول القول، وكذا ما بعدها.

ولفظ الجلالة «الله» معناه المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وذلًا وخضوعًا، وخوفًا ورجاءً.

وقال ﴿أَحَدٌ﴾ ولم يقل: الأحد؛ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى «أحدًا» في الإثبات مفردًا غير مضاف سواه سبحانه وتعالى، بخلاف النفي وما في معناه كالاستفهام، فإنه يقال: هل عندك أحد، وما جاءني أحد.

ومعنى (أحد)، أي الواحد، الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ ولهذا قال بعده ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

قال ابن كثير(١): «يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير لـه، ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله- عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله».

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل رفع خبر ثان لـ «هو».

وأدخل «ال» على ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأن المستحق لوصف الصمدية على الكمال والتمام هو الله وحده لا شريك لـه، بخلاف المخلوق فهو وإن سمي صمدًا من بعض الوجوه فلا يقال لـه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: بالصمدية المطلقة، وإنما يقال لـه «صمد» بمطلق الصمدية.

و«الصمد» المقصود في جميع الحوائج، المستغني عن كل ما سواه، والذي كل ما

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٤٧.

سواه محتاج ومفتقر إليه، الذي تصمد وتتجه إليه الخلائق، وتقصده في طلب قضاء حوائجهم ومسائلهم الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

و«الصمد»: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والذي بلغ من كل وصف مما يوصف به غاية كماله ونهايته، سؤددًا وشرفًا وعظمة وحلمًا وعلمًا وحكمة وحكمًا، الحي القيوم الذي لا زوال له، والذي لم يلد ولم يولد.

و«الصمد»: الذي لا جوف له، وقيل غير ذلك.

قال ابن تيمية(١) بعدما ذكر الأقوال في معنى «الصمد» قال: «قلت الاشتقاق يشهد للقولين جميعًا، قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل الثاني».

وقال ابن كثير(٢) بعد سياق كثير من الأقوال في معنى «الصمد»: «وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسيره «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: لم يكن له ولد، كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٥٦- ٣٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٤٧- ٥٤٨.

ﱡﭐٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﱠ [مريم: ٨٨- ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

﴿وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾، أي: لم يتولد من غيره، فيكون محدثًا، بل هو القائم بذاته، القيوم أزلًا وأبدا.

لأن «الولد»: ما تولد من شيء أو شيئين كآدم خلق وتولد من التراب، وحواء خلقت وتولدت من آدم، وعيسى تولد من مريم، أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق تولدوا من ذكر وأنثى.

وعلى هذا فالولد محدث مخلوق بعد أن لم يكن، كما قال عز وجل: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٦٧].

وما كان محدثًا مخلوقًا فهو يفنى، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والله عز وجل هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾، أي: ولم يكن لـه مكافئًا، ولا مماثلًا، ولا شبيهًا، ولا نظيرًا، كما قال عز وجل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

قال السعدي(١): ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات».

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٨٦.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن الرسول ﷺ اختلق القرآن، وأن هذا النظم كلامه ابتدأ به. كما أن في هذا الرد على الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ونبي ورسول لا يكذب.

٢- إثبات العبادة لله تعالى وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، لأن معنى لفظ الجلالة (الله): المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

٣- إثبات الوحدانية لله عز وجل، وأنه الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، بل كل هذه السورة دليل على إثبات توحيد الأسماء والصفات له عز وجل.

٤- إثبات ربوبيته عز وجل، وحاجة الخلائق كلهم إليه عز وجل، وغناه سبحانه وتعالى عمن سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، أي: الذي تصمد إليه الخلائق وتتجه إليه وتقصده بطلب قضاء الحوائج، إذ الخير كله بيديه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

٥- نفي الولد والمجانس والقريب المداني له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما قال عز وجل ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

٦- الرد على أهل الشرك من أهل الكتاب وغيرهم في نسبتهم الولد إلى الله عز وجل، وقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وزعم المشركين أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته[1]. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم»[3].

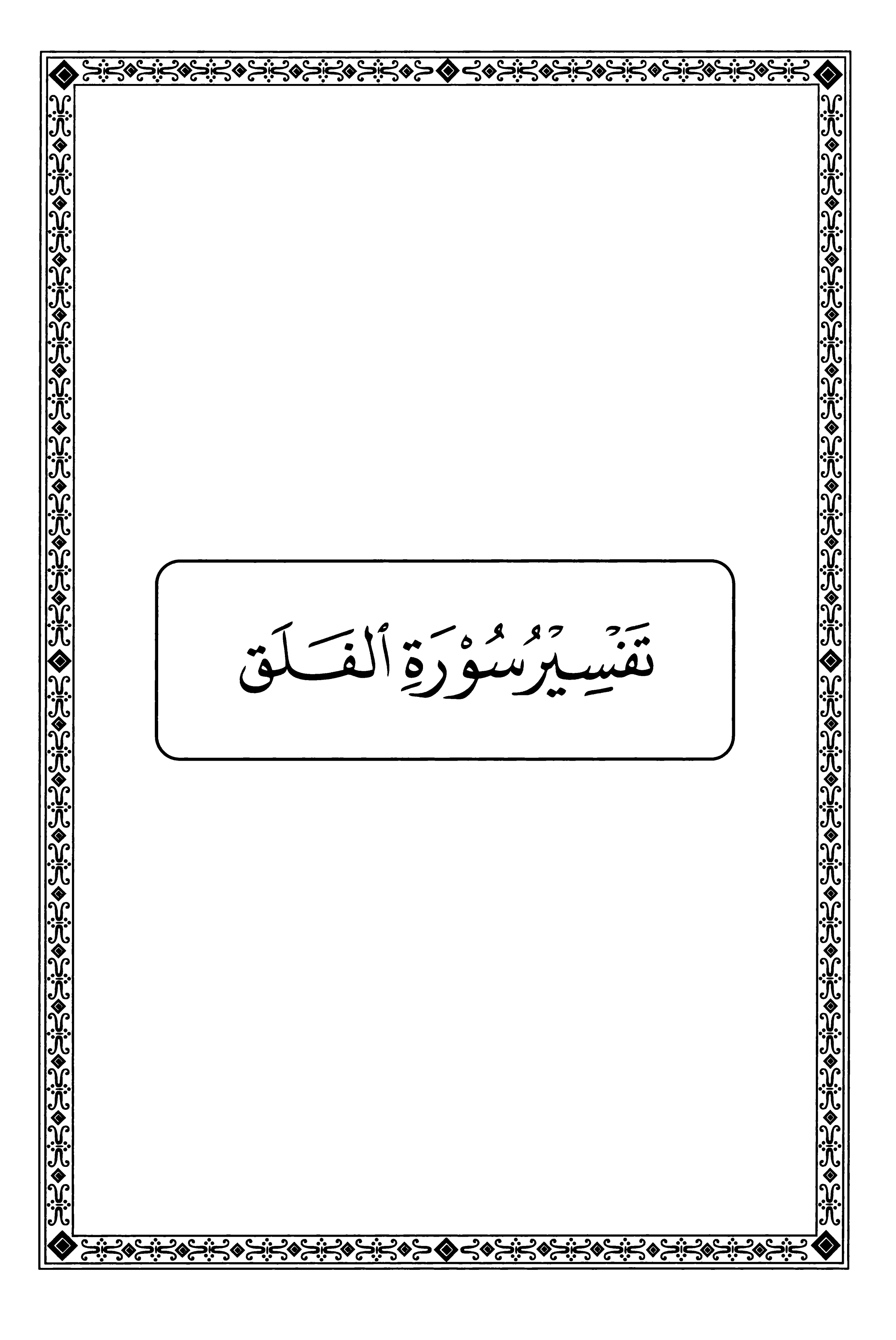
٧- إثبات أنه عز وجل الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾؛ لأن ما تولد من غيره محدث، ونهايته إلى الفناء والله عز وجل منزه عن ذلك كله، قال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

٨- تنزيه الله عز وجل عن المكافئ والشبيه والمثيل والنظير؛ لقوله تعالى:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾فلا مكافئ له ولا شبيه، ولا مثيل، ولا نظير، بل هو الواحد الأحد، في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

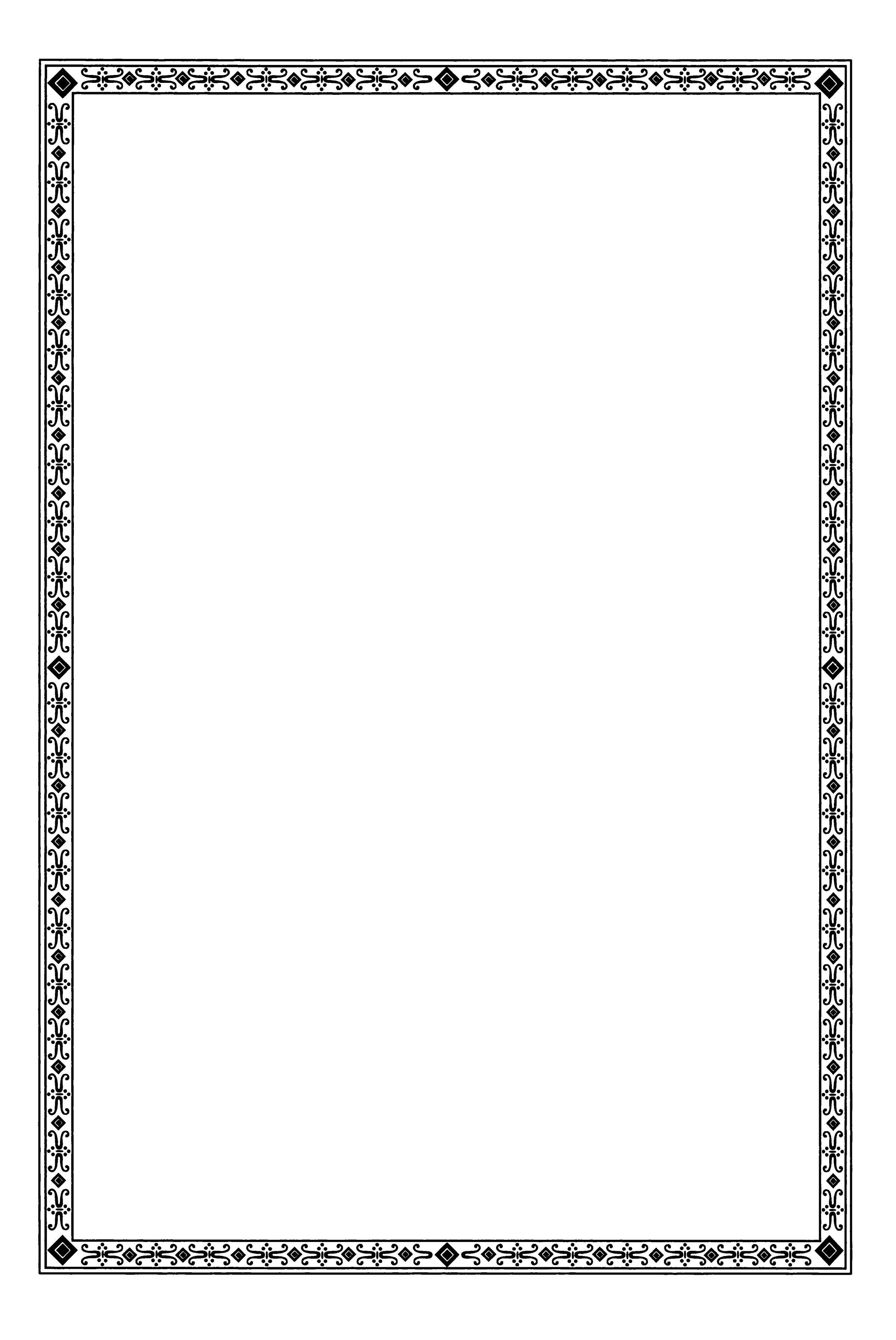
٩- وجوب الإقرار والاعتراف ظاهرًا وباطنًا، بنطق اللسان وتصديق القلب، وانقياد الجوارح بألوهية الله عز وجل ووحدانيته وصمديته وربوبيته، وتنزهه عن الولد والوالد والمكافئ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾إلى آخر السورة.

* * *

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨].
(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤، ٤٩٧٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٨.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، ٢٨٠٤.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الفَلَق



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفلق»؛ لقوله عز وجل في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الفلق»، وتسمى مع سورة الناس بـ «المعوذتين» عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات**».

وفي رواية بـ «المعوذتين» في دبر كل صلاة»[1].

وذكر أنهما تسميان: «المقشقشتين»، فيكون اسم «المقشقشة» مشتركًا بين عدة سور: الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس، وبراءة.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها: «**أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما- يعني المعوذتين- وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، وما بلغت يداه من جسده)**[2].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله: «سورة هود»، و «سورة يوسف». فقال: «لن تقرأ شيئًا أبلغ عند الله من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[3].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وأحمد ٤/ ١٥٥، وقال الترمذي «حديث غريب».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨١٤، والنسائي في الافتتاح ٩٥٣، والترمذي في تفسير المعوذتين =

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرني:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ، فقرأ بهما، ثم مرّ بي، فقال: «كيف رأيت يا عقيب، اقرأ بهما كل ما نمت وكلما قمت»[(١)].

وعن ابن عابس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له يا ابن عابس: «**ألا أدلك، أو قال: ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟**» قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتين السورتين»[(٢)].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذن الجان، وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ونزل ما سواهما**»[(٣)].

د- موضوعاتها:

- الإرشاد إلى كيفية الاستعاذة من الشر وأهله.

* * *

=

٣٣٦٨، وأحمد ٤/ ١٤٤، ١٤٦.

(١) أخرجه أبو داود في الوتر ١٤٦٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٠٢٤، ٥٠٢٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٣٢.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢٠٥٨، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

سبب النـزول:

روي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، أن هذه السورة مع سورة الناس نزلتا في سحر اليهود للنبي ﷺ[١].

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذ من الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما[٢].

قال ابن القيم[٣]: «فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيون التي أصلها كلها الوسوسة».

وقال أيضًا[٤]: «والمقصود: الكلام على هتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة، بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

﴿قُلْ﴾ الأمر فيه للرسول ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته ممن يصلح له الخطاب، فلا يدخل فيه المجنون والصغير ونحوهما؛ لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة؛ النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ»[٥].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٧، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٥٧.

(٢) كما سبق في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٠٠.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص ٥٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من =

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟ فقال: قيل لي، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ**»(١).

وجملة ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وما بعدها إلى نهاية السورة في محل نصب مقول القول.

ومعنى ﴿أَعُوذُ﴾: أعتصم وألتجئ وأستجير وأتحصن وأتحرز وألوذ وهذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو التعوذ.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، «برب» جار ومجرور متعلق بقوله: «أعوذ» وهذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو: المستعاذ به، وهو: «رب الفلق». والباء: للاستعانة.

و «الرب» في اللغة: مأخوذ من التربية والتنمية للشيء، والقيام عليه وإصلاحه.

قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]، أي: اللاتي تربونهن في حجوركم. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القيوم على كل شي سبحانه.

والرب: هو الخالق المالك المدبر، فرب الفلق خالقه ومالكه ومدبره.

ويأتي «الرب» بمعنى المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٤٩]، أي: آلهة.

ويأتي بمعنى «الصاحب»، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، فالمعنى هنا: صاحب العزة.

و«الرب» بالتعريف لا يطلق إلا على الله.

و«رب كذا» بالإضافة يطلق على الله وعلى غيره، فيقال: رب الدار، ورب الناقة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠].

وربوبية الله عز وجل لخلقه تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع خلقه بمعنى: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

=

حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس ٤٩٧٦، ٤٩٧٧.

وربوبية خاصة بأوليائه بتوفيقه لهم للطريق المستقيم في الدنيا، وفي الآخرة إلى الجنة، كما في قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

و«الفلق»: الخلق، والشق، وكل ما انشق عن شيء فهو فلق، فالصبح والحب فلق، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

أي الذي خلق وشق الحب والنوى، فأخرج منه النبتة فأخرج من الحبة السنابل الكثيرة المشتملة على مئات الحبات، كما قال عز وجل: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وأخرج من النواة النخلة، بل العدد من النخيل المثمرة، كما قال عز وجل: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وخلق وشق الصبح وضياءه من ظلام الليل الدامس البهيم، وفي الحديث: «أنه ﷺ ما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

وكل ما انفلق وانشق عن غيره من نبات، وحيوان وغير ذلك فهو فلق.

قال ابن تيمية رحمه الله(٢): «وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق استعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري- يعني الصبح- استعيذ من شر غاسق إذا وقب».

وقال ابن القيم رحمه الله (٣): «واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فَلَق «فَعَل» بمعنى «مفعول» كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله عز وجل ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وأحمد ٦/ ١٥٣، ٢٣٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٦.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٢.

الصبح المتصدع عن الظلمة «فَلَقًا وفَرَقًا» يقال: هو أبيض من فَرَق الصبح وفَلَقه.. يفرق ظلام الليل بالإصباح.. ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه: «فلقًا»».

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

في هذه الآيات: الركن الثالث من أركان الاستعاذة، وهو:«المستعاذ منه»، وهو أمور أربعة. الأول منها: ذكره الله عز وجل بقوله:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فهذا هو المستعاذ منه الأول في هذه السورة. وقوله﴿مِن شَرِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ«أعوذ»، و «ما»: موصولة، وهي تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي، أي: أعوذ برب الفلق من شر جميع المخلوقات التي فيها شر، سواء من شرور الدنيا أو الآخرة؛ من شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار، وشر النفس، كما قال ﷺ «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»[(١)]، وغير ذلك.

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، وإن كان مماليس فيه شر، بل هو خير محض كالجنة والملائكة، وكذا الأنبياء، فإنهم خير محض، بل الخير كله حصل على أيديهم.

فدخل تحت قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر، في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسيًا كان أو جنيًا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة، أو أي نوع كان من أنواع البلاء والشرور.

وقد رُويَ أنه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»[(٢)].

قال ﷺ: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، والترمذي في النكاح ١١٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٠٣- من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

شيء حتى يرتحل منه»[١].

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»[٢].

والشر: هو الآلام الحسية والمعنوية، الجسدية والنفسية، وما يسببها من الكفر والشرك والمعاصي، فما من ألم نفسي أو معنوي، جسدي أو نفسي، إلا سببه الكفر والمعاصي، قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «الشر يقال على شيئين على الألم، وعلى ما يفضي إليه، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع لذة، لكنها شرور؛ لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح، والإحراق في النار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه... وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٧- من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩- من حديث عبد الرحمن بن خَنْبَش رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٤- ٥٤٨.

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عاقبة عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم[1]

فما حفظت نعمة لله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد والهرب، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار» فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب... فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابه. وهذا من آكد أدعية الصلاة...».

(١) هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر «ديوانه» ص١٧٥، ١٧٦- جمع نعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقال ابن القيم أيضًا [(١)]: «والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود، يطلب رفعه، والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود، فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم، فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم».

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ هذا هو المستعاذ منه الثاني في هذه السورة، وهو والمستعاذ منه الثالث، والرابع كلها داخلة ضمن المستعاذ منه الأول، وهو قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾من باب التخصيص بعد التعميم؛ لعظم ضرر هذه الأشياء الثلاثة وشدة خفائها.

والغاسق هو الليل وظلمته، يقال غسق الليل وأغسق الليل إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾، أي: إذا أقبل ودخل في كل شيء، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[(٢)].

فالقمر غاسق إذا وقب، أي: إذا غاب، والليل غاسق إذا دخل بظلمته كل شيء.

وقيل المراد بغسق الليل: برودته.

قال ابن القيم[(٣)]: «ولا تنافي بين القولين فإن الليل بارد ومظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه».

والأظهر من القولين، القول الأول أن المراد بالغاسق الليل إذا أقبل ودخل بظلامه، ومنه القمر إذا وقب.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «التفسير» ٣٣٦٦. وقال «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٨، «بدائع التفسير» ٥/ ٣٩٧.

قال ابن القيم[1]: «والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة».

وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الليل إذا أقبل بظلمته ودخل في كل شيء، لأن الليل هو محل الظلام وفيه تتسلط وتنتشر شياطين الإنس والجن والهوام وغيرها من الأرواح الشريرة والخبيثة المؤذية والمفسدة.

ولهذا قال ﷺ: «إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئًا»[2].

وفي رواية: «فإن الله عز وجل يبث في ليله من خلقه ما يشاء»[3].

فالشياطين من الإنس والجن والحيوانات تتسلط في الليل؛ لأنه محل الظلام ما لا تتسلط بالنهار؛ لأن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل القلوب المظلمة بالكفر والمعاصي، الخالية من ذكر الله ونوره.

قال ابن تيمية[4] بعدما ذكر القولين في معنى «غاسق» قال: «فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن مالا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما

---

(١) في الموضعين السابقين.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٠، ومسلم في الأشربة ٢٠١٢، وأبوداود في الأشربة ٣٧٣٣، والترمذي في الأطعمة ١٨١٢، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧١- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجها أحمد ٣/ ٣٠٦، ٣٥٥.

(٤) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٧.

لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته. وأبو معشر البلخي له «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه».

وقال ابن القيم[1]: «روي أن سائلًا سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: «في ظلماء حندس» وسئل النبي ﷺ: «كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار»فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

ولهذا كان سلطان السحر إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم، كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص، وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور، الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات الكفر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]».

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: هذا هو المستعاذ منه الثالث في هذه السورة، وهو: شر النفاثات.

و«النفاثات»: جمع نفاثة، وهن السواحر اللاتي يرقين وينفثن في العقد، أي اللاتي يعقدن عقدًا وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر.

والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التَّفْل، وهو مرتبة بينهما.

والعقد: عقد الخيوط التي يعقدنها وينفثن فيها.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٠- ٥٦٢.

قال ﷺ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه»(١).

والمراد بالنفاثات: الأنفس الخبيثة السواحر، فيشمل جميع الأنفس السواحر الخبيثة، من الذكور والإناث.

وقيل المراد النساء السواحر، وخص النساء بالذكر؛ لأن السحر فيهن أكثر لضعف عقولهن ودينهن.

قال ابن القيم(٢): «والجواب المحقق أن النفاثات هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح ا لشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، ولهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم».

وقال أيضًا (٣): «والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي».

وقال الزمخشري (٤): «وعرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسق لأنه ليس كل غاسق فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات».

والسحر من صفات اليهود، فهم أسحر الناس، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم ٤٠٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.
(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٤.
(٣) انظر« التفسير القيم» ص٥٦٣.
(٤) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾هذا هو المستعاذ منه الرابع والأخير في هذه السورة، وهو شر الحاسد إذا حسد.

والحاسد: هو الذي يكره الخير للغير، أو يتمنى زوال النعمة عنهم. وربما سعى بمنع ذلك أوزواله عنهم بما يستطيع من الأسباب بفعله بيده، أو بقوله بلسانه أو بغير ذلك.

وهكذا ذكر ابن القيم[١] للحسد المذموم مرتبتين: الأولى: تمني زوال النعمة عن الغير، والثانية تمني استصحاب عدم النعمة، قال: «فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله، من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس».

وإبليس أول الحاسدين، حسد أبانا آدم عليه السلام على شرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدًا وكبرًا. وعلى هذا فالحسد يكون من شياطين الجن وشياطين الإنس، وهذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب، وهو المراد بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وفي الحديث: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»، أو قال «**العشب**»[٢].

وإنما حرم الحسد وعُد من كبائر الذنوب؛ لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمته الأرزاق بين عباده، كما قيل:

جلّ من قسّم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا[٣]

وأيضًا لما فيه من أذية المحسود بلا ذنب منه ولا جرم. وغير ذلك.

ويدخل في الحاسد: العائن الذي يؤذي المحسود بنفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، كما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

قال ابن كثير[١]: «أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية جبريل للنبي ﷺ قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك»[٢].

فقد أعاذ جبريل عليه السلام النبي ﷺ من شر عين كل حاسد.

وقال ﷺ: «العين حق، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[٣].

فالعائن حاسد، لكنه حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا- والله أعلم- إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن.

وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، أي: إذا أظهر حسده وحققه وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة.

وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»[٤]. لأنه إذا لم يظهر الحسد، ولم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر منه يعود على المحسود.

قال ابن القيم [٥]: «ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٦، وأخرجه أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها ٢١٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٨- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أيضًا بلفظ «العين حق» ٢١٨٧، وكذا البخاري في الطب ٥٧٤٠- كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن الأصفهاني في «الإيمان» عن الحسن البصري مرسلًا، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «التفسير» ٧/ ٣٧٥ من حديث حارثة بن النعمان بلفظ «إذا حسدت فاستغفر الله».

(٥) انظر «التفسير القيم» ص٥٧٣- ٥٧٤.

غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قبله إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله، ويتحصن به، ويكن لـه أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله، والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل».

وقال أيضًا [(١)]: «ومعلوم أن عينه- أي الحاسد- لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمّت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد...».

قال القرطبي [(٢)]: «والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون، ولقد أحسن من قال:

قـل للحسـود إذا تـنفَّس طعنـة ... يـا ظالمًـا وكأنـه مظلـوم»

فضرر الحسد إنما يعود على الحاسد؛ لاغتمامه بسرور غيره.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: «لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد» [(٣)].

وهو من أكبر الكبائر، ومحبط للأعمال.

وفي الحديث: «**إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب**» [(٤)].

وقال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء**» [(٥)].

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص٥٧٥.
(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٥٩.
(٣) انظر: «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٠- من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

قال الرازي: «ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة»(١).

وقال الحسين بن الفضل البجلي: «إن الله جمع الشرور في هذه الآية، وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أخس الطبائع»(٢).

فهو مع الكبر الذي حمل إبليس على ترك السجود لآدم والكفر والخروج من ملكوت السموات والأرض وطرده وإبعاده وتخليده في النار، كما قال عز وجل عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، و قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ص ٧٦].

وهو الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه لما تقبل الله قربانه دونه، كما قال عز وجل ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهو من صفات اليهود، فهو الذي حملهم على رد رسالة الحق، رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٥].

وهو مما حمل ثمود على تكذيب نبيهم صالح، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وهو مما حمل كفار قريش على تكذيب الرسول ﷺ، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والحسد داء عضال، ومرض عام ومنتشر، لا يكاد يسلم منه أحد، إلا من عصمه

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» ١/ ٢٢٦.

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي ١٠/ ٢٤٠.

الله، وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه»[(١)].

وقيل للحسن البصري رحمه الله: «أيحسد المؤمن قال: ما أنساك إخوة يوسف»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله[(٢)]: «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله».. لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها بل يعصيها طاعة لله وخوفًا، وحياء منه، وإجلالًا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضًا لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه، من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني زوال النعمة».

وقال أيضًا [(٣)]: «فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعمة ومُوليها كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه.. قال تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]».

وقال ابن القيم أيضًا[(٤)]: «فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شرورًا أربعة يستعاذ منها: شرًا عامًا، وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان، ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضًا؛ لأنهما من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده وهو الساحر.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد؛ لأنه نائبه

---

(١) انظر: «أمراض القلوب» لابن تيمية ص٢١، «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٣٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٣.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٢- ٥٨٣.

وخليفته؛ لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده».

الفوائد والأحكام:

١- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله واللجوء إليه، وأنه قد تصيبه العوارض التي أُمر في هذه السورة بالاستعاذة من شرها، وأنه ﷺ لا يملك جلب الخير لنفسه، ولا دفع الضر عنها، وكذا غيره من الخلق من باب أولى لا يملكون شيئًا من ذلك، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة، وهذا أمر له ﷺ ولأفراد أمته.

وفي هذا رد على الذين يغلون بالنبي ﷺ، ويصرفون له شيئًا من أنواع العبادة، مما لا يجوز صرفه إلا لله، ومما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يطلبون منه ﷺ كشف الكروب، ودفع الخطوب، ونحو ذلك.

ولهذا لما سأل أبي بن كعب رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؟ قال: «**قيل لي، فقلت**»(١).

٢- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

وفي هذا رد على من يقول من المشركين ومن سلك طريقهم: إن هذا القرآن العربي وهذا النظم كلام الرسول ابتدأ به.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهو الذي فلق وخلق جميع الخلق وهو مالكهم ومدبرهم.

٤- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من جميع شرور الخلق، لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

٥- إثبات كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. قال شيخ الإسلام

---

(١) سبق تخريجه.

ابن تيمية[١]: «وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده، كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع».

٦- أن المستعاذ به هو الله وحده ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهو الذي يعيذ ويعصم من استعاذ به من جميع الشرور، بخلاف من سواه فلا قدرة لهم على ذلك، بل لا يزيدون من استعاذ بهم إلا خوفًا ورهقًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

٧- أن عامة المخلوقات قد لا تخلو من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

و «ما» ههنا: موصولة تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي لا إطلاقي، أي: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ مما فيه شر، كشياطين الإنس والجن والنار والهوام وغير ذلك.

ولا يدخل في هذا ما هو خير محض من المخلوقات كالجنة والملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٨- أن الشر ليس إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فالشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى الخالق سبحانه، فالشر في مخلوقاته، وفي مفعولاته، لا في فعله عز وجل، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق، والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلًا. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة،

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبوداود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٠- ٥٥٢.

وإنما يكون شرًا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هناك أمران ينبغي أن يكونا منك على بال، أحدهما: أن ما هو شر ومتضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولًا منفصلًا لا يكون وصفًا لـه، ولا فعلًا من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرًا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى، خلقًا وتكوينًا ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها».

ثم مثّل ابن القيم رحمه الله- بقطع يد السارق فهو شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرًا وحكمًا، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه، والمحبة لـه.

ومثّل أيضًا بقتل الصائل عليهم في دمائهم وحرماتهم... إلى أن قال: «وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه، ومن قام به، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وتارة بحذف فاعله، كقوله حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد» إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذكرها رحمه الله[1].

٩- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من الليل إذا أقبل بظلامه، ودخل في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، لأنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وإنما خص هذا بعد العموم؛ لأن الليل وظلمته محل سلطان الأنفس والأرواح الشريرة والخبيثة ووقت انتشارها للسعي

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٥.

بالفساد، من شياطين الإنس والجن والهوام، وغير ذلك.

١٠- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر السواحر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾. وهذا أيضًا كسابقه من عطف الخاص على العام، فإنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وإنما خص شر السواحر- كما خص قبله شر الغاسق؛ لعظيم خطر السحر، وشدة شر السواحر.

١١- إثبات حقيقة السحر وتأثيره بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى:﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾، ولقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وعن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا. قال: فجاءه جبريل، فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك عقد لك عقدًا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه فاستخرجها، فجاء بها، فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ؛ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط حتى مات»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن- قال سفيان بن عيينة: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا- فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٧، والنسائي في التحريم- باب سحرة أهل الكتاب ٣٨٠٢.

قال مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقًا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جَفِّ طَلْع ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء[١]، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج فقلت: أفلا- أي: تَنَشَّرت؟ قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته».

وليس في هذه الأحاديث الثابتة في أنه ﷺ سحر تصديق لقول المشركين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧، الفرقان: ٨]، وكما قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وكذا قال قوم شعيب له﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

لأن الذي أصابه- كما دلت عليه هذه الأحاديث- مرض من الأمراض يصيب غيره، ولا يمنع من اتباعه ﷺ وهذا بخلاف ما زعمه المشركون، وكذا ما قاله قوم صالح وقوم شعيب لهما، فإنهم يقصدون بأن هؤلاء الرسل سحروا فزالت عقولهم حتى أصبحوا لا يدري الواحد منهم ما يقول كالمجانين.

كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤].

---

(١) المشاقة: المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.
والجف: قشر الطلع. راعوفة البئر: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. وبئر ذروان: بئر ببني زريق بالمدينة.
والنقاعة: ما أنقع فيه الشيء، وهو هنا الماء الذي أنقع فيه الحناء، انظر «النهاية» «لسان العرب» مادة «مشق» ومادة «جفف» ومادة «رعف» ومادة «نقع»، «التفسير القيم» ص٥٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- باب هل يستخرج السحر ٥٧٦٥، وأحمد ٦/ ٩٦.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٦، ٥٧٠.

وهم يقصدون بذلك تحذير سفهائهم من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أنكر تأثير السحر، وأن لـه حقيقة طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، لا في مرض، ولا قتل، ولا حلّ ولا عقد، وقولهم هذا لا مستند لـه إلا تحكيم عقولهم القاصرة، وهو باطل بدلالة الكتاب والسنة وخلاف ما عليه عامة علماء الأمة، بل وخلاف ما يدل عليه الواقع.

قال ابن القيم[1] بعد ما ذكر هذا القول: «وهذا خلاف ما تواتر به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة العقلاء... ».

١٢- أن السحر من أعظم الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر، لأن الله أمر بالاستعاذة من السواحر، بعد الأمر بالاستعاذة من جميع شرور الخلق، مما يدل على خطره وعظيم جرمه، وشدة ضرره وشره.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «السحر» [٢].

ولهذا كانت عقوبة الساحر القتل حدًا، كما في الحديث: «حد الساحر ضربة بالسيف»[٣].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٧١- ٥٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبوداود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٦٠، من حديث جندب رضي الله عنه، وقال الصحيح أنه موقوف.
ورواه أيضًا الدارقطني والبيهقي والحاكم، وقال: «صحيح غريب» وضعفه البخاري. وقال الذهبي في الكبائر إنه من قول جندب.
وقال بعضهم يتقوى بكثرة طرقه، فقد خرجه جمع منهم البغوي الكبير والصغير، والطبراني والبزار، ومن لا يحصى كثرة.
واختلفوا في جندب المذكور، فقال بعضهم: هو جندب بن عبد الله البجلي. وقال بعضهم: إنه جندب الخير الأزدي.
ورواه بعضهم من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يضرب ضربة فيكون أمة وحده». انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٠- ٣٩٢.

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال كتب لنا عمر: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر»[١].

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها.

قال الإمام أحمد: «صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ قتل الساحر».

يعني: عمر وحفصة وجندب بن عبد الله رضي الله عنهم[٢].

١٣- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر الحاسد إذا حسد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وخصه بالذكر مع أنه داخل تحت قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كشر الغاسق إذا وقب وشر النفاثات في العقد كل ذلك من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها وتوكيدًا على عظم خطر وضرر هذه المخصوصات.

١٤- تحريم الحسد؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به عز وجل من شر الحاسد بعد أمره عز وجل بالاستعاذة به من شر جميع الخلق؛ لشدة شره وضرره، وعظيم جرمه، مما يوجب الحذر منه؛ قال ابن سيرين: «ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا، وهي حقيرة في الجنة؟! وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟!»[٣].

١٥- أن الحسد إنما يؤثر، إذا أظهره الحاسد وحققه، وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة.

وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»[٤]. وذلك؛ لأن الحسد لا يكاد يخلو منه أحد.

ويكثر الحسد بين الأقران الذي يزاولون أعمالًا وحرفًا متشابهة كأصحاب المحلات التجارية والبيع والشراء، وأصحاب الأعمال المهنية، وأرباب الأعمال

---

(١) ذكره في «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٢، وقال: «إسناده حسن».

(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٢- ٣٩٤.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٨٩.

(٤) سبق تخريجه، وفي الحديث أيضًا: «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٩- من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

الوظيفية والمناصب الذين يحصل بينهم التنافس، وكذا كثير من طلاب العلم، بل والعلماء إلا من عصمه الله من ذلك، ولهذا يجب الاحتراس والحذر كل الحذر من ذلك، وتعاهد القلب وإصلاحه والنأي به عن هذا المرض الخطير والداء الوبيل فإن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. وقال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

١٦- أنه لا واقي ولا كافي ولا حافظ ولا معيذ من جميع شرور الخلق ومن شر الغاسق والسحر والحسد وغير ذلك إلا الله وحده؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه من جميع هذه الشرور، وقد قال عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» الحديث(٢).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن من قال حين يخرج من بيته: «بسم الله آمنت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أجابه الملك بقوله: كفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»(٣).

فائدتـــان:

الفائدة الأولى: أسباب تحريم الحسد:

وإنما حرم الله الحسد، ونهى عنه، وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد لأسباب عدة، منها ما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبوداود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال «حسن صحيح» وأحمد ٤/ ٢٨٦، ٢٨٨، من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات». وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرحه بطوله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» وفي رسالته «نور الاقتباس في وصية الرسول ﷺ لابن عباس».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٢٦.

أولًا: أن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره وحكمته في تقسيمه الأرزاق بين عباده.

ثانيًا: أنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله، كما ذكر الله عز وجل عن أهل الكتاب، قال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال أبو حاتم: «على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها، فإن أهون خصال الحسد ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه»(١).

ثالثًا: أنه من نواقض عرى الإيمان الموجبة لمحبة الخير لأخيه المسلم، وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

رابعًا: أن فيه اعتداءً على المحسود بغير جرم منه، إلا أن الله أعطاه من فضله، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

خامسًا: أنه لا يعود على الحاسد إلا بالهم والكمد والأسى. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لله در الحسد ما أعْدَلَه بدأ بصاحبه فقتله»(٣).

وقال أبو الليث السمرقندي: «يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: أولاها: غم لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق»(٤).

وقال الشاعر:

---

(١) انظر: «روضة العقلاء» ص١٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «شرح نهج البلاغة» ١/ ٣١٦.

(٤) انظر: «المستطرف» ص٢٢١.

دع الحسود وما يلقاه من كمدِهْ   يكفيك منه لهيب النار في كبدِهْ[١]

سادسًا: أن الحاسد مبغض ممقوت عند الله وعند الناس؛ لأنه عدو نعمة الله، وعدو عباد الله.

قال ابن القيم[٢]: «فالحاسد عدو نعمة الله وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسى، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدًا، إلا قهرًا يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها فهم يبغضونه وهو يبغضهم».

سابعًا: أن الحاسد بدل أن يسعى ويعمل ينشغل بمتابعة ما عند الآخرين، وما أعطاهم الله من فضله، والواجب عليه أن يبذل السبب في السعي والعمل، ويسأل الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ثامنًا: أن الحسد سبب لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأنه يحمل الحاسد على الاعتداء على المحسود، ومنع حقه، وجحد فضله، مما يوغر الصدور، ويشعل نار العداوة بين الناس.

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها»[٣].

تاسعًا: أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ومن صفات إبليس لعنه الله، فهو الذي حسد آدم لشرفه، وأبى أن يسجد له حسدًا وكبرًا، وهو من صفات اليهود المغضوب عليهم.

عاشرًا: أنه مرض قلبي من أخطر أمراض القلوب، ومحبط للأعمال، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[٤]. وفي الحديث: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار**

---

(١) انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٢٨٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

(٣) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» ٥/ ٣٠.

(٤) سبق تخريجه.

الحطب» أو قال: «العشب»[١].

الفائدة الثانية: الأسباب التي بها يندفع شر الحاسد بإذن الله عز وجل:

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله[٢]: أُلخصها فيما يلي:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به عز وجل واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك»[٣].

فمن حفظ الله حفظه ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهولا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥- ٥٩٤.

(٣) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل لـه ربه مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر لـه، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، ومن أقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض لـه، ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه، لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، هكذا الأرواح سواء.

السبب السادس: الإقبال على الله، والإخلاص لـه، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه محل خواطر نفسه وأمانيها. قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وقال عن يوسف الصديق، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من

ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء: قوله ﷺ: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[1].

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها.

فليس للعبد إذا بُغي عليه، وأُوذي، وتسلط عليه خصومه شيء أنفع من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها، وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة، وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع الحسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها، فما حرس العبد

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣.

نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفر المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىً وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت له إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وكان ﷺ يسلت الدم عنه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١).

فجمع في هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه، أحدها: عفوه عنهم، والثاني: استغفاره لهم، والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: «رب اغفر لقومي».

وكما تحب أن يعفو الله عن تقصيرك وإساءتك فاعف أنت عمن قصّر في حقك، وآذاك، وأساء إليك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباد الله يفعل الله معك.

وفي هذا نزل في شأن الصديق رضي الله عنه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وفي الحديث: «ولِيأت للناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وأحمد ١/ ٣٨٠، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فمن تصور هذا وشغل به فكره هان عليه الإحسان لمن أساء إليه، مع ما يحصل لـه من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال ﷺ للذي شكا إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، قال: «لا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٢).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعًا، ولا خبزًا.

هذا مع أنه لابد لـه من عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد إليه ويذل لـه.. وإما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(٣).

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وبحسب إيمان العبد يكون دفع الله عنه، فإن كمل إيمانه دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج لـه، وإن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة.

=
(١) أخرجه من حديث طويل مسلم في الإمارة ١٨٤٤، وأبوداود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

كما قال بعض السلف: «من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة».

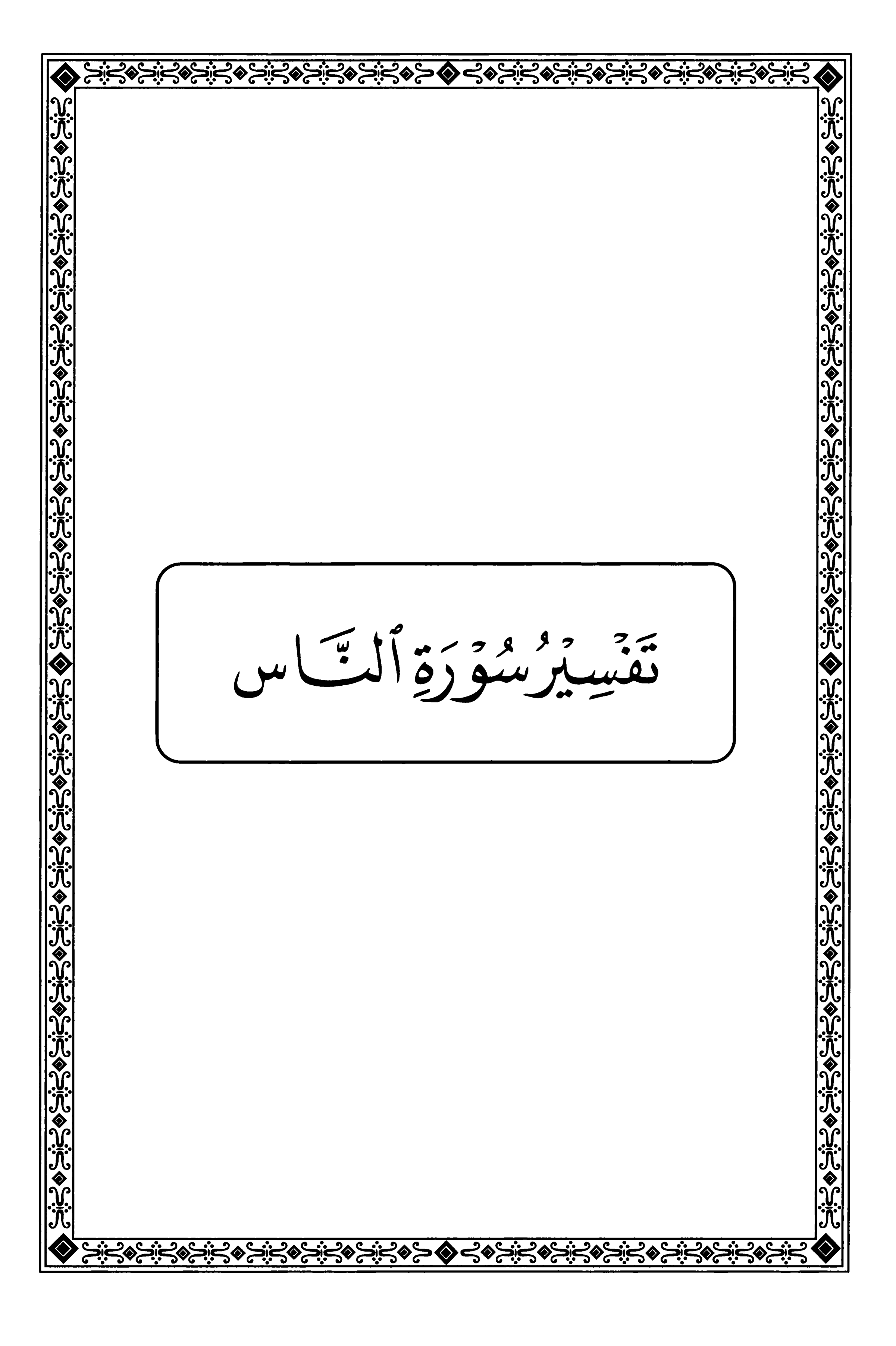
فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء».

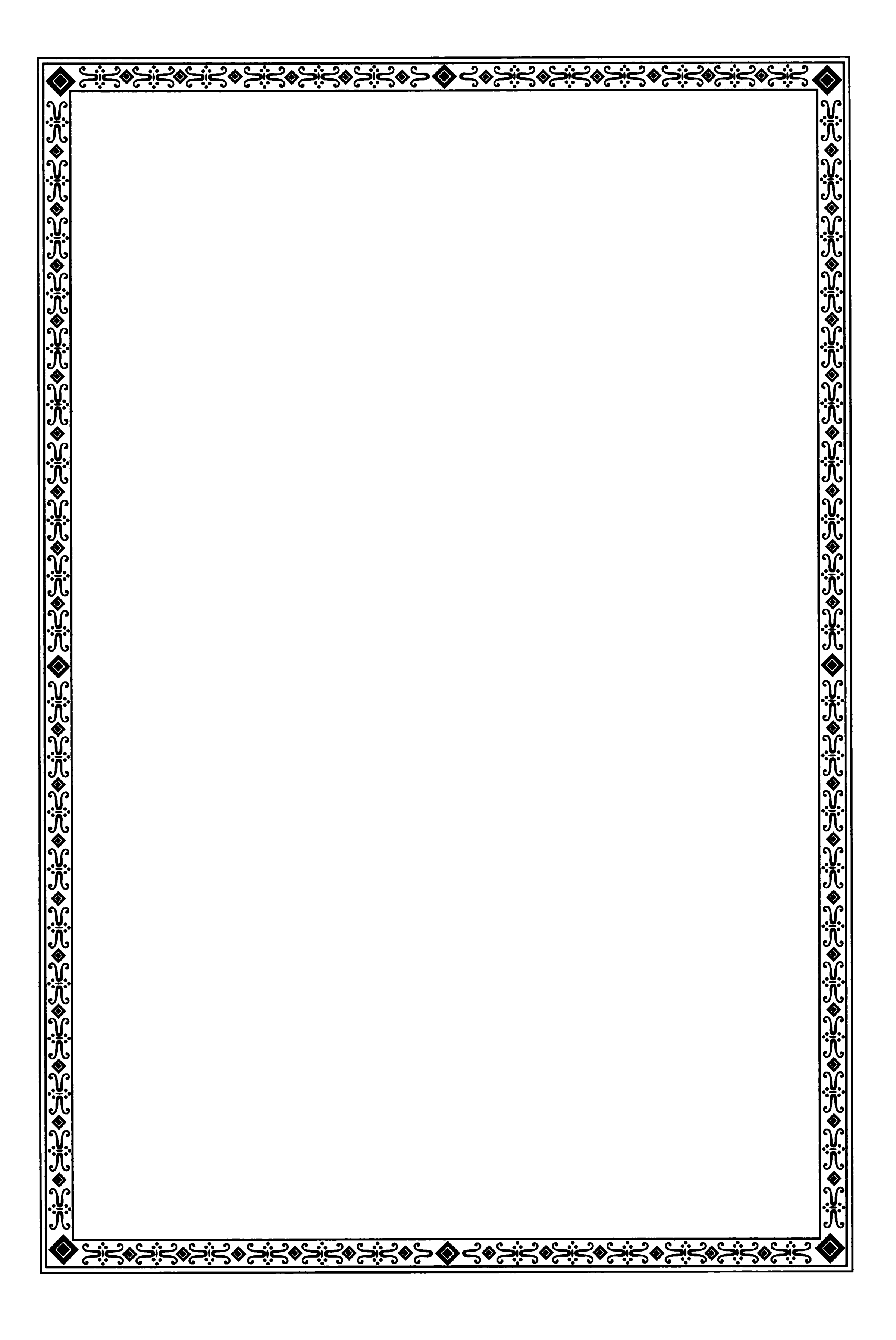
قال ابن القيم[١] رحمه الله بعد أن ذكر هذه الأسباب: «هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس لـه أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وألا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئًا سوى الله خذل من جهته، وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا».

* * *

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٤.



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّاس



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الناس» بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الناس»، وتسمى مع «سورة الفلق»: «المعوذتين» وتسمى «المقشقشة» كما سميت سورة الفلق بذلك، وغيرهن السور، كما سبق بيانه.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- فضلها:

سبق ذكر الأحاديث في فضلها مع سورة الفلق من حديث عائشة وعقبة بن عامر وعابس الجهني وأبي سعيد رضي الله عنهم.

د- موضوعاتها:

- الاستعاذة بالله عز وجل رب الناس وملكهم وإلههم من شر شياطين الجن والإنس ووساوسهم.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وهو أمر له، ولأمته، بل لكل فرد من أفراد أمته.

وهكذا كل أمر أو خطاب في القرآن الكريم له ﷺ فهو له ولأمته، ما لم يدل دليل على خصوصيته ﷺ بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فلا يصح لامرأة أن تهب نفسها لغيره ﷺ.

وجملة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وما بعدها في محل نصب مقول القول. وقوله﴿أَعُوذُ﴾ هذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو «التعوذ».أي: أعتصم وألتجئ وأستجير.

﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو المستعاذ به. وهو: «رب الناس».

﴿بِرَبِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ «أعوذ» والباء للاستعانة.

و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر، فرب الناس خالقهم ومالكهم ومدبرهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

والناس: أصله: «أُناس»، ثم زيدت فيه الألف واللام. قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا[1]

وهو على هذا مشتق من «أنس» فالناس كالإنسان كل منهما مشتق من الأنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو هو مشتق من «النوس»، وهو الحركة المتتابعة، وسمي البشر ناسًا؛ لأنهم ينوسون، أي: يتحركون حركة ظاهرة وباطنة، وصحح هذا ابن القيم[2].

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص٣٢، «الكشاف» ١/ ٦.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

أو أنهما مشتقان من الإيناس: وهو الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها وشاهدها. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أبصرتموه ورأيتموه.

فسمي البشر «ناسًا» من هذا المعنى، لأنهم يُرَون ويُشاهدون، بخلاف الجن، فهم مستترون لا يشاهدون. وسمي الإنسان: إنسانًا، لأنه يُؤنس، أي: يُرى بالعين.

وقيل إنهما مشتقان من النسيان، كما قال أحدهم:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقد رد هذا ابن القيم، وقال: «لو كان الإنسان مشتقا من النسيان لقيل: «نسيان» ولم يُقل: إنسان»[١].

قال الزمخشري[٢]: «وإنما أضاف الرب هنا إلى الناس خاصة؛ لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم».

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان على قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وكرر المضاف إليه، وأظهره في الموضعين؛ لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مالكهم ومدبرهم الذي يأمرهم وينهاهم، وكل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: معبودهم الذي يتوجهون إليه في جميع عباداتهم، إذ لا معبود لهم بحق سواه.

قال ابن القيم[٣]: «وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وأخر الألوهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده، واتخذه دون غيره إلهًا، فمن لم

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٨.

يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله لـه سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق، واتخذ إلهًا غيره باطلًا، ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بألوهيته».

فالمستعاذ به هو: رب الناس، ومالكهم ومعبودهم. وكرر الاسم الظاهر «الناس» دون الضمير، فلم يقل: «رب الناس وملكهم وإلههم» تقوية للمعنى، وهو أنهم إنما يستعيذون بمن لـه هذه الصفات العظيمة، وهو كونه: رب الناس، ومالكهم وإلههم، والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وتتضمن هذه الصفات الثلاث جميع قواعد الإيمان، ومعاني أسماء الله الحسنى. فالرب هو القادر الخالق الباري... وأما الملك فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كيف يشاء.. وأما الإله فهو المعبود الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، ولهذا يدخل في هذا الاسم «الله» جميع الأسماء الحسنى، فهو جامع لجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

قال ابن القيم[1]: «وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه».

وقصر- عز وجل هنا ربوبيته وملكه وألوهيته على الناس- مع أنه عز وجل رب جميع الخلق ومليكهم وإلههم؛ لأن الناس هم المكلفون وتكريمًا وتشريفًا لهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ هذا هو الركن الثالث من أركان الاستعاذة وهو

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٧.

المستعاذ منه، وهو: ﴿شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾، و «شر»: مفرد مضاف إلى «الوسواس» وهو معرف بـ«ال»، فيفيد الاستعاذة من جميع شرور الوسواس.

والوسواس: هو الشيطان. وأصل الوسوسة هي الحركة والصوت الخفي.

قال الأعشى [(١)]:

تسمع للحلي وَسْواسًا إذا انْصَرفت   كما استعان بريح عِشْرقٌ زَجِل

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي، لا يسمعه إلا من أُلقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

والمراد بالوسواس هنا: الشيطان، وهو ذات لا مصدر، وقيل: مصدر. وأصله: الشيطان الوسواس، فحذف الموصوف هنا وأقيم الوصف مكانه، لغلبة هذا الوصف على الشيطان، فصار كالعلم عليه، وجرى مجرى الاسم، فحسن حذف الموصوف، كما يقال: المسلم والكافر، ونحو ذلك.

قال ابن كثير [(٢)]: «وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين لـه الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه قالوا:وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[(٣)].

وَوُصف الشيطان وسُمي بالوسواس لدقة وخفاء مداخله ومجاريه من الإنسان.

كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[(٤)].

والوسواس: من جنس حديث النفس قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٠٥ شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٤، وأحمد ١/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠، والدارمي في الرقاق ٢٦١٨، من حديث سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٠٣٨، وفي الأدب ٦٢١٩، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبوداود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩، من حديث صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ.
وأخرجه مسلم أيضًا ٢١٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، أي: ما تحدث به نفسه.

وقال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»[(١)].

وهو نوعان: خبر إما عن ماض يُذكِّره به، وإما عن مستقبل يُحدِّثه بفعله أو يُخوِّفه وقوعه، ونحو ذلك من الأماني والمواعيد الكاذبة. والنوع الثاني: إنشاء وهو إما أمر أو نهي أو إباحة.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ هذه الصفة الثانية للشيطان. و«الخناس»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة على وزن «فعّال» من خنس يخنس، إذا توارى واختفى بعد ظهوره.

كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، وهي النجوم تخنس وتختفي بالنهار وتظهر وتبدو في الليل.

ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب فانخنست منه»[(٢)]، أي: اختفيت.

وهو أيضًا مأخوذ من معنى: الرجوع والتأخر، كما في الحديث: «إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداء أقبل، فإذا ثُوِّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر- حتى لا يدري أثلاثًا صلى أم أربعًا»[(٣)].

وهكذا حال الشيطان مع العبد، فإن غفل العبد عن الذكر أقبل عليه الشيطان بخيله ورجله وجثم على قلبه، وبذر فيه أنواع الوساوس، من تزيين الأعمال السيئة وغير ذلك. وإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ بالله من الشيطان انخنس الشيطان وتوارى

---

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٢٨، ومسلم في الإيمان ١٣٧، وأبوداود في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٣٨، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبوداود في الطهارة ٢٣١، والنسائي في الطهارة ٢٦٩، والترمذي في الطهارة ١٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبوداود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠، والترمذي في الصلاة ٣٩٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتصاغر واختفى وتراجع وتأخر وفي الحديث: «ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رئي يوم بدر..» الحديث[(١)].

ولهذا جاء بصيغة المبالغة «خنّاس»؛ لبيان شدة هروبه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن هذا دأبه وعادته دائمًا وأبدًا إذا ذكر الله هرب وخنس، وإذا غفل العبد عاوده بالوسوسة.

ولهذا جاء في الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»[(٢)].

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ هذه صفة ثالثة للشيطان فوصفه أولًا بالوسوسة، ثم وصفه ثانيًا بالخنّاس، ثم وصفه ثالثًا بكونه يوسوس في صدور الناس.

والصدور: جمع صدر، وهو ساحة القلب وبيته، فتجتمع فيه هذه الوساوس والواردات، ثم تلج إلى القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وشرور الشيطان كثيرة لا تحصى، وأعظم صفاته وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا الوسوسة؛ لهذا وصفه الله عز وجل بها، وهي أصل كل شر يقع في الأرض من ترك للواجبات، أو تقصير بها، أو انتهاك للمحرمات، ومن ظلم للنفس والغير، وغير ذلك.

قال ابن القيم[(٣)]: «ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة، التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له، ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ- في الحج ٩٦٢، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٠٥ ، ٣٨٢- من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٦٠٩- ٦١٠.

عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم- إلى أن قال: فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه الله بها؛ لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا».

وقال أيضًا: «ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض لـه ما يبطل أثره ويرده على حافرته».

قولـه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ من الجنة: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا، والتقدير: كائنًا من الجنة والناس.

و«الناس» معطوف على «الجنة» وهو بيان للذي يوسوس، أي أن الذي يوسوس في صدور الناس نوعان: شياطين جن، وشياطين إنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تُحدِّث في العنان[١] بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم شر من شياطين الجن»[٣].

ومن وسوسة شياطين الإنس: وسوسة نفس الإنسان لـه، كما قال عز وجل:

---

(١) العنان: الغمام. انظر «النهاية في غريب الحديث» ولسان العرب، مادة «عنن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٠، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٥٠٧، وأحمد ٥/ ١٧٩، ٢٦٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وعنه ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به»[١].

وقيل: إن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾بيان للناس الموسوَس في صدورهم. والمعنى: الذي يوسوس في صدور الناس، الذين هم من الجنة والناس. فالموسوس في صدروهم على هذا قسمان: جن وإنس. فالوسواس وهو الشيطان يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

والأظهر القول الأول وقد ضعف ابن القيم رحمه الله القول الثاني من وجوه عدة[٢]: الأول: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري فيه مجراه من الإنسي.

الثاني: أنه على هذا فاسد من جهة اللفظ أيضًا، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فكيف يبين الناس بالناس.

الثالث: أنه قسّم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليها اسم الناس بوجه، لا أصلًا، ولا اشتقاقًا، ولا استعمالًا، ولفظها يأبى ذلك، فإن الجنة إنما سموا جنًا من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به.

٢- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله، واللجوء إليه، وأنه ﷺ كغيره من البشر قد يصيبه ما يصيبهم من الوساوس، وأنه لا يملك لنفسه دفع ضر أو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦١٥.

جلب خير، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وفي هذا الرد على من يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل فهو رب جميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم.

٤- إثبات الملك العام لله عز وجل، فهو ملك الناس، ومدبرهم له الأمر والنهي بقسميهما الشرعي والكوني؛ لقوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

٥- إثبات الألوهية العامة لله عز وجل، فهو إله الناس ومعبودهم الحق، ولو عبد بعضهم غيره، فليس لهم في الحقيقة معبود سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

٦- مشروعية الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم من شر الشيطان ووساوسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

٧- عظم خطر الشيطان ووساوسه فهو أصل الشر كله، وأصل كل كفر وفسوق وعصيان؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه، والاعتصام بجنابه من الوسواس.

٨- أن من طبيعة الشيطان أنه يوسوس عند الغفلة عن ذكر الله ويخنس ويختفي ويتراجع ويتأخر ويتصاغر عند ذكر الله عز وجل؛ لأن الله وصفه بقوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، فيجب التحصن منه بذكر الله على الدوام.

٩- أن الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس على نوعين شياطين جن وشياطين إنس؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

كما قال عز وجل ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

١٠- شدة شر الشيطان وكيده ووساوسه؛ لهذا أفرد الله عز وجل سورة كاملة

للاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يعصم منه إلا اللجوء إلى الله تعالى، ولأنه لا يرضيه إلا إهلاك بني آدم.

فائدة: وسوسة الشيطان للإنسان على أنواع ومراتب:

فمن وسوسته تزيين الكفر والشرك:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ومن وسوسته تزيين المعاصي:

قال تعالى عن الأبوين عليهما السلام: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد جعل الله للشيطان سلطانًا على قلوب أهل الكفر والنفاق، كما جعل له نفوذًا على أهل الغفلة والمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[١].

---

(١) سبق تخريجه.

ومن وسوسته:

ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»[(١)].

وفي رواية أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[(٢)].

ومن وسوسته أيضًا:

أن يشغل القلب بحديثه ووساوسه فيوقعه في نسيان ما أراد فعله أو قوله من أمر ديني أو دنيوي، كما قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وتقدم في الحديث: «أنه يخطر بين المصلى وبين قلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعًا»[(٣)].

ومن وسوسته:

أنه يوهم الإنسان ويخوفه من الأمور المستقبلة، ويحمله على التشاؤم دائمًا، ويجعل الحياة مظلمة في عينيه فتنتابه المخاوف على المستقبل، والمخاوف من الأعداء، ومن العين، ومن المرض، ومن الموت، ونحو ذلك، وكل ذلك من الشيطان أخزاه الله.

وعلاج ذلك قوة الإيمان بالله والتوكل عليه واطراح هذه الوساوس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ١٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٤٠.

(٣) سبق تخريجه.

ومن وسوسته:

أن يوحي إلى أعوانه من شياطين الإنس بأن يقول أحدهم أو يفعل ما فيه ضرر على العبد المسلم، فكم دبر الشيطان من مكيدة للمؤمنين على أيدي أعوانه من شياطين الإنس بسفك دم، أو انتهاك عرض، أو شتم وسب، أو مقالة سوء، أو نجوى، يريد بها الشيطان إلحاق الضرر والأذى والحزن بالمؤمنين ونحو ذلك، كما قال عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

وخلاصة القول:

أن وسوسة الشيطان على أنواع لا تكاد تحصى كثرة، وهي سبب لكل بلية ولكل معصية تقع في الأرض، من ترك للواجبات أو انتهاك للمحرمات وهي على مراتب(١):

مراتب وسوسة الشيطان للإنسان:

يأتي الشيطان أولًا إلى الإنسان فيدعوه إلى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، ليكون من جنده ومن أعوانه على الشر.

فإن أيس منه، وكان ممن سبق لـه الإسلام في بطن أمه دعاه إلى المرتبة الثانية من الشر، والتي هي باب من الكفر والشرك، وهي البدعة، وحببها إليه لعظم ضررها في الدين، وكون ضررها متعديًا، وشدة تمسك صاحبها بها لا يكاد يتوب عنها، كما دلت على ذلك الآثار، وكما هو حال أهل البدع.

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة، وكان ممن وفق إلى السنة ومعاداة أهل البدع والضلال دعاه إلى المرتبة الثالثة من الشر وهي الوقوع في الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإن عجز عنه دعاه إلى المرتبة الرابعة، وهي الوقوع في الصغائر والاستهانة بها، وهي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»(٢).

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٦١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا» [1]،

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[2].

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة دعاه إلى المرتبة الخامسة وهي الانشغال بالمباحات من المآكل والمشارب وتزجية الأوقات بالنزه في المصايف والاستراحات والسياحة هنا وهناك إيثارًا للشهوات ورغبات النفس، وبهذا ضاعت كثير من أعمار الخلق.

بل أدى ذلك بالكثيرين إلى التقصير في الواجبات، والتفريط في حق الله وحقوق الخلق، كالوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق الأمة؛ بل والتفريط في حق النفس، وعدم أخذها بالحزم في أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات، والنظر في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي هو الغذاء الروحي للنفس، والذي لا حياة للقلوب إلا به.

ولعمر الله لقد خرج الناس بهذه المباحات عن الحد حتى ضاعت أعمار وأعمال وأموال، ونسي كثير من الناس أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الحياة ميدان مسارعة، ومسابقة ومنافسة للفوز بتلك الدار، وأن الأيام والليالي خزائن للأعمال.

فكم من حقوق لله- عز وجل- ضيعت وفرطت فيها كالصلاة وغيرها بسبب الركض وراء هذه المباحات.

وكم من حقوق للخلق وللأمة أهدرت بسبب ذلك.

فكم من والد مقعد على أحر من الجمر يتمنى أن يرى أولاده معه على مائدة طعام؛ غداء أو عشاء أو إفطار، أو أن يكون بجانبه أحد أولاده لتهيئة القهوة له أو لضيوفه ولكن هيهات، الأولاد كلهم مشغولون بلا شغل في الفلوات والخلوات والاستراحات والذهاب يمينًا وشمالًا وهنا وهناك والمحصلة صفر- والله المستعان.

وكم من زوجة تنتظر زوجها بفارغ الصبر إلى ساعة متأخرة من الليل ولو حرك

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٤٣، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤، الأثر ٥٢١٦.

الهواء أحد الأبواب أو مرّ بها قط وهي غافلة طار عقلها خوفًا وفزعًا وزوجها مشغول خارج البيت بلا شغل، ولو جاء وهي نائمة لأوسعها سبًا وشتمًا، إن لم يضربها أو يهددها بالضرب والطلاق.

وكم من أولاد- هم فلذات الأكباد- ليس لهم نصيب من جلوس والدهم بينهم وتربيته لهم وحنانه عليهم، بل ربما ليس لهم نصيب من رؤيته إلا النزر القليل يأتي إلى البيت وهم نائمون ويخرج في الصباح إلى العمل، وإذا جاء من العمل تناول غداءه على وجه السرعة ثم انطلق خارج البيت إلى هَوِيٍّ من الليل وهكذا.

وكم من أقارب وجيران وأخوات وإخوان أضحت حقوقهم في خضم النسيان بسبب ما ذكر.

وكم من مسؤوليات عامة أو خاصة ضُيعت وفرط فيها بسبب هذه الأحوال.

وكم من شخص صار قلبه خواء مظلمًا خربًا لخلوه من الغذاء الروحي؛ من الذكر وقراءة القرآن والسنة وتدبر ما فيهما من المعاني والأحكام بسبب انغماسه في هذه الأوحال وانشغاله بها. وصدق الله العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فإن عجز الشيطان عن شغل العبد بالمباحات دعاه إلى المرتبة السادسة، وهي الاشتغال بالمفضول عما هو أفضل منه، ليفوت عليه ثواب العمل الفاضل، ويزيح عنه الفضيلة ويقلل من فضله وثوابه، فيظن أن هذا الداعي من الله لاعتقاده أن هذا خير، وأن الشيطان لا يأمر بخير، فيقول: هذا الداعي من الله.

قال ابن القيم(١): «ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل..».

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٢- ٦١٣.

وأدهى من ذلك وأشد منه أن يترك الشخص العمل الذي يتقاضى عليه أجرًا كالأذان والإمامة أو العمل الوظيفي في مصالح المسلمين بحجة أنه ذاهب لفعل طاعة كالعمرة، أو حضور درس أو محاضرة، أو الخروج للدعوة، أو للصلاة على جنازه واتباعها ونحو ذلك، لأن هذا لا يعد من الاشتغال بالمفضول فحسب- بل إن هذا من الاشتغال بالسنة عن الواجب، وياليت كثيرًا ممن يتساهلون في مثل هذا يدركون ذلك.

كيف يعتقد من كان يتولى أمرًا من أمور المسلمين، من أذان، أو إمامة أو أي مسؤولية من مسؤوليات الأمة أنه يسوغ لـه ترك مسؤوليته بحجة الذهاب لأداء العمرة ونحو ذلك، وهل سيحصل لـه من الأجر على ذلك مثل أجر من احتسب وتحمَّل مسؤوليته، كلا، بل إنه إلى التأثم أقرب، ولم يرد في كتاب ولا سنة جواز ذلك فضلًا عن أن يؤجر فاعله، ولم يقل بهذا أحد من علماء الأمة سلفًا وخلفًا، وإنما هذا من مداخل الشيطان ووساوسه، وتقديم هوى النفس على حكم الله.

وإني لأدعو المسلمين عمومًا وأرباب مسؤوليات الأمة خصوصًا، من الأئمة والمؤذنين وعامة الموظفين والآباء والمربين وغيرهم إلى التنبه إلى هذا، فنحن أمة إسلامية ديننا الإسلامي دين الجد والعمل لا محل للفراغ في حياتنا، وقت المسلم بين المسجد والبيت والعمل، وساعة للترفيه المباح والراحة عند الملل، فكل فرد منا على مسؤولية من مسؤوليات الأمة.

فهذا مؤذن، وهذا إمام، وهذا والد، وهذا مدرس، وهذا موظف. وكل منا على ثغر من ثغور الإسلام، كما قال بعض السلف: «ليعلم كل منكم أنه على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله»(١).

وإن من أكبر مصائب الأمة أن لا تدري أين مكمن الداء فيها، فتضل في حيرة من أمرها، أو ربما تظن الداء دواء لجراحاتها.

فما أكثر الذين يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وكأنهم يدَّعون لأنفسهم الكمال- فإذا تأملت في واقعهم، وسبرت أحوالهم وجدت أن كثيرًا منهم من أكبر

(١) انظر: «السنة» للمروزي ١٣-١٤.

أسباب ضعف الامة، بل هم العبء الأثقل على كاهل الأمة، شأنهم التلاوم والقيل والقال، والتنصل من مسؤوليات الأمة، وانتقاد الولاة والعلماء والدعاة والمصلحين والعاملين، وتبادل الرسائل في ذلك- في وسائل الاتصال- مع تفريطهم في حقوق الله، وفي حقوق الخلق، من الوالدين والأولاد، والأزواج والأقارب والجيران، وفي حقوق عامة المسلمين ومسؤوليات الأمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالأمة ليست بحاجة إلى الدعاوي الفارغة والحماس الأجوف، بل هي أحوج ما تكون إلى رجال لهم رصيد من الصدق مع الله وتقواه بأداء حقوقه وحقوق الخلق، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يجاهد النفس والشيطان فلن يستطيع مجاهدة الأعداء، ومن خان حي على الصلاة خان حي على الكفاح، ومن لم يقم أركان الإسلام وأهم واجباته فلن يقيم ما دون ذلك، ومن ترك الواجب لم ينتفع بالقيام بما دونه إن قام به.

ومجمل القول أن الأمة تحتاج إلى الرجل الراحلة الذي يتحمل مسؤولياته، ويملأ ويسد مكانه في الأمة، بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، في البيت والمسجد والعمل الوظيفي والشارع فهذا هو الجندي المجاهد، وما أقل هذا في الأمة، وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»(١).

فالحاكم والأمير والوزير والقاضي والإمام والمؤذن والمدرس والموظف والتاجر والعامل وغيرهم ممن ائتمنوا على مسؤوليات الأمة كل منهم مثاب مأجور إذا قام بالعمل على الوجه الأكمل، مع حسن النية في أداء الواجب وخدمة الأمة.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يتشبثون بفعل بعض النوافل والأعمال التطوعية مع تفريطهم في أهم الواجبات في حقوق الله وحقوق الأمة، ولا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام فقال له النبي ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال يا رسول الله هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. فقال الأعرابي: والذي بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا».

وفي رواية: «أفلح إن صدق» (١).

وإنني أنادي الغيورين من أبناء الأمة رجالًا ونساءً من الآباء والأمهات والمربين والموجهين والمدرسين والخطباء والدعاة والواعظين إلى العودة بالأمة إلى المنهج الصحيح، فإن به الضمان بإذن الله عز وجل لسعادة الأمة في دنياها وأخراها- والله المستعان.

فائـــدة فيما يعتصم به الإنسان من الشيطان:

ذكر ابن القيم رحمه الله(٢) قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب، ألخصها فيما يلي:

١- **الحرز الأول**: الاستعاذة بالله من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وعن سليمان بن صرد- رضي الله عنه- قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ، فقال: «إني لست بمجنون»(٣).

٢- **الحرز الثاني**: قراءة المعوذتين. فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما في كل ليلة، وقال ﷺ: «ما تعوذ متعوذ بمثلهما»(٤). وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبوداود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٠- ٦٣١، «بدائع التفسير» ٥/ ٤٦٤- وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب- باب الحذر من الغضب- ٦١٥٥، ومسلم في البر- باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٦١٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٦٣، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

وقال ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي، وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء»[١].

وقد تقدم ذكر كلام ابن القيم في أن حاجة الإنسان إلى التعوذ «بهـتين السورتين أشد من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس واللباس فتأمل هذا.

٣- **الحرز الثالث**: قراءة آية الكرسي، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ- فذكر الحديث إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح..»[٢].

٤- **الحرز الرابع**: قراءة سورة البقرة. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» [٣].

٥- **الحرز الخامس**: قراءة خاتمة سورة البقرة، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٤].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[٥].

٦- **الحرز السادس**: قراءة أول سورة: «حم المؤمن» إلى قولـه: «إليه المصير» مع آية الكرسي؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: حم المؤمن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٨٠، وأبوداود في المناسك ٢٠٤٢، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٨، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٧، ٨٠٨.

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٢، والدارمي في فضائل القرآن ٣٢٥٣.

إلى: «إليه المصير»، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح»[(١)].

٧- **الحرز السابع**: قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»[(٢)].

٨- **الحرز الثامن**: كثرة ذكر الله عز وجل، وهو من أنفع الحروز وبه طمأنينة القلب، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٩- **الحرز التاسع**: الوضوء والصلاة. قال ابن القيم: «وهذا من أعظم ما يُتحرز به، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم.. والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله. وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه»[(٣)].

١٠- **الحرز العاشر**: الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الأنام، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة.

ويا صعوبة التخلص منها إلا على من وفقه الله. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

وفي الأثر: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٩٣، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩١، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٨، وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٨.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٤.

(٤) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني ١٠/ ١٧٣ (١٠٣٦٢)، «المستدرك» ٤/ ٣٤٩ (٧٨٧٥).

وقد قيل:

كـل الحـوادث مبـداها مـن النظـر | ومعظـم النـار مـن مستصـغر الشـرر
كـم نظـرة فتكـت في قلـب صـاحبها | فتك السهام بـلا قـوس ولا وتـر[١]

والإمساك عن فضول الطعام:

فإن تتبع أطايب المأكولات وأنواعها سبب للغفلة عن ذكر الله وكون الإنسان بهيميًا همه بطنه، كما أن الإكثار من الأكل سبب للتخمة والكسل وثقل الجسم عن العمل.

وفي الحديث:«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[٢].

والإمساك عن فضول الكلام:

فإن الإكثار من الكلام فيما لا يعني سبب للوقوع فيما لا ينبغي، ولهذا أمر الإسلام بحفظ اللسان، قال تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال: فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به أو فيما نقول بألسنتنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[٣].

والإمساك عن فضول مخالطة الأنام:

فإن فضول مخالطة الأنام من أعظم أسباب الشرور والآثام، فيجب أن تكون مخالطة العبد للناس على قدر الحاجة.

والناس في هذا أربعة أقسام:

القسم الأول: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة- وهم العلماء بالله وأمره، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص١٣٤، «روضة المحبين» ص١٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩، من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دام الشخص صحيحًا فلا حاجة له في مخالطتهم، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، فتكون مخالطتهم بقدر الحاجة.

القسم الثالث: من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من تكون مخالطته ضررًا عليك في دينك ودنياك فهم كمرض الموت المخوف، ومنهم من تكون مخالطته كوجع الضرس يشتد فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من تكون مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض، الذي لا تستفيد منه ولا يستفيد منك، لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها منزلتها، فمخالطة هذا النوع- وهم كل مخالف- حمى الروح، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله بمنزلة أكل السم، كأهل البدع والضلال الصادون عن سنة رسول الله ﷺ.

فالحزم كل الحزم البعد عنهم، والحذر منهم، والتماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم.

وكما قيل:

لقد زادني حبًا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل(١)

فائدة: في الفرق بين الموسوس والساحر والحاسد:

أمر الله عز وجل في سورة الناس بالاستعاذة من شر الوسواس، وأمر في سورة الفلق بالاستعاذة من شر الساحر والحاسد.

فأفرد الاستعاذة من شر الوسواس في سورة الناس، لأن الوسواس وإن كان بسبب من شياطين الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ إلا أنه إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له وقبوله منه،

---

(١) البيت للطرماح وهو في «ديوانه» ص٣٤٦، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٨م.

ولهذا يعاقب العبد على تماديه مع الوساوس؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه.

وقرن عز وجل بين الاستعاذة من الساحر والحاسد؛ لأن شر كل منهما خارج عن إرادة المسحور والمحسود، فلا يعاقبان على ما يحصل لهما، بل يؤجران إذا صبرا على ذلك.

وكل من السحر والحسد من شرور شياطين الإنس والجن، كالوسواس، إلا أن الحسد أخص بشياطين الإنس؛ لأنه يدل على شر النفس وطبعها، ليس هو شيئًا اكتسب من غيرها، وإن كان كغيره من المعاصي من تزيين الشيطان وتسويله، لكن لو لم تكن النفس خبيثة شريرة ومحلًا لذلك لما حصل الحسد.

أما السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، كالاستعانة بالأرواح الشيطانية، والتقرب إلى الشيطان وعبادته من دون الله، والسجود له، ونحو ذلك.

فائدة أخيرة:

لعلك- أخي المسلم- بعد تدبرك في كلام أهل العلم على هذه السور الثلاث سورة الإخلاص والمعوذتين اتضح لك ما فيها من الوقاية والحفظ والشفاء بإذن الله عز وجل لأمراض القلوب والأبدان، وخرجت بشخصية المسلم الحق، الذي يجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، ولا يخاف بعد ذلك إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يستعيذ إلا بالله. فهذا غاية العزة والسعادة والسؤدد والكرامة، وكما قيل:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء(1)

* * *

تم الفراغ منه في يوم الخميس ٣/ ٣ من عام ١٤٤١ من هجرة المصطفى ﷺ.

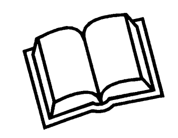
والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

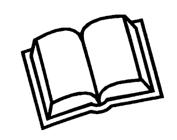
✍

✍

✍

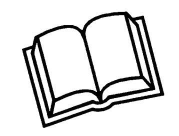
✍

✍



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

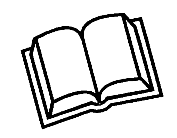
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

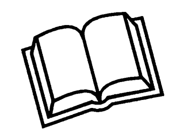
✍

✍

✍

✍

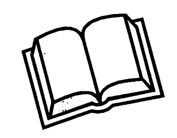
✍



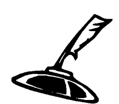
مفكرة

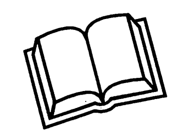


✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍
✍



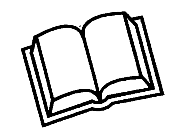
مفكرة





مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

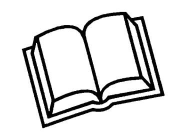
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958